و.ج. دي بورج

تراث العالم القديم

ترجمة

زكي سوس

الكتاب: تراث العالم القديم

الكاتب: و.ج. دي بورج

تقديم ومراجعة: زكي سوس

الطبعة: ٢٠٢٢

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة - جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

APA

http://www. bookapa.com **E-mail: info@bookapa.com**

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

بورج ، و.ج. دي

تراث العالم القديم/ و.ج. دي بورج, ترجمة : زكي سوس

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٣١١ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولى: ٦ – ٢٧٧ – ٩٩١ – ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ١٤٦٠٧ / ٢٠٢١

تراث العالم القديم





مقدمة

إن الغرض من هذا الكتاب هو أن يكون تمهيداً لدراسة المدنية القديمة لأولئك الذين لا يلمون بتاريخها، توجد قك رغبة متزايدة بين الرجال والنساء من جميع الطبقات والوظائف، في الحياة_ ممن لا يعرفون إلا القليل عن العبريين واليونان وروما_ في أن يحيطوا بشيء من جلائل أعمالهم. ولا يمكن تلبية هذا الطلب بكتيبات أولية. وأولئك الذين لهم عقول ويريدون استخدامها، ليسوا في حاجة إلى مجرد موجز عن الوقائع، ولكن إلى مرشد لأحسن الأزمنةالغابرة عن الإنسان والأسباب التي تربطه بالعالم وبالله. ومن الخط الظن أن الجمهور لا يأبه أو لا يقدر على فهم مشاكل الدين والفلسفة. فثمة كثيرون، لا في الجامعات والمدارس فحسب، ولكن في العالم الفسيح في الخارج وخاصة بين العمال في المدن الصناعية، يميلون إلى اجتلاء هذه المعارف ويتوقون برغبة أكيدة إلى الإحاطة بها وتقصي أخبارها. أنهم يتحولون صوب تراث الماضي اعتقادا منهم بأنهم سيفيدون منه ضياء في حل صعابهم الخاصة. أنه لمثل هؤلاء_ في الاعتبار الأول_ وضع هذا الكتاب.

وإلى جوار هؤلاء كثيرون، أصابوا تعليما كلاسيكيا إلا أنها لم يكونوا رأيا متماسكا عن المدنية القديمة ككل. لقد جرسوا أجزاء من العهد القديم وكتبا مختارة لطائفة من المؤلفين الأغريق واللاتين ومجملا من التاريخ اليوناني حتى الاسكندر، والتاريخ الروماني حتى أوغسطس. ولكنهم مه ما تعلموه لا يحيطون إلا بأفكار غامضة عن الروابط والعلاقات التي تكون منها بناء حياة الأزمنة العتيقة أو عن الطريقة التي تألفت بها مدنياتها العديد لتؤثر في عالم العصور الوسطى والحديثة. يا لهم من قلة أولئك، حتى بين من تخرجوا في الآداب في جامعاتنا، الذين يمكنهم أن يذكروا، في حدود قرن، تواريخ قسطنطين وأوغسطين وجوستنيان ومحمد (ﷺ) وشارل الأعظم، أو يدلوا ببيان فطن عن أهميتهم التاريخية! ويا لهم من قلة أولئك الذين لديهم حتى مجرد فكرة مبهمة عن أثر أمبراطورية الاسكندر في حياة المسيحية الباكرة أو عن مكانة القسطنطينية في تاريخ العالم! ومرة أخرى يا لهم من قلة أولئك الذين واتاهم العلم بأن عاموس وهوشع قاما بدور، خالد في الأذهان، في تقدم البشرية الديني كالدور الذي قام به كبرنيكس (Copernicus) وجليليو (Galilio) في في حياة العلم الحديث! إن دراسة الأزمنة القيمة لا توال محدودة لدرجة كبيرة، في غرف محكمة الغلق.

إن دراسات في التاريخ العام يجب، بكل تأكيد، أن نكون جزءا من المنهج العادي في كلياتنا ومدارسنا[١].

وما هو حقيقة واقعة من أن العصر الحاضر هو عصر تخصص تاريخي، هو سبب آخر في أن كتابا من هذا النوع يجب أن يؤدي خدمة. أن تقدم المعرفة التاريخية يجيء في الأصل، بالعمل في اتجاهين: عن طريق البحوث الدقيقة في مناطق التخصص العالي، التي تشتمل عليها المجلات الدورية التي يكتبها العلماء، والمطبوعات التي تعتمد اعتماداً مباشراً على هذه البحوث والتي يكون لها مجال أوسع وتعالج حقبا عديدة من التاريخ ومظاهره. وتقع هذه المهام على عواتق المهرة المتمرنين الذين تكون كتاباتهم موجهة إلى الباحثين المعترف بهم وليس للقاريء العام. ولكن يوجد خطر حقيقي في الوقت الحاضر، ليس في التاريخ وحسب ولكن في جميع فروع المعرفة، في الانفصال بين علم الاخصائي وعقل الجمهور الذي لا يسير على النهج العلمي. والتاريخ نفسه يستطيع أن يعلمنا أنه إذا بقى هذا الانفصام دون التئام، فإن النتيجى ستكون وخيمة. وكان الأمر كذلك_ على سبيل المثال_ فيما نجم عن احتكار رجال الدين للعلوم اللاهوتية في العصر الذي سبق عصر الإصلاح. وفي هذه البلاد، على أية حال، جهد التفكير العلمي والفلسفي على الدوام في أن يكون على اتصال بتفكير العالم الأوسع. وكلما سارت المعرفة إلى تخصص أعظم والجمهور القاريء إلى ديموقراطية أعظم، يجب إلا يسمح لهذا التقليد الكريم بالتوقف.

وقد حاولت، وهذه المطالب لا تغيب عن بالي، بأن أورد إلى الأفهام التواصل الحي للتاريخ القديم. وأحسست أنه يكون من المجدي عرض سلسلة التقدم بأجمعها، مع قصور هذا عن الكمال، في نظرة واحدة. إن تاريخ الأزمنة القديمة ليس مجرد حاصل مجموع حقب وشعوب ولكنه كل يشتمل على أجزاء توثقت عراها في تلاحم داخلي، وعندما تدرس الأجزاء منعزلة، يكون من شأن الوحدة أن تتوارى عن الإدراك.

Dann hat er die Tiell in seiner hans.
Fehlt leider nur das geistige Band.

عندما يكون الجزء في يده.

ينقص السفر الروحي وحسب.

---

(١) ستأتي مثل هذه الدراسات بأعظم نفع على طلاب الجامعات في العلوم وعلى الكليات بخلاف كلية الآداب.

ولقد اعتبرت لفظة (تاريخ) في شيء من معناه الواسع الذي كان يحمله لأول وضعيه، الأغريق، أي كامل سجل حياة الإنسان بالنسبة إلى العالم الذي يحيط به وأنه يشمل التفسير وكذلك الوصف القصصي([1]) واستدعت محاولة الإلمام بمثل هذا النطاق الواسع التكثيف والاستبعاد جميعا، ويغلب أن تذكر الآراء العامة دون الدلائل التي تدعمها. إذ أن وفرة التفاصيل يكون من شأنها أن تربك عقل القاريء. وإذاكانت الأمثلة قد استمدت من قادة الشخصيات وليس من مستويات الأعمال الوسيطة فإن الهدف لم يكن وضع مجمل لحياة الشعوب القديمة في مدارها كله ولكن لتبيان تراثهم للعالم الحديث. ولا يوجد في أي جزء من الكتاب معرفة سابقة بالوقائع، سبق افتراضها. لقد وضع بحيث يترك القاريء غير راض وبحيث يوحي إليه بالرغبة في دراسة مدنيات العبريين واليونان وروما، دراسة أكثر استيفاء بمعاونة المصادر الأصلية.

أمران أهملا يحتاجان لشرح موجز:

١– في معالجة التراث الهليني، لم أشر إلى الفن والفخار إلا لماما ولو أنهما مظهرا الهلينية اللذان لهما أحسن وقع مباشر لدي جمهور القراء، ولكني أعترف بعدم ثقة عميقة في حديث عن الفن والفخار يوجه إلى أولئك الذين ليس لهم علم بأصولهما. إن نماذج الأدب الأغريقي العليا، في متناول الجميع، في الترجمات الإنجليزية. فليبدأ القاريء بها. أما فيما يتعلق بالفن الإغريقي فعليه أن يزور غرفة الجن (**Elgin**) وأبهاء العرض في متحفنا القومي. وعلى هذا، فقد اقتصرت على تقديم الكثير من الشرح التمهيدي الذي يمكن أن يبين الأوضاع التاريخية والعقلية التي أنتج الشعراء والفنانون الإغريق في غمرتها، عملهم.

٢– في الفصل التاسع، عن المسيحية، قد يظهر أن تركيزاً في غير موضعه، أضيف إلى تاريخ الكنيسة التأسيسي وإلى تطور العقيدة اللاهوتية. ولقد ذكرت في صراحة أن هذين الأمرين لم يكونا إلا المظاهر الخارجية للحياة الروحية الداخلية، وهما اللذان أو حيا بالمجتمع المسيحي. ولكني لم أقل إلا القليل أو لم أقل شيئاً عن طبيعة ذلك المبدأ الداخلي أو مصدره في شخصية وتعليم يسوع الناصري. إن المهمة تتطلب مؤهلات، ليس فقط في سعة التفقه ولكن في البصر

---

[1] () راجع قول يوريبيبدس الرائع (**fr902, Dindof**) سعيد ذاك الذي تمكن من تعليم التاريخ (**historia**).. ساعيا إلى مشاهدة النظام الذي لا عمر له (**kaosmos**) والطبيعة التي لا تموت (**physts**) وطريقة تكوينها ومن أي مكان نشأت وكيف نهضت. عن معنى (**physts**) للإغريق، راجع ما سيجيء في الفصل الرابع القسم الخامس.

الديني، ولست أستطيع أن أدعي أني أملكها. وبينما أؤكد اعتقادي بأن تاريه المسيحية يمكن فقط الرجوع بسببه إلى شخصية مؤسسها الفريدة فقد حصرت الانتباه في أصولها في اليهودية واتصالاتها بروما والهلينية.

أن الغرض من التذكرات يعود بعضه إلى الرغبة في ذكر المراجع لمثل هذه المصادر التي توجد في يسر في الترجمات، ومثال ذلك، العهدان القديم والجديد، وأشهر ما عرف لدينا من المؤلفين الإغريق واللاتين، وبعضها لتحديد العبارات التي تتطلب الحال استيعابها في تحفظ والبعض لاقتراح نظائر، أقرب إلى الاستدلال، للتطورات والمشاكل الحديثة. وليست قائمة الكتب الملحقة الشاملة، إنها مجرد مختارات، لهذه المناسبة، لتواليف انجليزية جيدة للهداية إلى مزيد من الدراسة.

وأني أرغب في التعبير عن شكري لجميع من عاونوني في إعداد هذا الكتاب. وأني مدين بصفة خاصة إلى زميلي الأستاذ ف. ن. يور (P.N. Ure) الذي قرأ وعلق على مسودة المتاب، والسيد فرنون رندال (Vernon Rendall) الذي لم يقدم إلى فقط خدمة مشابهة ولكن وضع في سخاء، تحت تصريفي علمه الواسع بالأدبين الكلاسيكي والحديث، وإلى زوجتي التي كان في مساعدتها ونقدها من البداية إلى النهاية أعظم تشجيع لي.

و. ج. دي ب.

اشمور، أغسطس، ١٩٢٣

تذكرة

لقد أكمل زوجي إعداد هذه الطبعة الجديدة من (تراث العالم القديم) قبل وفاته في أغسطس عام ١٩٤٣، بزمن وجيز. وقد سجل أنه يرغب تقديم الشكر إلى محرر (أعمال الجمعية الارستطالية) (**Aristotelian Society's Proceedings**) ومحرر صحيفة هبرت (**Hibbert Journal**) للأذن بطبع مواد ظهرت في مطبوعاتهما. وكذلك كان يريد أن يقول أنه عند مراجعة الفصول الأولى، تلقى مساعدة عظيمة من سر جون مسيرز (**Sir John Myres**) وفي الفصل الثالث لقى عونا من دكتور هويلر روبنسن (**Dr. Wheeler Robinson**). وبينما هو المسئول دون سواه عما طبع، فإنه كان يشعر أنه مدين دينا عظيم جداً لاهتمامهما الرفيق ومعونتها. وكان أيضاً يرغب في الاعتراف بتقدير اقتراحات سر ريتشارد لفنجستون (**Sir Richard Livingstone**)، رئيس المجموعة، والاستاذ فوردايس (**Prof. Fordyce**) من جلاسجو والأستاذ نوكس (**Prof. Knox**) من سانت اندروز، وأن يعبر عن دينه إلى مراجعي الطبعة الأولى وإلى مراسليه عنها وعلى الأخص المغفور لهما الأستاذ ا.ي. تيلور (**A. E.Taylor**) والراعي ف. هـ. وكستيد (**Rev. PH. Wickteed**). وقد شعر بالتشجيع عند القيام بإعداد إعادة طبع هذا الكتاب لعلمه أنه لقي تقديرا وتقريظا من رجال لا يمكن إنكار ما لحكمهم من شأن وخاصة جون بورنت (**John Burnct**) وصموئيل الكسندر (**Samuel Alexander**) والأستاذ تيلور (**Prof. Taylor**).

ويلاحظ أنه علاوة على تغييرات صغيرة متنوعة في النص وإدخال مواد جديدة في شتى المواضيع، فإنه يوجد ثلاثة ملاحق في خاتمة هذه الطبعة الجديدة الغرض منها تعزيز أدلة ونتائج الكتاب.

ويدنج، يناير، ١٩٤٧

ي. دي ب.



الفصل الأول

مقدمة

١– بين شعوب العالم القديم، ثلاثة خلفوا تراثا هو قوة حية في الزمن الحاضر. أولئك هم العبرانيون والأغريق والرومان ومبتكرات عبقريتهم: نبوة العبريين، وفلسفة اليونان وشعرهم ونحتهم، والقانون والتنظيم السياسي لروما، وكلها تكون تراثا فيه وحي دائم للإنسانية. ولقد اضطلعوا بسهم لا يعرب عن البال في تكييف مدنية ما ترادف من زمن. ولفظ «مدنية» كألفاظ كثيرة تدور على الألسن من العسير تحديده، ويوحي أنا بمعني أوسع وآنا آخر بمعنى أكثر حصرا. وتعريف رسمي كالذي يتلاءم في مستهل عجالة حسابية علمية، إذا كان ليؤدي خدمة في كتاب كهذا، يجب ألا يجيء في البداية ولكن في الختام، عندما يكون القارىء قد ألم بمختلف أنواع المدنية في مدارجها المتباينة، في النمو والازدهار والنضوج والانحلال ويكون قد عرف أن عملا ثقافيا جليلا لن يفني أبدا، ولكنه يحمل، حتى في تفككه الظاهري، ما يكون في الغالب أطيب ثماره في بعث الحياة فيما يعقبه «أن ما تبذره لا ينشط إلا إذا مات»، وهذه الكلمات تصدق على الشعوب وعصور الثقافة كما تصدق على الأفراد، وهكذا انحطت الأمبراطورية الرومانية ولكن لم تسقط كما سقطت الهلينية ومسيحية القرون الوسطى، وأنها لباقية في حيوية تتجدد أبدا في مدنية العالم الحديث.

وفي هذه الصفحات نعني بلفظ مدنية نوع الحياة الذي أبرزته السلالات العليا في مختلف حقب تاريخها. أنها تحيط بعالم من المثل العليا وعالم من الحقائق المنجزة. أنها تشمل مجموعة بأتمها من من العادات الاجتماعية والقانون الموضوع والنظم الدينية والخلقية والسياسية، والصناعة والتجارة والفنون والعلوم والآداب والفلسفة التي تمثل ما تجمع من جهود شعب. ولكنها تشتمل على أمثر من هذا. أن الإنسان حيوان يصور المثل العليا ويحفزه في كل مرحلة من مراحل تدرجه نحو الرقي مطامح تسمو على المستوى الذي وصل إليه فعلا. ومدنية في أية حقبة بعينها تشمل أيضاً عالم قيمه الدينية والخلقية والاقتصادية ونظرته العقلية للحياة ومعتقداته الشخصية فيما يتعلق بوظيفته مصيره ومعاييره في الصلاح الخلقي وفي خير المجتمع.

وأننا في ضوء مثل هذه المثل العليا التي تجدد تصورنا للتقدم الإنساني نفرق بين المدنية والهمجية [١]. وإذا طبقنا هذا التفريق على تاريخ الأزمنة القديمة، نجد أنه قبل أن ينهض أسلافنا الكلتيون والألمانيون والاسكندناويون من غمرات الهمجية بأمد طويل. كانت هذه السلالات الثلاث التي سلف ذكرها قد ظفرت بمستوى رفيع من المدنية. ولقد تاح لها، عندما حانت ساعة الاتصال، أن تؤثر ثيراً عميقاً في الشعوب الأقل ثقافة التي أصبحت في مكان الثيادة من أهم عصرنا الحاضر. وعلى سبيل المثال، عندما قبل أجلاف الهمج، المسيحية، فانهم تقبلوا أيضاً معها تراث تقاليد العبريين الدينية والخلقية والفلسفة الإغريقية والمذهب الروماني التشريعي والسياسي. وهدف هذا الكتاب هو تتبع قصة هذا الإرث، وسنبدأ بأشارة موجزة إلى الخدمة الخاصة التي قدمها كل من هؤلاء الشعوب الثلاثة لمدنية العالم الحديث.

٢– العبرانيون: إن الدين الذي تحمله مدنيتنا الحديثة للعبرانيين يقع بكليته تقريبا في مجال الدين. وشعرهم، وهو أصدق مرشد إلى أفكار ومشاعر شعب، هو في جوهره شعر ديني. وقيمته ليست في أسلوبه الأدبي أو البرهان النظري أكثر منها في البصر الروحي العميق الذي يعبر عنه. ولم يكن للسلالة العبرية إلا شأن يسير في الحرب أو السياسة فيما عدا فترة قصيرة وجيزة في عهد الملك داود وعلى هذا فإن ما حققته من عمل دنيوي جليل يمكن أن يمر دون أن يسترعي النظر تقريبا، في تاريخ العالم. أنما العبقرية الروحية لأنبياء مثل عاموس وهوشع فس إسرائيل واشعياء في يهوذذا في القرن الثامن قبل الميلاد، هي التي كانت أول ما أحال عقيدة قبلية مقصورة إلى دين ذي معنى عام للعالم. ولم يعد يظهر يهوه بعد كاله قبلي غيور يقود شعبه إلى النصر على آلهة أعدائهم القبليين الذين يقفون معه على قدم المساواة ولكن كحاكم ألهي للكون يوقع القصاص على العبريين عن طريق أعدائهم لما يقترفون من خطيئة، والذي كان يريد رحمة لا ذبيحة ويدعو لعبادته ليس بالعبة الشخصية، ولكن بالمعاملة البارة بين الإنسان والإنسان. وهذا التحول في الدين العبري، عاون في الحق، على حطم وحدة الدولة العبرية السياسية. ولكن البذرة التي بذرها الأنبياء الأوائل نضجت خلال التجربة المريرة من المذلة القومية والأسر، إلى دين خالص النقاوة. وهو الذي، في الحين المناسب، أنجب العقيدة التي غزت العالم المتمدين، وكان العبرانيون أول شعب من الشعوب التي عرفها التاريخ، وصل إلى الاعتقاد باله واحد خالق وحاكم الكون وأبي البشر أجمعين.

---

(١) انظر السفر الثاني ملحق ١.

والمسيح الذي ولد من أم عبرية، وكانت تنشئته على المحافظة الدقيقة للناموس العبري أتى لا لينقض ذلك الناموس بل ليكمله. وأثر اليونان ووما على نمو المسيحية_ الذي سنتحدث عنه فيما بعد في هذا الكتاب– حجب، ولكن لم يمح أبدا طابع أصله العبري. وحسبنا أن يذكر الطهريين (Puritans) في القرن السابع عشر لندرك العمق الذي استغرقت فيه الروح العبرية المسيحية الحديثة.

٣– الإغريق: أنه أكثر عسرا أن نعبر في كلمات قليلة عن عمل الأغريق أو الهلينيين كما نعتوا أنفسهم في التاريخ. لقد أثروا في الديانة الحديثة عن طريق فلسفتهم أكثر مما أثروا فيها عن طريق دينهم. ولقد صورت آلهة الأولمب (Olympian) في شبه الناس ولهم عواطف البشر ومصالحهم، ولو أنهم أعظم صوله وأوفر جمالاً وأكثر غيرة وأشد تدلها في الحب، ولو أنهم كانووا خالدين ويستمتعون بحياة أكثر خصباً من حياة الأدميين، فإنه في جميع الأمور الجوهرية كانوا يشعرون ويفعلون كما كان يشعر ويفعل الرجال والنساء من الإغريق. وسنرى كيف جهد الفلاسفة في أن يجعلوا من العقائد الشعبية عقائد روحية، وكيف أنه نتج عن هذا الجهد انفصام بين النتائج العقلية التي وصلت إليها القلة وبين معتقدات الكثرة الدينية.

ولقد أوجد دين الإغريق في جميع الأزمنة حقلا يانعا للفن والشعر مما لا تزال فصصه بهجة للخيال. ولكن لم يكن ليستطيع أن يرضي المطامح العقلية أو الخلقية التي تجيش في جيل أكثر أمعانا في التفكير. هذا إلى أن ما ندين به للإغريق يشمل نطاق الثقافة الدنيوية بأجمعه.

ففي الفلسفة والعلم وفي الفن والأدب حققت العبقرية الإغريقية نتائج هي في مداها وقدرها منقطعة النظير في تاريخ البشر.

«إن الفترة التي وقعت بين ميلاد بركليس (Pericles) وموت أرسطو، أي القرنين الخامس والرابع ق.م. في تاريخ الإغريق هي دون ريب، إذا اعتبرت لذاتها أو بالإشارة إلى ما كان لها من نتائج على أقلدر الإنسان المتمدين اللاحقة، أكثر الفترات رسوخا في الأذهان، في تاريخ العالم». هكذا كتب شلي، والمفكرون والشعراء قاطبة، شهود على صدق قوله. والحرية والفردية موجودتان في كل مكان في حياة قدامي الأغريق، وأعظم ما يؤثر في روعنا هو نشاطهم العجيب. وتاريخهم بأجمعه سجل للتجربة الجريئة في الفكر والمراس، ولقد كان يحدوهم الشوق والشجاعة جميعاً في البحث العقلي وتغمرهم البهجة الحياة والعمل. وعبقريتهم العقلية كانت أصل نبع الفلسفة والعلم، وعبقريتهم العملية، وجدت مخلصاً لها في النشاط السياسي وفي الحرب والتجارة،

وفيما ابتكروا من أدب وفن. وكل أنواع الشعر والتفكير تقريباً ترجع في نشأتها إلى الأغريق وقد ساروا بها في طريق الكمال. ومثلهم الأعلى كان شخصية موهوبة منسجمة يسيطر عليها مبدأ داخلي وعقل، ونشاط ليس جامحاً ولا ضابط له ولكن تتحكم فيه المعرفة بالذات والحكم الجلي. ولا توجد سلالة تعدلها في التحرر من النزوع إلى عالم أفضل أو جهدت في إدماج أهداف وقيم بمثل هذا الشمول في أحوال الاختبار الإنساني، الراهنة. وبمقاومة كل نزوع إلى المستحيل وطنوا أنفسهم في عزمة، على فهم طبيعة الإنسان والعالم الذي يعيش فيه، وبفهم واضح لحقائق الأشياء، على استخدام العالم كحقل لتحقيق مثلهم العليا في الحياة.

ومواهب السلالة التي اختصت بهم حملت معها لعنتها، أن الفردية والحرية اللتين جعلتا للاغريق المكانة العليا في الفن والعلم نجم عنهم دمار استقلالهم السياسي. أنه حق كما سنرى فما بعد، أن الثقافة الإغريقية وجدت دافعها ومجالها في جو النقاش المتحرر الذي كان سائداً في دولة_ المدينة وأن العبقرية الإغريقية تجلت في نظريتهم السياسية وفي مراسهم السياسي على السواء. ولكن يوجد جانب آخر للصورة. أن الحياة السياسية في مدن الأغريق تعرض مشهداً مظلماً للمطمح القلق والتحاسد الشخصي والتشيع الحزبي والعزوف عن توثيق العرى والاتحاد، والثورة المستمرة والتشاحن المدني. ولقد كان انعدام الوحدة القومية ذاك، هو الذي ترك اليونان فريسة سهلة لأعدائها، أولا للملوك المقدونيين وبعد ذلك للجمهورية الرومانية.

ولكن الروح الإغريقية استوفت جزاءها، وكما في عهد الأسكندر أثرت في ثقافة الشرق فإن الغزاة الرومان، بعد ذلك تشبعوا بها وعن طريق روما صاغة فكر العالم الحديث وثقافته.

٤- الرومان: كانت روما حكومة الأمنة القديمة، القيصرية، وكان الرومان بناة الأمبراطورية العظام، في تاريخ العالم. وكان دينهم خاضعا خضوعا تاما للسلطة السياسية. ونورد مثلا يساعد على تفهم هذا.

لقد جازف قيصر_ وهو المتشكك الصريح، ولم تكن حياته الخاصة على اليقين، فوق مستوى الشبهة، جازف قيصر بكل شيء في ظرف حاسم_ بحياته العملية عند انتخابه كاهنا أعلى، أنها كانت مجرد خطوة في سلم المطمح السياسي.

أن تأثير روما على المسيحية يتجلى في أعظم وضوح في مجال التنظيم الكهنوتي. والروماني بطبعه كان لديه اليسير من التقدير للفن أو العلم، وفي الزمان الأول كان يعتبر الشاعر متشرداً والفلسفة خطرا على الأخلاق، وعلى النقيض من هذا كثيراً كانت حال الإغريق في شعر هومر

(Homer) وعندهم كان الآلهة هم الذين حرموا الشاعر الضرير من البصر ولكن بديلا عنه منحوه القدرة على الصدح بالأغنية الربانية. ولقد أتى الواعز للشعر والفن إلى روما من الإغريق، ولو أنه بمجرد أن تلقن الرومان دروسهم عبروا عن روحهم القومية، دون محاكاة وضيعة، في شعر لا يأتي عليه الفناء.

ولقد علم شعراؤهم الموطن الذي تستقر فيه عبقرية سلالتهم الحقة وتعرفوه. «قد يشكل غيرنا في خطوط أكثر رقة البرنز الذي يزفر بالنفس_ نعم. ويعملون على إبراز القسمات الحية، من الرخام وقد يكونون أكثر إجادة في الجدل دفاعا عن قضاياهم القانونية ويتتبعون حركات السموات ومطلع النجوم_ ليكن قصاراك يا ابن روما أن تحكم الأمم. ستكون هذه فنونك أن تفرض عادة السلم وأن تعفو عن المهزوم وتحطم المتعالي بالسيف»([1])، وكجميع بناء الأمبراطورية الذين قاوم عملهم ضغط الزمن لم يكن عند الرومان تعطش جامح للغزو. لم يكونوا سلالة محاربين أكثر مما كانوا شارعين وإداريين. ولقد كانت رسالتهم الخاصة وضع قانون السلم، سلم روما (Pax Romana) وكبح الفوضى وعدم النظام، حول أملاكهم التي تتطرد رقعتها في الإزدياد. ولما كانوا بجانب الإغريق أطفالا في الثقافة وفيهم نزعة ظاهرة من التجرد عن الإنسانية وغلظة في طبيعتهم فإن الرومان كانوا أقوياء حيث كان الإغريق ضعافاً في توثيق عرى السلالة والإتحاد السياسي وفي إخضاع الفردية لخدمة الدولة. وكانت الفضيلة التي يتجمل بها المواطن الروماني هي أن يفعل في روما، كما تفعل روما. أن تاريخ الأغريق تاريخ مدن وأفراد، وتاريخ روما هو تاريخ شعب. ولما لم تكن تتحكم في الرومان سياسة مدبرة للغزو وإنما كان الحكم لمنطق الواقع الصارم فإن أقدار الشعب الروماني أدت بهم إلى أن يضموا في نطاق امبراطويتهم العالم المتمدين بأجمعه كما كان في زمن ميلاد المسبح.

أن جمع الرومان شعوب ومدنيات الأزمنة القديمة في منظمة واسعة موحدة، والقيام بحراسة البحر المتوسط وفرض السلام على عالم يسوده عدم النظام وتسليم برابرة شمال وغرب أوربا ثقافة الماضي، وقد هذبتها عبقريتهم الخاصة في القانون والحكومة، أن كل أولئك كانت مهام روما ومصيرها وبها سار المثل «كل الطرق تؤدي إلى روما» وكما كانت الطرق العسكرية العظيمة التي أنشأها الرومان تتشعب من روما وتجتاز الأمبراطورية فإن تيارات التاريخ القديم والحديث على

([1]) (Aneid – Virgil) الفصل ٦، ٨٤٧– ٥٣.

السواء تجد نقطة تجمعها في روما وتدين أمم العالم الحديث بجانب عظيم من شرائعها ولغاتها ونظمها إلى عبقرية روما القيصرية.

٥- إن هذه الشعوب الثلاثة بأجمعها كان موطنها شواطيء البحر المتوسط. ولقد كان البحر المتوسط وأراضيه الساحلية عالمهم. ولما كنا قد تدربنا منذ الطفولة على أن يتجه تفكيرنا إلى نصفي الكرة الأرضية بما فيها من قارات ومحيطات فمن العسير أن نقدر زمنا كان يعني فيه العالم مجرد حلقة ضيقة من الأقطار تتجمع حول بحر داخلي، وإلى ما يوالي هذه الأراضي الساحلية في كل صوب، يوجد خواء لا حد له يكتنفه الغموض وإلى الغرب يقع المحيط الأطلنطي الذي لا يمكن اجتيازه وإلى الشمال والجنوب تقع مواطن الهمج المتوحشين الذين كانوا يهبطون بسلعهم للمقايضة مع سكان سواحل البحر المتوسط. وفقط صوب المشرق رفع الحجاب إلى البعد الذي يقوم فيه خط هضبة إيران (فارس) عاليا فوق سهل ما بين النهرين وبابل، وداخل هذه الحدود كانت توجد مدينة.

وعلى هذا يظهر لشعوب الزمن القديم أن التفريق بين ثلاث قارات: أوروبا وأفريقيا وآسيا، كان تفريقاً اصطناعيا لا طائل تحته [1]. وقبل أن يبدأ العبريوون والإغريق والرمان القيام بدورهم في التاريخ، بزمن مستطيل كان البحر المتوسط، مكان تجميع تجارة العالم. وفي جميع العصور نمت التجارة والمدنية جنباص إلى جنب. أن الطرق التجارية وهي حلقات الاتصال الدولي، نعاون على توزيع، ليس مجرد المحاصيل المادية، ولكن أفكار وعادات الحياة أيضا، وعلى هذا كان تاريخ المدنية منذ بواكير الزمن المجون، هو تاريخ منطقة البحر المتوسط، وظلت الحال كذلك حتى أتت كشوف عظام الملاحين في ختام القرن الخامس، ثمارها في مدنية المحيط التي نعيش اليوم بين ظهرانيها ([2]). أن رحلات دياز (**Diaz**) ودي جاما (**da Gama**) وكولمبس (**Columbus**) فعلت أكثر من إظهار أسواق جدد، ومناطق للتوسع الأمبراطوري في جزر الهند والعالم الجديد. ولقد غيرت مركز الثقل في الثقافة الإنسانية. ومدنية المحيط التي قامت على أسسها لم تكد تنضج

([1]) هيرودوت: ٤- ٤٥: «لا أستطيع أن أفهم لماذ أطلق على الأرض وهي واحدة ثلاثة أسماء مختلفة استمدت كلها من النساء... ولا يمكنني أن أعلم من هم الذين وضعوا الحدود أو ممن استمدوا الأسماء التي أطلقوها».

([2]) قال دكتور جونسون (**Dr. Johnson**): «ان الغرض العظيم من السفر هو مشاهدة شواطيء البحر النتوسط. وعلى تلك الشواطيء قامت أربع أمبراطوريات عظيمة في العالم: الأشورية، والفارسية، والإغريقية، والرومانية. وكل ديانتنا ومعظم شرائعنا ومعظم فنوننا، وكل ما يرفعنا فوف البرابرة، تقريباً، وصل إلينا من شواطيء البحر المتوسط» (بوزول **Boswell**).

بعد لوضع تاريخها.

وإذا صدق القول أن ما تفكر فيه لنكشير اليوم تفكر فيه أنجلترا غدا وإذا لم تعد جزيرتنا بعد عملا خارجيا على تخم المدنية الشمالي الغربي، ولكنها تحتل مكانا مركزيا في التواصل الاقتصادي والعقلي بين الأمم، وإذا كانت حياة العالم تنبض في أصقاع لم تكن معروفة للأقدمين– في أمريكا وفي المستعمرات البريطانية فيما وراء البحار_ فإن مرجع ذلك إلى تغيرات نشأت منذ أربعة أو خمسة قرون فقط، ونتائجها التي يتسع نطاقها من ساعة إلى ساعة أمام أعيننا تصلح بالحرى لأن تكون مادة للصحفي وليس للمؤرخ. والأزمنة التي أخضعت فيها الأمبراطورية الرومانية في منطقة البحر المتوسط، العالم المتمدين بأجمعه تحت سيطرتها تظهر في الحق سحيقة في القدم.

ولكن هكذا يترابط التاريخ خلال حقب نموه المترادفة ترابطا وثيقاً، حتى أن هذه الثورة الهامة كان الواعز لها ارث الثقافة الإغريقية الرومانية. ولا تةجد فجوة لا يمكن اجتيازها في التواصل بين مدنية المحيط في زمننا وتلك المدنية التي صاغها منذ أكثر من عشرين قرنا خلت، شعوب عالم البحر المتوسط.

٦– والعبريون والإغريق والرومان ولو أنهم كانوا يسهمون في موطن مشترك على البحر المتوسط فقد كان يفرقهم اختلاف المنشأ الذي كان حد بعيد السبب في قيام صفة مميزة لحضاراتهم.

كان العبريون فرعا من الجنس السامي الذي كان موطنه بلاد العرب إحدى مراضع الجنس البشري العظيمة. وفي الفصل التالي سنقابل أمما أخرى، بابليين وأشوريين، والقاطنين في فينيقيا وسوريا الذين كانوا أعضاء في الأسرة السامية عينها.

وعلى النقيض كان الإغريق والرومان ينتمون أصلا في جميع الأحوال إلى الأسرة الهندية الأوروبية التي ربما كان موطنها أرض السهوب (الأستبس) إلى الشمال من القوقاز.

وفي العصور السحيقة في القدم كانت هذه الأسرة قد انقسمت إلى شعبتين عظيمتين. ولقد سارت أحداهما صوب الغرب إلى أوروبا ومنها لم ينشأ فقط الإغريق والإيطاليون، ولكن أيضاً أسلافنا، الكلتيون والألمان والأسكندناويون.

وأخذت الشعبة الأخرى سمتها إلى الجنوب الشرقي واستقر جزء منها على هضبة إيران

ونسلوا الميديين والفرس الذين جاء ذكرهم في التاريخ القديم بينما اجتاز جزء الجبال إلى وديان السند والكنج واستعمر الهند الشمالية.

وقد حدثت كل هاتيك الهجرات في العصور البعيدة. أما الشعوب القديمة والتاريخية فيندر أنهم تحرروا من تمازج الأجناس، إذا كانوا تحرروا اطلاقا منه.

٧- أن تباين هذه الشعوب الثلاثة في الحياة والصفات لم يكن بالقدر الذي يمتنع فيه التوحد النهائي. والحقيقة، بالحرى، على النقيض من هذا.

ولقد خلقت كل منها وورثت العصور التالية، واحداً من العناصر الجوهرية في فكرة مدنية كاملة. وكان الإغريقأول من أدرك في مذهبهم العملي، كما في مذهبهم النظري، قدر الحرية الفردية وأنها التربة التي يمكن فيها فقط أن يزدهر خيال الإنسان وعقله ويأتيان ثمارها. وفي مجالي الفن والفلسفة تكون الروح الإنسانية الشرعة لنفسها، ولكن الإنسان مطلوب منه العمل أيضاً ويستدعى تحقيق أغراضه العملية، تحقيقاً فعالا، توطينها على حقائق طبيعة الإنسان الصارمة، ودنيا الظروف.

والتسوية يمكن انجارها فقط بمعاونة السلطة الخارجية والحكومة. وهذه الوظيفة التأديبية في تاريخ المدنية نهضت بها روما. ولكن في مجال الفكر كما في مجال العمل، فإن مصير روح الإنسان الذهاب بددا في الفوضي أو العبودية إلا إذا الهمث العلم بمرماها المثالي.

«بلا رؤيا يفني الشعب»[1]، كان العبريون قد رأوا الرؤيا ونقلوها عن طريق عقيدة تأصلت جذورها في حياتهم الروحية إلى شعوب الغرب الآرية. الحرية والشريعة وملكوت الله- انهن تراث العالم القديم، تراثه الثلاثي الذي ورثه عالمنا الحديث.

٨- أن المؤرخ الذي يرجع ببصره إلى الماضي، من مدى عشرين قرنا يجد لزاما عليه أن يجلي في صورة بارزة الأوجه الهامة المتميزة لهذه المدنيات، ولكن يجب ألا يدور تفكيرنا فيبها وكأنها صبت في قوالب جامدة لهذه المدنيات، ولكن يجب ألا يدور تفكيرنا فيها وكأنها صبت في قوالب جامدة أو أن نغالي في وضوح خطوطها، وستبين النتيجة كيف أن حياة الشعوب، العبرية والإغريقية والرومانية، كحياة الأفراد الذين كانوا يكونونها، كانت ابدا دائبة على السير وتكييف

---

(١) أمثال ٢٩- ١٨ (النسخة الإنجليزية المعدلة «يجمح الشعب»).

نفسها كلما نمت وتتغير من لحظة إلى أخرى وفقا لمجالها الطبيعي والاجتماعي.

أنه لشوط بعيد بين العبرانيين الذين تجمعوا حول ايليا على جبل كرمل والعبرانيين الذين كانوا بعد ذلك بتسعة قرون يصيحون أمام وال روماني لاطلاق سراح بارباس.

أن الفرنسي في أورشليم في ززمن المسيح كان يسير في عالم مغاير لذاك الذي كان يسير فيه اليهودي الذي اصطبغ الهلينية في الأسكندرية.

أن أوجه الخلاف بين أمراء التجارة الإغريق في القرن السادس والمستمعين للقديس بوليس في كورنث أو أثينا مان مردها في اتساع الهوة التي تفصل الأولين عن جوابي البحار الجامحين الذين هجروا مقابر جدودهم وآلهة أسلافهم والتمسوا مواطن جديدة في بحر إيجاء في نهاية السنوات الألف الثانية ق. م.

أن الثقافة الهلينية كانت تعني شيئاً في سيراكوز شيئا آخر في مليتوس (**Miletus**) وروما التي عملت على تأنيس الأسباني أيام كاتو (**Cato**) يشق على السلاف والبلغار، الذين عرفوا الأمبراطورية المسيحية والبيزنطية في بواكير العصور الوسطى، تعرفها كروما.

ونستطيع أن نقدر هذا التغير المستمر في المدنية، على أفضل وجه إذا وجهنا الفكر إلى العالم كما هو اليوم. أن جميع مصادر البراعة الحديثة لتسهيل الاتصال السريع وإذاعة الأفكار مثل آلة الطباعة والبخار والكهرباء والطائرة والمذياع لم تأت بجدوى في تحطيم الحواجز التي تفصل بين معاصرين من جذع مشترك. أن فلاحا في دورست (**Dorest**) وعانل منجم في نورثمبريا يعيشان في عالمين غريبين. ونظرة عالم أكسفورد إلى الحياة لا تشترك إلا بقدر يسير مع نظرة مواطن له في مانيتوبا أو نيوزيلند. وأكثر استاعا الهوة التي تفصل واحداً من هؤلاء الانجليز الذين يعيشون في القون العشرين عن أحد أسلافه في القرن الثالث عشر. وإذا أعملنا الفكر في التباين بين انجلتره التي نعرفها وانجلترا البلانتاجنيت (**Plantagenets**) فسيتاح لنا أن نتصور شيئاً عن صعوبة جمع أوجه مدنية الأزمنة القديمة دائمة التغير. في منظر واحد.

وكذلك سنرى كلما سرنا قدما كيف اعترى التراث التحوير خلال انتقاله إلى العالم الحديث. أن ثمار العبقرية العبرية والإغريقية والرومانية انصهر بعضها مع البعض الآخر ومع عناصر استمدت من مصادر تيوتونيه (**Teutonic**). واسكندناوية، ولقد تغير مغزاها بدخولها فس شكول من النماذج جدد.

أن الحاضر بتمثيله الماضي يضفي عليه معنى قد أزخر أو أضحل من ذاك الذي كان يحمله مرة، ولكنه أبدا جديد. أن اوضح شرح لهذا تقدمه اللغة.

لا حاجة للإنسان أن يكون ماهراً في فقه اللغة ليتعرف أصل الكثير من مفردات اللغة الإنجليزية. أن بعضها مثل. (**Law, Order, State, Colony, Responsibility, Person**) من الواضح أنها استمدت من اللاتينية وأخرى مثل (**dogma, atom, history, biology, logic**) من الأغريقية وغيرها مثل (**friend, body, king, God**) تنم عن أسلاف لهن اسكندناوى أو ألماني.

ولقد تحورت أشكال هذه الكلمات في أثناء ورودها فان لفظ (**lex**) أصبح (**law**) ولفظ (**atomon**) أصبح (**atom**).

وفي بعض الحالات نجد التغيير أكثر أن يكون أساسيا ويتطلب الأمر شيئاً من المراس ليستبين المرء اللفظ اللاتيني (**metipsimum**) من اللفظ الفرنسي الحديث المشتق منه (**même**).

وما يصدق على الصيغ اللفظية يصدق أيضاً على معانيها. وتبين أمثلتنا كيف أن الألفاظ التي تدل على أفكار قانونية أو سياسية كان توارثها في الغالب عن الرومان الذين كانوا أساتذة العالم في هذين المجالين بينما تميل المصطلحات العلمية إلى الاحتفاظ بلغة المبتكرين للعلم، اليونانيين القدماء. ومع هذا فإنه على الرغم من هذا التسلسل الذي لا تشوبه شائبة فإن ألفاظا مثل (**-law responsibility**) تحمل لنا في مضمونها معنى مستمداً ليس فقط أو أصلا من تجارب شارعي الرومان ولكن من تجارب الأجيال التي ورثت تراثهم وزادته غنى خلال الفين من السنين.

أن المؤرخ وعالم الطبيعة في القرن العشرين يختلفان اختلافا عظيما عن هيرودوت (**Herodotus**) ودموقرايطس (**Democritus**) في تصور لفظي (**history, atom**).

وما قلناه عن اللغة ينطبق على كل مظهر من مظاهر المدنية والماضي في تحوله إلى الحاضر يغير صفته كماض ويموت، كما تموت العنقاء [١] ليعود مولده في شكل جديد.

٩- وهذه العملية من التواصل بين تغير لا ينقطع من العسير كشف القناع عنها. ويمكن معالجة الأمر بوسيلتين مختلفتين، يمكننا أن نعتبر مدنية اليوم نقطة بداية، ونقفل راجعين إلى الوراء خطوة خطوة، إلى مصادرها في الماضي. أو يمكننا أن نبدأ من البداية بسلالات العالم القديم

---

(١) عنقاء مغرب أو فينقس (**Phoenix**) (المترجم).

ونقتفي المؤثرات على الأجيال اللاحقة إلى أن نصل إلى أكناف التاريخ الحديث. والمنهج الأخير هو الذي ننوي تتبعه، ومعالجته مع هذا ستكون خاضعة إلى شرطين. ففي المكان الأول، يجب أن نختار من المواد الموجودة بوفرة تلك المظاهر في حياة العبريين والإغريق والرومان التي أثرت على الحقب التالية أعظم تأثير. ويوجد دائماً الخطر في أن نحسب الجزء كلا ونخال أن الأشجار هي الغابة.

وعلى هذا فسنركز الانتباه على ديانة العبريين وعلى علم الإغريق وفلسفتهم وعلى رسالة روما التي كانت الوسيط في مرحلة الانتقال من المدنية القديمة إلى مدنية القرون الوسطى، بعد أن نلمس لمسا خفيفا مظاهر تاريخهم الأخرى مهما بلغ من عظم أهميتها الجوهرية. والشرط الثاني يشير إلى السلالات الأخرى التي عمرت العالم القديم. ويمكنا أن نضع فارقا بينها من ثلاث شعاب، فتوجد:

١– سلالات كالسكان البدائيين في جزء عظيم من أفريقيا الذين لم ينجحوا أبدا في الخروج من حالة الهمجية. وهي موضع اهتمام بالغ عند عالم الانتروبولوجيا (على الإنسان) والباحث في العادات الاجتماعية والدينية البائيين، ولم تترك أية علامات مميزة في مدنية الأزمنة القديمة العليا، وعلى هذا فلا تدعو الحال إلى التنويه عنها في هذا الكتاب. ويصدق هذا على:–

٢– الشعوب المتمدينة في الشرق الأقصى، وفي الهند والصين واليابان ولقد نحتها الحواجز الجغرافية تنحية تكاد تكون تامة، عن الاتصال الفعلي بثقافة منطقة البحر المتوسط[1] والآن عندما توطد الاتصال يفتح طرق المحيطات العامة وبسرته الطائرة واللاسلكي، فإن فن الصين واليابان والفكر الديني لدى الشعوب الهندية، العليا، يثيران اهتماما متزايدا بين الأوربيين وقد يكون لدى المؤرخ، بعد خمسة قرون من الآن الكثير مما يقوله عن نتائج هذا الاتصال في الشرق والغرب جميعاً ولكنها إلى الآن لا تزال محجوبة عن أعيننا. أن منح الحكم الذاتي، مع نمو التجارة والتصنيع سيكون مآ لهما أن يصبحا مؤثرات انفصال، في النظرة التقليدية للحياة بين شعوب الهند، وهذا ليس في مجالي الاقتصاديات والسياسة وحسب، وما إذا كان تعرف ارثهم الديني

(١) والاستثناء الظاهر لهذه العبارة العامة جداً هو غزو الاسكندر الأكبر للبنجاب، ولهذا فإن ما توطد من اتصال بين الغرب والهند، كان قصير الأمد وذكراه باقية للتأثير الإغريقي على الهند أكثر منه لتأثير الهند على الإغريق. ولقد استمرت التجارة على طرق القوافل البرية من الشرق الأقصى طول الأزمنة القديمة ولكن آثارها على المدنية الغربية كانت ثانوية وغير مباشرة. كذلك لم ينجم عن غزوات التتار للغرب في الأزمنة التي وقعت بعد قيام المسيحية ومن الهون في القرن الخامس وما بعده أي شيء إيجابي للثقافة الغربية.

والمتافزيقي عن قرب سيكون ذا أثر على مدنيتنا الغربية إلى مدى تماثل فإن هذا الأمر متنازع فيه كثيراً. أن الانفصام بين عقل الغرب وعقل الشرق بعيد الغور جدا. أن الغرب يسلم بالكثير مما يكون غريبا أو حتى قد يكون معاديا للفكر الهندي الي يجد نفسه وقد جابهته عوائق لا يكاد يمكن اجتيازها، أمام تفاهم متبادل.

وأحد الأسباب هو أن مفكري الهند لم يهتموا اهتماما جديا بالزمن والعملية الزمنية التي تكون مادة التاريخ ظهرت لهم أنها أكثر قليلا من خدعة مايا (Maya) تحجب حقيقة المطلق التي لا تتغير. وهذا هو السبب في أن الهند التي أنجبت عظماء الفلاسفة والمتألهين الدينيين لم تخرج أي مؤرخ [١].

وكذلك يظهر أن القادة السياسيين الهنود يجدون صعوبة في إدراك ما يكون لدى العقل الغربي شيء عادي، وهو أن الحكومة الذاتية يكون لها نفع دائم إذا وصل إلى تحقيقها كثمرة عملية نسقية تدرجية للتعليم السياسي وإذا، كما تعترف جميع الجهات، كانت صالحة، وعلى هذا مرغوبا فيها، فما السبب في تأجيل اقامتها؟ لماذا لا ننجز العمل الصالح على التو بجرة قلم؟

وعقل الغرب على النقيض، بكل إيمانه بحقيقة خالدة لعالم أفضل– لم ينكر إلا فيما ندر– وجود قدر من الواقعية الصادقة للعملية النسقية الزمنية [٢]. ويوجد انفصام آخر يدعو للانتباه. أن عقيدة بقدر الشخصية الإنسانية، الذي لا يمحي متاصلة الجذور تأصلا عميقا في العقل الغربي الذي يكاد لم تمسسه الرغبة للاستغراق في المطلق تلك الرغبة التي استولت على قلوب الحكماء الهنود.

---

(١) في أيامنا أخرجت الهند رامانوجان (Ramanujan) عالم الرياضيات العبقري، ولكن الرياضيات كعلم ما وراء الطبيعة (المتافزييقيا) لا شأن لها يسير الحادثات الزمنية. حتى مؤرخو العصر الحديث الفلسفة الهندية مثل (Radhakrishnan) وداسجوبتا (Dasgupta) بينما واتاهم النجاح في عرض المذاهب العديدة فإنهم يعجزون عن استعراض تتابعها التاريخي في نشأة الواحد عن الآخر في ترتيب النمو الطبيعي.

(٢) فمثلا اسبينوزا (Splnoza) الذي كان يذهب إلى أن الزمن هو نتاج تفكير من درجة دنيا (Auxllium imalanationls) لم يناقش أبداً واقعية الحادثات الزمنية. لقد أنكر ببساطة أنها، كزمنية، كانت حقيقية على الوجه الأتم. لقد علق الفكر المسيحي دائما أهمية عظيمة على العالم الزمني المكاني (Spatis temporal) كمشهد لفترة اختبار الإنسان، ووظيفته هي أن يجوس خلال الأشياء الزمنية بحيث لا يخسر نهائياً الأشياء الأزلية. وهذا يحمل في معناه أن الأشياء الزمنية ليست إلا خدعة.

هنا يوجد الاختلاف الأصلي بين التأله المسيحي والتألة الهندوسي [١] وهذه التأملات تؤدي إلى الرأي أنه إذا كان قدر للحواجز الروحية التي تفصل الثقافتين الغربية والهندية أن تحطم فانما يكون ذلك بذيوع الدراسات التاريخية والمسيحية في الهند. ومهما يكن من أمر هذا، فإن مستقبل الشعب الهندي كمستقبل الشعوب الشرقية الأخرى يقع خارج نطاق هذا السفر. والحال غير ذلك بفريق ثالث هو المدنيات التي قامت في الأزمنة القديمة جداً على شواطيء نهرين عظيمين النيل والفرات وفي جزيرة كريت وهي تسترعي انتباهنا ليس فقط لقيمة ثقافتها الجوهرية ولكن لأنها قدمت السوابق التاريخية لقصة العبريين والإغريق وروما.

أنها جزء من حياة عالم البحر المتوسط. وهذا جلي في حالة كريت. ولكن مدنية مصر انتقلت بفعل ثقلها صوب الشمال إلى شواطيء الدلتا. بينما كانت تمتد مدنية سهل بابل أبدا صوب الغرب إلى بحر ايجه والمشرق.

انه حق أن تأثيرها على العصور التالية كان تأثيراً غير مباشر وكانت الواسطة فيه ثلاثة شعوب هي التي تكون الموضوع الرئيسي لهذه الدراسة. ولكنها تركت طابعها على العمل الذي استغرق حياة العبريين والإغريق وروما، وكانت المجال التاريخي الذي قامت فيه هذه الأمم، وأدت دورها. وعلى هذا فإننا سنحاول القاء نظرة موجزة على هذه المدنيات الأولى في الفصل التالي. وسيعيننا هذا على إدراك التلاحم الجوهري في العالم القديم وعلى أن نعتبر شعوبه العديدة، ليس كذرات منفصلة يمكن أن يعكف على دراستها مقسطة إلى أجزاء، ولكن كأعضاء مجتمع من الأمم لها علاقات متبادلة من العداء أو التعاون كيفت ما اختصت بتقديمه لسير تاريخ البشر.

---

(١) يطمح المتألهون المسيحيون إلى الأتصال الروحي المباشر وليس بامتزاج الذات مع الله.

الفصل الثاني

أقدم مدنيات الشرق

١- مقدمة

١- أن أقدم المدنيات التي تسترعي انتباهنا، كتمهيد لدراسة العبريين واليونان وروما هي: (١) مدنية مصر (٢) مدنية الأمم التي سيطرت، على الولاء، على وادي دجلة والفرات- البابليين والأشوريين (٣) مدنية الشعوب التي قطنت بالأراضي الواقعة بين هذه الأصقاع، ورقعة البحر المتوسط الساحلية، سوريا وكنعان، وآسيا الصغرى الشرقية (٤) ومدنية كريت التي تغلغلت في بحر إيجا، وشطر عظيم من منطقة البحر المتوسط. وسنسير قدما بنظرتنا الموجزة على هذه المدنيات إلى الزمن الذي كانت فيه، في جل أمرها مستغرقة في أمبراطورية فارس العالمية، العظيمة (القرن السادس ق. م). وأخيراً (٥) سنلمح إلى طبيعة الأمبراطورية الفارسية ومدنيتها حتى الغزو اليوماني المقدوني، الذي قام به الأسكندر الأكبر (٣٣٤- ٣٢٣). وأما التاريخ اللاحق لمصر والشرق الأوسط تحت السيادة اليونانية- المقدونية، والسيادة الرومانية فغنه يتعلق بطبيعة الحال بالفصول الأخيرة التي تعالج اليونان وروما.

٢- مصر[١]

٢-كتب هيرودوت المؤرخ اليوناني الذي زاد البلاد في القرن الخامس قبل الميلاد «إن مصر هبة النيل»[٢] والتربة والحاصلات والنبات والحيوان والحياة الإنسانية كلها على السواء، يقرر أمرها النهر العظيم وهو الذي، قبل مجيء الإنسان بزمن مديد، عمل على توسيع كسر في الحجر

---

(١) في موضوع التأريخ المصري المبكر، كما في كثير غيره في هذا الفصل اقتفيت ما استخلصه برستد من نتائج كما وردت في تاريخ مصر الذي وضعه (الطبعة الثانية سنة ١٩١٩)، وبينما الغالبية من علماء الآثار يتفقون في الجوهر على تاريخ برستد للأسرات الأولى إلا أنه يغرب غن البال أن التواريخ لا تزال موضوع مساجلة قبل الأسرة الثامنة عشر (١٥٨٠ق. م) وعلى القاريء أن يرجع إلى جداول الأزمنة المتعادلة في الأسفار الأولى من تاريخ كامبردج القديم في جميع مسائل التأريخ التي تعرض له، فيما يتصل بهذا الفصل.

(٢) هيرودوت ٢، ٥.

الجيري، إلى فجوة وملأ الفجوة بركام من المرتفعات الجنونية وبطغيانه على البحر المتوسط كون الدلتا. والقطر واحة طويلة ضيقة تمتد سبعمائة وخمسين ميلا من الشلال الأول، الحد الجنوبي القديم، إلى الدلتا. والوادي، ويتراوح اتساعه من عشرة إلى ثلاثين ميلا، تحصره حواجز صحراوية في الشرق والغرب. ويعتمد رخاؤه، الآن، كما كان يعتمد منذ سبعين قرنا غبرت، على ظاهرة طبيعية عظيمة واحدة، فيضان النيل السنوي، الذي تسببه أمطار الربيع وذوبان الثلوج في مرتفعات الجنوب القاصية. وانتظام هذه الأحوال الطبيعية البسيطة يعادله انتظام مماثل في حياة وعادات الشعب. ولقد عكف الفلاحون تحت حكم مُحَمَّد علي في القرن التاسع عشر الميلادي على المهام الراتبة عينها من فلاحة التربة وأعمال السخرة كعبيد لأرض أولئك الذين لا نعرف لهم اسما، الذين بنوا الأهرام في الألف سنة الثالثة قبل الميلاد. أن ثروة مصر الاقتصادية كانت دائما زراعية وقد أطلق المصريون على بلادهم اسم الأرض السوداء في التفرقة بين الصحراء «الحمراء» على الجانبين والتربة الفيضية السوداء في وادي النيل التي قام الدليل على أنها، تحت نظام للري محكم، ذات خصب يفوق المعتاد.

والنهر كان الطريق العام الذي تمر عليه تجارة الحنطة إلى مرافيء الدلتا وحلقة الاتصال بين مصر والعالم الخارجي. ومن عهد سحيق حفز عدم انتظام فيضان النيل جهد الإنسان إلى غائلة المجاعة التي تحل من حيين إلى آخر. ولا يوجد مكان آخر صاول فيه مكر الإنسان الطبيعية في دؤوب على مثال ما صاول هنا. كانت البلاد فيها القنوات والسدود والخزانات، وأظهر المهندسون في مصر القديمة في انشائها تمكنا من الفن الآلي. وخزان بحيرة موريس الفسيح، وهو من عمل فراعنة طيبة في الأسرة الثانية عشرة (في أوائل الألف سنة الثانية) ينهض دليلا على نفس المهمة لبلوغ القصد كخزان أسوان، الذي أتمه المهندسون البريطانيون تحت إرشاد اللورد كرومر[1].

٣- ولقد كان منشأ علمنا ببواكير تاريخ مصر القديم أثناء غزو نابليون (سنة ١٧٩٨). ففي سنة ١٧٩٩ كشف ضابط فرنسي بالقرب من رشيد عن حجر، موجود الآن في المتحف البريطاني، يحمل كتابة بثلاثة أنواع من الخطوط، الهيروغليفي، والديموطيفي أو الشعبي، والأغريقي.

(١) نحن لا نقر المؤلف إلى ما ذهب إليه من نسبة مشروع خزان أسوان تنفيذاً ورأياً إلى البريطانيين فإن تعاون هؤلاء المهندسين البريطانيين مع زملائهم المهندسين المصريين الذين حملوا العبء الأكبر في المشروع كان بحكم وظائفهم في الحكومة المصرية ولا شأن للورد كرومر به إذ قامت بتنفيذه نظارة الأشغال المصرية في ذلك الحين.

وأسماء الأعلام التي كانت هي بذاتها في الإغريقية كما في الهيروغليفي، هي التي أرشدت، بعد دراسة مستطيلة، عن الدليل إلى نعرف الكتابة الهيوغلوفية على الآثار المصرية، ولقد رأى القرن الماضي كشف الغشاء الذي يخفي الماضي البعيد، بالتدرج. أن الخيال يبهر عندما جلى العلماء حقبة بعد حقبة من التاريخ الماضيء الذي يمتد إلى الوراء، على الأقل، إلى الألف الرابعة قبل الميلاد. وهو ليس مجرد تاريخ حروب وغزوات ملوك، ولكن تاريخ عقائد وعادات وفن وثقافة يشمل سلسلة من المدنيات الزاخرة لم تكن تدور في خلد الناس إلى ذلك الحين.

٤- وقتدم قصة مصر من أول توحيد لها تحت حكومة واحدة من الألف سنة الرابعة حتى الغزو الفارسي في سنة ٥٢٥ ق.م سلسلة من حقب المدنية، كل حقبة بعهودها من الصعود والهبوط، وتفصل الواحدة عن الأخرى فترات من الركود والانحطاط. وقد رجعت أبحاث علم الآثار الحديثة بالسجل إلى الخلف، إلى زمن أبعد عندما كانت قبائل من أصل أفريقي، ولكن أتت عليها الهجرات السامية بالتحوير، تقطن بمراكز محلية يحكمها رؤساء منعزلون. وكان هؤلاء المصريون الذين يرجعون إلى ما قبل الأسرات قد حذقوا فنون صناعة الصلصال والحجر ووضعوا السنة التقويمية التي تبلغ ٣٦٥ يوماً والتي اتخذها بعد ذلك بأكثر من ٣٠٠٠ سنة، يوليوس قيصر ولا يزال العكل يجري بها حتى يومنا الحاضر [١].

وفي بواكير الألف سنة الرابعة، نجد مملكتين واحد في الدلتا والاخرى غي مصر العليا أدمجها مينا، أول ملك في الأسرة الأولى (حوالي ٣٤٠٠) في حكومة واحدة. ومن هذه المرحلة فصاعدا يمكن جمع التاريخ المصري حول قيام وسقوط ثلاث حقب عظيمة من التطور: الدولة القديمة، والدولة الوسطى، والأمبراطورية الحديثة [٢].

---

(١) أدخل التقويم سنة ٤٢٤١ ق. م وكان أول تاريخ ثابت في التاريخ. وقد قام برستد (**Anctent records, Egypt**) (١، ٢٥ وما بعدها) الحجة على أن التقويم أستهل في بداية فيضان النيل، الذي كان من زمن إلى آخر يجيء على التقريب آوان عيد طلوع الشعرى اليمانية (**Sirins**) في مشرق الشمس في الأفق الشرقي في ١٩ يولية. ولمن سنة الشعرى اليمانية (الفترة الواقعة بين بين طلعي الشعرى اليمانية المتعاقبين)، كانت بدأت سنة الشعري اليمانية والسنة التقويمية في نفس اليوم، في السنوات ٤٢١٤، ٢٧٨٠، ١٣٢٠ ق.م، ١٤٠- ٤١ إلى ١٤٣- ٤٤. ومع هذا فقد حام الشك حول مشاهدة دورة مبكرة ترجع إلى سنة ٤٢٤١ وأكثر ترجيحا أنه وجد حساب لاحق يرجع إلى الوراء.

(٢) لم تعرف مصر أبداً أي شكل للحكومة إلا الاستبدادي. وأسس الحرية السياسية توضع لأول مرة في زمننا الحاضر.

(١) الدولة القديمة (الأرات من الأولى إلى السادسة)([1])- وصل هذا العهد الذي دام ألف سنة إلى ذروته أبان حكم ملوك الأسرة الرابعة في ممفيس (من ٢٩٠٠ ق,م) وهم الذين مدوا سيادتهم صوب الغرب على ليبيا وصوب الجنوب على النوبة، واستغلوا مناجم سيناء، ونهضوا بالتجارة بأساطيلهم في البحر الأحمر والمشرق.

ولقد كانوا إداريين عظاما وبنائين عظاما، ووضعوا نظاما ماليا محكما وحكموا مصر بجيش من الموظفين، وأوصلوا ري البلاد إلى درجة عالية من الكمال، وشيدوا أهرام الجيزة العظيمة لتكون قبورا لهم. ويمكن أن تتعرف مهارتهم في استخدام الوسائل الآلية والموارد العظيمة للعمل الذي تستلزمه هذه الأبنية، من الحقيقة الواقعة وهي أن خوفو بنى بأكثر من مليوني قطعة من الحجر يبلغ متوسط وزن الواحدة منها ٢١/٢ طنا، وفن هذا العهد، عينه، وخاصة نحت الصور والنقش البارز في المقابر والمعابد كان على جمال لا يضارع في أي عهد لا حق للثقافة المصرية.

(٢) الدولة الوسطى (الأسرتان ١١-١٢) سقطت الدولة القديمة في أواسط الألف سنة الثالثة على أيدي الأشراف أصحاب الأراضي، الذين كانت قد أوجدتهم لما كان فيه خطر عليها. ثم ترادف نحو من ثلاثة قرون من الانقسام، وقد عقد السلطان، كما كان في عصر ما قبل التاريخ للرؤساء المحليين إلى أن قامت ملكية ثانية مركزة، تعرف بالدولة الوسطى في طيبة في مصر العليا تحت حكم الفراعنة أولى الصولة[2] من الأسرتين الحادبة عشرة والثانية عشرة (٢١٥٠-١٧٨٠) وقد أعيدت التجارة على مجال واسع مع بنط (الصومال) في الجنوب بجوار البحر الأحمر ومع الساميين في سوريا وكنعان، والشعوب البحرية في شرق البحر المتوسط. ولقد وجدت في مصر مصنوعات من الخزف منويه (**Minoan**) ترجع إلى هذا العصر ويظهر على الفن المنوي أثر الفن المصري [3]. وتحت حكم الدولة الوسطى، وصلت الفنون الصناعية أعظم ذروة لها من التقدم، وازدهر الأدب، وإذا كانت فنون النحت يغلب أن تكون تقليدية، فأنها تنافس نظيراتها في الأسرتين الرابعة والخامسة.

([1]) جمع مانيثون وهو كاهن مصري عاش في عهد البطالمة الأوائل (القرن الثالث ق.م) ملوك مصر في واحد وثلاثين أسرة. ويغلب أن يكون جمعه غير دقيق، ولكنه لا يزال يستخدم، بوجه عام، كمرجع تاريخي.

([2]) فرعون (بر- عا) يعني حرفيا البيت العظيم، كان لقبا أطلق في الأصل على مقر الحكومة وبعد ذلك على شخص فرعون.

([3]) انظر بعده فقرة ١٦.

(٣) الأمبراطورية الحديثة (الأسرتان الثامنة عشرة والتاسعة عشرة) أعقب ختام الأسرة الثانية عشرة فترة غامضة كانت فيها مصر المنقسمة، تحت رحمة الغزاة الأجانب وحكم البلاد بدو ساميون (الهكسوس أو ما يطلق عليهم الملوك الرعاة) يضمون في الراجح سبطا عبريا[١] وقد أعاد أمراء طيبة الوحدة، ويبدأ أعظم العهود روعة، إذا لم يكن في الثقافة المصرية، فعلى الأقل في السلطة السياسية، بقيام الأسرة الثامنة عشرة (سنة ١٥٨٠ ق.م). كان المصريون بطبيعتهم شعبا لا ينزع للحرب ولكن الفوضى الداخلية كانت قد أدت إلى تكوين جيش مهني منظم وغدا فراعنة الأمبراطورية الداخلية كانت قد أدت إلى تكوين جيشي مهني منظم وغدا فراعنه الأمبراطورية الحديثة الحكام العسكريين لدولة عسكرية. وقد غزوا سورية وفينيقية، وحاربوا الميتاني (قبيلة يتولى أمرها رؤساء آريون) والحيثيين على الفرات الأعلى ودانت لهم السيادة من ذلك النهر حتى الصحراء الليبية، وأكناف الحبشة. وقد وصلت إليهم الجزية مما يوالي البحر المتوسط، فكانت مصر مفتوحة لتجار بحر ايجه الكفتيو (**Keftiu**) وكانت منتجاتها تستخدم في كنوسوس (**Cnossus**) وأثر فنها الزخرفي الخاص على مهرة الصناع الميسنيين (**Mycenaen**)[٢]، وقام على تدبير أمور الأمبراطورية لفيف عظيم من موظفي الدولة، وعلى دين الدولة طبقة من الكهنة، منظمة. وكان هذا أعظم عصور الفن المعماري المصري. وكان معبد الآله آمون في الكرنك واحدا من أعظم الآثار الدينية روعة في الأزمنة القديمة. وقتوم اليوم على رصيف نهر التيمس مسلة تذكارية أقامها ألمع غزاة الأسرة الثامنة عشرة تحوتي مس سو (تحوتمس) الثالث. وبعد لنقضاء قرنين من العظمة الأمبراطورية بدأت بوادر الانحلال الذي لا معدى عنه، في الظهور. ولقد أثرار الجهد الغريب الذي بذله المصلح الديني اخ ن اتن (اخناتون) (امنحتب الرابع ١٣٧٥–١٣٥٨) لإقامة عبادة إله واحد روحية، شعور الشعب والكهنة [٣]. وأخفقت الأسرة التاسعة عشرة في المحافظة على هيبة مصر في الخارج، وقبل ختام السنوات الألف الثانية (ق.م) بزمن مديد، كانت سوريا وكنعان قد أفلتنا من أيدي المصريين، وكانت شعوب البحر في إيجا تعمل في

(١) تحمل جعلان ملك في هذه الفترة اسم يعقوب– هر، أو يعقوب آت (برستد صفحة ٢٢٠).

(٢)عن الحبشة انظر ما سيجيء بعد، فقرة ١٢، وعن كنوسوس وميسنيا الفقرات ١٥–١٦.

(٣) تلقى خطابات تل المعمارنة، وهي سجلات رسائل اخناتن الأجنبية التي كشف عنها في سنة ١٨٨٥، والكثير من الضوء على سياسة الأمبراطورية الجديدة. أن تل العمارنة هو موقع العاصمة اختاتن التي أسسها اخناتن كمقر لعبادة الآلة الواحد (اتن) وعن دين التوحيد هذا نظر ترنيمو اخناتن لاتن التي ترجمت في كتاب برستد الصفحة ٣٧١ وما يتلوها.

الدلتا نهبا وتخريبا، وحدث في غضون هذه الفترة من بداية نشوء الانحطاط أن قطن العبرانيون [1] في جاسان (**Goshen**) وكان الخروج إلى صحراء سيناء ليس متأخراً عن عهد واحد من فراعنة الأسرة التاسعة عشرة (حوالي ١٣٢٠– ١٢٠٠).

وفي قرون الانقسام والتفكك الذي أعقب سقراط الأمبراطورية الحديثة نجد الرؤساء المرتوقة، الليبيين يحكمون في الدلتا، وأمراء اثيوبيين في مصر العليا [2]. وفي أواخر القرن السابع (٦٧٠) غوا الأشوريون الذين كانوا يهددون استقلال مصر ردحا من الزمن، الدلتا تحت أمرة أسر حدون.

وجعلوا من مصر ولاية تابعة[3] وبدأ عهد الحكم الأجنبي. ولما وهنت قوة أشور أمام قوة بابل وأتت فرصة أخرى للاستقلال وفي ولاية ملوك الأسرة السادسة والعشرين (في سايس بالدلتا ٦٦٣– ٥٢٥) نشهد احياء للثقافة قصير الأمد ومصطنعا إلى حد ما، وإعادة توكيد عقيم للمطامح القيصرية. وقد تحالفت مصر مع ليديا والأغريق الآسيويين وجند المرتزقة الإغريق في الخدمة الملكية. وخصص مقر للتجار الإغريق في نقراش (نواكرتيس ومعناها القوة البحرية) في الدلتا. وغزا نيخو (٦٠٩– ٥٩٣) كنعان وحارب نبوخذ نصر ملك بابل على الفرات. وتقديمه العباءة التي كان يلبسها قربانا عندما أوقع الهزيمة بيوشيا في مجدو، لمعبد أبولو المليزي في برانخيدا (**Branchidae**) مثال ذو نغزى عن الاتصال التاريخي بين مصر ويهوذا وبابل واليونان [4] ولكن إعادة الاستقلال كان ذا أمد قصير، ولما سقطت بابل أمام الفرس كان مصير مصر قد أصبح قاب قوسين. وفي سنة ٥٢٥ غزا قمبيز مصر وظلت البلاد خاضعة لأمبراطورية فارس فيما عدا

---

(١) يتوارى القفتو (المنيون) عن الآثار المصرية حوالي سنة ١٣٥٠ ويظهر بعد ذلك بقرن ونصف الأقيوشا (**Akaiusha**) (الأخيون)– انظر ما يلي.

(٢) كان شيشنق الأول (شيشق العهد القديم) واحدا من الأولين وكان حليف سليمان وآوى يربعام مؤسس المملكة الشمالية (الأفرمية) وحارب رحبعام إلى المملكة الجنوبية (يهوذا) حوالي سنة ٩٢٦ (ملوك الأول ٩: ١٥– ١٧: ٤٠، ١٤: ٢٥).

(٣) كانت جيوش آور قد وصلت إلى تخوم مصر مرتين في القرن الثامن وقد حدثت غزوة سنخارب العقيمة في سنة ٧٠١، ولقد أدرك ضعف مصر في جلاء أشيعاء، الذي استنكر سياسة التحالف بين يهوذا ومصر ضد آشور (اش: ٣٠، ١–٧ و ٣١، ١–٣).

(٤) هزم ينخو في قرقميش سنة ٦٠٤ وحدث غزو بابل ليهوذا سريعا في أعقاب هذا النصر، أنظر الملوك الثاني ٣٣: ٢٩ وهيرودوت ٢: ١٥٩، وكانت مجدو في سهل يزريل أو اسدريلن مشهد المعركة التي وقعت بين العبرانيين وسيسرا (قضاة ٤: ٥) والأرمجدون (وفي النسخة المنقحة هرماجدون– جبل ماجدو) الرؤيا ١٦: ١٦. ونص الفقرة الأخيرة هو على أية حال موضع شك.

ثورات متقطعة خاطفة حتى مجيء اسكندر المقدوني (٣٣٢- ٣٣٠).

٥- وبقي أن نسأل إلى أي مدى أثرت مدنية مصر في المدنية التي نهضت في غضون السنوات الألف الأخيرة ق.م. في عالم البحر المتوسط. وإذا القينا النظر (أ) إلى الدين الذي كان في مصر كما كان بين السلالات الأولى جميعها، بؤرة الثقافة، فإننا نجد طائفة عظيمة من المعتقدات والعبادات المحلية، وقد وحدها فراعنة الأسرات الأولى في دين دولة، فيه ثم آلهة مركزيون صاغ الكتاب الكهنة من قصصهم وفرائضهم، على سير الزمان، شكلا ذا مذهب راهن وله طابع ثابت. وأنها لتحوي اليسير من القيمة الفكرية أو القيمة الروحية ما خلا استثماء وحيداً هو محاولة اخناتن التي أشرنا إليها آنفا، بأن يستبدل العبادات الدينية المقررة بعبادة توحيد لآتن آله الشمس. ويظهر أن الواعز لثورته كان مثالية فكرية صادقة ولكنها كانت عقيمة ولا تأثير لها حتى في بلاده ذاتها. والكتابات الدينية، مثل كتاب الموتى، التي تتعلق بأقدار الروح في حياة أخروية، وهي مجموعة كان منشؤها في الدولة الوسطى، واتخذت شكلها النهائي في زمن الأسرة الثامنة عشرة، كان يسيطر عليها السحر، وتكشف عن تصور مادي تماما للروح. والاعتقاد في محاكمة خلقية بعد الموت، وهو يرتبط بعقيدة أزوريس كان له ثمة قيمة من حيث الأخلاق. وفي نصوص الاهرام المبكرة، يمكن أن نطالع كيف تصور المصريون القدماء نظاما خلقيا في العالم مرده ما شاع بين الناس من أحكام على السلوك «وفقا للقواعد المرعية» في الأسرة وفي القرية، على أنه مع ما تقدم لا يوجد دليل على أن دين المصريين أثر ؟؟؟؟ خطيرا في العالم الخارجي، وعبادة يهوه كان موطنها صحراء سينا وليس في مصر. وفي عصر لاحق، عندما تقابل الشرق والغرب تحت حكم أمراء مقدونيين في الإسكندرية، ذاعت العبادات المصرية، كعبادات إيزيس وسرابيس، وكذلك الاعتقاد في الخلود والشفاء بالإيمان الذي يرتبط بتلك الآلهة وممارسة القصص الرمزي الخلقي الذي تميز به تعليم الكهنة المصريين وجد ذيوعاً واسع النطاق في العالم الروماني الإغريقي. ولكن قبل هذا التاريخ كانت ديانات العبريين واليونان وروما قد وصلت إلى نضوجها.

(ب) ومرة أخرى كان ما يسمى «حكمة» المصريين أمرا ذا قيمة علمية يسيرة. لقد كانت موضوعات اهتمامهم العقلية نفعية ولم يظهروا إلا ميلا ضئيلاً للعلم الخالص أو الفلسفة. ولقج ابتكروا قواعد يتجلى فيها الحذق. لقياس الحقول والأبنية ولكن كان يعنيهم من الهندسة مساحة الأراضي ولا شيء أكثر. ولم يستبن منهم في هذا أو في علم النجوم الذي كان لديهم إدراك للمنهج العلمي. وعندما كانت تظهر بواق لا قبل لهم عليها في تقديراتهم فإنهم كانوا يهملون

شأنها ببساطة. وقد كان أفلاطون على حق تماما عندما انتقد الرياضيات المصرية بأنها قاصرة على أغراض بحتة [١]. والطب أيضاً كان خليطا من الوصفات الجاهزة والتعازيم السحرية. وتظهر الكتابات الطبية الأولى ملاحظة دقيقة، لجسم الإنسان وعلاج الإصابات بما يمليه الحس العام وآراء عن الوظائف الفسيولوجية التي ربما تكون قد وصلت إلى الإغريق وكانت الحافز للأوائل من رجال العلم الهلينيين، ولكنها ظلت، إلى أن أضاءها البحث عن الأسباب والمسببات، لا أكثر من مجموعات من المعطيات، السابقة[٢] للنهج العلمي[٣].

---

(١) القوانين ٧٤٧، أنظر وصف بردية رند (**Rhind**) في فلسفة اليونان الأولى لبرنت (**Burnet**) لاطبعة الثالثة الصفحات ١٨ وما بعدها، وملاحظاته في النتائج العلمية المزعومة التي وصل إليها المصريون، وعن الطب المصري بمقابلته بطب الإغريق، أنظر برت (**Brett**) «تاريخ علم النفس» الصفحات ٢١٩ وما بعدها.

(٢) أنظر بردية أدون سمث الجراحية (**Edwin Surgical Fapyrus**) لبرستد. أن العلاج يوصف وفقا للقاعدة (عليك أن تقول أ لخ) ودراسة لهذه الوثيقة المشوقة تترك القاريء وقد دخل في روعه أن الذي يمهن الطب في زمننا، ولو أن دعامة عظسمة النطاق من الحقائق تشد ازره، فإنه يحتفظ بمقدار ليس باليسير من عقلية سالفيه البدائيين.

(٣) نحن لا نقر الكاتب فيما ذهب إليه من انكار أهمية الطب المصري القديم وأثره في الطب اليوناني، ذلك لأن الطب المصري القديم جدير بأن يدرس في اهتمام حتى يومنا. لقد وصل قدماء المصريين إلى تقدم عظيم في الطب والجراحة واقتبس الطب الإغريقي من الطب المصري نصيباً عظيماً حتى يمكن اعتباره امتداداً له. وليست أدراج البردي، كاهون وادون سمث وايبرز وهرست ولندن وكارلسبرج وبرلين، إلا مقتبسات من أسفار أصلية. وهي تذكر الأطباء والسحرة وأطباء الأسنان وأطباء العيون وغيرهم كم الأخصائيين بما فيهم الأطباء البيطريين، وتضم عجالات طبية وتذكرات وضعها الأطباء القدامى تصف ما يجب القيام به في حالات خاصة: الطب العام وأمراض النساء وجراحة العظام وأمراض العيون. وقد عرفوا القلب و«الأوعية التي تذهب إلى كل عضو» والعلل التي تصاب بها أجهزة التنفس كالنولة الشعبية والتهاب الحنجرة. وتعوزنا القدرة علة ترجمة كل الألفاظ التي تصف الأمراض والألفاظ الدالة على كثير من مواد العقاقير لكنا نعلم أنهم استخدموا عسل النحل والقشدة واللبن، وضمادات الأعشاب والتحميلة والحقنة وزيت الخروع. وتشير النصوص إلى علاج الأسنان وعلمنا من فحص الموميات أنهم كانوا يعرفون كيف «تحشى» الأسنان بنوع من الأسمنت المعدني وأنهم استخدموا الذهب لربطها. ولقد عنوا بعلاج العيون وجاءنا عدد من الوصفات التي قصد بها علاج الرمد الحبيبي والكتركتا والعشى الذي استخدموا له مزيجا من كبد الحيوان ولا تزال تستخدم اليوم خلاصة الكبد في علاج هذه العلة.

وقد تحقق أن الكثير من مشاهداتهم للعوارض كانت دقيقة والأدوية التي استخدموها ناجعة المفعول. أما جراحة العظام، كما جاءت في بردية أدون سمث، فإنها كاد تكون علمية.

وكان للطب المصري القديم ذيوع في الشرق الأدنى، ولم ينكر ابقراط وجالن أن بعض ما حصلا عليه من علم بالطب جاء من المصنفات المصرية التي كانا قد درساها في معبد امحوتب في ممفيس.

ويمكن لمن يريد الاستزادة أن يرجع إلى ما صنفه بعض أعلام الطب من أمثال الدكاترة: حسن كمال، ومحمد كامل حسين، وغليونجي، والبطراوي، ونجيب رياض.

وعندما زار الإغريق البلاد في عهد الأسرة السادسة والعشرين تأثر خيالهم بطبيعة الحال بقدمها: «أنتم معشر الإغريق أطفال على الدوام إذ لا يوجد رجل هرم بينكم» هذا ما قيل أن الكاهن المصري أنبأ به صولون. والاحترام للآثار التي طالت عليها الحقب يقويه تحفظ المترجمين الكهنة وما يتسم به من وقار، جعل المسافرين الشماليين يتصورون المثل العليا، في حدود ما وصلوا إليه من أعمال عقلية جليلة، لعلم شعب له مثل ذلك الماضي البعيد[1] ومن الجهة الأخرى كان تأثير مصر، في الفنون الآلية، عظيماً في العصور التالية[2].

(ج) كانت الثقافة المصرية ثقافة فن لا ثقافة أدب، ولو أن القصص الشعبية والفاجعة (الدراما) الدينية نشأتا في الدولة الوسطى وأتاح البردي وهو هبة مستنقعات النيل، للرسائل والسجلات المكتوبة أن تكون قابلة للحمل وسهلة. ولكن كان فن مصر هو الذي فرض طابع نفوذه على العالم الخارجي، كما يتضح من العلامات التي يمكن تبينها في مصنوعات الخزف والنقوش البارزة في الصناعة المنوية والميسنية وكان هذا قبل أن يبزغ فجر الثقافة الهلينية، وعندما أهل ذلك اليوم كان الفن الكصري قد تدهور مع استثناء واحد هو الفن المعماري. لقد شيد المصريون معابد عظيمة وقبوراً واستخدموا الأساطين وطرق العمد للسماح للضوء بالانسياب إلى الأرجاء الداخلية بينما اقتصروا على أبسط الأبنية وواعتمدوا في الزخرفة على النقش البارز الوطيء وعلى اللون. ولقد كان لفنهم المتأخر في الحفر أثر على فن الإغريق في مراحله الأولى ولكن سرعان ما تجاوزوا تقاليده الصارمة، ولقد أعاد حكام مصر المقدونيون احياء الفن القومي ولكن ما استنسخه الإغريق كان يجافي الذوق والدقة. واليوم بفضل علماء الآثار فإن الحال غير تلك الحال. أن أعمال النحاتين العظيمة في الأسرات الأولى قد تكشفت في جمالها لتكون مصدراً جديداً للوحي، لفناني العالم الحديث.

---

(١) أفلاطون تيمايوس ٢٢.

(٢) كان في قدرتهم تحريك الأشياء الثقيلة وتكويمها ولكن لا أكثر من ذلك، وكونهم لم يحاولوا أبدا إيجاد قناطر للنيل يبين القدر المحدود الذي كانت عليه دربتهم كمهندسين.

٣- بابل وأشود[١]

٦- والمدنية الفيضية الثانية العظيمة في الأزمنة القديمة، كانت مدنية بابل. أن سهل كلديا الفيضي بين مجربي الفرات ودجلة السفليين كان على غرار مصر تحت نظام للري ملائم قمينا بخصب وفير. ولقد قامت في العصور القديمة بأود جم غفير من القاطنين. واليوم بعد أن دمرت قرون من سوء الحكم رخاءه، يتطلب الأمر كد الخيال ليدرك أن بابل كانت حينا من الدهر، شبيهة بمصر، أحد مخازن غلال العالم الرئيسية حيث كانت المحاصيل تؤتي ثمار مائتين أو ثلاثمائة ضعفا. وكانت الأرض حتى بعد الحصاد الثاني تهيء الكثير من المراعي[٢].

وحاضرة الملك التي قامت على شواطيء الفرات وأصبحت من فجر الألف سنة الثانية مقراً عظيماً للامبراطورية كانت لحجمها الشارع، أعجوبة الأزمن القديمة. وكان محيط دائرة السور الداخلي زهاء أربعيم ميلا. يقول أرسطو: «ان بابل أمة أكثر منها مدينة»[٣]. ولقد أضيف إلى مواردها الزراعية الثراء المستمد من صناعات النسيج ومن تجارة رائجة[٤]، ومنذ الألف سنة الثانية، كانت بابل سوق الشرق ومركزا عالميا اجتذب إلى أسواقه وأرصفته محاصيل الهند وإيران وكان ملتقى مرور التجارة عبر الطرق الصحراوية إلى الفرات من أقطار البحر المتوسط إلى الغرب. والطريق الطبيعي لتوسع بابل، كان مجاله أعلى النهر لأن سهل كالديا كانت تكتنفه من الجنوب ومن اللغرب الصحراء، ومن الشرق هضبة إيران. وفي الألف سنة الثالثة كان سرجون الأكادي مؤسس أول مملكة سامية قد اجتاح أشور وبلاد ما بين النهرين وتوغل حول شمال

---

(١) وهنا أيضا لم يجزم برأي في التأريخ القديم. وعندما يوجد انقسام في الرأي بين العلماء يكون التفضيل لأقرب التواريخ على أبعدها. وعلى سبيل المثال تواريخ سرجون ملك أكاد والأسرة البابلية الأولى. أنظر الجداول التي جاءت في تاريخ كمبردج القديم.

(٢) حطم المغول مدنية بلاد ما بين النهرين وعجز الأتراك عن إعادة سيرتها الأولى. وقد أورد ثيوفراسطس (**Theophrastus**) أبعد تلاميذ أرسطو صيتا في كتابه (تاريخ النبات): «في بابل تحصد حقول القمح مرتين في انتظام ثم يطعم بها الحيوان للتقليل من غزارة الأوراق وبغير ذلك لا تطلع السنابل للنبات. وعندما ينجز هذا، فإن محصول الأراضي التي تفلح فلاحة سيئة يكون خمسين ضعفا بينما يأتي محصول الأرض جيدة الفلاحة بمائة ضعف». (اقتبسها روجرس (**Rogers**): ١، ٤١٩)، وازن ما جاء به هيرودوت من تقدير أكثر سخاء.

(٣) أرسطو – «السياسة ٣، ٣، ١١٢٧٦»، يجب قراءة وصف هيرودوت (١، ١٧٨– ٨٧) ولكن روجرس (١، ٤٣٨) وجه النقد إلى تقدير لمحيط دائرة السور، على ضوء الحفائر الحيثة.

(٤) وعلى هذا لم تكن الحال تستدعي واد الأطفال لتحديد النسل ولكن مناخ سهل كالديا كانت تلازمه نسبة من الوفيات عالية.

الصحراء حتى سوريا وكنعان[1] وعلى هذا، فمنذ زمن مبكر تجاوز البابليون حدود مدنية سهل فيضى لتكون أحدى مدنيات البحر المتوسط, ولو أنهم عندما بلغوا البحر, لم يستخدموه إلا قليلا، وخلال ألفي سنة كان حكام وادي دجلة والفرات يتطلعون صوب الغرب إلى مياه البحر المتوسط كهدف مطمحهم.

٧– كانت ثقافة بابل وأشور التاريخية سامية ولو أنه قبل هبوط الساميين من بلاد العرب، أنشأت القبائل الوطنية مدنية نعرف بالسومرية (سومر– كلديا الجنوبية) ووضعوا أسس الدين واللغة والقانون والري والحياة المتحضرة التي ظلت أمدا طويلا بعد أن وطد الساميون سيادتهم. وقطع الجواهر هو فن مهره البابليون، وكان قد بلغ في الأزمنة السومرية درجة عالية من الكمال. وكانت النقوش تحفر بالكتابة بالصور وبعد ذلك بالخط المسماري، حروف (رءوس سهام) وأنا لنقرأ عن المشاهدات الفلكية ووضع كتب النحو والمعاجم وانشاء مكتبة ملكية. وفي أواخر الألف سنة الثالثة أو في بكور الثانية نجد أسرة تعرف بالأسرة البابلية الأولى، ومقرها بابل ومنذ ذلك الحين صارت عاصمة آسيا الغربية. والدين له كل الخطر في تاريخ بابل وكانت طائفة الكهنة تستحوذ على ثروة وسلطان عريضين، وكان الملوك يعتمدون كثيراً على حظوتهم.

وحتى في أيام سيطرة آشور لم يكن المغير يستطيع أن يستوثق من دولته في بابل إلا بتقديم فروض الاحترام لمردوك.

ولقد كان حمورابي، أعظم ملك في هذه الأسرة، هو الذي ركز العبادات الدينية المحلية في كلديا في عبادة مرودك الاله– الراعي، لبابل.

وقد نظم حمورابي المذهب الإداري للإمبراطورية وأخضع عيلام إلى الشرق وآشور إلى الشمال وبسط سيادته حتى سواحل البحر المتوسط[2] وتقوم الأدلة على ثقافة عصره من الآثار الأدبية العظيمة التي تضم الواح عقود ورسائل ملكية. ولكن أهم أثر تذكاري لحكمه هو مدونة

---

(١) يعتبر روجرس تاريخ قيام سرجون حوالي ٣٠٠٠ ق. م، ولكن الخطأ في هذا التاريخ أنه أبعد مما يجب. انظر الجداول في تاريخ كمبردج القديم، ويمكن أن يلاحظ أن بابل كانت معرضة للغزو، حتى من الجانب الجبلي، أكثر من تعرض مصر له.

(٢) حمورابي (حارمورابي وحيمورابي) يمكن أن يكون امرافل (**Amraphel**) سفر التكوين ١٤: ١ ويضع روجرس تاريخ الأسرة البابلية الأولى من ٢٢٣٢ إلى ١٩٣٢ وحمولابي من ٢١٣٠– ٢٠٨٧.

القوانين التي كشف عنها في السنوات الأولى من هذا القرن علماء الآثار الفرنسيون في سوس[١].

وهذه المدونة– أحكام الاستقامة التي وضعها حمورابي، الملك العظيم– نظمت في دقة وأحكام القانون المدني في بابل ويشمل الملكية والعقود والزراعة والتجارة وأعمال المصارف والزواج والتبني والأرث وكذلك سير المرافعات القضائية، وتشهد على المكانة الهامة التي كانت بابل قد وصلت إليها في تجارة الأمم. وهي تكون مذهبا محكما لقانون الدولة، ولو أن آثاراً منها ترجع إلى ما جرت عليه العادات الأولى مثل قانون حكم الله والقصاص بالمثل (العين بالعين)، وهي تمثل تقدما عظيماً بالقياس إلى قانون العادات في المجتمعات الأولى. وقد حرم الانتقام بسفك الدم وقصر تطبيق شرعة المثل بالمثل (**Lex talionis**) على اجراءات المحاكم المقررة، والناس من كل الطبقات، الغريب والمولود في البلاد، على السواء تنتظمهم حماية القانون. ومن الطرافة بمكان بالغ أن تقرأ كيف أن أمثال هذه المسائل الحديثة كالأعفاء من الخدمة العسكرية وثبات الملكية والتعويض عن التحسينات الزراعية ورقابة تجارة الخمور، وودائع المصارف، والمسئولية عن ديون الزوجة والحقوق الشرعية للنساء والأطفال نظمها هذا الحاكم البابلي في ختام السنوات الألف الثالثة ق. م. وبامتداد المدنية البابلية إلى سوريا وفلسطين فإن مدونة قوانين حمورابي والقانون الذي جاء بعد ذلك مستندا إليها وضعا طابعهما على تشريع الساميين الغربيين[٢] وظلت المدونة نفسها نافذة المفعول زمنا مديداً في العهد المسيحي وأثرت بعد ذلك على شرائع غزاة الشرق المسلمين. وغدا يبرز البابليون مقوة تعمل على بسط المدنية في آسيا الغربية. وانتشرت في كل ربوع الشرق لغتهم وعملتهم ومعايير أوزانهم. وكانت نساؤهم يستمتعن بمركز قانوني توفرت فيه الكرامة لهن. وكان في قدرة الإنسان أن يمتطي متن دابته في أمان من الخليج الفارسي إلى البحر المتوسط تحت حماية قوانين حمورابي.

٨– وبتقادم أعوام السنوات الألف الثانية، حل الوهن بمملكة بابل ونهضت في الشمال سلالة جديدة تصعد نحو العظمة، على شواطيء دجلة، حول نينوى. وهذا الشعب، أبناء أشور

(١) وقد كشف أيضا عن أجزاء منها في مكتبة أشور– بني– بال في نينوي، وقد ترجم المدونة القس س. هـ. و. جونس (**Rev. C.H.W. Johns**) «أقدم مدونة قوانين في العالم».

(٢) عن الموضوع الطريف عن العلاقة بين الشريعة الموسوية ومدونة القوانين البابلية) انظر ص.ا. كوك (**S.A, Cook**) «نواميس موسى ومدونة قوانين حمورابي» وأوجه التشابه ترجع بالحرى إلى الأصل السامي المشترك لا التأثير المباشر زربما تاريخ تأثير بابل على شريعة العبريين إلى السبى (القرن السادس ق.م).

أو لبأشوريون وهم مستعمرون ساميون من بلاد بابل ومن رعايا حكامها في باديء الأمر، أصبحوا غزاتها حوالي سنة ١٣٠٠ق. م.

وقد كان البابليون شعبا من الزراع والتجار. وكان الدين أجل قدراً في أوضاعهم العامة من فن الحرب. أما الأشوريون فعلى النقيض كانوا منذ البداية إلى النهاية سلالة حرب. وكان ملوكهم قادة تحت امرتهم أشراف عسكريون. ولما كانوا أكثر شعوب الشرق الأخرى غلظة وقسوة فان تاريخهم هو سجل حروب وغزوات. وما اكتسبوه من ثقافة استعاروه من بابل وكان التقدم الوحيد الذي حققوه هو البناء بالحجر كما كانوا يبنون بالأجر. وتسجل الثيران الجنحة الضخام والألواح المنقوشة في المتحف البريطاني قصة متواصلة عن الحروب الوحشية.

وقد كتب أحد الأمراء الأشوريين القدامى عن أعدائه: «ملأت بجسومهم وديان الجبال وقللها، بترت رءوسهم وتوجت بها حيطان مدائنهم، وجلبت العبيد والغنائم والكنوز، أشياء لا تحصى». وكان الأشوريين يخلصون في تعصب، لدينهم، وكانت جميع انتصاراتهم باسم الهمم أشور ولمجده، ولكن لم يكن للكهنة إلا أثر قليل في استشاراتهم. وكان أمراؤهم أول من استبدل الاقتراع السنوي بجيش دائم وكانت انتصاراتهم الحربية ترجع إلى حد عظيم إلى إدخال الفرسان لشد أزر المركبات. ويشهد على قدرتهم على تنظيم الأمبراطورية، طبقات الموظفين المحكمة، وفرض ضريبة سنوية ثابتة على الأقاليم، وبلغت قوتهم أوجها في ثلاث حقب في تاريخهم، في القرن الثاني عشر، ومرة أخرى في غضون القرن التاسع، ثم في أواخر القرن الثامن وأوائل القرن السابع[١] .

وكان في القرن التاسع أن نزل سوط الجيش الأشورية على سوريا وكنعان وأطاح بمملكة اسرائيل ووصل إلى شواطيء البحر المتوسط.

وسقطت السامرة مقر حكم المملكة الشمالية (الافرايمية) التي حاصرها شالمنسر الرابع، أمام سرحون عام ٧٢١. وقد رأينا كيف اجتاح سنخارب، بن سرجون، بعد ذلك بعشرين عاما، مملكة يهوذا وهدد مصر بالغزو وكيف أن الغزو نهض به بعد جيل من الزمان، خليفته اسدحدون

---

(١) الفترة الثالثة والأخيرة من عظمة آشور استهلها تجلاث بليسر الثالث (Tiglath Pileser III) (٧٤٦– ٧٢٧) الذي غزا بابل ودمشق، ثم واصلها شالمنسر الرابع (Shalmaneser IV) (٧٢٧– ٧٢٢)، وسرجون (٧٢١– ٧٠٥) وسنخريب (٧٠٤– ٦٨٢)، واسرحدون (Esarhaddon) (٦٨٠– ٦٦٨)، آخر ملك عظيم، وفي عهد ابن اسرحدون– آشور بني بال (٦٦٨– ٦٢٦) الذي وضع قناعا رقيقا من الثقافة على وحشية الحكم الآشوري، تدهورت قوة الدولة سراعا. ومكتبة آشور بني بال العظيمة هي مصدر أساسي لعلمنا بتاريخ بابل وآشور.

الذي امتدت امبراطوريته من هضبة إيران حتى صحراء ليبيا والشرق الأدنى وشملت أيضاً مرتفعات ميديا وجزيرة قبرص. وأعقب موته (عام ٦٦٨)، تدهور[١] قوة آشور، فقبل ختام القرن، هوت بها الحال إلى عقد تحالف مع الميديين والبابليين الذين استردوا استقلالهم في عهد نابوبلسر. ويسقوط نينوى (٦١١٢) توارت امبراطورية أشور من التاريخ وسرعان ما طوت رمال بلاد ما بين النهرين سجلاتها.

ان مجدها تعفى وانقضى

من نينوى باقية الذكر.

إلى أن أزاح بوتا (**Botta**) وليار (**Layard**)، في القرن التاسع عشر الميلادي الأحجار التي تقص قصة شراستها وغزواتها[٢].

٩- وتقاسم الظافرون الأسلاب فيما بينهم، ما خلا مصر التي استعادت استقلالها في سنة ٦٦١، بعد سنوات أربع من الخضوع. ولكن انتصارهم كان قصير الأمد. وقد انحطت قوة ميديا سراعا بعد موت مؤسسها قواكسرس (**Cyaxares**) أما قوة بابل فقد بلغت ذروتها في عهد نيوخذ نصر (٦٠٥- ٥٦٢) أما قوة بابل فقد بلغت ذروتها في عهد نبوخذ نصر (٦٠٥- ٥٦٢) الذي أخضع سوريا وبيت المقدس وحمل أهل يهوذا إلى الأسر في بابل (٥٨٦)[٣].

وقد جعلت أبنيته ومعابده وجناته المعلقة من بابل إحدى عجائب الدنيا. ولكن قبل مضب زمن طويل حل بأسرته المصير المقدر أن آجلا أو عاجلا، على كل امبراطورية شرقية. يهبط المحاربون الأشداء من المرتفعات المجورة إلى السهول الخصيبة ويظفرون بمستعمرة جديدة ويلمون

---

(١) ساعدت الغزوات السيثية (القمرية) (**Scythian Clmmerian**) على هذا التدهور. راجع الفقرة ٩٧ فيما يلي.

(٢) روستي (**Rossetti**): (**The Burden of Ninevel**). استقبل سقوطها بالابتهاج كم الشعوب التي تحيط بها. ونقرأ في ناحوم: ٣، ١٩: «كل الذين يسمعون خبرك (أي سقوطك) يصفقوم بأيديهم عليك لأنه على من لم يمر شرك على الدوام». وسقطت المدينة أمام الميديين الذين استولوا على آشور الأصلية، وأما بلاد ما بين النهرين والأراضي السورية- الفينيقية، فق أصبحتا من نصيب البابليين.

(٣) كانت الأسرة المشار إليها، على التحقيق كلدية. كان الكلديون محاربين أكثر مما كان البابليون ومع هذا كانوا مثلهم قادرين على تبوء مستوى عال من الثقافة. وقد أطلق الكتاب الإغريق اسم كلديا على بابل، على وجه عام، ومعناها في الأصل أرض كلدي، وهم ساميون كانوا يقطنون بالمكان الذي يقع حول مصبي الفرات ودجلة بين بابل والخليج الفارسي.

شملها لتخضع في دورها، عندما يمتص الترف العصارة الحيوية في قوة حكامها وشعبها، لسلالة جديدة من الغزاة. فنجد الفرس الآن (٥٥٣) وهم زراع أولو نشاط ينزعون للحرب، ومن الجذع الهندي– الأوربي ويسكنون الصقع الجبلي إلى الشرق من الخليج الفارسي قد قاموا ضد أسيادهم الميديين تحت امرة زعيمهم قورش (Cyrus) وبعد انقضاء أربعة عشر عاما (٥٣٩) يغزون بابل. وتمر ألفا سنة من السيادة وإذا الأمبراطوريات السامية تكون قد هوت ولون آخر من المدنية جديد، من أصل آرى يبسط سلطانه على الشرق[١].

١٠– وقد أدى امتداد سلطان الأمبراطورية البابلية وسيادتها التجارية في آسيا الغربية إلى انتشار ثقافتها على مساحة أعظم مما كانت عليه الحال مع مصر. وكانت تلك الثقافة أدبية وليست فنية ولو أن قطع الأحجار الكريمة وصناعة النحاس والتطريز وما إلى هذه الفنون ازدهر في بابل وغدت حلل بابل مضرب الأمثال في أرجاء العالم القديم. وكانت العمارة الوطنية من الآجر ولا شكل لها، نسبيا، وكانت المعابد، وهي أبنيتهم الرئيسية، تقوم على منصات مستطيلة في طبقات متتابعة إلى علو عظيم. وبعد ذلك استخدم الأشوريون أحجارهم الوطنية وزينوا قصورهم بتمثل هائل وبالرسوم البارزة بروزا وطيئاً التي يعهدها كل زائر للمتحف البريطاني. وتنهض ثلاث مسائل فيما يتعلق بتأثير الثقافة البابلية على أهم مدنيات الأزمن القديمة. أولا يوجد تشابه وثيق بين تقاليد البابليين الدينية وتقاليد العبريين كما جاءت مدونة في الفصول الأولى من سفر التكوين وفيها سرد العبريون كيف أن أجدادهم في مرحلة بداوة قطنوا مدة من الزمان بكلديا. ومن العسير أن نحكم حكما قاطعا عن مدى رجوع هذه القرابة في التقاليد إلى الاتصال المباشر مع بابل في الأزمن البعيدة، وإلى أي مدى للاختلاط الذي حدث بعد ذلك مع شعوب كنعان الذين تمثلوا، على اليقين، جيانة بابل المتأخرة وإلى أي مدى، مرة أخرى، للاتصال المباشر زمن الأسر[٢]. ومهما يكن من أمر هذا، فيما يتصل بتفصيلات التقاليد الدينية العبرية

(١) كان قورش ملك اتران في عيلام ينتمي إلى عشيررة فارسية من الأكمينيين، وفي سنة ٥٥٣، بعد أن غزا ميديا، نادى نفسه ملكا على الفرس. وفي سنة ٥٤٦ دارت الدائرة على كروسس (Croesus) ملك ليديا، الذي كان قد شن الهجوم عليه وأصبحت كل آسيا الصغرى في قبضة يدي قورش. ويرجح روجرز (Rogers) تاريخ سقوط بابل إلى سنة ٥٣٩.

(٢) ينقسم العلماء في الرأس عن هذه المسألة، والقصص المنوه عنها يحويها ذلك القسم من سفر التكوين الذي وضع في يهوذا فيما يرجح، في القرن التاسع والمعروف باسم قصص يهوه (ى). أنها على التحقيق قبل السبى، ويجب الرجوع بسببها إلى أحد الأمرين الأولين اللذين جاءا في النص، وفي أثناء السبى أثرت بابل مرة أخرى على الثقافة العبرية في

وفرائضهم، تبقى الحقيقة الواقعة هي أن تطور ديانة العبريين على أيدي النبيين إلى ديانة توحيد روحية كان خلقا مبتكرا متميزاً جاءت به العبقرية الدينية العبرية كما كانت فلسفات أفلاطون وأرسطو التي جاءت بها عبقرية اليونان العقلية. ثانيا يوجد موضوع تأثير علم الفللك الكلدي على الفكر العلمي الإغريقي. لقد سجل الكلديون مشاهدات دقيقة عن مواقع الأجرام السماوية لمدة تربو على ألفي سنة. وتعرفوا الكواكب السيارة وسموها وقرروا، بالطريقة التجريبية، ترادف حدوث الكسوف والخسوف الدوري واخترعوا المذهب الستيني في الحساب[1] وقد صنعوا المزولة وهي أداة تبين بظلها، الانقلابين والاعتدالين. ولقد عرف الإغريق هذه المعطيات وعلى غرار هندسة المصريين التجريبية، حفزتهم على البحث العلمي. ولكن

هنا أيضاً، مجرد الملاحظة ليس بعلم. ويتضح هذا عندما نبحث عن النفع الذي حققه الفلكيون البابلوين من هذه السجلات. وبينما كشف الإغريق في قرن واحد من الزمان السبب الحقيق للكسوف والخسوف، فإن البابليين لم يواتهم أبداً حتى أن يصلوا إلى التفسير المعقول لهما. لقد استخدموا نعطياتهم لأغراض فلكية خالصة فإذا حدث أن كسوفاً أعقبه، مرة، حرب مع عيلام، فإن حربا مع عيلام كان قد تنبيء به من حدوث الكسوف. والملاحظات مهما كانت دقتها، التي ينتفع بها لمجرد أن تكون أساسا لاستنتاجات يجمح فيها الخيال لا يأتي من وراثها معرفة علمية [2]. وأخيرا كان للمدنية البابلية تأثير صادق في حياة العالم الغربي الصناعية والتجارية والطريق العام التي تسير حول شمال الصحراء السورية عبر آسيا الصغرى إلى سرديس وساحل بحر أيجا كانت حلقة الاتصال بين الشرق واليونان. وعلى الأخص، لاقت العملة والمقاييس البابلية في الألف سنة الأولى انتشار واسع النطاق في آسشيا وعالم البحر المتوسط. واستخدام الهنود والإغريق، على السواء، المنا البابلي (**Mna**) الإغريقي كمعيار للوزن. وعلى هذا فمنذ

الدين والقانون جميعا. وفي تاريخ آخر لاحق آدى امتزاج الشرق والغرب تحت الحكم المقدوني إلى مزيد من تثير الفكر الديني البابلي على الفكر الديني عند العبريين ويمكن اقتفاء أثر ذلك على سبيل المثال، في أدب الرؤيا العبري، في القرنين الأخيرين قبل الميلاد وكذلك في أفكار الغنوصية في بكور أزمنة المسيحية.

(١) انظر بورنت (**Burent**) الفلسفة الإغريقية الأولى، الصفحات ٢١ وما بعدها والتذكرات. وقد أقرت بحوث الأب كجلر (**Father Kugler**)

(٢) يجب أن نقيم جداً يفرق بين علم التنجيم غير العلمي عند الكلديين لأوائل و(١) الأثر المتأخر لعلم التنجيم ذاك، وعلى الدين الإغريقي الشعبي، و(٢) التطور العلمي لعلم الفلك تحت التأثير الإغريقي في بابل، وكلاهما لاحق للغزو المقدوني.

زمن باكر في بابل إلى الشرق كما في غرناطة إلى الغرب ولج السامي دوره التاريخي، في تاريخ البشرية الاقتصادي.

٤- الحيثيون والساميون الغربيون

١١- رأينا كيف أن الثقافة السامية وضعت طابعها على مدنية مصر واستغرقت مدنية السومريين الأوائل في وادي دجلة- الفرات. وكانت الحال على هذا المنوال في الأقاليم المحصورة بين بلاد ما بين النهرين والبحر المتوسط. وكانت لغة ودين وثقافة سوريا وكنعان سامية منذ أزمن بعيدة جدا، ويمكننا أن نميز فروعا متباينة من هذه الأرومة: الساميين الجنوبيين في بلاد العرب واثيوبيا، والساميين الأواسط في كنعان، والساميين الشماليين (الأراميين) في سوريا والشرقيين في بابل وآشور، ولكن كلهم على السواء كانوا أولا بيت عربي واحد وأواصرهم المتبادلة تبرز في وضوح كأواصر العديد من الجماعات التيوتينية في أوروبا القرون الوسطى وأوربا الحديثة. وعلينا أن نتحدث الآن هنا عن الفرعين الشمالي والأوسط ويشمل الأول شعوب سوريا والثاني الفينقيين، والقاطنين بكنعان ومن بينهم العبريون. هذه جميعها، بالنظر إلى موقعها الجغرافي بين امبراطوريتين عظيمتين، تقوم بدور الدول الحاجزة، ولما كانت الوسيطات في التجارة وبيادق اللعبة السياسية لجارتيهم اللتين تفوقانهم قوة، فإن تاريخها تقرر مصيره، للخير أو الدمار، علاقتها بأشور ومصر.

١٢- وبين هذه الوسيطات قامت أمة، تكاد على التحقيق ألا تكون سامية، بلغت، طوال قرون كثيرة، مرتبة دولة تمت لها القيادة في آسيا الغربية. وتبين سجلات الألف سنة الثانية، المصريين (في عهد الأسرة الثامنة عشر) وبعد ذلك، هونا ما، الأشوريين يصاولون على الفرات الأعلى شعبا يطلق عليه اسم خيتا أو الحيثيين [١]. ان أصلهم يحيط به الغموض ونقوش كتابتهم التي اتخذت أشكال صور لم تفسر بعد وتاريخهم يزخر بالمشاكل التي تنتظر حلا. و يظهر من المحتمل أن بعضهم، أن لم يكونوا كلهم، كانوا يتحدثون بلغة هندية- أوروبية ودخلوا آسيا الصغرى من الدانوب الأدنى وجلبوا معهم ثقافة ولغة خاصتين بهم، أتت عليهما بالتحوير، بعد

(١) أنهم يظهرون باسم خيتا في المدونات المصرية وحتى (**Khatti**) في الأشورية وفي سفر التكوين «أولاد حث» (التكوين ٢٣) وفي غيره من أسفار العهد القديم باسم الحيثيين.

ذلك، المؤثرات السامية التي كانت سائدة في أرجاء الشرق الأوسط[١].

وكان أول مركز لما استعمروا من أراض، هضبة كبدوكية (بلاد القباذق) حيث كشف عن الكثير من الآثار الحيثية، ثم اتسع نطاقها حتى شمل كيليكية وشمال سوريا وشعوب غرب آسيا الصغرى (أفروجيا وليديا)[٢] حدث هذا بين عامي ١٧٠٠ و١٢٠٠ ويظهر أنهم حوالي هذا التاريخ الأخير، فقدوا سيادتهم على آسيا الصغرى والطرق إلى تجارة البحر المتوسط والبحر الأيجي، وربما كانت ترتبط هذه الحوادث بالغزوات الشمالية في منطقة بحر إيجا وسقوط سيادة كريت البحرية. ومنذ هذا الوقت فصاعدا حول الحيثيون السوريون وأسراد آسيا الصغرى الجدد (ربما كانوا أفروجيين) نشاطهم إلى الشرق، والجنوب الشرقي وقد اجتذبتهم موارد ما بين النهرين الغنية. ومن مركز رياستهم الجديد في قرقميش[٣] في أعالي الفرات أصبحوا يسيطرون على الطرق البرية العامة بين الشرق والغرب. وتعاملوا على قدم المساواة مع مصر وأشور كليهما. ولعدة أجيال رأسوا تحالفا أوصد الطريق أمام توسع الساميين، الساكنين بلاد ما بين النهرين، صوب الغرب وفي القرنين التاسع والثامن انخذلت قوتهم تحت وطأة جيوش أشور وأوقع عليهم الضربة الفاضية كروسس (**Croesus**) ملك ليديا في الغرب، قبل مجيء الفرس لزمن وجيز.

١٣- وإذا تجاوزنا الولايات السورية- وهي سامية دون نزاع- التي كانت تقع على طريق القوافل من أشور إلى البحر المتوسط وأصابت حظها من الثقافة في مصر بصفة جزئية، ولكن أساسيا من البابليين، فإننا نصل إلى الأراضي الساحلية في كنعان الشمالية حيث كان يستوطن، على الأقل منذ السنوات الألف الثالثة، الفينيقيون الساميون. وكانت حياتهم بأجمعها تتركز في التجارة البحرية. ولما كانوا يستحوذون على رقعة من الأرض ضيقة، في موطنهم، فقد أقاموا

(١) بعض الكتابات المسمارية من بوغاز- كيوي (عاصمتهم في كبدوكية) ساكية وبعضها فير ذلك. كانت السامية اللسان الشائع في التواصل الدولي في الشرق. وقد زجدت النقوس الهيروغليفية في آسيا الصغرى وكذلك في شمال سوريا ويظهر أنها جاءت متأخرة عن الخط المسماري، ولقد خطت الدراسة الجدية للآثار الحيثية خطوات عظيمة في النصف قرن الأخير. وكان روادها رايت (**Wright**) (١٨٧٢) وسايس (**Sayce**)، انظر كاولي (**Cowley**) (الحيثيون) محاضرات اشفايش ١٩١٨ (**Schwetch Lectures**).

(٢) وجدت آثار حيثية في أيوك في شمال آسيا الصغرى حتى حمص في سوريا، ومن الفرات في الشرق حتى أراضي ساحل أيجة في الغرب.

(٣) جاء أول ذكر لقرقميش في المدونات المصرية حوالي سنة ١٤٨٠ وكانت مركز دولة الحيثيين بين القرنين الثاني عشر والتاسع. يجب أن نذكر الحيثيين أصلا كحاجز بين بابل وأشور من جانب وآسيا الصغرى وبحر ايجه من الجانب الآخر.

الحصون والمحطات التجارية في محاذاة الطرق العامة الداخلية وخاصة حول شواطيء البحر المتوسط. وكانت صيدا في الأزمن الأولى، المدنية الفينيقية الهامة.

وحوالي القرن الثاني عشر تخلت عن مركزها لصور. وأنا نقرأ في العهد القديم عن التحالف الذي عقد في القرن العاشر بين داود وسليمان وحيرام أمير صور. وكان الفينيقيون يسكنون دول– المدن، تحت حكومة ملكية. وبهذا كانوا يستبقون، ولو في نتائج جد متباينة، دول– المدن في العالم الهليني. ويقع عصر القوة البحرية الفنيقية العظيمة وجلائل أعمالها التجارية بين سنتي ١٢٠٠ و ٨٠٠ في أعقاب سقوط قوة منويا البحرية في البحر المتوسط وقبل نهوض اليونان. وقد كانت سفائن فينيقية التجارية العظيمة تبحر صوب الغرب إلى ما وراء عمد ملقارات (جبل طارق) في عرض المحيط الأطلنطي، واستوطنوا تارشيش (طارطسوس(Tartessus) على مقربة من قادس (Cadiz) وجابوا ساحل مراكش بحرا وتوغلوا أيضاً صوب الشمال إلى البحر الأسود، وأينما أبحروا، كانوا يقيمون المستعمرات، في صقلية وأسبانيا وأفريقيا وأقدم ما جاءت به المدونات كانت أوطيقا في صقلية وأسبانيا وأفريقيا وأقدم ما جاءت به المدونات كانت أوطيقا في أفريقيا الشمالية (حوالي ١١٠٠) وأبعدها صيتا كانت قرطاجنة وبترادف الزمن نبذت قرطاجنة اعتمادها على المدينة وطنها، صيدا وبسطت سيادتها على الأراضي التي تجاوزها في أفريقيا وأنشأت مستعمرات لها ووضعت حكرا على التجارة في مياة البحر المتوسط الغربية. ولا تزال باقية بين أيدينا نسخة إغريقية ترجع إلى القرن الخامس لرحلة قام بها حنو القرطاجني إلى ساحل أفريقيا الغربي.

ومنذ القرن السابع كانت قرطاجنة مشتبكة في صراع تجاري لا ينقطع مع المدن الإغريقية في صقلية وفي الغرب استمر حتى القرن الثالث عندما استدعت الحال مجابهة قوة روما التي كانت تسير في صعود. وسنعود لقصة هذا الصراع في فصل آت. وقد وجد الفينيقيون في مناجم الفضة في أسبانيا مصدراً لثروة هائلة. وكان أحد نتائج هذا الكشف هو انخفاض قيمة الفضة بالنسبة لقيمة الذهب، وقد كانت حتى ذلك الزمن يعسر العثور عليها في أسيا وأفريقا، كمعدن له أعلى قيمة. واحتكر الفينيقيون أيضاً حينا من الزمن، صيغ الأرجون الذي يستخرج من الرخويات البحرية. وبعد القرن الثامن فقدت فينيقية استقلالها. وفي زمن لاحق أمدت أسيادها الجدد الفرس بالأسطول. وكنا نغتبط أن يكون لدينا مزيد مزيد من المعرفة عن الاقتصاد الداخلي لهذه المدن العظيمة حيث كان تصادم المصالح مصدرا للقلق الدائم. ومع كل ما وصلوا إليه من حذق

في التعدين وصناعة المعادن وجسارتهم في البحار، فإن الفينيقيين لم يكونوا مبتكرين. لقد كانوا الوسطاء العظام في زمنهم وكان عملهم ببساطة، أن يوزعوا منتجات البلدان الأخرى على شعوب عالم البحر المتوسط.

١٤– ويدين سكان كنعان الساميون، إلى جنوب فينيقية بأهميتهم التاريخية لما كان يربطهم من آصرة وثيقة مع العبريون على تخوم مصر، وانقاذهم على يد موسى (عليه السلام) في الأسرة التاسعة عشرة، تجولوا في صحراء سيناء إلى أن نجدهم يستقرون في قادش في جنوبي كنعان. وسنرى فيما بعد كيف أن موسى كان قد أوجد أمة عبرية باقراره عبادة يهوه كدين قاصر على الأسباط العبرية. وبعد ذلك ببضعة أجيال، عندما دخل العبريون كنعان، تشبعوا بثقافة السكان الأولين وتحت التأثير الكنعاني، أبدلوا عادات البداوة بحياة زراعية مستقرة، وفي ختام الألف سنة الثانية نجم عن الكفاح مع الفلسطينيين وهم شعب غير سامي وربما كانوا مهاجرين من كريت، قيام النظام الملكي في عهد شامول البنياميني واستهلال حقبة قصيرة من الرخاء الدنيوي. واحصم داود الشعوب التي تربطها وشائج القرابة، مواب، وادوم، وعمون، والممالك السورية إلى الشمال، وفي عهد خلفه سليمان، نمت التجار وصار للعبرانيين اتصال أكثر قربا بالثقافتين المصرية والبابلية، وأصبحت الحياة أكثر قربا بالثقافتين المصرية والبابلية، وأصبحت الحياة أكثر ترفا وحجبت، ببساطة، العادات القديمة بمدنية البلاط الحضرية. وبموت سليمان (حوالي ٩٣٣) أعلن الاسرائيليون الشماليون يقودهم سبط افرايم استقلالهم عن الجنوب (يهوذا). ودامت الملكية المنقسمة في أقدار متقلبة، مدة تزيج على مائتي عام، وقامت المملكة الشمالية، وكانت أقوى المملكتين، بدور عظيم في السياسة الدولية في عهد بيت عمري الذي سجلته الواح أشور، ولكن كان من الواضح أن الموضوع موضوع زمن ليس غير إذ أنهم وقعوا تحت وطأة جيوش الشرق. وفي سنة ٧٢١ سقطت السامرة، أمام سرجون الأشوري وتوارت عن الوجود المملكة الأفرايمية. وأنقذ يهوذا، فترة من الزمان. اعترف ملوكها بولائهم في الوقت المناسب، وفشل سنخارب في مصر (٧٠١) إلى أن حلت بابل محل أشور كدولة دانت لها السيادة في الشرق. ثم على يدي نبوخذ نصر حلت ساعة مصيرها المحتوم (٥٨٦) واستطال زمن الشعب العبري في الأسر عند أنهار بابل إلى أن حملهم قورش مؤسس الأمبراطورية الفارسية على العودة إلى استيطان موطنهم القديم (٥٣٨) وكان في هذا العهد أن العبريين– وقد أصبحوا على عقيدة دينية محضها الألم وشريعة تجددت تحت تأثير المعلمين الذين ينزعون إلى النبوة، ولو أنه كان لهم شأن يسير في

المجاملات الدولية الدنيوية– استهلوا رسالتهم الروحية للبشرية.

وسنتحدث في الفصل القادم عن عبقرية العبريين في الذين وعن أثرهم في مدنية العالم.

٥- كريت

١٥– ألقينا نظرة شاملة على مصر وبابل وأشور وكنعان وسوريا حتى النصف الأخير من القرن السادس ق.م. عندما طوتها امبراطورية فارس القوية بين حناياها. ولكن لا يوال علينا أن نتحدث عن سلسلة أخرى من مدنيات قامت في كريت وجزائر بحر إيجا وشواطئه، لقد سبق أن ألمعنا إلى الغارات التي كان يشنها جوابو البحار على مصر في زمن الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين. ترى من كان شعوب البحر هؤلاء الذين تسميهم الآثار المصرية (داردنويين واقيوشيين) وهما اسمان يقاربان اسمي درادنيين (= الطروادبين) واخائيين، اللذين جاءا في هومر، وثمة طرافة خاصة يلمسها المتتبع لتاريخ هذه السلالات الايجية الأولى علاوة على طرافة الكشوف العجيبة التي رفع النقاب عنها علماء الآثار في السنوات القريبة، في أنهم كانوا السابقين الأولين للأغريق. فمنذ سبعين سنة خلت، لم يكن يعرف إلا النذر اليسير أو لا يعرف شيء ما على التحقيق، عن حياتهم وتاريخهم. وكان الرائد لعلم آثار ايجا هو هينريش شليمان (**Heinrich Schiemann**) لقد أثارت خياله وهو صبي في حانوت تاجر في ألمانيا، القصص التي جاءت في أشعار هومر، فعلم نفسه الإغريقية وأصاب نجاحا في العمل واكتنز مالا وفيرا وكتنز مالا وفيرا وكان هدفه الأوحد هو أن يحقق بالبحوث في نوقع طرواده الهومري صدق قصص الألياذة وفي حصار لك في لبطرواد (شمال عرب آسيا الصغرى)، موقع طرواده كما ذهبت إليه الشائعات. وفي ميسنيا (**Mycenae**)وفي طرونس (**Tiryns**)، في بلوبونيسس، أزاح التراب عن معالم مدنية عظيمة يرجع تاريخها إلى الألف سنة الثانية قبل الميلاد [١] واقتفى العلماء من جميع الأمم خطواته ويأتي كل عام بمزيد على كنوز المعرفة الوفيرة التي كشف عنها على هذا المنوال، عن حياة منطقة ايجا الأولى وثقافتها، ويمكننا هنا فقط أن نرسم الخطوط المجلة لبعض النتائج الرئيسية التي كشف القناع عنها.

---

(١)تعرف شليمان (**Schliemann**) طرواده الهومرية على أنها الثانية (من أسفل) من سلسلة المدن التي كشف عنها في حصارلك. وفي الواقع، اتضح أن هذه المدينة ترجع إلى تاريخ سابق كثيرا (حوالي ٢٠٠٠) وأن المدنية الهومرية كانت المدنية السادسة أو ربما أوائل السابعة في السلسلة (حوالي ١٤٥٠– ١٢٠٠).

١٦- في غضون السنوات الألف الثالثة قامت في جزيرة كريت مدنية باهرة متباينة الأشكال اتسع نطاقها على مدى الزمن حتى شمل جزر بحر ايجا ورودس وقبرص وشبه جزيرة اليونان والجزائر الأيونية وتتشعبت أفرع لها بعد ذلك في سوريا الشمالية وصقلية وفي غربي البحر المتوسط وأدت إلى التواصل مع فلسطين ومصر. وأطلق عليها اسم منوية (**Minoan**) باسم منوس (**Minos**) واضع القوانين وصديق زيوس (**Zeus**) الذي جاء في الأساطير الإغريقية وتوجد ذكرى سيادته على البحار محفوظة في صفحات ثقوديدس (**Thucydidos**)[١].

والسلالة التي قطنت بكريت في أزمن ما قبل الهلينية لم تكن آسيوية ولكنها من سلالات البحر المتوسط وتنتمي على ما يرجح كثيراً إلى الأرومة غامقة اللون طويلة الرأس، قصيرة القامة الناحلة الجسم التي كان موطنها الأصلي في شمال أفريقيا. أن كريت حلقة اتصال طبيعية بين أوروبا وآسيا وأفريقيا وأصبحت على الزمن مركز امبراطورية بحرية تجارية قوية. وكانت مدنيتها لها لون يتميز عن مدنيتي مصر وبابل وبلغت ذروتها أولا عند استهلال الألف سنة الثانية (الفترة المنوية الوسطى الثانية) عندما كانت الأسرة الثانية عشرة تتولى الحكم في مصر ومرة أخرى، بعد ذلك ببضعة قرون (الفترة المنوية المتأخرة)، في وقت معاصر للأسرة الثامنة عشرة المصرية. وعلى هذا فقد ظل ازدهارها متواصلا قرابة ٦٠٠ عاما.

ولقد كشفت الحفائر الحديثة في كنوسوس (**Cnossus**) وفايسطس (**Phaestus**) وغيرهما من الأمكنة عن قصور ملكية رائعة تزخرفها النقوش البارزة المنحوقة والصور وتحوي كنوزا من صناعة المعادن، من الذهب والبرنز والنحاس ودمي من العاج والصيني وجواهر محفورة وخزفا في بدع نادر، وكلها تقدم الأدلة الكافية على السمتوى العالي الذي وصلت إليه الثقافة والتهذيب. وقصر كنوسوس بما فيه من تيه الغرف، طبقات بعضها فوق بعض والمجازات والساحات، هو في ذاته مدينة وهو قصر التيه (االبورنت) الحق، الذي كان فيه الأسرى، كما جاء في الأسطورة واستبان الآن أنها سجلت صدقها التاريخي، يقادون في ميدان مصراعة الثيران كقرابين للوحش المقدس الذي كان معبود كريت. وكان نظام المصارف والمرافق الصحية خليقين بالقرن العشرين بعد الميلاد. وعندما استعرضت أمام عالم فرنسي أردية النساء في صور الحيطان هتف: «ولكن

---

(١) ثقوديدس (**Thuc**)- ١، ٤- قابل هيرودوت ١ و ١٧١- ١٧٣. ينسب قدماء الإغريق الكثير من قانونهم، (مثلا تشريع لكزرجس (**Lycurgus**) في اسبارطه) وفنهم (أسطورة الصنع دبدالوس (**Daedalus**) أول طيار، الذي أقام اللبورنت لمنوس، والتماثيل التي تتحرك من تلقاء نفسها) والدين (ولدزوس في مغارة دكتي (**Dlete**) إلى أصل كريتي.

انهن لباريسيات«mais ce sout des Parisiennes ولقد صورن في لبوس محكم بذراعات مطرزة قصيرة وأردان واسعةوقمص طوال الشق من الأمام ونطق صغار الصدار خيطت عند أعلى حوافها شرط أو اتخذت شكل ناقوس، وبنيقات عالية كتلك التي كان يتخذنهن سيدات الحاشية في انجلترا على عهد اليصابات، وكانت شعورهن مزرفنة (مجدونة كالزرفين وهو الحلقة) ومجعدة ولها أربطة من الدانتلا. وكن يلبسن قبعات مظلة تزينها شرط وورود. وكان الرجال يحلقون شعر الوجه ولهم شعر طويل مضفور في حلقات وله عقائص على الكتفين ويرتدون سروايل وأحذية عالية متينة ويتمنطقون بأحزمة عند الوسط وعلى غرار النساء يتزينون بالعقود والدما لج.

وكان مهندسو كريت المعماريون والبناءون بالحجر ينافسون أولئك الذين كانوا في ممفيس وفي طيبة. وكان الكريتون أول شعب معروف في أوربا استخدام الكتابة، وقد وجدت نقوش في حروف تشبه الهيروغليفية وحروف خطية على السواء، بوفرة.. وعندما يثبت أن الجهود التي بذلت لتفسيرها حققت نجاحا فسنعلم المزيد من التاريخ المفصل لعالم البحر المتوسط الباكر. ومع هذا فإن ما نعلمه علم اليقين، هو أنه قبيل منتصف السنوات الألف الثانية كانت ثقافة متناسقة الشكل قد مدت رواقها إلى حد بعيد فيما يلي تخوم المنطقة الايجية، وإلى مراحلها المتأخرة ينتمي كشوف شليمان في طرونس (Tiryns) وميسنيا (Mcenae) ومن المحتمل أنه عندما هوت كريت من عليائها ورثت ميسنيا موطن أجاممنون الهومري نصيبا من قوتها البحرية. ومهما يكن من أمر هذا، فإنه توجد أدلة واضحة على أنه في تاريخ يقرب من سنة ١٤٠٠ حلت بالمدية المنوية في كريت جائحة أطاحت بها. وتقص اطلال قصر كنوسوس المتفحمة قصتها. ويرجع الكثير إلى فعل الزلازل، ولكن الغزاة العمج من الشمال كانوا يتداعون في جماعات، متواليات على العالم الإيجي– وكانوا محاربين إجلافا يتفوقون بالعدة والسلاح، وأخيرا، بمعرفة الحديد، ولم يعنوا كثيراً بالثقافة الرائعة التي أطاحوا بها ومن المحتمل جدا أن هؤلاء القوم، الذين يتحدثون لغة هندية– أوروبية سلفا للإغريق الذين يعرفهم التاريخ. وجاء في أعقاب هذا عصر ظلام استطال زمنه إلى أن نجم عن امتزاج بقايا المدنية القديمة بطبع وعبقرية الأسياد الجدد مولد ثقافة اليونان التاريخية[1].

---

(١) انظر ما يلي فصل ٤: يذهب بعض الثقاة إلى أن اليونانيين ورثوا ثقافتهم وحتى لغتهم من المنويين (Minoans) (أنظر برنت (Burnet) (Early Greek Philosophy) الصفحة ٢ وما يليها) وأحياء الدين الشعبي (وهو يتميز عن فرائض العبادات الأولمبية) في القرنين السابع والسادس يشير إلى أحياء التقاليد الدينية المنوية التي كانت تتركز في عبادة آلهة في العالم السفلي. وكشوف كريت في القرن الحالي سترتبط أبدا باسم سير أرثر ايفانس (Sir Arthur Evans).

١٧- كانت شواطيء آسيا الصغرى الايجية كما سنرى وشيكا، اغريقية من أبعد الأزمنة. وعندما قامت المدن التجارية الغنية في القرنين الثامن والسابع ق. م. كانت هدفا طبيعيا لحسد أمراء الاصقاع الداخلية. أن آسيا الصغرى هضبة تنحدر منها الوديان إلى الساحل الغربي تعزلها سفوح الجبال وقد حددت طبيعة البلاد من جبال وسهول تاريخها. أن المدن البحرية، وقد عزلت الجبال الواحدة عن الأخرى، كانت فريسة سهلة للغزاة من الهضبة الداخلية. وفي السنوات الألف الثانية كان الحيثيون ومن يتبعونهم على الهضبة قد وسعوا نطاق سلطانهم حتى السواحل الايجية. وفي القرن الثامن اجتاح القمريون[١] الرحل الهابطون من سهول السهوب (Steppes) في شمال البحر الأسود، آسيا الصغرى وعملوا في المدن الإغريقية المكتئبة من البحر تخريبا ونهبا. وقد دمروا مملكة فروجيا القديمة وضربوا دولة ليديا الفتية ضرب قوية. وكانت ليديا في ذلك الوقت (من القرن الثامن إلى السادس ق. م) الدولة الحاجزة بين العالم الإغريقي وامبراطوريات الشرق العظيمة. وقامت أسرة ليدية جديدة تثقف أمراؤها بالثقافة الإغريقية وأعطوا الإغريق مقابل ذلك ما يميز في المعتاد بأنه اختراع الليديين المبتكر الوحيد، العملة ذات الطابع التي حلت محل المعدن ذي الوزن الذي لا يحمل طابعا والذي كانت تتداوله الثقافة البابلية وغيرها من الثقافات الأولى [٢]، وحوالي عام ٥٦٠ ق. م أصبح كروسس ملكا على ليديا. وطالما كان يخضع الإغريق على سواحل ايجا في آسيا، فإنه كان يحكمهم حكما متحررا ووضع تحت رعايته الدين والثقافة الإغريقيين. وعندما قهر قورش الفارسي ميديا (عام ٥٤٩) شن كروسس دون أن ينظر معاونة مصر وحلفائه الآخرين، الهجوم على قورش وأغرمته الهزيمة مملكته (٥٤٦). وصحب سقوط ليديا خضوع الإغريق الآسيويين وأصبحت امبراطورية فارس تمتد من الهندوكوش إلى بحر ايجا.

٦- امبراطورية فارس

١٨- في أزمن ما قبل التاريخ ترك فرع من الأسرة الهندية- الأووبية موطنهم الأصلي في

(١) ربما كان هؤلاء القمريون بدوا من شمال البحر الأسود. كان العهد عهد غزوات من الشمال. وفي القرن السابع اجتاح السيثيون (Scythians) الذين طردوا القمريين (Cimmerians) سوريا وكنعان (راجع هيرودوت ١: ١٠٣ وما يليها وتنبوءات ارميا وصفنيا التي أشير إليها في الفصل التالي ٩).

(٢) من المحتمل أن العملة المطبوعة قد ترجع إلى تاريخ أسبق وربما كان منشؤها فروجيا (Phrygia) وعلى أية حال فإن أصلها يتصل بطريق القوافل العظيم الذي كان ينحدر من هضبة آسيا الصغرى الداخلية إلى ساحل ايجا وكما جاء في الأساطير بحقل الذهب في سردس Sardis.

أراضي السهوب شمال قزوين وهاجر في اتجاه جنوبي شرقي. ولقد سار بعضه عبر ممر خيبر إلى البنجاب بينما استقر البعض الآخر في شرق العضبة الإيرانية العظيمة. وفي بواكير السنوات الألف الثانية، يممت هذه القبائل الإيرانية (سمت نفسها آرية ومن هذه التسمية اشتق الاسمان المحليان آريان وإيران) صوب الغرب إلى المرتفعات التي تحف سهول ما بين النهرين وكلديا. وبعد ذلك بألف سنة، نجد الميديين إلى الجنوب من بحر قزوين والبرتيين في خراسان والبكتريين في منحدرات الهندوكوش الشمالية والفرس في الجبال التي تشرف على الخليج الفارسي إلى الشمال الشرقي. وكانت سلاسل جبال الهندوكوش وسليمان تقوم حاجزاً من جهة الهند. ولقد أحضر هؤلاء الآريون معهم الحصان وهو من نتاج سهول السهوب ولم يكن للبابليين أيام حمورابي عهد به ولكن استخدمه الأشوريون كعدة حرب[1]. ولقد حملوا معهم كذلك دينا متميزا، يتناقض تناقضا يسترعى البال مع دين جيرانهم الساميين المتسوطنين السهل وكان يختلف أيضا_ على الرغم من أساس مشترك دأب على المحافظة على نفسه بين الفرس إلى يومنا– عن دين الآريين ذوي قرابتهم في الهند[2]. وبينما أخضعت العقيدة الهندية كل الآلهة الأخرى إلى اله أعظم أوحد فإن الدين الإيراني كان له مظاهر ثنائية[3] وكان مجمع آلهتهم يأتلف حوا قوتين لهما السيادة، الواحدة قوة الخير وهي إيجابية خالقة ومصدر النور والحياة والأخرى قوة الشر وهي الظلمة والموت، وهي سالبة، وكانت القوتان تسميان على الولاء، أهو رامزدا (أورمزد) واهريمن. والصراع خارق العادة، بين هاتين القوتين الالهيتين غدا ينعكس في مجرى تاريخ البشر. وبين الاثنتين، يقف الإنسان وقد وهب الحرية الخلقية التي يتوقف على استخدامها مصيره في العالم الذي يقع فيما يلي للحد. وكان الدين الإيراني ينزع إلى آداب السلوك، ولم تكن آلهته كألهة الآريين الهنود. معان مجردة تصورية ولكنهم كانوا شخوصا خلقيين ولم يكن هدف الجهد الإنساني الاندماج التألهي في مطلق وحدة الوجود ولكن سعادة أبدية في السماء حيث يحكم أهورا مزدا وما كانت الحياة الإنسانية وما يلازمها من فروض اجتماعية وأفراح وأحزان بخدعة ولكنها المجال للعمل في همة

---

(١) كما يدل على هذا الاسم البابلي للحصان «جحش الشرق».

(٢) بين العناصر المشتركة وعبادة ميترا وهو اله الشمس وذابح المارد (اندرا الهندي) وعبادة النار والاعتقاد بشرعة قدر يتفوق على الالهة والإنسان. أنظر ف. كيمون (**F. Cumont**)– ص ١–٣ **Les mystères de mithra**) وكان وارونا أعظم اله خلقي في مجمع الألهة الفيدية تطوراً موازيا لاهور مزدا ومن أصل آرى مشترك.

(٣) ولكن براهما الأعلى في دين التوحيد الهندي كان لا سبيل للوصول إليه وكان الناس مساقين إلى استرضاء الهين أقل شأنا هما سيوا ووشنو.

والقيام بالواجب الخلقي. وفي اعترافه بقيمة الثقافة الدنيوية واتجاهه إلى غاية يكون فيها الخلاص الفردي وليس الخلاص القومي، فإن دين إيران كان يختلق عن دين العبريين وإن تشابه معه في تعليمه الخلقي الرفيع. وكان الفرس يتسامحون مع الديانات المحلية عندما لا تناصب دينها العداء ومع هذا فإن عقيدتهم انتشرت صوب الغرب بتوسع امبراطوريتهم. وفي نقاوته كما نهض به النبي زرداشت، كان دون ريب عقيدة القلة أكثر من أن يكون عقيدة الكثرة، وكان من شأنه، بين أيدي المجوس (وهم طبقة من الكهنة) أن يتدهور إلى فرائض رسمية بينما أصبحت الجماهير تفسر تعليمه في صيغ ديانة ما قبل زرداشت القديمة[1]. وكان مرجع قوته الحقيقة إلى إصراره على المسئولية الخلقية. ويستعرض فرص التاريخ نوعا نبيلا من الخلقية، لقد ولدوا حكاما للماس وكانوا أولى كبرياء ومسلك يتسم بالأبهة والفخامة محبين للولائم والصيد وذوي انسانية في الحرب ولهم أفضال على الشعوب التي عنت لهم وعلى أهبة أن يقابلوا الأفكار الأجنبية بالتسامح أو قد يستحوذون عليها. ولما غزا مقدونو الإسكندر في القرن الرابع أمبراطوريتهم كان يمكنهم أن يروا في أشراف الفرس، وهو في الواقع ما كان حقا، انسباءهم القدامى. ولقد أظهر الفرس في الفن وفي العمارة، القليل من الابتكار وكانوا ينقلون عن النماذج البابلية. أما التجارة فقد حقروها لأنها كانت غير خليقة بالرجل الحر. وكانت الجندية والزراعة والفلاحة أعمالهم التقليدية. وكان الكذب أعظم الجرائم شناعة. ولقد لخص هيرودوت تدريب شبابهم في في الركوب والرمي بالقوس والصدق في القول[2].

١٩- ولقد اتخذت فاجعة الأمبراطورية الفارسية السمت الذي أصبح مألوفا في تاريخ الشرق، الغزو فالتنظيم والاحتفاظ بالقوة احتفاظا لا يريم فالتدهور فالسقوط، تتابع كلها في سلسلة منطقية. ويمثل قورش المؤسس وأحد بناة الأمبراطوريات العظام، في التاريخ، فترة الغزو، وعند موته عام

---

(1) عاش زرداشت على الراجح حوالي عام ٦٥٠ ق.م وتحوي الاسفار الفارسية المقدسة التي يطلق على مجموعها لفظ أوبتا، الجاتات وهي ترانيم ربما كتبها النبي نفسه. ويقرب المذهب الزرداشتي أن يكون توحيدا، وكانت عبادة النار لها شأن شأن عظيم إذ كانت النار أنقى مظهراً لأهورا مزدا، ويظهر أن المجوس الأوائل كانوا معادين لمذهب زرداشت ولم يحفل مخبر هيرودوت بهم كثيرا. ولقد أثرت عبادات فارس، كعبادات مصر وبابل، وفي الدين الغربي أول ما أثرت في العهد الذي أعقب غزوات الاسكندر. وفي العهد الروماني، كما سنرى فيما بعد، كانت عبادة ميترا جد شائعة في عالم البحر المتوسط وأثرت الثنائية الفارسية على المسيحية في الشرق. أنها أصل الاعتقاد في شيطان شخصي. انظر كسمون **Cumont** في الكتاب السابق الإشارة إليه، المقدمة ص ٦- ٨، وفصل الله (عند الأيرانيين)، في قاموس التوراة لهيستنج (**Hasting's Dictimary of the Bible**).

(2) هيرودوت ١- ١٣٦ وازن الصلاة في ١، ١٣٢. كان الفارسي يصلي من أجل الملك وجميع الفرس ولم يكن يصلي، على الأطلاق، لنفسه وحدها.

٥٢٨، كانت ممتلكاته تمتد من ايجا في الغرب إلى هندوكوش في الشرق ومن قزوين في الشمال إلى صحراء العرب في الجنوب. ولقد خلع ملك فارس على نفسه لقب شاهنشاه (ملك الملوك). ولم يكن توكيده هذا لدعواه في أمبراطورية عالمية، دون أساس. لقد كان قمبيز بن قورش هو الذي غزا مصر (عام ٥٢٥) والمستعمرة الإغريقية في قورينا. ولم يحدث قبل ذلك بتاتا أن مدنية النيل تألفت بمدنية الفرات في دولة واحدة. وتتركز الحقبة الثانية، حقبة التنظيم في شخص دارا بن كشتاسب (٥٢١– ٤٨٦). أن دارا هو طراز الإداري الشرقي على مدى الزمان. وكانت امبراطوريته شاسعة الأرجاء وهي مزيج من جميع الشعوب والأمم واللغات ولا تنتظمها وحدة سلالة أو دين أو صالح مشترك، وكانت تنقسم إلى عشرين ولاية أو أقليم يحكمه نائب ملك. ولكي تكون البلاد بمأمن من خطر نشوب ثورة، وضع دارا زمام السلطتيم المدنية والعسكرية في كل زلاية في أياد مختلفات، وكانت الوظيفة الخاصة لشخص عظيم الشأن في سوس مقر الحكم الرسمي، يحمل لقب «عين الملك»، وهي الأشراف على الولايات.

وساعد على تركيز التحكم [1]، نهج رائع للطرق والمراكز. وكما كانت تجري عليه الأمور في الأمبراطوريات الشرقية، فإن الشعوب الخاضعة كانت تحتفظ بدياناتها المحلية وعاداتها ونظمها، بعيدة بعدا تاما عن تدخل الحكومة المركزية. وكانت علامتا الخضوع دفع جزية سنوية ثابتة والتجنيد لخدمة الميدان. وكان إشراف الفرس يعيشون تربطهم أواصر شخصية وثيقة بالحاكم أما الفرس المقيمون في الأقاليم فكانوا يكونون مع ممثلين من السكان الوطنيين مجلس الشورى للوالي. وهلى هذا، كان يقوم بالرقابة على الوالي ملسه وقائد الجيش والحكومة المركزية في آن واحد ولقد أصبح هذا النهج الذي وضعه دارا النموذج الي تحتذيه الملكيات الشرقية التي جاءت فيما بعد[2].

وضم عارا أيضا البنجاب وبلاد العرب إلى الأمبراطورية وعبر السبنطس إلى أوربا وتقبل ولاء

(١) أمن الطريق الملكي من سوس إلى سردس (في ليديا) لأول مرة في التاريخ السيطرة على آسيا الصغرى بقوة من بلاد ما بين النهرين. وكان يستطيع جيش أن يقطع عليها مسيرة عشرين ميلا كل يوم في المتوسط، وهذه حقيقة تفسير إلى حد بعيد انتصارات الأسكندر. وكانت توجد أيضاً طرق فارسية عبر آسيا الصغرى، من الشمال إلى الجنوب ومن بابل بالقرب من همذان إلى بلخ ومن بلاد ما بين النهرين، عبر فينيقية إلى مصر، ومع هذا فإن مرتفعات شبه الجزيرة لم تكن عليها حراسة في الواقع إلى أن ظهرت روما على المسرح.

(٢) كان دارا بناء عظيما وسعى إلى سا ترضاء رعاياه بالأسراف في تقديم صنوف التكريم لدياناتهم ولقد استخدم نفس السياسة فيما يلي تخوم الأمبراطورية بالهدايا تقدم إلى مهبط الوحي في دلفي الذي حبذ باديء الأمر هجوم الفرس على الاغريق.

تراقيا ومقدونيا. وفي ختام حكمه الطويل كان يجمع جيشاً لجبا لينهض باخضاع اليونان الحرة. وهلى مثال غيرها من دول الشرق، جهدت فارس في التوسع صوب الغرب الذي لاقت منه مثيرها المحتوم. ولكن قصة الصراع الإغريقي مع فارس تتصل بفصل آخر سيعرض له هذا الكتاب.

٢٠- كان خلفاء دارا طوال قرن ونصف قرم بعد ذلك (٤٨٦- ٣٣٨) مهنيين على الأخص بالمحافظة على الأمبراطورية التي عمل دارا على لم شملها وقد أدى الوهن الذي حل بالبيت المالك والثورات المتواصلة في الأقاليم المتطرفة، وخاصة في مصر، والصراع الطويل مع اليونان على انحلالها عللى التدرج، وانتقل مركز النقل في السياسة العالمية إلى شواطيء بحر ايجا. وقبيل انتصاف القرن الرابع كانت تعتمد هيبة الفرس على معاونة المرتزقة الأغريق وقادتهم. وأعقب موت آخر حاكم قدير وهو أردشير الثالث (أخوس) في سنة ٣٣٨ فترة فوضى أتاحت للعدو فرصة فريدة إذ كان فيليب ملك مقدونيا قد دبر حرب انتقام من الغزو الفارسي لليونان، في القرن السابق. وفي عام ٣٣٤ عبر ابنه الاسكندر السبنطس وأقام نفسه سيدا على آسيا الصغرى، وفي عام ٣٣١حقق أعظم انتصار له في جو جميلا، وبعد ذلك بعام، بموت آخر خلف لدارا، انتقل اللقب والأمبراطورية جميعا إلى الغازي المقدوني. ومن ذلك الوقت، أصبح تاريخ الشرق الأوسط جزءاً من تاريخ المدنية الهلينية.

٧- الخاتمة

٢١- ولو أن مختلف المدنيات التي مرت أمامنا في هذا الفصل كانت لها أهمية جوهرية بالغة، فإنها، مع استثناء واحد ذات أهمية ثانوية بالنسبة لمستقبل العالم الغربي. وإذا نظر إليها من هذه الناحية فيمكننا القول ألا شيء كان يلائمها أفضل من اندماجها، آخر الأمر، في الهلينية. وسنرى قريبا كيف أنه عندما أصبح امتزاج الشرق والغرب حقيقة واقعة، وفي عهد خلفاء الاسكندر أثارت أفكار مصر وبابل وفارس الدينية استجابة من داخل نطاق الثقافة الإغريقية- الرومانية. ولكن تلك الثقافة نشأت ونمت في أوضاعها الخاصة على النقيض من فكر الشرق وعاداته، أكثر من أن تكون بمعاونتها. والاستثناء الوحيد الذي ألمهنا إليه آنفا هو، دون مراء، دين العبريين، أن دين العصور اللاحقة، في هذا المجال وكذلك في مجال الأخلاق، للسلالة السامية، لا يحصى. أن عبريا من طرسوس كانت تنشئته في أشد مدارس المذهب الفريسي الحق

صرامة أصبح رسولا للوثنيين. وعلى هذا فإن الفصل التالي سيخصص لدراسة الحقبة الانشائية الرئيسية في التاريخ العبري الديني وعند ذلك سنتحول صوب الغرب، إلى اليونان وروما. وحتى دين العبريين، لم يؤثر تأثيرا خطيراً في الغرب إلا بعد أن كانت اليونان وروما قد أمامتا دعائم مدنيتهما. وكانت الهلينية قد وصلت إلى ذراها قبل أن يشرع رسل الانجيل، بزمن مديد، في العمل على جعل التقاليد العبرية ملائمة لمزاج وعادات العالم الإغريقي– الروماني. لقد كانت الهلينية في ارفع تعبيراتها، كلها، في الفن والفلسفة والحياة المدنية، الخلق المبتكر العبقرية الأغريق. ولقد أضافت السلالات الأخرى، مواد إلى دعائم بنائها الاقتصادي وحافزاً أمام حب استطلاعها العقلي وتركت هنا وهناك كما في فن العمارة، آثارها في بعض تفصيلات جلائل أعمال الأغريق، ولكن الأغريق كانوا يعرفون ما كانوا يرمون إليه عندما قابلوا بين ثقافتهم الخاصة وحماة الهمجية التي كانت تطغي أمواجها حول جماعاتهم الصغيرة من كل جانب[1]. ولقد قامت الثقافة، كالسحر، وسط عالم غريب كما نهضت الألهة اثينا في الأسطورة من رأس زيوس ويظهر تاريخ الشعوب المجاورة النقيض ويقدم الإطار للتعبير عنه [2].

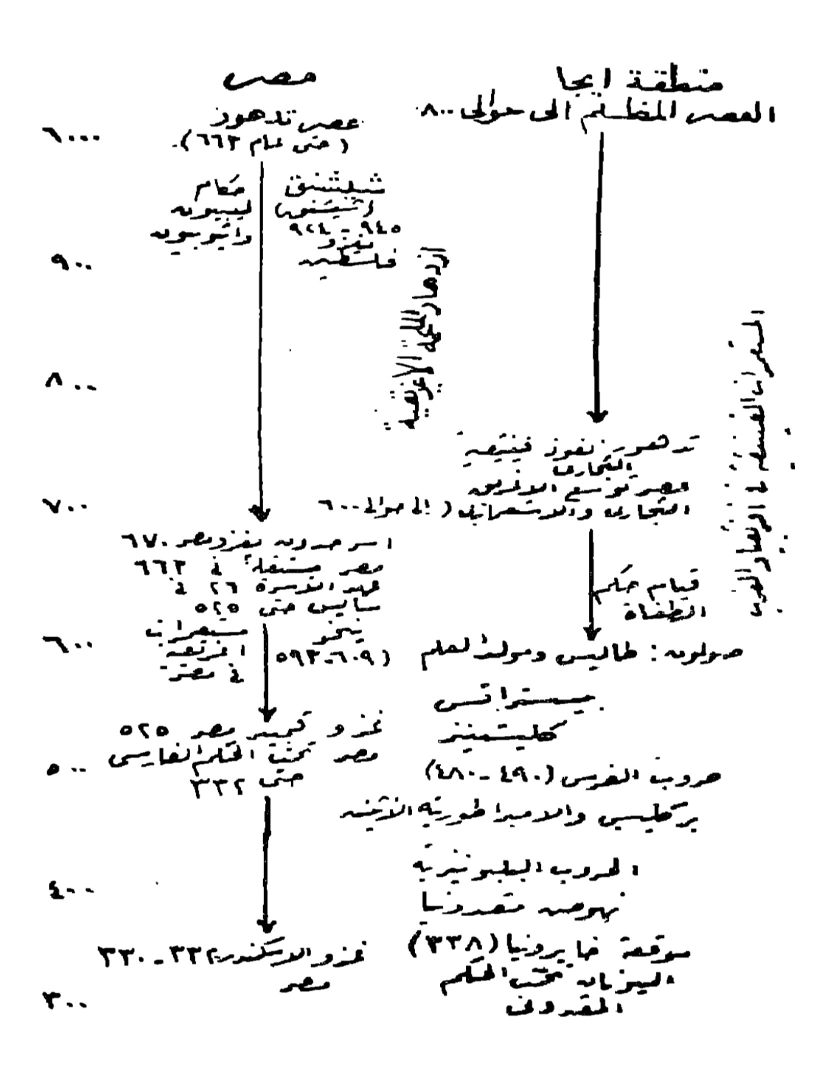
---

(1) يعرض بري (Bury) (العصر الهليني) الصفحات ٢٤ وما بعدها (Hellentstic Age pp. 24 ff) الرأي بأن نظرية مرتبة الهمج الوضعية هي من نتاج الحروب الفارسية وبعد ذلك ارتاب فيها الفلاسفة، ولقد ارتأي أفلاطون أن ملكا فيلسوفا قد يوحد بين الهمج/، وذهب الرواقيون شأوا أبعد حتى تصوروا أخوة تشتمل البشر أجمعين. أنظر الفصل السادس القسم الرابع.

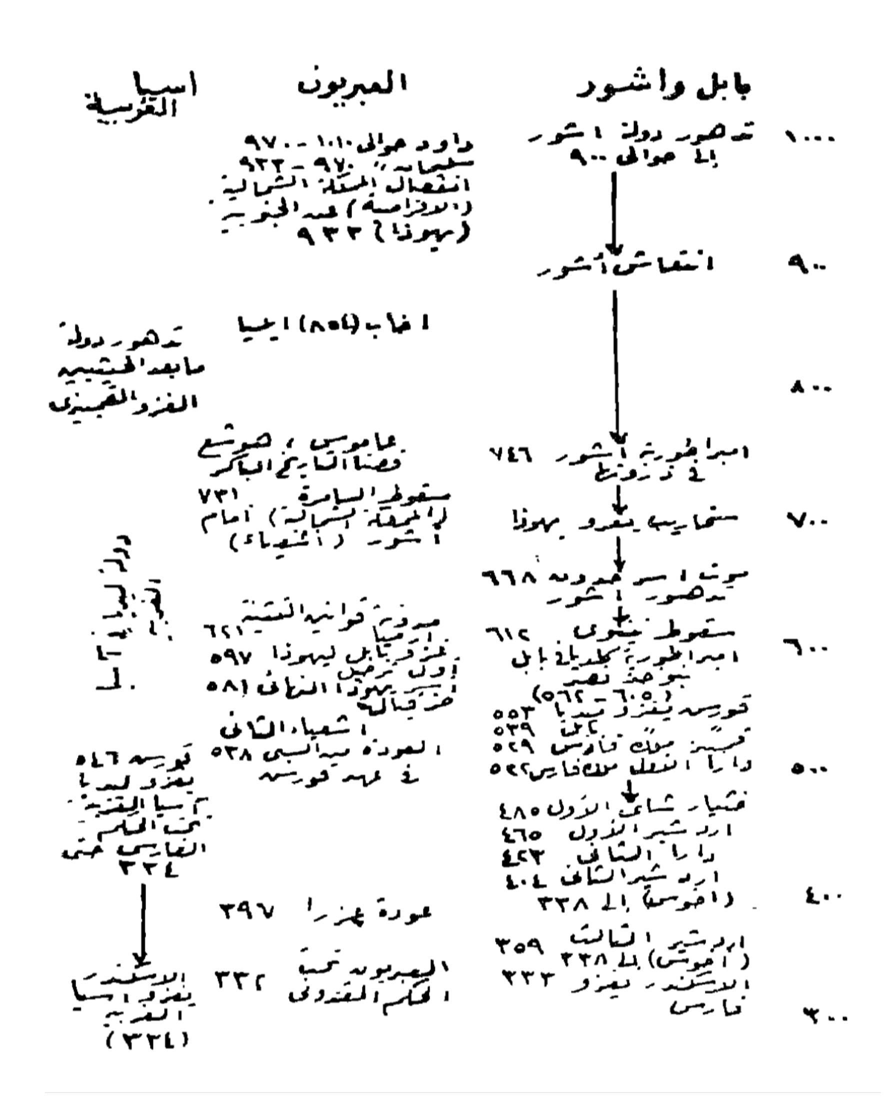
(2) تحدث جروت (Grote) في مقدمة تاريخ اليونان (History of Greece) (١٨٤٦) عن حركة العقل الأغريقي التلقائية فقد كان يجد معاونة من الخارج ولكن لم يلجأ أبدا إلى الاستعارة وبعث الضوء في شطر من العالم صغير كان بغير هذا غائما وراكدا، ولقد كشف عن الشيء الكثير منذ زمن جروت ولكن توكيده أن العلم الإغريقي كان مبتكرا، يظل ثابتا لا يتزعزع.

جداول تاريخية

	بابل وآشور	غربي آسيا
٣٠٠٠	السومريون (قبل ٣٠٠٠)	
٢٧٥٠	سرجون (بعد ذلك بزمن وجيز)	
٢٥٠٠	الانتعاش السومري	
٢٢٥٠	الملوك الآشوريون في آشور منذ عام ٢٤٠٠ تقريبا	
	أول أسرة بابلية ٢٢٢٥ - ١٩٢٦ { حمورابي ٢١٣٠ - ٢٠٨٧	
٢٠٠٠	الآريون إلى فارس ٢٠٠٠ - ١٦٠٠ تقريبا	
	سلسلة من الأسرات البابلية	
١٧٥٠		خروج العبريين (؟)
١٥٠٠	الآريون إلى الهند ١٦٠٠ تقريبا	دولة الحيثيين في آسيا الصغرى ١٧٠٠ - ١٢٠٠
	قيام دولة آشور سنة ١٣٨٠	
١٢٥٠	شلمنصر الأول (١٢٧٦) — بابل تحت حكم آشور	خروج إسرائيل من مصر ١٢٣٠ تقريبا
		دولة الفينيقيين البحرية تجوب كل شرق البحر: أول مستعمرات إفريقية (القرن ١٢)
	طغلات - فليسر الأول ١١٢٠ تقريبا	الحيثيون وخلفاؤهم في قرقميش حوالي ١٢٠٠
١٠٠٠	تدهور دولة آشور (إلى ٩٠٠ تقريبا)	الملكية في إسرائيل { شاول ١٠٢٥ تقريبا، داود ١٠١٠ تقريبا



منطقة ايجا
مصر
العصر المظلم الى حوالي ٨٠٠
عصر تدهور (حتى عام ٦٦٣)
٩٠٠
٨٠٠
٧٠٠
٦٠٠
٥٠٠
٤٠٠
٣٠٠
قيام حكم الطغاة
صولون: طاليس ومولد العلم
كليستنيز
حروب الفرس (٤٩٠ - ٤٨٠)
الحروب البلبونيزية
نهوض مقدونيا
موقعة خايرونيا (٣٣٨)
اليونان تحت الحكم المقدوني
غزو كمبيز مصر ٥٢٥
مصر تحت الحكم الفارسي
حتى ٣٣٢



بابل واشور
العبريون
اسيا الغربية
١٠٠٠
تدهور دولة اشور الى حوالي ٩٠٠
داود حوالي ١٠١٠ - ٩٧٠
سليمان ٩٧٠ - ٩٣٢
انفصال المملكة الشمالية (اسرائيل) عن الجنوبية (يهوذا) ٩٣٢
٩٠٠
انتعاش اشور
اخاب (٨٥٤) ايليا
تدهور دولة ما بعد الحيثية
الغزو الكمبيري
٨٠٠
امبراطورية اشور ٧٤٦
عاموس ، هوشع
سقوط السامرة ٧٣١
(المملكة الشمالية) امام اشور (اشعياء)
٧٠٠
سنحاريب يغزو يهوذا
موت اسرحدون ٦٦٨
تدهور اشور
سقوط نينوى ٦١٢
ارميا ٦٢١
غزو بابل ليهوذا ٥٩٧
٦٠٠
امبراطورية كلدانية ابل
نبوخذ نصر (٦٠٥ - ٥٦٢)
اشعياء الثاني
العودة من السبي ٥٣٨ في عهد قورش
قورش يغزو ميديا ٥٥٣
قورش ٥٤٦
فتح قورش ملك فارس ٥٢٩
دارا الاول ملك فارس ٥٢٢
٥٠٠
اكشيارشا الاول ٤٨٥
اردشير الاول ٤٦٥
دارا الثاني ٤٢٣
اردشير الثاني ٤٠٤
٤٠٠
عودة عزرا ٣٩٧
اردشير الثالث ٣٥٩
الاسكندر يغزو فارس ٣٣٣
العبريون تحت الحكم المقدوني ٣٣٢
الاسكندر يغزو اسيا الغربية (٣٣٤)
٣٠٠

الفصل الثالث

دين العبريين[1]

١- تقديم

١ – أن ديانات عالم البحر المتوسط العظيمة الثلاث، العبرية والإسلامية والميسحية كلها من أصل سامي. ولأنها لا تزال قوة حية بين الناس فإن هذا يقيم الدليل الذي يبقى على الزمن، على قدر العبقرية الدينية التي كانت لدى الساميين. ولقد كان قبول الدينين الأولين مقصوراً، على وجه الإجمال تقريبا على الفرع السامي أما الثالث وهو الدين المسيحي فقد حطم منذ زمن بعيد حواجز السلالات وأقام دعواه، كدين عالمي، في ولاء الوثني والعبري ولكن انجيله بشر به للعبريين في البداية وقام بينهم كتكملة تاريخية لناموس العبريين ونبوءة العريين. ويواجهنا السؤال كيف تأتي لعقيدة قبلية لشعب سامي لا خطر له أن تقدم في غضون نموه التاريخي أساسا لرسالة روحية للبشرية؟ أين كانت، بين الخصال التي لازمت عقيدة العبريين القديمة وعباتهم، تكمن البذور لتكونا عامتين؟ لم يكن لدين العبريين في مراحله الأولى ما يتميز به كثيرا عن دين شعوب كنعان التي تحيط به. كيف حدث أنه بينما توارث آلهتهم بانهيار الدولة التي كانت تعبدها، سياسيا ظل آله العبريين باقيا بعد السبى وتفرق شعبه ولا يزال موضع إجلال الملايين من جميع السلالات في زمننا الحاضر؟ أن الجواب على هذا السؤال يتكشف في دراسة أنبياء العبريين. وكما أن عبقرية الإغريق العقلية وهي تعمل في مناهج لها نفع عام للفكر الإنساني، حولت معطيات التجارب التي لم تتناولها يد التهذيب، إلى بنيان من المعرفة التي يدعمها العقل، وكما أن عبقرية روما السياسية صاغت قوانين مدينة إيطالية في مباديء قضائية، لدولة عالمية، كذلك محضت عبقرية العبريين الدينية التي تجلت عن طريق بصيرة أنبيائها، عبادة اله قبلي كانت وظيفته

---

[1] أطلق عبريو أزمنة العهد القديم على أنفسهم «أبناء اسرائيل» (بني اسرا ال) واصل اسم اسراءيل غامض وقد فسر: (الله (ال) يجاهد، أو يبقى)، أما لفظ عبري فقد أطلق فيما بعد ومعناه، طبقا للرأي التقليدي، الشعب من الجانب الآخر من (اللفظ العبري. عبهريم) نهر الفرات (أو الأردن؟). واسم يهودي معناه (رجل يهوده) ويطلق على التحقيق على القاطن بفلسطين الجنوبية، ومن الراجح أن اسراءيل وعبريين كانا في الأصل أسمين لعشائر.

أن يخوض غمار معارك شعبه ضد منافسيه من الهة البلاد الأخرى، إلى عبادة اله واحد خالق الكون الذي يظهر أبوته الروحية في حكومة بارة تسود أمم الأرض جمعاء.

٢– عندما لم موسى، في النصف الأخير من الألف سنة الثانية، قبل الميلاد، شمل فريق من العشائر السياسية في مجتمع واحد، فإنه لم يؤسس أمه وحسب ولكنه أرسى قواعد دين [١] وكان كحامل لوحي ديني، على مثال مُحَمَّد (صلعم) بعد ذلك بألفي سنة، أنه أستطاع أن ينهض بتحول بعيد الأمد في عادات البدو الساميين القبلية التي لولا ذلك لظلت باقية على ما هي عليه. وقد ثبت عبادة يهوه لتكون عبادة شعب وبهذا أتى بأمه إلى حيز الوجود[٢] ومنذ ذلك الحين صار يهوه اله العبريين الذي أطلق سراح آبائهم من العبودية وقادهم خلال أخطار البرية إلى أرض الموعد. وكذلك يمكن أن ينسب إلى موسى وضع شعائر عبادة ونظام كهني. ولقد كونت أحكامه الشعوبة النواة لقيام شريعة (التوراة) [٣] ودين يهوه هذا، كما حمله العبريون إلى كنعان كان على

---

(١) أن تاريخ الخروج غير معروف على التحقيق. ويعتبر بعض الثقاة أنه يتفق مع طلرد الهكسوس أو الملوك الرعاة الساميين (في أوائل القرن السادس عشر) ويذهب غيرهم إلى أنه حدث في الأسرة الثامنة عشرة (أمنحوتب الثاني حوالي ١٤٤٥) وتذهب طائفة أخرى أن ذلك وقع في عهد مرنفتاح (الأسرة التاسعة عشرة) حوالي عام ١٢٢٠ أو بعد ذلك بجيل.

(٢) كان اليهود، خشية اساءة استخدام اسم يهوه المقدس يكتبونه بالحروف المتحركة لكلمة ادوناي (= ربي) أو الوهيم (= الهي) على أن يقرأ هذان اللفظان بصوت مرتفع بدلا عنه. ويرجع تاريخ هذه العادة إلى إدخال علامات الحركة الذي حدث بعد قيام العهد المسيحي ببضعة قرون. وكانت الكتابة العبرية تتطون أصلا من السواكن. ومن هذا حدثت الصيغة المضللة يهوه التي أشار إليها في زمن مبكر في القرن السادس عشر بعد الميلاد بطرس جلطينوس (**Petrus Galatinus**) .

De arcants Catholicae veritatis, 1518)

ومعنى اسم يهوه غير مؤكد. ويعتقد بعض العلماء أن يهوه كان يعبده العبرانيون قبل زمن موسى. والعهد القديم، غامض في هذا الأمر إذ أن الكاتب اليهيوى (ي، انظر التذكرة التالية) يذكر أن عبادته ترجع إلى ما قبل الزمن الموسوي (تك ٤: ٢٦) والكاتبان الألهى (أ) والكهني (ك) يذكران أن عبادته أدخلها موسى (خروج ٣: ١١– ١٤ و ٤: ٢–٣) ربما من مديان. وتاريخ ما قبل موسى غير محقق ويحيطه الغموض.

(٣) الأسفار الخمسة (أي التكوين والخروج واللاويين والعدد والتثنية)، ويشوع تمثل تصنيف التاريخ والشريعة القديمين– اللذين وصلا إلى شكلهما الحاضر بعد السبى– معا ويمكن تقصي أثر الجمع في ثلاثة مصادر أساسية أشير إليها على الولاء بالحروف: أي، ت، ك.

= (أ) قصتان للتاريخ الباكر متبنا واحدة في المملكة الشمالية (افرايم) والأخرى في الجنوبية (يهوذا) ربما بين عامي ٨٥٠، ٧٥٠ ق. م وقد ضمتا في مؤلف تاريخي واحد، عام ٧٥٠ على التقريب. ويطلق على الأولى (أ) من استخدام

التحقيق بدائيا ويتخذ الهه هيئة إنسان. وكانوا يتصورون أن ليهوه شكلا جسميا ومقرا للسكني وتدفعه العواطف الإنسانية، من غيرة وغضب. ولقد كان الها محاربا «رجل حرب» يقاتل دون هوادة لأجل شعبه الخاص ضد أعدائهم وعلى غرار حاكم شرقي كان يطلب مقابل هذا، الولاء والعطاء. ولم يكن همه يتعلق بالفرد ولكن بالأمة وبالأمة خاصة في أزمنة الحرب. ولكن يمكن أن نتبين في هذا الشكل البدائي للعقيدة القومية بذور دين خلقي وأن لم يكن دين توحيد، فإنه كان صراحة عبادة إله واحد من بين الهة كثيرين. ولقد أنفذ الأمر إلى العبريين: «لا تعبد آلهة أخرى غيري»[١]. ولم يكن ليهوه أساطير خرافية أو مجمع الهة يشتركون معه أو زوجة– الهه كما كان طابع العبادات الكنعانية[٢].

انه كان مصدر الحق والعدل وقدس أقداسه مستودع القانون المعترف به. ويكتب عالم

اسم الوهيم للدلالة على الله (هز وجل) والأخرى يطلق عليها (ى) من استخدام اسم يهوه. والمؤلف الذي يضمهما يرمز إليه بالحرفين ى أ.

(ب) شريعة التثنية يطلق عليها ت ويرجع تاريخها إلى منتصف القر السابع (أنظر ٨– فيما يلي).

(ج) التاريخ ومدونة القانون الكهنيين يطلق عليها (ك) وربما يرجع انشاؤها إلى زمن السبى (أنظر ١٠ و ١٠ فيما يلي).

وتمثل أسفار التكوين والخروج والعدد امتزاج ي ا، ك، وينتمي سفر اللاويين إلى ك، والتثنية إلى ت، ويشوع إلى ي ا، وهو من محرري التثنية، وإلى ك.

وعلى القاريء أن يدرك أن المحررين المتعاقبين كانوا جامعين لا مؤلفين أصلا، وأدمجوا في مؤلفهم ما كان يوجد من وثائق قبل ذلك وأضافوا فقط ما كان لازما لنوافق المقتبسات بعضها مع البعض الآخر. وعلى هذا فإن الكثير من القوانين والقصص في هذه الأسفار كان أساسها عادات وتقاليد وأغاني تاريخ سابق لها كثيراً وكان مرجع بعضها إلى سجلات مسطورة (مثال سفر العدد: ٢١، ١٤ وما بعدها ويشوع: ١٠، ١٢ وما بعدها) ونواة الناموس القديمة التي يطلق عليها سفر العهد أو الميثاق (الخروج: ٢٠، ٢٢– ٢٣، ٣٣) والوصايا العشؤ الأقدم منها (الخروج: ٣٤، ١٧– ٢٦) كانت موجودة كتابة قبل أن يجمع ا. وكذلك أيضاً آخر ما جمع (ك) يحوي ثم ناموس قديم جداً في سفر القداسة (اللاويين: ١٧– ٢٦) الذي رمز إليه بالحرف ق وربما يرجع إلى ما قبل السبى. وبينما الشريعة كما توجد بين أيدينا جاءت متأخرة عن النبوة الأقدم منها، فإن الكثير من محتوياتها يرجع إلى ما قبل النبوة.

وعن الموضوع كله، انظر درايفر (Driver) (مقدمة لأدب العهد القديم ص ٨٢ وما بعدها. و١١٦ وما بعدها Introduction to the Literature of the O.T.).)

(١) عبادة اله من بين الهة كثيرين (Monolatry) معناها أنه ولو أنه توجد آلهة كثيرة فان واحدا فقط هو الذي يجب أن يعبد، أما التوحيد فمعناه أنه لا يوجد إلا اله واحد.

(٢) تشيير برديات الفنتين إلى زوجة– الهة ولكنها تستعرض دين العبريين في شكل حط من قدره. انظر كاولي (Cowley) (Aramaic Papyrl) أدراج البردي الأرامية (المقدمة).

معاصر نابه: «أن فضل موسى العظيم يرجع إلى الحقيقة الواقعة وهي أنه ألف بين الفكرة الدينية والحياة الخلقية»[١] وكانت تربط يهوه بشعبه الآصرة الشخصية التي تكون بين أب وبنيه، آصرة لا تستند إلى وشيجة طبيعية من قرابة الدم ولكن إلى الاختيار والإرادة. لقد اختار يهوه العبريين وتقبل العبريون يهوه، ونجد هنا أصلا مبدأ «العهد» الذي جاء فيما بعد. ولقد كانت هذه العقيدة الخلقية التي تمثلت لعبراني ذلك العصر في مناصرة يهوه للعبريين ضد أعدائهم هي التي حفظت الأمة الناشئة من أن تطويها مدنية الكنعانيين السابقة لها. وكان الاستقرار في كنعان عملية امتزاج بطيئة تركت، عرضا، علامات في دين العبريين. وكما عرف المهاجرون البدو من جيرانهم عادات حياة الزراعة فإنهم استحوذوا معها على عبادات آلهة الكنعانيين (بعليم= أسياد البلاد). ولم يكن هؤلاء البعليم. على غرار يهوه، آلهة حرب ولكنهم كانوا آلهة طبيعة مسالمين تتمثل في شخوصهم قوى الخصب والحياة المنتجة ويتألقون أزواجا، ذكرا (بعل) وأنثى (عشتاروت)، ولهم ديانات محلية متباينة تصحبها الشهوة المخزية ([٢]) ولو كانت عملية الامتزاج سليمة بجملتها، فربما كان دين العبريين قد هبط في يسر إلى مستوى الدين الكنعاني ولكان يهوه قد اندمج في البعليم ولما ترك العبريون طابعا على تاريخ البشر الروحي. ولكن كان على الغزاة أن يحاربوا لأجل ميراثهم ولقد حفظ شخصيتهم الدينية والقومية، ما وقع من حرب متواصلة. وظل يهوه بين كل ما تمثلوه من العبادات الكنعانية كالمرتفعات والصور الخشبية لعشتاروت أو العمد المقدسة، اله شعبه المختار.

وأغنية دبورة وهي واحدة من أقدم شذرات أدب الشعر العبري، لا تزال باقية لتبين كيف أن عقيدة يهوه ألهمت عشائر العبريين في تلك المعارك القديمة مع الشعوب المحيطة بها [٣]. وقد عملت على تقوية الشعور بقومية متميزة، الحروب مع الفلسطينيين في القرنين الحادي عشر والعاشر التي نجم عنها قيام النظام الملكي في شخص شاءول البنياميني وغدا يتجسم في الملك الاستقلال الديني والقومي في نفس الوقت. ومع ذلك الوقت فصاعدا، أصبحت عبادة يهوه،

---

(١) كوينن، دين اسراءيل (**Kuenen, Religion of Israel**).

(٢) كون الشهوة المشار إليها كانت نتاجا لما تتطلبه العبادة يجعل الفارق أكثر ظهورا. وتوضح الواح رأس شمرة (القرن الخامس عشر إلى القرن الثالث عشر ق. م) التي كشف عنها في سنة **١٩٢٩**، الأساطير الكنعانية على أتمها (انظر جاك (**Jack**) ألواح شمرة (**The Ras Shamra Tablets**) وتقدم الدليل على نشاط أدبي في فلسطين، قبل قيام الملكية العبرية ببضعة قرون.

(٣) القضاة **٥** قابل الطلبة القديمة في سفر العدد ١٠، ٣٥، ٣٦: «قم يا رب فلتتبدد أعداؤك» الخ.

على الرغم من طائفة عظيمة من إضافات كنعانية، الرمز المعترف به لمصير العبريين الذي تميزوا به.

٣- وإذا نحينا إلى جانب المشاكل الغامضة عن أصل عبادة يهوه، وإلى الجانب الآخر، أرجأنا النظر في تطور دين العبريين تحت تأثير النبيين إلى دين توحيد خلقي خالص النقاوة، فإننا نلحظ الخصال التالية الملازمة لذلك الدين من عهود استهلاله على يد موسى إلى أن وصلت اليهودية إلى صوغها النهائي كدين عالمي في القرنين الأولين من العهد المسيحي. وستفصح للقاريء عن الهوة الواسعة التي تفصل التقاليد الدينية العبرية، قبل وبعد أن تستحوذ عليها المسيحية، عن تلك التي يرجع مصدرها إلى التفكير الهليني سواء أكانت عن مسائل ما وراء الطبيعة (الميتافيزيقيا) أو علم اللاهوت. ففي المكان الأول (أ) كانت تقوم على الاعتقاد الذي لا يماري، بوجود الله (عز وجل) لا استنادا إلى أية فروض استنتاجية عن وجوده أو طبيعته وجوهره. والجواب الوحيد الذي صرح به، ردا على موسى وهو يستعلم اسمه كان توكيد كينونتعه الذاتية: «أهيه الذي أهيه»[١] وفي كينونته الذاتية، فإنه العلة، كخالق لوجود كل ما هو كائن «في البدء خلق الله السموات والأرض»[٢] وهذه الكلمات، فاتحة الأسفار الخمسة لا تعبر عغن نظرية فلسفية ولكنها بيان أولى للوعي الديني العبري. ومن البداية أعلن يهوه نفسه الآله الحي، ويكون قبوله بالإيمان ويسمو على أقصى ما يصل إليه الاستقصاء الفكري[٣]. وعلى غير شاكلة اله أفلاطون وأرسطو فان اله إبراهيم وإسحاق ويعقوب هو، بالنسبة للعقل الإنساني، اله مستخف (**Deus abscontitus**). ثانيا (ب) دين العبريين موحي به ويستمد سلطانه ودعواه في طاعة الإنسان، ليس عن طريق العقل ولكن عن طريق مصدره الالهي لا غير. والوحي واحد كما أن الله واحد. وكانا تصور نقيض الله الذي تحاشى الدين الفارسي به، مشكل مصدر الشر، غريبا عن العقل العبري، تماما، وعلاوة على هذا فقد كان الوحي نهائياً وكاملا كما أن الله مفسه كامل ولا يتغير. «كل الدين أوحى به وكل فحوى الوحي كان الدين»[٤]. وكان يتألف منه التوراة أو شريعة

---

(١) الخروج ٣، ١٤.

(٢) التكوين ١، ١.

(٣) كما جاء في تعبير دكتور هوايتهد (**Dr. Whitehead**) في (**Adventures of Ideas**): مغامرات الأفكار فإن السؤال: «أتقدر بالبحث أن تجد الله؟» يصلح للفكر العبري ولكن لا يستقيم مع التفكير الأغريقي.

(٤) ج. ف. مور (**G. F. Moore**) اليهودية ١: ١٢ (**Judaism**).

الله، ويشمل القانون المسطور (الأسفار الخمسة) وعلى سير الزمان، تفسيره الشفوي أيضاً كما صيغ ووضعت له مذاهب، في النهاية، في المدارس اليهودية. وكانت الحال كذلك مع الأنبياء الذين لا ينطقون بأقوال من عندهم يدلون فيها بما لديهم من ثقة ولكن بكلمات أوحى بها اليهم يهوه. ثالثا (ج) دين العبريين تنظيمي، بما أنه التعبير عن الأرادة الالهية بلغ بها الإنسان ككائن ذي نشاط وله حق الاختيار. أنه مجموعة من الأوامر تنظم سلوك الإنسان وتفرض عن طريق جزاء فيها الخير أو الويل نتيجة لقبول الإنسان أو رفضه «مخافة الرب هي الحكمة»[١] وإلى الحد الذي يجعل فيه الله طبيعته معلومة للعبريين، في الكشف عن ذاته، تكون طبيعته كطبيعة عملية فإن الكون يصير إلى وجود بفعل قوته الحرة ويتجسم في سجل معامله كله مع العبريين غرضه الأساسي. ولو أنه يسمو سموا في سجل تعامله كله مع العبريين غرضه الأساسي, ولو أنه يسمو سموا لا يمكن أن يلم به وصف، على أساليب الزمن أو التغير، فإن وجوده باطن [٢] وتستبين إرادته في كل جزيء في الطبيعة وتاريخ البشر. ويكون مشهد نشاطه، ليس الشعب المختار فقط ولكن الكون بأجمعه وجميع الأمم التي تسكنه: «ألم أصعد اسرائيل من أرض مصر والفلسطينيين من كفتور والأراميين من قير؟»([٣]). وهنا كمال غرض الله ولو أنه، على غرار فاتحته، عمل من التدخل خارق العادة، في المتسقبل التاريخي. وفكرة الحياة الأبدية التي يرتاح لها الفلاسفة الإغريق كانت غريبة عن نظرة العبرانيين الدينية. ان يهوه كان يسمو على الزمان، ليس لأن لا زمن له ولكن لبقائه الذي لا يعرف نهاية: كان «منذ الأزل إلى الأبد»[٤] وأخيراً، انه من الجليي (ا) أن دينا توحي به هذه العقائد كانت تفعمه فياضة على التطور الخلقي. كان يهوه اله بر ورحمة أوصى بأعمال الصلاح والرحمة عبيده. وأولى هاتين الخصلتين كان يتمثل في أنه فرض في صرامة القصاص عن الخطيئة أي في عبارة يوحنا «التعدي على الناموس»[٥] والثانية في استعداده الذي لا يعتريه وهن للصفح عن الخطيئة بشرط أوحد هو توبة الخاطيء. وهنا لا يوجد وعي بالتفرقة بين الواجب الديني والواجب الخلقي. وكلعمل سواء أكان صادرا عن الفرد أو المجتمع يقع في مجال المسئولية الخلقية وكذلك ينطوي على طاعة أو عصيان الأمر الألهي، لأن المجتمع (بيت

---

(١) عاموس ٩، ٧.

(٢) في مذهب وحدة الوجود، ما هية الله باطنة في العالم أي أن الله والعالم واحد.

(٣) أيوب ٢٨، ٢٨.

(٤) مزامير ٩٠، ٢.

(٥) يوحنا الأول ٣، ٤ وازن يونس في رومية الأصحاح الرابع.

اسرائيل) أيضا كان يتألف برابطة شخصية يهوه «كشخص ذي جسد»، واقعي، يتميز بأنه ينزع إلى آداب السلوك، عن وعي الجماعة الغريزي السابق للأخلاق وكوحدة قائمة بذاتها عن المجتمع المصطنع الذي هو نتاج تعاقد من جانب الأفراد الذين ينتظمون أعضاء فيه.

٢- نبوءة ما قبل السبى

٤- في هذه اللحظة نسمع أول ما نسمع، عن النبيين عند العبريين. وكان الملك شاءول نفسه، في إحدى الفرص، من عدادهم [١] ولكن هؤلاء الأنبياء لم يكونوا يتميزون إلا قليلا، عن أنبياء البعل الذين كانوا بين ظهراني الشعوب الكنعانية الأخرى وهم فرق من الدراويش الذين يستولى عليهم الجذب [٢] وكانوا تحت تأثير الموسيقى والرقص يتوهمون استحواذ الههم عليهم. ولقد كانوا رجالا من طراز حد مختلف عن عظماء المعلمين الذين تقدموا الصفوف بعد ذلك بقرون قليلة كنصراء لعقيدة ممحضة. وكان بداية ظهور هؤلاء في وقت تقسيم ملك سليمان في المملكة الشمالية أو الافرامية معارضين انتشار العبادات الدينية الغريبة والمدنية الدنيوية [٣]. وكان سليمان قد فتح الباب للتجارة الخارجية وانشأ أسباب التحالف الأسري مع الملوك الأجانب، وهي سياسة أدت إلى تجديدات في العادات الاجتماعية التي كرمها الزمن وإلى إدخال العبادات الأجنبية. ولقد جلب الثراء والتراف في أعقابها فوارق الطبقات وانفصاما يتزايد بين الغنى والفقير وكانت السخرة، على النموذج المصري، تمس الحاجة إليها لبناء قصور الملوك والمدائن الحصينة والهياكل الدينية وأصبح جزءا من نظام الحياة الحديد وجود حاشية وحريم وحشد من الموظفين العسكريين والكهنة، وهذه المظاهر وأمثالها لملك سليمان حوكيت في المملكة الشمالية تحت أسرة عمري (من حوالي ٨٨٧). وعندما أقر أخاب بن عمري شرعا عبادة بعمل صيدا ووسع الحقوق الملكية فوق ما جرت عليه العادة التقليدية فإن إيليا استنكر وهو مشتمل برداء بدوي مرددا روح البساطة البدوية البدائية، سياسية البلاط الدينيىة والدنيوية جميعا[٤]. وقد عمل خلفه اليشع،

---

(١) صموئيل الأول ١٩، ٢٠-٢٤.

(٢) الجذب- عند الصوفية حال من أحوال النفس يغيب فيها القلب عن علم ما يجري من أحوال الخلق وتعساه غبطة شاملة وهو قمة التفلسف الأفلوطيني- مصطلحات مجمع اللغة العربية.

(٣) أن ثورة يربعام الأول وأقامة مملكة افرامية منفصلة (٩٣٣) ربما كان مرجعهما كراهية السخرة وقد أيدهما أخيا النبي. انظر ملوك الأول ١١، ٢٨ وما بعدها.

(٤) كان في انتهاك آخاب للعادة الاجتماعية في موضوع كرم نابوت اثارة للشعور العام أكثر من أية ظاهرة أخرى في سياسته. ويمكن وضع تاريخ حكم آخاب بعد عام ٨٥٣.

في تألف وثيق، بنقابات النبوة، على اسقاط الأسرة ووجه، كناصح معترف به، تعاليم يوشع وابنه[١] وكان الظفر حليف النبوة في المملكة الشمالية، ولقد توطدت دعائمها كقوة خليقة في المجتمع، ولم تكن مجرد انتصار سياسي. وظاهر ايليا واليشع دعوى يهو، القاصرة عليه، في ولاء اسراءيل وأن شريعته شريعة بر مطالبا، بالخدمة الخلقية، ابناءه المختارين. وكانت عبادة أي اله آخر خطيئة وكان معنى عبادة يهوه، تحقيق ارشاداته الخلقية في حياة المجتمع. وهذا الاعتراف بشخصية يهوه التي تتصل بالسلوك القويم، ذاك الذي مهد الطريق لصوت البنوة المكتوبة، لا تشهد به فقط القصص المدونة، ولكن أقدم اجزاء الأسفار الخمسة أيضا، التي ربما وضعها، تحت تأثير رسالة النبوة التي أتى بها آيليا.

٥- أن أقدم نبوة مكتوبة وهي نبوة عاموس، يرجع تاريخها إلى حكم يربعام الثاني في مملكة العبرانيين الشمالية (٧٨٣- ٧٤٥)[٢]. وتجلت مملكة افرايم في مشهد من الرخاء الظاهري. ولكن فيما وراء النظاهر. كانت الأمة مريضة حتى الموت. وكان الأشراف والحاشية والكهنة، كلهم سواسية في الفساد. واستشرى الترف والشهوة والجور وظلم الفقير. وأتاحت العبادة في الهياكل العظمة مثل بيت أيل فرصة سانحة ليس فقط للحفلات الصاخبة كثيرة التكاليف، والمراسم الرائعة ولكن لأعمال العنف والظلم أيضاً[٣]. وأصبحت تتوارى الشفقة الأخوية القديمة بانتشار الثروة والانغماس في الشهوات الذاتية. وكانت طبقة الزراع الأحرار التي ظلت حتى الآن دعامة في السلم والحرب، تسير إلى دمار. وفيما يلي التخم، جلب تدهور دولة دمشق الحاجزة، تهديد أشور المروع إلى أيوب العبريين عينها[٤] وقد عمبت أبصار الملك والشعب على السواء، عن المصير المحتوم ولكن أمام بصيرة صافية، كان الدمار قريبا وحققاً، كما كان يمكن أن تصير إليه حال بلجيكا سنة ١٩١٤ لو أنها واجهت، دون حليف، هجوم جحافل الألمان. وكان في مثل

(١) «مركبة اسرائيل وفرسانها» كما نعته الملك (الملوك الثاني ١٣: ١٤).

(٢) تقع نبوة عاموس بين عامي ٧٦٥ و ٧٥٠ ونبوة هوشع، في مملكة العبريين الشمالية أيضاً، بين عامي ٧٦٥ و ٧٥٠ ونبوة، ويلي هذين النبيين في الترتيب، ميخا واشيعاء وكلاهما في يهوذا، خلال الشطر الثالث الأخير من القرن.

(٣) أنظر عاموس وهوشع على وجه عام، أما عن الجور وانحلال الروابط الاجتماعية فيمكن الرجوع إلى عاموس ٢، ٦-٨، ٣، ١٠ و٥، ١١ و ٨، ٤-٦ وهوشع ٤، ١، ٢، وعن العبادة الأباحية وعبادة الأصنام عاموس ٢، ٧، ٨ وهوشع ٤، ١٣، ١٤ وعن فساد الانبياء والكهنة هوشع ٤، ٥، ٦ و ٦، ٩.

(٤) استرد يربعام الثاني كل فلسطين الشرقية حتى شمال لبنان، الملوك الثاني: ١٤، ٢٥، وقد غزا الأشوريون دمشق عام ٨٠٣ وربما كان يربعام يدين لأشور بالولاء.

هذه الضائفة أن عاموس، راعي القطعان وجاني الجميز من تقوع الواقعة في المرتفعات الجنوبية التي تحف بالبحر الميت، ظهر بين الصاخبتين المتهللين الذين لا يعبأون بشيء، في بيت ايل، لينطق بكلمة القضاء التي أوحى بها يهوه إلى خادمه. وكانت رسالة عاموس كرسالة كل من سبقوه من الأنبياء، كئيبة كآبة لا تتحول. لقد عمل العبرانيون الشر وسيتجلى قضاء يهوه الحق في تدمير الأمة تدميرا لا يبقى ولا يذر. وكان الناس يتطلعون إلى «يوم يهوه» الذي كانوا يعنون به اليوم الذي فيه ينتصر العبريون، في القتال، على أعدائهم. وقد أودع عاموس، وهو يعلن عن المغير الأشورى كأداة ليهوه، في الكلمة المأثورة القديمة، مغزى جديداً مروعا: «ويل للذين يشتهون يوم الرب! لماذا لكم يوم الرب؟ هو ظلام لا نور»[١].

وعند عاموس، لم يكن يهوه أبدا «اله العبريين»، أنه يهوه اله الجنود، ليس رب الجيوش القومية، ولكن رب جنود السماء والأرض. وكان الدين الشعبي يرى في الهزيمة آية بأن يهوه تخلى عن شعبه، وعند عاموس كان الانهيار المتوقع أوضح انتقام لعدالة يهوه من الشعب الذي تركه، ولسبب انه اختارهم ليكونوا مستودع معرفته، فان عدم طاعتهم الخلقية أثارت عقابه البار: «أياكم فقط عرفت من جميع قبائل الأرض لذلك أعاقبكم عن جميع ذنوبكم»، «من أجل ذنوب اسراءيل الثلثة والأربعة لا أرجع عنه لأنهم باعوا البار بالفضة والبائس لأجل نعليه»، «سقطت عذراء اسرائيل لا تعود تقوم انطرحت على أرضها ليس من يقيمها»[٢].

٦- أن نبوءات عاموس وهوشع تسترعى الانتباه ليس لأنها تمثل فجر عهد جديد في تاريخ العبريين الروحي وحسب، ولكن لأنها تشمل الخصال الجوهرية كيفا وجوهرا للتعليم التنبؤي السابق للسبى. وكانت رسالة النبي إعلان «كلمة» يهوه لشعبه وكانت النبوة توصيل وحي شخصي، وليس جوهرها في التنبوء عن حادثات تقع في المستقبل. والنبي شخص يتحدث بالنيابة عن يهوه في اعتراض مدرك، لعالم الحكام الدنيويين والكهنة الرسميين والرأي الشعبي وحتى نقابات التنبوء. ويقول عاموس. «لست أنا نبيا ولا أنا ابن نبي»[٣]، وصوته صوت من يصبح في البرية في استنكار يتفجر عن عاطفة عنيفة، للمخازي العلنية وجود النظام الاجتماعي. والقول

---

(١) عاموس ٥، ١٨.

(٢) عاموس: ٣، ٢ و٢، ٦و ٥، ٢.

(٣) عاموس: ٧، ١٤ وإزن هوشع ٩، ٧ والفقرة القصصية عاموس ٧، ١٠- ١٧ تفصح في جلاء عن هذه المعارضة لسياسة الحكام وطوائف الكهنة.

الذي يعلنه ليس قوله وإنما قول يهوه ووظيفة التنبوء، ليست من اختياره. لقد أحس بسلطة يد يهوه القاسرة وينطق فقط بما وضعه يهوه في فيه: «الأسد قد زمجر فمن لا يخاف؟ السيد الرب قد تكلم فمن لا يتنبأ؟»[١] ومن هنا كان رسوخ اعتقاده الشخصي وتيقنه المطلق من صدق رسالته. ولكن بيانه لم يكن مجرد أقوال تضطرم حماسا، ناجمة عن الحذب وكذلك لم تكن تعتمد على اثارة مصطنعة. ولا يمكن تعرف إلا القليل من الانحراف البدني أو العقلي في كتابات التنبوء. والأحوال والرؤيا خارقتا العادة، اللتان تصحبان تجاريب النبوة (وأكثر ما تجيئان في حزقيال، وأقل في أرميا) تقبلان على أنهما موضوعيتان وترجعان إلى وحي مباشر من يهوه[٢] ويأتي قول يهوه مصداقا لعقله وضميره. وقد يكون الوحي عن طريق الرؤيا أو أعم من ذلك بالكلمة، ينطق بها، وقد يؤيد بالآية ويعززه المثال والرمز ولكنه في جميع الحالات جلي وحاسم[٣]. وعلاوة على هذا فإن الرسالة توجه إلى الأمة ويندر أن يخاطب بها الفرد. ولم يكن للفرد إلى الآن إلا شأن يسير في دين العبريين وكان الجزاء، للخير أو للضير، يوقع على المجتمع في مدرجة تاريخه الدنيوي. وسنرى في التعقيب كيف أنه في زمن لاحق، ظفرت دعوى الفرد من العبريين، بالعدالة الألهية والأمل في نعيم بعد الموت، بالذكر في الدين العبري. ولكن موضع الأنبياء الأوائل هو التزام الاستقامة القومية وأحكام يهوه على الخطيئة القومية. ومرة أخرى، تكون الرسالة، كوحي بغرض يهوه هي في ذاتها الضمان وليست في حاجة إلى دعم بالدليل. وإذا مست الحاجة إلى برهان، فإنه يقدم، لا بالاستنتاج العقلي المجرد ولكن بآية أي بدلالة محسوسة مادية عن مصدرها الألهي.

وأنا لا يجد أي أثر للاستدلال الفكري في النبوة العبرية. لقد كان تعليم النبي يعني بالمراس، لا النظرية، ورجوعه لا يكون للعقل ولكن للإرادة[٤] وكان الباعث له، في كل مرحلة، تأزم واقعي في مصائر الأمة. وقد أثار التهديد الأشوري رسائل عاموس وهوشع واشعياء، أما البابلي فرسالة ارمياء. وهنا تقدم النبوة العبرية نقيضا للفلسفة الاغريقية، يسترعى البال. إذ بينما كان المفكر

---

(١) عاموس ٣، ٨ قابل عاموس ٧، ١٤ وما بعدها واشعياء ٦ وارميا ١و ٢٣ وحزقيال ١، ٣.

(٢) أنظر هويلؤ روبنسن «الشعب والكتاب» الصفحات ٣٧١ وما بعدها.

(Wheeler Robinson «The People and the Book»)

أن النبي يعي معنى الألهام وعلى شاكلة الشاعر فان شطره خلق وشطره تصور.

(٣) دون أشعياء رؤيا واحدة في غضون أربعين عاما من رسالة النبوة وتخلو نبوءاته كلها من أية عاطفة يستعر فيها الحماس.

(٤) ان ما ينطوي عليه لفظ «لب» ويترجم عادة «قلب» هو معنى الارادة لا العاطفة. انظر فيما يلي فقرة ١٦.

الاغريقي يتلمس تفسيراً عقليا لكل واقعة وأسبابا عقلية لكل حكم فإن النبي العبري كان يجد التوكيد الكامل في الحدس[1] المباشر بارادة يهوه وكان يقدم لقوله بالتصريح البسيط «هكذا قال يهوه» والواحد كان زهرة الثقافة الدنيوية والآخر خصمها الذي لا ينزل عن شيء من حقه في سبيل صلح. وادعى كل منهما أنه يعرف الحق، الأول بمعرفة العلم. الذي يقوم على العقل، والآخر بمعرفة الإيمان الخلقي.

٧– ولم يكن ضمان الصدق موجوداً فقط في وسيلة الوحي التنبوءي ولكن في جوهره. كان طبع أنبياء ما قبل السبء طبع توبيخ صارم لخطيئة العبريين وفيه قنوط أسى من توبة العبريين. وطريق الخلاص مفتوح «اطلبوا الخير لا الشر لكي تحيوا»[2]. ولكن ليس للنبي إلا أمل ضئيل في أن ينتهج. أنه النبي الكاذب ذاك الذي يهتف بالسلام حيث لا يوجد سلام ولا رضاء الناس يعلن عن أمن وهمي[3] . وعندما هوت الضربة وحمل العبريون إلى السبي، تتغير النغمة وتكون رسالة يهوه وعدا بالبركة وبالعودة [4] ونقرأ في اشعياء عن بقية عادلة من الشعب ينقذون في ساعة اليأس ليكونوا نواة لأمة عبرية متجددة. ولكن الباس من توبة العبريين لا يلقي أبدا، للحظة، ظلا من الريبة على إيمان النبي بحكومة يهوه البارة، ليهلك العبريون إذا كان في هلاكهم، تتجلى عدالة يهوه. ولم يكن المغير الأشوري إلا أداة ارادته المقدسة القديرة على كل شيء. وعند عاموس وهوشع، كان يهوه اله جميع الأمم واله الأرض كلها. وقوته تبسط رواقها على الطبيعة وعلى جنود السماء وحتى على مستقر الراحلين (شيول= جهنم)[5]، انه كان شخصا خلقيا، لم

---

(١) الحدس– ادراك الذهن لموضوع الفكر ادراكا مباشرا ويقابل الاستدلال.

(٢) عاموس ٥، ١٤.

(٣) ملوك الأول/ ٢٢ واشعياء ٣٠، ٩–١١ وارميا: ٢٨ و (خاصة) حزقيال:١٣ والتثنية: ١٨، ٢١، ٢٢ تضع معيار الصدق في انجازه ولكن قابل التثنية: ١٣، ١–٤. قد تتم النبوة الكاذبة وقد لا تتم النبوة الصادقة. انظر شرارلس (الأخرويات **Charles (Eschatology** صفحة ١٨٥، تذكرة.

(٤) من الراجح أن مثل تلك الفقرات جاءت في عاموس ٩، ٨–١٥ وهوشع ١٤ التي تتنبأ عن إعادة في المستقبل– ترجع إلى تاريخ لاحق وربنا قد تكون الأخيرة صادقة. وهي تجد القول لدى روبراسون سمث (**Robortson Smith**) ودرايفر (**Driver**) (المقدمة– الصفحات ٣٠٦ و ٣٠٧) الذي يدلل على ان الأنبياء الذين يسيرون على هدى الوجدان وليس المنطق ربما كانوا قد عبروا عن الرجاء في إعادة مثالية، في خاتمة تحذيراتهم الاستنكارية.

(٥) عاموس ٩، ٢ اشعياء ٧، ١١ ومع هذا فان التصور البدائي عن أن شيول (جهنم) خارجة عن نطاق حكم يهوه ظل قرونا بجانب مذهب التوحيد وعدم الترابط التفكيري هذا لك يكن يحس به (أنظر اشعياء ٣٨، ١٨ ومزامير ٨٨، ٥).

تترك سيادته العامة الفريدة مجالا لأية قوة الهية أخرى سواه. لقد كان حضوره الحي وهو يدأب على العمل الناشط، وليس جوهره، هو الذي تمتليء به عقول الأنبياء، ولقد فسروا نشاط ارادته في حدود أقصت الاعتراف بأي اله آخر غيره. وكانت حكومته الخلقية تتجلى في معاملاته مع جميع الشعوب وفي المكان الأول، مع شعبه المختار. وعلى مثال العبريين. كان مفروضا أن يوقع على الشعوب الوثنية القصاص من أجل خطاياها[1] وفي تعبير عالم معاصر عظيم، يتصور الأنبياء فاجعة الهية مسرحها الأرض، والأشخاص القائمون بالأدوار فيها، الشعوب، والبطل مدار الرواية، الشهب العبري ومؤلف الفاجعة، يهوه[2].

ولقد فتح قيام الأشوريين عيونهم إلى عالم أوسع ونجم عن هذا التوسع في أفق خيالهم، تقدم البصر الروحي وكان في الإيمان بحكم يهوه الخلقي، ما يكفي العالم الأكبر كما يكفي العالم الأصغر. ومرة أخرى، حمل تصور شخصية يهوه الخلقية هذا، معه، مطلب الخدمة الخلقية من عابديه. وكانت السنن الرسمية والمراسم الخاوية لا شيء، في نظره. «أني أريد رحمة لا ذبيحة ومعرفة الله أكثر من محرقات». «بغضت كرهت أعيادكم وليست التذ (لا أشم– النسخة المنقحة) باعتكافاتكم: أني إذا قدمتم لي محرقاتكم وتقدماتكم لا أرتضي... وليجر الحق كالمياه والبر كنهر دائم»[3]. أنه في صورة المعرفة، أن الأنبياء يعبرون عن العلاقة الخلقية بين يهوه وشعبه. أن يهوه كان يعرف اسراءيل وأبي اسراءيل أن يعرف يهوه. «لا أمانة ولا إحسان (محبة) ولا معرفة الله في الأرض... لقد هلك شعبي من عدم المعرفة لأنك أنت رفضت المعرفة أرفضك أنا»[4]. وعند عاموس، تكون هذه المعرفة بالاعتراف العملي بالعدالة الاجتماعية وفي مراعاة الإنسانية والتعامل العادل بين الإنسان والإنسان. وعند هوشع، تكون نغمنها الجوهرية المحبة، مجبة الطفل لأبية والعروس لزوجها. أن ما تمرس به شخصيا من تجربة مريرة قي عدم أمانة الزوجة التي يحبها يضفي شعوراً فريداً بالأشفاق على الصورة التي وضعها هوشع لرفق يهوه الذي لا يعتريه وهن،

---

(1) عاموس: ١و ٢و ٩و ٧. أنه لأجل مظالم ارتكبت ضد العبريين، أن خمسة من الستة شعوب التي أشير إليها في الأصحاحين الأول والثاني سيوقه عليها القصاص. ولا يزال التعميم الذي جاء بعد ذلك، بعيدا، وفي اشعياء: ١٠، ٥– ١٥ نجد أشور داخل نطاق سيادة يهوه.

(2) ولهوزن (**Wellhausen**) الذي يوضح زيادة على ذلك، كيف أن الأنبياء أدكجوا في دينهم التصور الحديث لدولة– عالم (أي أشور) التي كانت تحطم الأمم الأخرى ودياناتها.

(3) هوشع: ٦، ٦ وعاموس: ٥، ٢١– ٤ قابل اشعيا: ١، ١١– ١٧ و ٢٢، ١٢– ١٣.

(4) هوشع: ٤، ١، ٦ قابل عاموس: ٣، ٢، ١٠ وهوشع: ٢، على قصور اسراءيل عن معرفة يهوه.

وهجران العبريين ليهوه لاشباع شهوة جسمية للبعليم الكنعاني. لقد فتسمت الأمة وثاق زواجها، وفي قلب موجع، يساق يهوه إلى النطق بالحكم على مصيرها: «والآن اكشف عورتها أمام عيون محبيها ولا ينقذها أحد من يدي»[١].

٨– لقد عالجنا في شيء من الاستفاضة رسالة عاموس وهوشع التنبؤية لأنها استهلت عهدا جديدا له مغزى يفزق الحصر في تطور دين العبريين. ولقد أزاح أنبياء العهد اللاحق الغطاء عن مظاهر تعليمها الجوهرية بتطبيقها بوسائل متباينة على مجرى التاريخ العبري المتغير. وبسقوط المملكة الشمالية (٧١١) ينتقل مركز الاهتمام صوب الجنوب إلى يهوذا وهنا، تحت أمرة ملوك من سلالة داود، أصبحت الحكومة مركزة ومستقرة وغدت الحياة الاجتماعية، ما عدا بلاط بيت المقدس، أكثر بساطة وأقل ترفا وحتى ذلك الحين كان التهديد الأشوري نائيا. ولكن الآن، جلب غزو السامرة العدو حتى الأبواب عينها. ولقد أتاحت الأزمة القومية، مشأنها دائما، الفرصة للوحي التنبؤي في شخص ميخا، وهو زارع من تخم فلسطين واشعياء من بيت المقدس وهو أكبر شخصية في النبوة العبرية. واستغرق عمل اشعياه الأربعين سنة الأخيرة من القرن الثامن وكان منتهاه في عهد الملك حزقيال عام ٧٠١، عندما غزا الأشوريون في عهد سنخريب يهوذا وظهروا أمام أسوار الحاضرة، وتتضمن الفصول التسعة والثلاثون الأولى من السفر الذي يحمله اسمه [٢]، تنبوءاته وهي في ماتها، تضرب على النغمة التي صدح بها عاموس وهوشع نغمة الاستنكار العنيف للخطيئة القومية وقصاص يهوه المحيق، على يد أشور. والتصور الذي يتملك اشعياء هو القادسة، التعبير الشائع في الدين الشعبي، الذي يضفي عليه معنى روحيا جديدا. أن يهوه ليس فقط «رب الجنود» ولكن «قدوس اسرائيل». والعبريوون شعب مقدس تخصص لخدمته. ولقد كانت قداسة يهوه على النقيض من نجاسته هو ونجاسة اسرائيل التي أوقعت على النبي الخزي

---

(١) هوشع: ٢، ١٠ قابل ١و ٣و ١١، ١– ٨ والاستنكار النهائي ١٣.

(٢) وخاصة في الاصحاحات ١– ١٢و ١٤، ٢٤و ٢٣و ٢٨– ٣٢. ويرجع سفر أشعياء في صيغته الحالية إلى ما بعد السبى. وأية مناقشة للمسائل التي يثيرها النقد الحديث، تقع خارج نطاقنا. ويجب على القاريء الرجوع إلى بروتسون سمث (Robertson Smith) أنبياء اسراءيل (Prophets of Israel) المحاضرة الخامسة (وخاصة التذكرة ٧ صفحة ٤٢٢) ومقدمة أدب العهد القديم لدرايفر.

(Driver's Introduction to the Lite rature of the O.T)

أما عن آراء أكثر جزما فأنظر شين (Cheyne) التعريف بأسعياء، ومقالته «Encyclopedia Biblica»، أما عن أشعياء الثاني فأنظر ١٥ فيما يلي.

والفزع في الرؤيا الرائعة التي دعته إلى خدمة النبوة[١] وتتمثل شريعة القداسة، كما في عاموس في مطلب العدالة الاجتماعبة وكما في هوشع في مطلب الأخلاص الشخصي. وخطيئة الشعب هي أنهم «وذلوا شريعة رب الجنود وساتهانوا بكلام قدوس اسراءيل»[٢]. ويتميز اشعياء عمن تقدموه، بالزمن الامديد الذي استمر فيه نشاطه لتنبؤي وبمكانته كناصح سياسي للملك، معترف به [٣] وفي داخل الدولة، كان يبشر بالعدالة نحو الزراع الذين كان يتكون منهم، كما في اسرائيل الشمالية العمود الفقاري للأمة وبالحاجة إلى تحقيق الفروض الدينية كجزء لا يتجزأ من الحياة العادية [٤] وفي السياسة الخارجية كان يحض على أن تقلع يهوذا عن الاشتباكات الدولية وخاصة التحالف مع مصر وغيرها من الدول، ضد أشور [٥] وكانت منشورته الباكرة لا حاز التي أعيدت بعد ذلك بأعوام على حزقيال في مواجهة هجوم سنخريب: «احترز واهدأ. بالهدوء والطمأنينة تكون قوتكم» [٦] ولقد وطد انهيار الجيش الأشوري سلطة أشعياء أمام عيني الملك والشعب. ونجم عنه أكثر من هذا لأنه هيأ ليهوذا مجال تنفس لاستيعاب درس التعليم التنبؤي. وفي المملكة الشمالية كانت الطامة قد حلت سراعا عقب تحذيرات عاموس وهوشع. ولم يعد بعد لدين يهوه أثر بين الأسرى في أشور أو بين الفلول التي بقيت في فلسطين ولو كانت يهوذا لاقت مصيراً مماثلا على يد سنخريب قبل أن تظفر حياة شعبها الدينية بقوة جديدة من رسالة اشعياء، لكان

---

(١) أشعياء: ٦ يجب دراسة الرؤيا في عناية. في الدين التقليدي كان الشيء المقدس محرما أي محظورا على البشر استخدامه لأنه (مشحون) بخواص من خوارق الطبيعة. أنظر روبرتسون سمث (دين الساميين) المحاضرة الرابعة (التذكرة ب) ويشوع: ٧ (قصة عخان) وصموئيل الأول: ١٥ (شاؤل وأجاج) وصموئيل الثاني: ٦ (عزه والتابوت) وللفظ في أشيعاء دلالة داخلية وروحية خالصة، عن تقديس وتطهير القلب ولكون الكلمة عينها تستعمل كلقب لعاهرات المعبد اللواتي يحتجزن لفرائض المقدس الشهوانية التي لم تلغ إلا عند اصلاح التثنية فإن هذا يمكن أن يعد مقياسا للهوة الواقعة بين النبوة العليا والدين الشعبي، في ذلك الزمن.

(٢) اشعياء ٥، ٢٤.

(٣)وازن علاقاته مع احاز زمن الغزو السوري- الأفريمي (٧٣٥-٤) اشعياء: ٠٧، ١- ١٦ ومع حزقيا زمن غزو سنخريب (١، ٧) ملوك الثاني: ١٨، ١٣ و ٢٠ (وهو المصدر الذي أخذ عنه أشعياء ٣٦- ٣٩ في معظمه).

(٤) لعن الجور والترف- اشعياء: ١، ٢١- ٣و ٣، ١٦- ٢٣و ٥، ٨-٣٣، ١٠، ١-٣ وازن ميخا: ٢، و٣، ٢-٣، ١١.

لعن السحر والعرافة اشعياء: ٢، ٦و ٨، ١٩.

لعن عبادة الأوثان اشعياء: ١، ٢٩- ٣٠و ٢، ٨، ١٨، ٢٠ وازن ميخا: ١، ٧.

(٥) استنكر التحالف مع مصر في اشعياء: ٣٠- ٣١.

(٦) اشعياء ٧، ٤و ٣٠، ١٥.

الأيمان باله قومي خالص قد اندثر بسقوط الأمو. ولكن يقين اشعياء كان يبرره الحادث وزال الخطر ومنع التدهور السريع الذي حل بولة أِور سقوط يهوذا طوال قرن من الزمان. وعندما حل ذلك السقوط على يدي بابل، كانت رسالة أشعياء قد تأصلت جذورها. وكانت قد تجمعت حوله، في حياته، شرذمو أمينة وكونت النواة لمجتمع ديني في داخل الأمة ويتميز عنها وفي هذه العصبة من تلاميذه [1] كان يرى النبي الأمل في عودة، في النهاية– بعد أن أوقع يهوه قصاصه على الدولة الحالية– لصهيون ممحضة تحت ولاية أمير من سلالة داود القديمة ولها السيادة على الشعوب المجاورة، لأمة عبرية قدسها الألم وتعيش عيشها القومي في توافق نام نع شريعة يهوه: «لذلك يقول السيد رب الجنود عزيز اسرائيل آه أني استريح من خصمائي وانتقم من أعدائي. وأرد يدي عليك وانقي زغلك كأنه بالبورق وانزع كل قصديرك وأعيد قضاتك كما في الأول ومسيرتك كما في البداءة بعد ذلك ندعين مدينة العدل القرية الأمينة» [2] لقد ضرب على غمة الرجاء ومنذ ذلك الحين. يظل الإيمان بعودة العبريين قائما، في شدة تطرد ازديادا كمظهر جوهري للنبوة العبرية.

٩– وأتى نفوذ اشعياء ثمرته على الراجح في غضون حياته، ويقينا بعد فترة من رد الفعل في زمن منسى في الاصلاح الديني الذي وقع في عهد الملك يوشيا (٦٣٩– ٦٠٨). ولقد كانت مدونة القوانين التي جاءت في سفر التثنية والتي نفذت رسميا عام ٦٢١ من عمل مدرسته وتشيع

---

(١) اشعياء: ٨، ١٦ التي ربما تعني «ساصر الشهادة واختم الشريعة في قلب تلاميذ» وازن ارميا: ٣١، ٣٣ وقد وحدت أدراج البردي اليهودية في أسوان (ترجع إلى القرن الخامس ق.م) مربوطة ومختومة.

(٢) اشعياء: ١، ٢٤– ٢٦ وازن ٧، ٣و ٢٨، ١٦ وما بعدها. أن اشعياء مواطن بين النقدس والمشير الملكي، لك يكن لديه شيء من التحيز ضد المدينة ولديه ايثار للعودة إلى حياة البداوة تلك النزعة التي كانت لسلفه من النبيين. وإذا كان أصحاح ٩، ١– ٧ وأصحاح ١١ هما الأشعياء كما يعتقد معظم الثقاة فأنهما يعدمان أروع تعبيرات عن الأمل في العودة. ولقد كان للعبارة التي جاءت في أصحاح ١١ تاريخ لا يغيب عن البال. أن ارجوزة الرعاة الرابعة لشلاعر الروماني فيرجيل تحوي سطوراً تماثلها وثيقاً وازن الجامعة: ٤، ٢١ وما بعدها و ٥، ٦٠ واشعياء: ١١، ٦– ٨. وهذا التشابه بين ما جاء في فيرجيل ونبوءة فسرت على أنها تشير إلى المسيح، هو السبب إلى حد بعيد للتبجيل الخاص الذي كان يضمر لفيرجيل في العصور المسيحية الأولى وفي القرون الوسطى. ويلحظ شين (**Cheyne**) (الحياة الدينية) صفحة ١٠٣– تذكرة. أن في كاتدرائية زامورا في أسبانيا يمثل فيرجيل بين الأنبياء العبريين. ومن الجائز أن فيرجيل والنبي العبري عبرا تعبيرا مستقلا عن فكرة شرقية عامة.

فيها برمتها روح تعليمه [1] . وكان هدفها عمليا إلى أبعد حد وهو حياة العبريين اليومية الواقعية تتوافق مع مثل النبوة الأعلى. لقد حظرت كل عبادات الأصنام والتماثيل وكذلك ما تبقى من عبادات كنعانية ولقد نظمت الأواصر الاجتماعية والفرائض الدينية كذلك وفقا لروح الأنبياء [2] وفوق هذا كله، ألغيت الهياكل المحلية دون هوادة وتركزت العبادة الدينية الممحضة في معبد بيت المقدس ولو كانت جمهرة الأمة برهنت على أنها خليقة بأن تسلك الطريق الذي رسم لها فإن تشريع التثنية ربما كان قد هيأ الوثيقة الكفيلة بالأصلاح. ولكن لم يكن هذا ليحدث وظل المثل الأعلى التنبؤي مثلا أعلى وحسب، لا قدرة له على تغيير القلوب إلا قلوب أقلية ضئيلة ويتجلى التناقض بين النصح والعمل، في وضوح عشية خراب أورشليم كما كان عشية خراب السامرة.

١٠- ولقد كان هذا الرفض العصيي لارادة يهوه المعلنة هو الذي ختم طابعه على روح ارميا [3]. ومرة أخرى كان العدو على الأبواب، ليس الأشوريون الذين كان عصر امبراطوريتهم

---

(١) توجد في التثنية: ٥- ٢٦ وهي منسوخة عن شريعة أقدم أتي عليها بالتحوير التعليم التنبؤي. وعن قصة الإصلاح، أنظر ملوك الثاني: ٢٢- ٢٣.

(٢) لعن اشعياء عبادة التماثيل والأرواح في الأشجار (١، ٢٩ وما بعدها و ١٧، ١٠) وكانت عبادة التماثيل قد لعنها هوشع (٨، ٤- ٦و ١٠، ٥ و ١٣، ٢) الذي كان تأثيره على التثنية أعظم من تأثير أي نبي آخر من أنبياء القرن الثامن. وتحض التثنية على الشعور الإنساني والعدل نحو الأرملة واليتيم والعبد والمتسوطن الغريب وحتى العجم من الحيوان.

(٣) كانت بداية تقدم ارميا كنبي عام ٦٢٦ وقت غزو السثيين الذي جاء وصفه في هيرودوت (١، ١٠٣ وما بعدها) والذي استدعى التنبؤات التي وردت في ارميا: ٤- ٦. ولقد تنبأ صفنيا ومن الراجح أنه كان أميرا من الدم الملكي فيي أبان الأزمة نفسها (أنظر صفنيا: ٢، ٣ وما بعدها)، وقد عاون السيثيون على أضعاف دولة أشور التي كانت تسير إلى تدهور. وقد شتتوا شمل الفلسطينيين ووصلوا إلى تخوم مصر ولكن يظهر أنهم أعفوا عن يهوذا. ورأى صفنيا في مجيئهم «يوم يهوه» أنظر صنيفا: ١، ١٤ وما بعدها وهي العبارة التي أوحت بالترنيمة المسيحية (**Dies Irea, dies illa**) وقد عاش ارميا بعد سقوط أورشليم نهائياً على يد نبوخذ نصر عام ٥٨٦. وتوجد أهم تنبوءاته في الفصول ١- ٢٤ وتنبوءات العودة في الفصول ٣٠- ٣٣، يشك فيها بعض النقاد الحديثين زلكن يقبلها ولها وزن (**Wellhausen**) ودرايفر (**Driver**) وكورنل (**Cornill**) على أنها، أساسيا، من عمل أرميا (فيما عدا ٣٣، ١٤- ١٦). جاء (في الفصل ٣٦) أن التنبوءات السابقة أعيدت كتابتها باضافات باروخ بأمر من ارميا بعد أن ألقيت بأعوام كثيرة. وترجع إلى نفس الحقبة تنبوءات ناحوم (حوالي عام ٦١٢، تاريخ سقوط نينوى) وحبقوق (قبل عام ٦٠٠ بزمن وجيز) . ويجي حبقوق بتحول جديد في تصور «اليوم». أنه في نظر الشعب، يوم انتصار العبريين على أشور ولكن إذا فسر خلقيا فانه انتصار الأمه الصالحة على الأمة الطالحة.

قد ولى ولكن نبوخذ نصر من بابل. ودنت ساعة الأسر ووجدت حشرجة موت يهوذا تعبيرا لها في صرخة النبي، من التوجع اليائس. وكان أرميا الكاهن الهابط من عناثوث، في صدر شبابه يناصر اصلاح التثنية ولكن الآن ظهر كأنه سخرية خاوية وكان شعاره هيكل يهوه»[1] شبولت من الأنبياء والكهنة الكذبة. أن هيكل صهيون، مقدس العبادة التي جددت سيلاقي المصير الذي لاقاه مقدس حولها قلم الكتبة الكاذب». «صار في الأرض دهش وقشعريرة». الأنبياء يتنبأون بالكذب والكهنة تحكم على أيديهم وشعبي هكذا أحب. وماذا تعملون في آخرتها»[2].

وارميا كانت دعواه إلى عبادة، لا تقوم على رسميات الهيكل وقد دعا إلى العدول عن القوانين السطحية وعن الديانة تؤخذ من الكتب واليلاذ إلى هيكل روحي واضحيات روحية وفي نغمات أكثر وضوحا مما جاء بها أي نبي سابق، نادي بمكالب دين شخصي. وأولئك الذين اتوا في عصر لاحق، الذين أقاموا الدعوى ضد التشريع باسم القداسة الداخلية، رجعوا بنظرة إلى الخلف ولسبب صالح، إلى ارميا، كمصدر للالهام [3] وهذه المأساة لطبع منطو على نفسه، حساس، تجبره دعوة متعالية لتشديد النكير على عصيان الحكام والشعب وأن يتنبأ بهلاكهم القريب، ساقهوت في قوة قاسرة، خيال العصر التالية. ولما كان لا سبيل اليه وفي غمرة مجازفة بالحياة دائمة، وهو يقوم بوظيفته «كحمل أو ثور يقاد للذبح» وكان بطلا، كما قال كاتب عاطف، ليس بطبعه ولكن بالنعمة، فإن اريا كان يحس بانعزاله احساسا شديداً. ولم يكن يكن يوجد انسان عامل بالعدل طالب الحق في كل أورشليم [4] وكان يتشوق عبثا إلى التحرر من عناء رسالته المبرح: «يا ليت لي في البرية بيت مسافرين فأترك شعبي وانطلق من عندهم لأنهم جميعا زناة

---

(١) القضاة: ١٢، ٦ «كانوا يقولون له قل إذا شبولت فيقول سبولت ولم يتحفظ للفظ بحق....».

(٢) ارميا: ٨، ٨و ٥، ٣٠، ٣١ وعن تبشير ارميا الباكر، بشريعة التثنية أنظر الفصل ١١، ١– ٨ وعن عبادة الهيكل أنظر فصل ٧ وعن الأنبياء الكذبة فصل ١٤، ١٣– ١٦و ٢٣، ٩ وما بعدها وفصل ٢٨ حيث يناصر حنانيا ارميا، العقيدة السياسة التي الهمت اصلاح يوشيا.

(٣) وازن تصور ارميا الروحي للعهد الجديد ٣١، ٣١–٤ الذي اقتبس فيما يلي في النص، بمزمور ١١، ٦– ٨ مثلا من الأمور الجديرة بالملاحظة. أن ارعيا هو رائد دين هو على السواء اتصال الفرد الشخصي اتصالا داخليا مع الله، وعام في دعواه ليس فقط للعبري ولكن للبشرية جميعاء. ومن الوجهين فإنه أعلن روح المسيحية كما أعلن حزقيال روح اليهودية المتأخرة.

(٤) ارميا: ١١، ١٩ الكاتب الذي ذكر هو شين ارميا ٥، ١ وعن محاولة قتله أنظر ١١، ١٨ وما بعدها. (كانوا رجالا من عناثوث) ١٨، ٨و ٢٦، ٨ وما بعدها، ٣٨، ٤.

جماعة خائنين»[١] . وارميا هو الرائد للشعر الغنائي الديني والملهم بالكثير من المزامير حتى لقد رأى فيه البعض نموذج ما جاء في اشعياء: ٥٣. ولما قنط من التوبة القومية «هل بغير الكوشى جلده أو النمر رقطه؟ فأنتم أيضاً تقدرون أن تصنعوا خيرا أيها المتعلمون الشر»[٢] فإنه وجد لماذا في فكرة عهد جديد، ليس كما كان قديما بين يهوه والأمة ولكن بين يهوه والعبري الفرد. «في تلك الأيام لا يقولون بعد الآباء أكلوا حصريا وأسنان الأبناء ضرست. بل كل واحد يموت بذنبه، كل إنسان يأكل الحصرم تضرس أسنانه... هذا هو العهد الذي أقطعه مع بيت اسرائيل بعد تلك الأيام يقول الرب اجعل شريعتي في داخلهم واكتبها على قلوبهم وأكون لهم الها وهم يكونون لي شعبا. ولا يعلمون بعد كل واحد صاحبه وكل واحد أخاه قائلين أعرفوا الرب لأنهم كلهم سيعرفونني من صغيرهم إلى كبيرهم قول الرب. لأني أصفح عن أثمهم ولا أذكر خطيئتهم بعد» [٣].

أن هذا القول يضرب على وتيرة جديدة في تعليم العبريين الروحي. ولقد خبا ضوء رؤيا الأنبياء الأوائل بادماج الفرد في حياة ومصير الأمة ولم يكن إلا بعد أن أدرك أرميا أن العبري الحقيقي انكمش في ذاته، وأن هذا التحيز أمكن التغلب عليه. ومن الآن كان الوعي بقيمة الدين الشخصي في نظر يهوه ملكا مقيما للنبوة العبرية. وفي الحق سار يهوذا إلى السبى أمام عيني أرميا وأصبحت الهوة التي تفصل المثل الأعلى عن الواقع أكثر عسراً في إمكان اجتيازها، مما كانت عليه الحال في أية لحظة في التاريخ. وقد نفى رؤساء الشعب إلى بابل عام ٥٩٧ وبعد ذلك بأحدى عشرة سنة دمرت أورشليم وأصبحت دولة العبريين لا وجود لها (٥٨٦) ولكن إيمان ارميا بيهوه كاله العبريين الحي ظل ثابتا لا يتزعزع بانحلال الأمة السياسي. كان نبوخذ نصر خادم يهوه، ويهوه سلم العبريين إلى يده [٤] وقد قدر لرسالة النبي تحقيق أزخر مما كان يحلم به. وإذا كانت كلماته، كما تدل جميع الظواهر قد عجزت عن انقاذ روح الأمة فإن عكس ذلك كان، حرفيا، الحق. ولما كان قد حملها الأسري معهم إلى السبى فإنها كانت مفعمة بالنشاط الذي يبعث بالحياة في الزمن اللاحق. وقد أتاحت ساعة الانهيار الدنيوي الفرصة للأمة العبرية للولوج في

---

(١) ارميا: ٩، ٢ وازن المزامير ٥٥، ٥٠– ٨.

(٢) ارميا: ١٣، ٢٣.

(٣)ارميا: ٣١، ٢٩– ٣٤.

(٤) ارميا: ٢٧.

رسالتها الروحية للبشرية.

٣- السبى وما بعده

١١- لقد دمغ الأسر في بابل، بطابع عميق، تاريخ المنفيين الأصلي. لقد أصبح هيكل أورشليم حيث كانت تتركز العبادة الدينية وفق اصلاح التثنية، خرابا [١] وكان الشعب المختار في الواقع، تحت حظر. ولقد حظم في عنف الأمل الذي يشيع في الدين الشعبي القديم بأن يهوه سينقذ العبريين من أعدائهم وقام الدليل على أن «اليوم» كما تنبأ عاموس واشعياء يوم ظلام وليس يوم نورز ولولا وجود بذور عقيدة أرفع، غرسها تعليم الأنبياء، فربما كان المنفيون قد اندمجوا وفقا لنية هازميهم في حياة بابل الدينية والقومية. ولكن الأمر كان في الواقع خلاف ذلك. لقد أوجدت حالة انعزالهم عينها، حيوية متجددة فيما كان يبلغ أسمى ذروة وأعظم مكانة ممتازة، في عقيدتهم. ودلت أولا على أنها كانت دافعا قويا لدين القداسة الشخصية الذي وجد تعبيراً له في نبوءات ارميا. لقد التمست الروح الفردية التعزية والملاذ في الاتصال الروحي الشخصي بيهوه.

ثانيا، على النقيض التام من اخلاص القلب هذا، استعاد المنقيون في أصرة ولاء، تقاليد عبادة الهيكل القديمة وجمعوا في دراسة وثيقة تراث التعاليم الشعبية التي تتصل بالفرائض. وعكف الكتبة الكهنة على تفسير الشريعة وتطويرها وعقدت اجتماعات، يوم السبت، للصلاة وقراءة الأنبياء وعكفوا على الصوم وتذليل الجسد وبدأت المجامع تحل محل الأمة التي توارت. وكان عهد النفي، عهد تأسيس الكنيسة اليهودية واكتسبت السلطة الكهنوتية والمنظمات الكنسية قدراً جديداً. وازداد الاعتقاد بان دين يهوه يمكن المحافظة عليه فقط بالقيام الدقيق بنصائح الناموس. ولقد تكررن نفس العوارض في الأزمن التالية بعد العودة من الأسر، في القرن الخامس، ومرة أخرى في صبغ تعليم الربانيين بالصبغة الشرعية بعد أن دمر الرومان الهيكل الثاني وتشتت الشعب العبري نهائيا. والأمر الثالث هو أن المنفيين التمسوا التعزية والرجاء في رؤية صهيون وقد عادت إلى سيرتها الأولى، عندما يسكن العبريون، مرة أخرى الأرض التي يملكونها ويحكم أمراء من نسل داود بالصلاح كخدام لارادة يهوه. هذه هي النغمة السائدة في نبوءة السبى وما بعد

---

(١) ومع هذا، فان الموقع لم يكن مما لا يمكن الوصول إليه (أنظر ارميا: ٤١، ٥) ويظهر أن حياة متواصلة ذأبت على السير بين أولئك الذين تركوا في أقليم يهوذا ولو أنه كان ينقصهم النشاط للقيام بأية إعادة.

السبى ولن تعد كلمة يهوه بعد كلمة غضب ومصير وشيك الوقوع، والآن وقد وقع القصاص على خطيئة العبريين فإن يهوه كشف عن نفسه في اشفاق محبة كمنقذ ومخلص شعبه، ذل الفضل. وتظهر هذه الخصائص الثلاث لعصر النفي، في نبوءة حزقيال وهو كاهن عبري، نفي إلى بابل عام ٥٩٧ ويرجع عمله في التنبوء إلى الأعوام التي تستهل الأسر (٥٩٢- ٥٧٠). ويترك سفره في نفس القاريء أثرا قويا عن وحدة تكوينه وقد يكون، كما هو اليوم قريبا جدا من حالته عندما كتبه حزقيال على ضفاف خابور منذ خمسة وعشرين قرنا خلت. ولكن من المحتمل أن جزءاً من السفر، كما يعتقد بعض النقاد، كتب في أورشليم وأن أجزاء أخرى (كالفصول الختامية) أضافتها يد أخرى بعد ذلك. وعلى غير شاكلة النبوءات السابقة فإنه في معظمه انشاء أدبي، لا مجموعة من أقوال نطق بها، ولو أنه يحوي بعض النبوءات الشفوية [1] ويشمل سردا متتابعا من الأحاديث رتبها في منهج منظم بيده. وهو يزخر بالرؤى والرمزية وينعكس من خلاله، مزاج اللاهوتي الكاهن [2] . وكان حزقيال (ا) صلبا في توكيده المسئولية الفردية والقصاص. وقد أقلع مرة واحدة ودون رجعة عن تصور يهوه التقليدي كاله غيور ينتقم لذنوب الآباء في الأبناء، أن كل إنسان ينهض أو يهوى، في نظر يهوه، بأفعاله الخاصة: «الابن لا يحمل من أثم الأب والأب لا يحمل من أثم الابن، بر البار عليه يكون وشر الشرير عليه يكون»[3] وإلى الآن لا يوجد تفكير في قصاص في الحياة الأخرى ويأخذ الإنسان نصيبه من رغد العيش في الحياة الدنيا أو يلاقي المحنة وفق استحقاقة الخلقي. وسنرى في قسم آت، كيف عجزت هذه الفردية المغالي فيها، في ارضاء وعي الشعب العبري الخلقي المتطور. ولكن بالنظر إلى الاستمساك الشامل الذي كان يحرص عليه التعليم الديني الباكر، بمطالب المجتمع، كان من اللازم ومن الطبيعي أن يصر حزقيال، في اوكيد ينحاز كذلك إلى جانب واحد، على مطلب الفرد التكلميلي وهو وجوب أن يكون المقرر لحكم يهوه، الرجوع إلى أفعاله وإلى أفعاله دون سواها. وقد واجه النبي تذمر المنفيين من أن طرق

---

(١) حزقيال: ٣٣، ٣٠، ٣١ عن هذه المسائل المتنازع فيها، أنظر مقدمة كوك (**Cooke**) في «حزقيال» في (التعليقات النقدية الدولية).

***International Critical Commentary)**

(٢) في حزقيال، يمكننا أن نتتبع أصل أدب الرؤيا، الذي حل فيما بعد محل النبوءة. أنظر ١٥ فيما يلي وعلى غير شاكلة نبوءة ما قبل السبى فإن نبوءة الأسر وما بعدها تتخذ صيغة أدبية. لقد كتبها النبي نفسه ولم يكن بالضرورة، أن نطق بها على الأطلاق.

(٣) حزقيال: ١٨، ٢٠ أنظر الفصل كله و١٤، ١٢- ٣٠ و٣٣، ١= ٢٠.

الله لم تكن متعادلة وكان الجواب وقد اعترف فيه بالشخصية الفردية، يدل على تقدم خلقي. ما كان بالمستطاع تحقيق أي تقدم صادق في التأمل الخلقي إلا بعد أن يكون مبدأ الجزاء الشخصي قد تأيد ووجد ناقصا.

ثانيا (ب) تحوي الفصول الختامية من سفر حزقيال الوعد بعودة اسراءيل. سيجمع يهوه من جميع البلدان غنمه المشتته: «وأصيرهم أمة واحدة في الأرض على جبال اسرائيل... وداود عبدي يكون ملكا عليهم.. وأجعل مقدسي في وسطهم إلى الأبد... وأكون لهم الها ويكونون لي شعبا. فتعلم الأمم أني أنا الرب مقدس اسراءيل إذ يكون مقدسي في وسطهم إلى الأبد»([1]). وينحصر أفق حزقيال في مستقبل الشعب المختار [2] ، إذ لا مكان للأمم في ملكوت مسيا ولكن نبقى بعد انتصار العبريين لمجرد أن يفنى لحظة اهترافها بقوة يهوه القاهرة [3]. وتسيطر الغيرة على كرامة يهوه على كل سلسلة تنبوءات حزقيال ومجرى تفكيره أنه يتحتم على يهوه أن بعيد اسراءيل وبهذا فقد. تحفظ كرامته وتتجلى قوته أمام أبصار الأرض كلها. ولهذا استفاض في شرح الهوة التي لا يمكن أن تقاس، تلك التي تفصل نجاسة الإنسان عن قداسة يهوه ستجعل أمة العبريين المعادة في حالة من الوضاءة. ويظهر الكاهن في حزقيال في جلاء في (ج) هذا المثل الأعلى من الطهارة الفرضية. وهو يضع رسما مجملا في الفصول التسعة الختمامية للدستور المثالي للمجتمع المعاد. وتستبين في كل صفحة الصبغة الرسمية التي تتخذها نظرته وتصوره للقداسة التي توجبها الفروض. والفكرة التي تسيطر عليه كانت فكرة حكومة مقدسة من الكهنة يظاهرها أمراء ينتمون إلى مسميا من بيت داود وتنظم حياة العبريين الدينية من هيكل أعيد تجديده. ولقد وضعت أبغاد المقدس الجديد في تفصيل دقيق. وقد أمر بالختان، ليس كعادة قومية ولكن كرسوم الهي. وكان حزقيال الرائد الأول لحكومة الهية مثلي، اشتملت عليها فعلا منظمات عهد العودة وكان الأب الحقيقي لمدونة الشريعة الكنهوتية. وقد قام نظام قانوني وتصور أمة–كنيسة، ليبقيا. أن عهد الانبياء كان في وشك أن يفسح المجال لعهد الشريعة.

([1]) حزقيال: ٣٣– ٤٨ وخاصة ٣٦ والاقتباس من ٣٧، ٢١– ٨.

([2]) هذا ما يورده المؤلف عن العقيدة العبرية. ولا يمكن أن تقبل عقول الأحرار في زمننا هذه النعرة العنصرية ولا يمكن أن يسمح دين سماوي بابادة شعب وادع مسالم لصالح طائفة من جواب جواب الآفاق.

([3]) حزقيال: ٣٨ و ٣٩. ولكن هذت الفصول عن الأمور الأخروية، وأجزاء عظيمة من الفصول ٤٠– ٤٨، من المحتمل أنها أضيفت بعد ذلك.

١٢– وبما أن هدفنا هو ألا نستعرض تاريخ حياة العبريين الدينية في متنوع مظاهرها ولكن بالحرى أن نوضح ما خلفته للمدنية الحديثة فإننا لن نترسم نمو النظم القانونية في حقبتي السبى وما بعد السبى أو نطيل النظر في قشرة التفقه والرسميات التي كانت تحجب في بعض الأوقات تعليم الأنبياء النظام الأكبر[١] . ومع هذا فان تثير الأنبياء على ديانة العبريين لم يبلغ أعظم مداه إلا في القرون التي أعقبت العودة. «أن الرأي القائل أن سفر الشريعة لعزرا حول الدين العبري إلى فرائض نظم قانونية جدباوين، ينقضه كل أدب الزمن التالي» هكذا يكتب دكتور مور (Dr. Moore)[٢] وقد استحضر في خاطره الكثير من أحسن ما جاءت به المزامير والمثال وأيوب والاضافات إلى الكتابات التنبوءية التي يرجع تاريخها إلى العصرين الفارسي والأغريقي. ولم يكن إلا في تدرج شديد، أن الألهام التنبوءي كتمت أنفاسه. ولقد ظل قوة حية حتى ارتفاع نجم المذهب الفريسي.

كان للقرون التي أعقبت العودة مغزي خطير في تاريخ الدين العبري اللاحق. وفيها أقرت الخطوط الجوهرية في المراس الديني والخلقي للأزمنة المقبلة. وعندما غزا قورش بابل أذن للمنفيين بالعودة إلى أوطانهم (٥٣٨– ٧) وبعد ذلك بقرم (٤٥٨) لحق بالمجتمع العائد طائفة من الكهنة بزعامة عزرا، الذي حمل معه شريعة من عمل يهود بابل، تناولتها يد التجديد. وهذه الشريعة التي أنفذها عزرا عام ٣٩٧، أصبحت منذ ذلك الحين شرعة المجتمع الهادية. ولقد تحولت شريعة التثنية إلى مدونة قوانين كهنوتية وأعيد تدوين تقاليد الماضي لتصبح تاريخا كهنوتيا. واتخذت الأسفار الخمسة شكلا يطابق في الواقع الشكل الذي نقرأها فيه، في كتابنا المقدس اليوم. ونغمتها في وضعها المعاد الذي قام به عزرا كانت تلك التي جرى عليها حزقيال، النغمة

---

(١) بعد أن وطدت الشريعة حكمها المطلق كمذهب كامل للأوامر الألهية في المجتمع المعاد لم يعد بعد مجال للالهام الذاتي. وعلى هذا، ما كان لكاتب جديد أن يتقدم دون أن تأذن له الشريعة. وقد نسبت أضافات إلى كتابات تنبوءية إلى أنبياء (مثل دانيال)، سابقة للشريعة. والتفاخ بالتأليف كان غريبا على الطبع السامي وروح النبوءة العبرية. وكانت العناوين التي اتسب التنبؤات إلى واضعيها أضافات جاءت في زمن لاحق. وقد نسبت إلى أسماء وهمية أسفار الرؤيا التي تكشف عن المستقبل والتي حلت محل النبوءة (أنظر ما يلي ١٦). ولقد أدار الدين العبري على مذهب الربانيين الذي كان ذا صبغة قانونية، ظهره إلى أسفار الرؤيا في القرن الأول بعد الميلاد وترك المجال إلى الكتاب المسيحيين وواضعي تلك الأسفار، ولقد نبذت أسفار الرؤيا المسيحية، وقد تخلصت من ربقة الشريعة، الأسماء الوهمية ولكن احتفظت بها أسفار الرؤيا العبرية خلال القرون الأولى من عهدنا وخلال العصور الوسطى– انظر شارلس (Charles) الأمور الأخروية (Eschatology) الصفحات ١٩٦ وما بعدها و ٤٠٣ وما بعدها.

(٢) الدين العبري (Judaism)– ١، ١٦.

الكهنوتية. ولقد تجمعت أمة عبرية مصطنعة، مجمع وليس دولة، كان الواعز لها مثل أعلى للقداسة اللاوية حول عبادة تؤدي في الهيكل في أورشليم [١] . وقد عقدت الرياسة للكاهن الأعظم. وكان تعليم ما بعد السبى هو أن كل شيء في الأمة العبرية هو من حق يهوه، وإذا دفعت الضريبة المقررة فأنه سيرسل بركته على ما تبقى. كان المبدأ نبيلا ولكن تطبيقه من جانب أصحاب الفتاوي، أصبح وقد قارب أن يكون غير محتمل [٢] أن مخالفة فرائض العبادة دون أن يكون لها، في الغالب، مغزى يتصل بآداب السلوك أصبحت تعد خطيئة لها نفس الخطورة التي تكون لانتهاك القانون الخلقي لأن كليهما، بوصفهما أوامر يهوه، كانا فرضا لا يحده شرط [٣] . وعلى مر الزمان، أصبحت سلطة الكتاب الذين كانت مهمتهم تدوين وتفسير القانون تنزع إلى الحلول محل سلطة طائفة الكهنة [٤] وأصبح الدين العبري، في اطراد يتزايد، دين كتاب مقدس[٥].

ومن هذا الينبوع، انبثق القانون الشفوي بأثقاله التي تطرد ازديادا. وفوق ذلك كله، فإن الحاجز الفاصل بين العبريين الذين كانوا يراعون الشريعة التي أعيد وضعها، من جهة، والسامريين الملحدين والأمم الوثنية من الجهة الأخرى جعل بحيث يكون مانعا على الأطلاق, وفرضة الختان وهي الطابع المميز للصفة القومية استعرضت في التاريخ الكهنوتي كجزء لا يتجزأ من دين يهوه،

---

(١) بني الهيكل الثاني عام ٥١٦ ونغمة هذا العصر نجد رجع صداها في حجي وزكريا: ١– ٨ وعن الطهارة الخارجية أنظر اللاويين: ١٢ و١٤، ١– ١٨، ٣٣– ٥٣و ١٥، ١٦– ٣٠ ومع هذا، فمن الجدير أن نتذكر ملاحظة كوينن (**Kuenen**) (دين اسراءيل: ٢، ٢٨٥): «لا يسعنا إلا أن يعترف بأن تلك التخطيطات التي كان يرتئيها الشارع (لمدونة القوانين الكهنوتية) كانت جليلة وجميلة. ولقد وضع بطريقة عامة فكرة شعب مقدس يخصص نفسه ليهوه، وحاول أن يحققها في مجال واسع».

(٢) أنظر، انج (**Inge**): مقالات صريحة (**Outspoken Essays**)، القديس بولس ص ٢١١و ٢١٥– ٢١٦ عن: التعليم المدرسي، في عهد الربانيين في أزمنة الرسل.

(٣) أنظر، على سبيل المثال، الخروج: ٣٠، ٣٣ واللاويين: ١٠، ١– ١٦ و١٤، ٣٣– ٥٣ واللاويين على وجه عام.

(٤) بعد ختام العهد الفارسي عام ٣٣٢، يظهر الكتبة كطبقة تمتاز عن طبقة الكهنة.

(٥) ولم تكن قد تحددت بعد حتى في القرن الأول الميلادي أسفار التوراة المقبولة لدى الكنيسة المسيحية كقانون للإيمان. لقد تسلمت المسيحية الأفار اليهودية ومعها مبدأ الألهام الحرفي وأضافت (العهد الجديد) الذي كان أكثر تجانسا في محتوياته وفي مستوى تعليمه الروحي من (العهد القديم)، ويمكنا أن نوازن تأثيرات (دين كتاب) على الدين العبري قبل قيام المسيحية، وتأثيرات أحيائه بعد حركة الأصلاح التي لا يزال يمكن تبنيها إلى اليوم.

وآية ميثاقه الأبدي مع إبراهيم. ونستطيع أن نرى السبب الذي دفع العبريين العائدين لوضع هذا القصر الصارم. ولقد غدا الاتصال بين لبشرق والغرب، في ظل الأمبراطورية الفارسية وخاصة في ظل امبراطورية مقدونيا، أكثر توثقا وتحطمت على التدرج حواجز السلالات وكان يمكن أن يفقد عابدو يهوه الأتقياء في يسر، ذاتيتهم ويندرجوا في العالم الوثني الذي يقوم حواليهم لولا أنهم اعتصموا بعقيدتهم المتميزة ومعها قوميتهم المتميزة بسور من الشريعة الرسمية يحيط بهما. أنهم كانوا مقدسين أمام يهوه، أما من عداهم من الخلق فلم يكونوا مختتنين وكانوا أنجاسا. وهذا الوعي بدعوة خاصة والعزيمة التي لا تتزعزع بأن يكونوا موالين لالتزاماتها زادتهما شدة، في القرن الثاني، اضطهاد انطيوخس افيفانس **Antiochus Epiphanes** (١٧٥– ١٦٤) وبعد ذلك غزو روما. ويمكنا أن نرجع إلى ذلك العهد مصدر الثبات الذي يبعث على الدهش الذي يتسم به به الدين العبري وطبيعة السلالة العبري خلال؟؟؟ التالي كله. وتوجد، دون ريب عظمة في مشهد شعب صغير سفر، صفر اليدين من دعائم الوحدة الطبيعية السياسية، وهو يوجد روافد صناعية تأتي عليه بالنفع في الحفاظ بقوميته كصخرة بين عواصف تتناوح من كل جانب. وكان الثمن الذي دفع باهظا وهو قرض عبء فادح أوصد الباب أخيرا وصدا نهائيا أمام الأخوة الروحية مع عالم الأمم الوثنية. ومن ذلك الحين، كان فقط بالنفصال الثوري عن العقيدة العبرية الصحيحة، أن روح دين الأنبياء أتيح لها أن تشيع في المدنية الغربية. ويجب أن نبحث في مظنة أخرى غير الشريعة عن التراث الأصلي الذي تركه العبريون للبشرية [1] فالشريعة كانت الصدفة وليست

---

(١) يجب ألا تؤخذ هذه العبارة كانكار للتأثير الواضح الذي كان للشريعة الموسوية على تاريخ المسيحية. فعلى سبيل المثال، تركت النصائح الخلقية التي جاءت في الأسفار الخمسة الأولى من التوراة، أثرا عميقا على آداب السلوك المسيحية. لقد احتفظت المسيحية عندما امتزجت بالهلينية، بمدونة القوانين الخلقية العالية اليت ورثتها عن الدين العبري، وتدعو الحال فقط إلى ذكر الوصايا العشر. ثم أن تاريخ نظام الكهنة ونظام القساوسة المسيحيين أثرت عليه المدونة الكهنية اليهودية وتصور العبريين لوظيفة الكاهن. والرسالة إلى العبرانيين هي مثال باكل لهذا التأثير، وهي التي تركت أيضاً طابعها على مبدأ التكفير المسيحي، ومع هذا فإن النظام الكهنوتي المسيحي، على غير شاكلة النظام العبري، لم يكن قط وراثياً ويغلب عليه العزوبة، وكذلك تأثر الفمر القضائي المسيحي بالشريعة الموسوية كما يتجلى ذلك فيي (**Aquinas' tractate de legibus (S. Th, il. 199 90- 108**). لقد كانت الشريعة الموسوية النموذج للتعديلات التي أدخلها قسطنطين وخلفاؤه المسيحيون في الأمبراطورية، على قانون روما الجنائي. ولقد كتب جيون (**Gibbon**) (فصل ٤٤): «لقد ساتقبلت شرائع موسى كمصدر الهي للعدالة وكيف الأمراء المسيحيون قوانين عقوباتهم على درجات التسقل الخلقي والديني»، فعلى سبيل المثال، أصبح الزنا جريمة عقابها الموت. وقد لقي هذا التأثير القضائي للشريعة العبرية وأعزا قويا في زمن الاصلاح. وقبل ذلك الوقت، لم تؤثر إلى درجة خطيرة على القوانين الفعلية

نواة الحياة الدينية فيما بعد السبى. ولقد نهض جنبا إلى جنب مع الضيغ الرسمية الفرضية دين من التقى الداخلي والرعة، وجنبا إلى جنب مع خواص المجتمع الصحيح خلجت رؤية مملكة مثالية في صهيون يكون من أمرها أن تضم جميع لاشعوب وتحمل الخلاص ليس ففقط للعبريين ولكن للأمم [١].

١٣– وكان من الطبيعي تماما أن هذا التعبير المزدوج عن الهقيدة الدينية، الذي يضم المثلين الأعليين، الاتصال الروحي الشخصي بالله وملكوته العام، ينهض في آن واحد مع خاصية الشريعة. ومثال توضيحي لنزوه الحد الأقصى للفردية والتعميم، هذا، إلى التقابل في تلاحم وثيق تقدمه الهلينية المعاصرة حيث أصر الفلاسفة الرواقيون عند انحلال دولة– المدينة الحرة، بعد الغزو المقدوني، على مطالب الفضيلة الفردية وكذلك على عضوية مجتمع عالمي. ويبرز هذان المثلان الأعليان في الأدب الديني العبري في عصري السبى وما بعد السبى. ومن الضروري جدا فيما يتعلق بالأول أن نلحظ، وخاصة بعد ما قيل عن الصفة الرسمية التي ميرت وضع مدونة القانون الكهني، كيف بعث حكم الشريعة في المجتمع العبري مستوى خليقا رفيعاً وعنصراً من التقى زاخراً. أن قوة دين العبريين كانت، إلى حد ما. تتأصل في ضعفه بالذات [٢] ولقد دل المجتمع

لدى الشعوب الغربية. أن الفرد (**Alfred**) يشير إلى موسى في مقدمة مدونة القوانين الأمجلوسكسونية ولكن القوانين التي تجيء بعدها لا تستبين فيها أية علامة للتأثير، ومن الجهة الأخرى، كثيرا ما أدمجت الجماعات البروتستانتية نصائح موسى في تشريعها، وفي إعلان أصدره الزراع الألمان في عام ١٥٢٥ نجدهم يطالبون بأنه «يجب الغاء صفة علماء القانون وأن تجري العدالة طبقا لشريعة موسى لأنه لا يجمل بالإنسان أن يحصل على قانون أفضل من ذلك الذي أعلنه الله» (فنوغرادوف (**Vinogradoof**)– القانون الروماني في أوروبا العصور الوسطى صفحة ١٢٩) ولقد رفض المستعمرون في مساشوستس (**Massachusetts**) أن ينتهجوا مذهب المخاطمة بوساطة المحكمين لسبب أن موسى في شرائعه لم يصرح بها. وكانت عقوبة الموت للسحر ولانتهاك يوم السبت، هناك وفي أماكن أخرى بين جماعات الممحضن، لها ما يبررها استناداً على ما جاء في شريعة موسى. ويكتب ي. ن. فيجس (**J. N. Fiiggls**) من جرسن (**Gerson**) إلى غروتم (**Grotim**) صفحة ٢٠٩): «أن القانون لدى لزثر (**Luther**) سواء أكان طبيعياً أو خلقياً أو مدنيا، كلع يندمج في الوصايا العشر وأي شيء غيرها ها هو مجرد قوانين أدارية سواء في الدولة أو الكنيسة».

(١) أنظر التذكرة الإضافية في خاتمة هذا الفصل عن تاريخ العبريين فيما بعد السبى.

(٢) لقد بين مستر كلود مونتفيور (**Mr. Claude Montefiore**) في محاضرات هبرت (**Hibbert**) لعام ١٨٩٢، في جلاء كيف أن الشريعة نمت الحياة العليا الخلقية والروحية في مجتمع ما بعد السبى. ولم تكن نتائج النظم الشرعية فيما يتعلق بالسلوك ما يتوقع مبدئيا منها. وهو يقول: «أن المرء في حاجة إلى أن يأخذ حذره عند الكتابة عن الشريعة» (صفحة ١٧٨ تذكرة ١)، أن ما كانت تتميز به حياة أتباع الشريعة الصادقين هي الطهارة وحسن الصنيع، وفوق كل شيء البهجة في الخدمة المحبة. ولم يكن العبري يشعر بها حمل ولو أنها من جهة نظر التعميم كانت حملا. وفي هذا الفصل

المحلي، باجتماعاته للصلاة العلنية وقراءة وتفسير الكتاب على أنه وأعز قوى للدين في الفرد. ومما هو أجدر بالملاحظة، أن عبادة الهيكل نفسها ولدت روحاً من لاتقى المستعر ظهرت بتعبير دائم في المزامير. ولما كانت نتاج مؤلفات متعاقبة يتراوح تاريخها بين عهد السبي إلى القرن الثاني، فإن هذه الترانيم التي لا يعرف لها مؤلف والتي تشتمل على المزامير، سميت، لسبب صالح، «كتاب ترانيم الهيكل الثاني»[1] وهي تشهد في كل صفحة كيف كان قلب الفرد من العبريين يدق في توافق مع قلب مجتمعه الديني. أنه كان يعيش ويتحركوله كيانه، في حياة العبريين الروحية.

وإذا لم يكن يهوه الها قصيا ولكنه «عون حاضر في الضيق» فلأنه كان «يرعى العبريين» وإذا كانت روحه تشتاق إلى يهوه «كما يشتاق الأيل إلى جداول المياه» فمرجع ذلك إلى أنه انفصل عن مقدس الهيكل الذي اتخذه اله السماء والأرض مسكنه الخاص، وسط شعبه المختار [2]، وعندما يتحدث صاحب المزامير في ضيغة المتكلم، فليس ذلك باسمه هو ولكن باسم الطائفة الروحية التي تندمج فيها شخصيته الخاصة. ولقد ألهم بعض المزامير، مباشرة، الأخلاص أما البعض الآخر، في نهج أكثر حصرا، يعبر عن مطامح وآلام أنصار المذهب الصحيح الصارم، الخاسديم (الأسدئيون أو الأتقياء– السابقون الأولون للفريسيين) الذين بذلوا حياتهم في مقاومة الهلينية في أيام أنطيوخس افيفانس[3] **Antiochus Epiphanes**. وأنا لنسمع، جنبا إلى جنب مع الأفصاح عن الإيمان بيهوه وبالفرح في حضرته، صدى الذكريات القومية القديمة ولالآمال في خلاص قومي والبهجة في عبادة المعبد، ولكنه أهمية المزامير بالنسبة لنا ترجع بالحرى، إلى أنه تشيع فيها روح من الأخلاص الديني تسمو على حدود العبادة الكهنوتية وحدود الشريعة، الضيقتين. والتأثير الذي بسطته هذه القصائد في القلب البشري خلال ألفي سنة ونيف ينهض

يعالج دين العبريين بصفة شاملة من وجهة النظر هذه وتقع قيمتها داخل نطاق الدين العبري، خارج اختصاصنا. وعن الدين العبري في القرن الأول بعد الميلاد، أنظر فصل مستر مونتفيور بعنوان «روح الدين العبري في بواكير المسيحية» لجاكسون (**Jackson**) وليك (**Lake**) المجلد الأول.

(١)ولو أنها، على غير شاكلة كتب الترانيم التي لدينا، لم تمن قط بين أيدي المجمع. ومن المحتمل أن بعض الترانيم ترجع إلى ما قبل السبي ولكن من غير المرجح أن أيا منها من تأليف داود. أنظر داريفر (**Driver**) «المقدمة» وشين (**Cheine**) «أصل المزامير»

(٢) مزمور ٤٢.

(٣) الأخلاص للشريعة وخاصة المزمور: ١١٩ ومزمور: ١ يعبر عن مشاعر (الأتقياء) أو (الأبرار) على النقيض من (الأشرار) و(الخطأة) و (المحتقرين) وازن ١٢، ١– والإشارة إلى الهيكل واضحة في المزامير ٢٤و ٢٧و ٦٥و ١٣٨ وعن تفصيل مجمل لموضوعات المزامير أنظر درايفر (**Driver**) (مقدمة) الصفحات ٣٦٨– ٩.

دليلا على شدة وعظم الشعور الذي ألهم أولئك المؤلفين بجانب أمواه بابل– الذين نجهل أسماءهم– بها، وكذلك إلى اذلين قاموا في المجتمع الذي التم شمله في فلسطين. وفي بعض المزامير ينفذ التقى الشخصي، عن وعي، من خلال الحواجز التي أقامتها السنن الخارجية ويعرض عن الشريعة المكتوبة إلى تلك التي رقشت على صفحات القلب [١] أنه هذا التنوع وهذا الفيض من العاطفة الدينية الذي يلم بكل الحالات النفسية التي فيها تتجه روح الإنسان نحو الله، في أيام الخير كما في أيام السوء، هما اللذان جعلا من المزامير كتاب ترانيم، ليس فقط للهيكل الثاني ولكن للدين العبري في جميع العصور وللكنيسة المسيحية أيضا.

١٤– وإذا كان العبري الصالح قد وجد رضي لمطامحه ، في دين خدمة– المعبد، العملي وفي مراعاة القانون فقد واجهته في نفس الوقت مسألة تتصل بعلم اللاهوت وآداب السلوك، كانت تسبب الكثير من فحص القلب فحصاً خطيراً. ومبدأ حزقيال الذي تردد صداه بعض المزامير [٢] وهو أن كل رجل يلقي الجزاء الوفاق فيكافأ أو يعاقب بمقتضى ما هو حقيق به في مدرجة حياته الدنيا، لم يستطع أن يصمد في مواجهة الوقائع. أن أقدار الفرد كانت تعتمد كما هو جلى على أقدار رفاقه وما كانت حاجة السعادة الخارجية لتتناسب مع ما له من فضل. وكان هذا التناقض العملي، وليس أي تعارض فكري، هو الذي دفع الناس إلى التشكك في العدالة الالهية [٣]. وقد لاذت بعض العقول إلى التفريق بين الرخاء الظاهري والرضى الداخلي وغيرها إلى الفكرة بأن آلام الصالح، لم تكن تأديبا وإنما كانت تقويما بينما سعود جد الشرير كان من شأنه فقط أن يزيد وقع الكارثة التي تجتاحه آخر الأمر [٤]. ولكن تصور الألم عن أنه قصاص عن الخطيئة كان متأصلا تأصيلا عميقا في العقل العبري، لتكون أمثال هذه الحلول مقبولة. وعلى هذا فإن المسألة التي قامت، تكون موضوع شعر أيوب الفاجعي. لماذا ينعم الأشرار ويلاقي الأبرار تعاسة لا يستحقونها؟ أن الكاتب يحس أن هذا لا يمكن الإجابة عليه في حدود صيغ الخطيئة الشخصية، ولكن بينما يصيغ وضع الصعوبة فإنه لا يقدم حلا فيه الكفاية. ويظهر أن الأفتتاحية تدلي بأسباب الرأي الذي يقول أن ايوبا تالم كشهيد يعلن عن عدالة الله بينما يظل هو غير واع

---

(١) مثلا المزامير: ٤٠و ٥٠و ٥١.

(٢) على سبيل المثال المزمور: ١، ٣و ٣٤، ١٩– ٢١ والأمثال: ١١، ٣١.

(٣) أيوب: ٢١، ١– ١٥.

(٤) مزامير: ٣٤، ١٩و ٣٧ على الأخص ٣٥، ٣٦.

بالهدف من آلامه أي جزاء الورع الذي لا يرمي إلى نفع. وليإذه الأخير هو إلى ما تمليه العقيدة الخلقية معرضا غن وقائع الظروف الخارجية ويظل تيقنه العملي من بر يهوه بحيث لا يتزعزع، إلى النهاية [1] وفي نص واحد يجيء برأي عابر عن الأمل، الذي قدر له منذ القرن الثاني وما بعده أن يتأصل بين العبريين، في بعث البار ليستمتع برؤية يهوه شخصيا[2] وسنهود وشيكا إلى هذه العقيدة ونقتصر هنا على التنويه إلى أنها لا ترجع إلى استدلال من مقدمات قياس نظرية ولكن كنتيجة فرضتها على العقل صعاب الحياة العلمية. وهذه الحقيقة تكفي بذاتها إلى استبعاد الرأي الذي يقول أن ظهور العقيدة الجديدة كان مرجعه إلى التأثير الهليني. وعلى الرغم من خضوع العبريين للحكم المقدوني من عام ٣٣٢ وما بعده، فإن سياسة الامتزاج بين الغرب والشرق التي نماها خلفاء الأسكندر تركت أثرا ضئيلا في الفكر العبري إلا في الاسكندرية حيث كانت الطائفة العبرية تستمتع بمكانة لها ميزة خاصة. وأعظم استثناء يلفت النظر في العهد القديم هو الذي يورده سفر الجامعة الذي ربما يكون قد كتب قرب نهاية القرن الثالث حيث تتخذ الفردية الدينية، تحت وازع الهلينية، صورة البحث المتشكك. أن طبع هيرودوت [3] لينعكس في هذه الألفاظ:

---

(١) أنظر كتيب دكتور روبنصون بعنوان «صليب أيوب» (كتب الدين والحياة) الصفحات ٦٤- ٦٩ وتشارلس (Charles): الأمور الأخروية (Eschatology) الصفحات ٦٩- ٧٣. وفي السفر الخاص بأيوب في «التعليقات النقدية الدولية» (درايفر وجرى (Driver and Gray) يذهب القول إلى أن القرن الخامس هو تاريخ القصيدة المحتمل.

(٢) أيوب: ١٩، ٢٥- ٧، أنظر شارلس (Charles) صفحة ٧١ ودرايفر (Driver) المقدمة صفحة ٤١٨: «أن فكرة حياة في المستقبل، مبالكة- فكرة ناشئة في سفر أيوب» في مجلد (التعليقات النقدية الدولية) عن أيوب يقدم جراي (Gray) العبارة:

الآية ٢٥: أما أنا فقد علمت أن المنتقم لي حي وأنه بعد هذا سيقف فوق التراب.

الآية ٢٦: و....................

وبدون جسدي أرى الله.

الآية ٢٧: الذي أراه أنا لنفسي وعيناي تنظران وليس آخر.

في الشطر الأول من الآية ٢٦ توجد صعوبة تكاد تكون مستعصية. والكلمة التي ترجمت (منقذ) في النسخة القديمة معناها منتقم لظلم لا يستحق (أنظر هامش النسخة المعدلة).و(أنا) في الآية ٢٧ للتوكيد. ويفسر جراي في ملاحظاته العبارة بأنها تعبر عن اعتقاد أيوب ليس في حياة بركة دائمة بعد الموت ولكن في رؤية الله بعد الموت رؤية عابرة تبين أن الله معه. وعن الإيمان بالبعث أنظر ما يلي ١٥.

(٣) الجامعة: ١، ١٣، ١٤ وازن الأمثال: ٣٠، ٢- ٤ لتشكك مشابه، ويمكن تقصي التأثير الأغريقي أيضا (فيما يحتمل) في الأمثال: ١- ٨ وفي سفر (Eccleslasticus) من الأسفار شبه المقدسة حيث يوجد بيان مجمل عن المثل الأعلى للرجل اعاقل ومبدأ الوضيع وينوه عن قيمة وقت الفراغ لحياة الحكمة (مثلا Ecclus) ٣٨، ٢٤) ومعناه معلم الحكمة. وعن أدب (الحكمة) الذي ينتمي إليه سفر الأمثال أنظر درايفر (المقدمة) الصفحات ٣٩٢ وما بعدها.

«ووجهت قلبي للسؤال والتفتيش بالحكمة عن كل ما عمل تحت السموات» ويستبين المذهب الكلبي في الكاتب في يسر في عبارة: «رأيت كل الأعمال التي عملت تحت الشمس فإذا الكل باطل وقبض الريح».

ويبين انعدام الجد التفكيري فقط كيف كان العقل العبري وسيطا غير ملائم لتقبل الفلسفة الأغريقية. والآراء التي كان يؤثرها هي قواعد السلوك الحكمية، عند الأبيقوريين وهم من بين جميع المدارس الهلينية المتأخرة، المدرسة التي لم تقم أقل وزن للبحوث الميتتافزيقية، ومسألة أيوب يمكن أهمالها على التو بانكار الجزاء الخلقي [١] و «الجامعة» مثال منعزل في أدب «الحكمة» العبري. أن آلام الشهداء، الخاسديم، في عهد انطيوخس افيفانس **Antiochus Epiphanes** والعاطفة الوطنية العنيفة التي اتسمت بها ثورة الكابيين التي أثارتها جهوده في فرض الهلينية قسرا، أخمدتا روح الحرية العقلية في فلسطين وضمنتا انتصار الخاصية التي تفرد بها العبريون.

١٥- وفي غضون السبى، أصبح الأمل في الملكون قوة مسيطرة في حياة العبريين الدينية وكان نموه تدرجا واتخذ ضروبا من الصور المعينة. فحينا كان يضيق بحيث يتوافق مع أشد مذهب قومي صرامة وحينا آخر يوسع حتى يحطم كل حاجز كان يفصل العبريين عن العالم الوثني. وهو يرتبط في الغالب، وخاصة في السنوات التي سبقت ميلاد المسيح مباشرة بالاعتقاد في مجيء مسيا، الملك من نسل داود الذي يجب أن ينقذ العبريين ويستهل مملكة يهوه [٢] . ولكن هذه الظاهرة، ليست جوهرية ولب التصور هو أنشاء «مجتمع أعيد احياؤه، يجب أن تتحقق فيه الإرادة الالهية»[٣].

ولقد أدمج الترقب القديم «ليوم يهوه»- ولم يعد بعد ذلك يفسر كمحنة غضب على

---

(١) الجامعة: ٨، ١٤و ٩، ٢ الصدفة تحكم العالم (٩، ١١) قواعد السلوك الأبيقورية من طراز أقل رفعة، القريبة من المذهب القوريني (**Cyrcnacism**) (٣، ١٢ وما بعدها و٥، ١٨ وما بعدهاو ٩، ٧- ١٠) هذه ونصوص أخرى كثيرة تورد للذاكرة نغمة رباعيات عمر الخيام.

(٢) مسيا معناه (المسموح بالطيب) ويعادله في الإغريقية **Christos** (**Christ**) (الذي مسحه يهوه بالطيب) كان تعبير يطلق كثيرا على ملوك ما قبل السبى.

(٣) شارلس (**Eschatology**) الأمور الأخروية، صفحة ٨٤- يتصور المذهب العبري السابق للمسيحية، المملكة المثالية أحيانا على أنها حكم أمير دنيوي من نسل داود وأحيانا على أنها حطم ألهي بحكومة من الكهنة. ولا يوجد ذكر لمسيا في عاموس أو صفنيا أو ناحوم أو حبقوق أو يرئيل ولا في دائيال أو في النصوص الأخيرة، أشعياء: ٢٤- ٢٧، ٦٥- ٦٦ وكثيرا ما يذهب التصور إلى ألى أن الملكوت تكون تحت حكم يهوه مباشرة.

العبريين ولكن كوعد بالفداء_ في رجاء الملكوت التي أعلن عنها أشعياء وارميا وبينها حزقيال في وضوح [١]. وفي نبوءة حزقيال يستعرض التصور في أعظم صورة شاملة له، كتأسيس كنيسة من الكهنة تسبقها دينونة لا رحمة فيها للأمم والعبريين غير المؤمنين، أما بركات الملكوت فيختص بها الأبرار من الكهنة تسبقها دينونة لا رحمة فيها للأمم والعبريين غير المؤمنين، أما بركات الملكوت فيختص بها الأبرار من العبريين وتكون لهم [٢]. ويرجع بعض انتصار هذا التفسير الضيق، في النهاية، بين يهود العودة، إلى الاضطهاد الماحق في عهد انطيوخس وبعضه إلى عدم قدرتهم على إدراك كل اتجاهات عقيدتهم في التوحيد. وإلا، ما كانوا ليعجزوا عن الوصول إلى الاستنتاج بأن اله الأرض كلها لم يحصر عنايته الرحمية في شعب واحد له امتياز ولكن شاءت ارادته بأن معرفته يجب أن تكون، عن طريق العبريين، نورا لجميع الأمم على الأرض. ولقد عبرت، في الواقع عن هذا التصور الأكثر اتساعا للملكوت، نبوءة السبى وما بعد السبى. كان يوجد في حياة العبريين الروحية ذلك الشيء الذي لا قبل له على أن يحتبس داخل الحدود التي رسمها حزقيال. هكذا كانت رؤيا الملكوت التي ألهمت رسالة أشعياء الثانية [٣]. وهو يستهل بصوت التعزية: «تعزوا، تعزوا، يا شعبي» وطمأنينة بافتداء قادم عندما «يكشف عن مجد يهوه وكل الأجساد تراه معا

. ولو أن الرجاء من نجاة عاجلة على يد قورش الفارسي يزدوج بذكرى عد أخلاص العبريين السابق والتأنيب على عدم إيمانهم الحالي، [٤] فإنه النغمة السائدة هي نغمة الوثوق من رحمة يهوه. أنه المخلص المنعم الذي «سيطعم قطيعه كراع» ولأنه غفر في سماح، ذنوب شعبه: «بفيضان الغضب حجبت وجهي عنك لحظة وباحسان أبدي أرحمك قال وليك الرب»[٥]

---

(١) عن (اليوم) انظر عاليه ٤– عن أشعياء أنظر عالية ٧– وارميا: ٢٣، ٥، ٦– حزقيال: ٣٤، ٢٣ وما بعدها و ٣٧، ٢٤ وما بعدها. ولكن لا يوجد رجاء في مسيا، في حزقيال (أنظر كوك المرجع المذكور آنفا «المقدمة»، صفحة ٣٠).

(٢) وازن أر: ٤، ٢ و١٢، ١٤– ١٧ و ١٦، ١٩ حيث شملت الملكوت الشعوب. وقد ورد الرأي الأضيق، على سبيل المثال في أشعياء: ٦٦ وفي نبوءة يوئيل (حوالي ٤٠٠ ق.م).

(٣) تجيء تنبوءات أشعياء الثاني في الأصحاحات ٤٠– ٥٥. ويرجع تاريخها إلى زمن غزو قورش لبابل (٥٣٨). وتضم هذه الأصحاحات (أغاني خادم يهوه) الأربع ومن المرجح أنها لكاتب آخر– الأصحاحات: ٤٢، ١– ٤و ٤٩، ١– ٦و ٥٠، ٤– ٩و ٥٢، ١٣و ٥٣، ١٢ والأحد عشر أصحاحا الأخايرة من سفر أشعياء (٥٦– ٦٦) ربما وضعها مؤلفون مختلفون وترجع إلى تاريخ لاحق. وعلى أية حال فيمكن أن يعد من االمور المقررة أن يعد من الأمور المقررة أن الأصحاحات ٤٠– ٦٦ لا تحوي أية تنبوءات من أشعياء نفسه.

(٤) أشعياء: ٤٠، ٢٧ وما بعدها و ٤٢، ١٨– ٢٥، ٤٩، ١٤– ٢١.

وكانت دعوة أشعياء الثاني للإيمان أكثر من أن تكون للتوبة. أن علمه باللاهوت أكثر وعيا وأكثر جنوحا إلى التأمل بالقياس إلى ذلك الذي كان لدي الأنبياء السابقين أنه يفرض معتقداته في التوحيد كحقائق نظرية، ليس بتوكيد العقيدة ولكن بالدليل المقنع. أن يهوه هو الخالق المعترف به، الحافظ للكون، الاله الواحد الأبدي الذي لا نهاية له والذي تظهر يده القادرة خلال الطبيعة كلها والتاريخ كله: «من فعل وصنع داعيا الأجيال من البدء، أنا الرب الأول ومع الآخرين أنا هو»[١]. ولقد توارت آخر آثار للشرك، كما يتميز عن التوحيد. أن آلهة الوثنيين أصنام، أشياء لا وزن لها وباطلة. «لا إله غيري»[٢]. وعلى توافق تام مع هذا الأدراك الجلي للوحدة الألهية، فأن الرؤية تنفذ إلى ما وراء حدود القومية، الضيقة، وتطالع خلاص جميع الشعوب داخل الملكوت المعاد [٣]. ويذهب التصور إلى أن أورشليم هي الحاضرة المنتظرة لكنيسة عامة: «فتسير الأمم في نورك والملوك في ضياء اشراقك»[٤]. ويذهب التصور إلى أن أورشليم هي الحاضر المنتظرة لكنيسة عامة: «فتسير الأمم في نورك والملوم في ضياء اشراقك»[٥]. أن في «أغاني خادم يهوه» الأربع، تجد رسالة العبريين العامة أنبل توكيد لها. ولا توجد هنا أية فكرة عن السيطرة السياسية أو السيادة الأنسانية. ولقد صورت أمة العبريين البارة كخادم، لا يتألم من أجل خطيئته الخاصة ولكن من أجل خطيئة شعبه «محتقر ومرفوض من الناس رجل أحزان ومختبر البلية»، وأرسل إلى أرض غريبة ليخلص أولئك الذين في العبودية ويعلن عن مجيء الملكوت.

وليس من المغالاة في القول أن هذه الفقرات وأمثالها من فصول اشعياء الأخيرة تركت على أبصار الناس طابع نظام مجتمع مثالي، ظل باقيا طوال الأزمنة اللاحقة. ولقد رأي المسيحيون فيها منذ البداية أقرب توقع لملكوت الأنجيل. لقد كان الخصى الأثيوبي يجيل التفكير في «أغنيات

---

(١) اش: ٤٠، ١١و ٤٣، ٢٥ و٥٤، ٨.

(٢) اشع: ٤١، ٤ وازن ٤٠، ١٢– الآخر و٤٥، ٥– ٨و ٤٤، ٢٤ و ٥١، ١٣.

(٣) اشع: ٤٤، ٦ وازن ٤٤، ٩ –٢٠ و٤٦، ١–٧.

(٤) تستعرض علاقة الأمم بالملكوت في صور شتى في الستة وعشرين أصحاحا الأخيرة من اشعياء. في وقت، تظهر أمة العبريين كدولة أمبراطورية تدين لها جميع الشعوب بالولاء. اس: ٤٥، ١٤– ١٧ (القصاص يقع على الشعوب) ٤٩، ٧ و٢٢، ٣و ٥٤، ٣ وفي غيره، تقبل الشعوب ملكوت يهوه عن إرادتهم الخالصة اشع: ٢، ٢–٤ (= ميجا ٤، ١–٣)، نص يرجع إلى ما بعد السبى: ٢٥، ٦، ٧ (ربما حوالي ٣٠٠ ق. م).

(٥) اشع: ٦٠، ٣وازن مز: ٢٢، ٢٧–٣١ و٤٥و ٨٦و ٨٧ واشع: ١٩، ١٨– ٢٥ نص متأخرة يسترعى البال جداً فيه تندمج أشور ومصر في الملكوت على قدم المساواة التامة مع العبريين. راجع أيضاً ما يقصه يونان تمثيلا.

الخادم» في مركبته عندما قابله فيلبس، الشماس، في الطريق من أورشليم إلى غزة. أن أغنية سيمون التي سجلها القديس لوقا، تنهض دليلا على أنه كان يوجد في زمن المسيح، على الرغم من انتصار التخيص في المذهب اليهودي الصادق، أولئك الذين كان يراودهم الأمل الأعظم في الملكوت وتكون «نور اعلان للأمم ومجدا لشعبك اسرائيل»[1] . وعلاوة على هذا. فمن المرجح حقا أن المسيح الذي أخذ فقرة قريبة من «أغنيات الخادم» موضوعا له عندما كان يبشر في المجمع، تأثر بها، عن وعي، في رسالة الخلاص التي حملها.

١٦- ولقد تحول مبدأ الأمتزاج بالاعتقاد، الغريب عن الفكر اليهودي في زمن أكثر بكورا، في بعث بعد الموت [2] . وكانوت يتصورون ملكوت يهوه، في التقاليد الشعبية وفي تعاليم الأنبياء على أنها خلاص العبريين، يحقق في تاريخ الأمة القادم على الأرض، وكان بعد زمن متأخر، وتحت دافع الألم الشخصي القاهر، أن اليهود دفعوا إلى ربط الرجاء في الملكوت بالرجاء في بعث الأبرار حتى بسهموا في نعيمها وتبعا لهذا، إلى الاعتقاد في خلود الروح. ولقد كان الرأي التقليدي عن الروح لمدى العبريين وكذلك لدى السلالات الأخرى جافيا وماديا يرتبط ارتباطا وثيقاً بعبادة السلف ويتجرد عن أي مغزي خلقي. عند الموت، كان الطيف يسير إلى شيول حيث يقيم في صورة شبه جسمية بينما الروح أو نسمة الحياة التي ميزوها بعد ذلك على أنها مصدر المواهب النفسية العليا، ترجع إلى الذي اعطاها. ولا يوجد هنا أي موضوع عن الخلود الشخصي أو الجزاء

---

(١) الأعمال: ٨، ٢٦ وما بعدها ولوقا ٢، ٣٢.

(٢) راجع (الأخرويات) لتشارلس الفصلين الخامس والسادس.. أن الاعتقاد اليهودي في بعث بعد الموت، عندما ظهر هكذا في زمن متأخر، لم يكن بأية حال، عودا جديداً لآراء بدائية. لقد كان نتاج مسائل خلقية ودينية تنتمي لنضوج المدنية العبرية. لقد أودى دين يهوه، على التدرج، بعبادة السلف مع ما كان يلازمها من اعتقاد باستمرار حياة الروح في شيول. ولقد مضت قرون قبل أن ينجم هذا الإيمان الخلقي الجديد في البعث، عن دين يهوه المتطور. وكان تصور مستقبلية يرتبط ارتباطا وثيقا في الدين اليهودي بتصور بعث من الموت. وبين الإغريق، من الجهة الأخرى، ولم يكن هناك موضوع عن بعث. ولكن مبدأ خلود الروح الأفلاطوني كان يشترك مع مبدأ البعث اليهودي، في أنه كان مستقلا عن الاعتقادات البدائية في البقاء (ولو أنه استخدام مواد استمدت من الاعتقادات الدينية الشعبية). وكانت عقيدة أفلاطون ترجع ترجع إلى أسباب علمية (وفي هذا، فإنها على نقيض تام مع عقيدة اليهود). أنظر ما يلي فصل ٤، ١٧ وفصل ٥، ٢٠ و ٢١. ويقوم الاعتقاد المسيحي بالخلود وهو يتألف باللاعتقاد ببعث الموتى لحياة أبدية على أساس مزدوج (ا) على المذهب اليهودي فيما بعد السبى (البعث)، وعلى الفلسفة الأفلاطونية (الخلود). راجع ك. ك. ج. وب (**C.C. J. Webb**) محاضرات جفورد (القسم الثاني) عن الشخصية الألهية والحياة البشرية الصفحات ٢٥٧- ٦٤. وعن الفلسفة الأفلاطونية (الخلود)، راجع ك.ك. ج. وب (**C.C. J. Webb**).

الأدبي بعد الموت [1] . وكما رأينا، مر زمن طويل ليدرك العقل العبري فكرة المسئولية الشخصية. وحتى عشية النفي، كانت الأمة مسئولة عن خطايا أعضائها وكان البريء والمذنب، على السواء، ينالهما الجزاء الذي يقع على المجتمع. ثم حدث مع النفي، تغير وأصبحت مطالب الفرد في عدالة يهوه تلح الحاحا يطرد ازديادا، لأرضائها. وقد رأينا كيف أن مفكرين كمؤلف سفر أيوب جاهدوا، على غير طائل، للوصول إلى جواب عن المسألة. لقد كانت وطأة الاضطهاد في عهد انطيوخس هي التي فرضت الاعتقاد في البعث على عقل الشعب اليهودي. ولقد كان قاصرا، قبل ذلك الوقت، على أقلية صغيرة تأثرت فيما يرجح بالاتصال بالأفكار الزرداشتية في عهد الحكم الفارسي. أن النصوص الواردة في العهد القديم التي تشير اليه قليلة ومتأخرة [2]. وعندما

---

(1) عن موضوع علم النفس العبري، الشيق، الذي أهمل اهمالا بالغا، راجع المقالة (١١) بذلك العنوان، التي وضعها العميد هويلر روبنسن في (الشعب والكتاب The People and the Book) طبعة بيك الصفحات ٣٥٣ – ٣٨٢. وعند العبريين يكون الكائن البشري الفرد (الذات) هو «الجسم كمركب يشتمل على أجزاء تستمد حياتها ونشاطها من روح– نفس، ليس لها وجود منعزل عن الجسم» (صفحة ٣٦٦), وينسب أصل– الحياة، ويشمل القوى الواعية، إلى المادة الجسمية ككل وإلى أعضائها العديدة (القلب والكلى واللحم والعظام والعين واليد الخ.). ولا يعرف علم النفس العبري نقسيما ثنائيا للروح والجسم، والسبب أقوى لا يعرف تثليث الجسد والروح والنفس. والجسد هو الإنسان المتجسد. أن الكلمة العبرية التي تدل على أصل الحياة هي نفش وتجيء في المعتاد مترجمة خطأ بلفظ (Soul) في النسختين القديمة والمعدلة (A. V. and R.V). وتعبير آخر، روح (ويترجم في المعتاد (Spirit) ومعناه في الأصل (ريح)– الحياة كشهقة النشاط الالهي يعمل في الإنسان. من الخارج وخاصة في الألهام التنبوءي وغيره من ظواهر قوة– الحياة. ومن أوجه نشاط الإنسان، يشار في المعتاد إلى الوجدان والعواطف بلفظ (نفس) والعقل و (خاصة) الإرادة (الضمير) بلفظ (لب)– حرفيا قلب– وتكون الإرادة أصلا، في علم الأخلاق العبري، في الله والإنسان معا (راجع ما تقدم صفحة ٦٩ تذكر ٢). وكان الخيال أو الشبح يذهب إلى شيول كنسخة من الإنسان كله ويبقى موجودا في حالى شبح وعلى ذلك غمن الخطأ الجسيم اعتبار شيول موطن الأرواح الراحلة. وكان يستوطن شيول هذه الأطياف (نغايم) دون سواها وعندما يظن بصفة استثنائية أن الموتى، كما في حالى صوئيل، عند اندور، يرجعون فإن القناع الجسمي الذي يحمل في الحياة، يظل باقيا. وكذلك الحال في هومر (أدو، ١١)، يجب على الأشباح في الجحيم أن يشربوا الدم حتى يستردوا الوعي ويتحدثوا مع أدوسيوس. وعلى هذا، فعندما حان للعبريين أن يتصوروا حياة مستقبلة فإنها كانت بعثا حقيقيا للجسد لإيجاد تجديد للحياة الجسمية على الأرض. ويوافق مبدأ الإيمان المسيحي عن بعث الجسم، التقاليد العبرية تماما ولو أنه قوى بمعارضته للثنائية المانوية (الرأي أن المادة وخاصة جسم الإنسان شريرة شرا ملازما وترجع إلى خالق شرير، فوق مستوى البشر).

(2) إن النصين الواردين في العهد القديم اللذين يظهر فيهما الاعتقاد هما في نبوءة اشعياء الهامة (متأخرة): ٢٤– ٢٧ (وخاصة ٢٦، ١–١٩ بعث العبريين الأبرار حوالي ٣٠٠ ق.م) وسفر الرؤيا لدانيال (حوالي ١٦٥ ق.م) وفي دانيال: ١٢، ٢ نجد بعث (أ) الأبرار حقا. (ب) الأشرار حقا (أي المرتدين عن اليهودية). ولا يوجد في أحد النصين ذكر لبعث

تأصل الاعتقاد بين اليهود، كان في صورة تتميز بأنها يهودية، وفي اتحاد وثيق مع الانتظار القومي للملكوت. ولقد ذاهبوا إلى أن وبهذا وصلوا إلى حل يسد مطلب عدالة يهوه نحو الفرد المصاب ويرضي الطموح، الحبيب إلى القلب، إلى خلاص العبريين في النهاية. وتبين كتابات الرؤيا التي ترجع إلى القرنين الثاني والأول بأن هذا الايمان لم يكن عقيدة ثابتة ثباتا دائما، ولكنه يظهر في صورة متباينة وفقا لمجرى التاريخ العبري المتغير [1]. وكانت تقوم اسئلة عديدة تسمح باجابات مختلفة. هل كان العبريون الأبرار فقط، هم الذين يقومون أو أن الأشرار والوثنيين يسهمون في البعث؟ وفي الحالة الأخيرة ماذا كان مصير اليهودي، غير المؤمن، والوثني في الدينونة التي تسبق اقامة الملكوت؟ هل كان يسمح للأمم بامتيازاتها أو تفرض عليهم العبودية للعبريين. وكان في المعتاد، أن تقابل هذه المسائل بروح التخصيص الصارمة. ومرة أخرة، ماذ كانت طبيعة الحالة الوسيطة، بين الموت وقيام الملكوت؟ هل كان البعث قاصرا على النفس فقط أو الروح المتجسدة وماذا كان شكل جسد البعث؟ هل كانت الملكوت أبدية على الأرض أو محدودة الأجل؟ ماذا كانت وظيفة مسيا فيما يتعلق بقيامها وبالدينونة؟ وبعد أن قطع القرن الأول شوطا، ظهر تطور آخر بعيد المدى. لقد قام الاعتقاد بأن هذه الأرض لم تكن خليقة لأن تكون مسرحا للملكوت في كمالها، وأنه عند مجيء مسيا أو عند ختام حتمه الدنيوي، سيخلق يهوه سماه جديدة وأرضاء جديدة وأنه بعد دينونة أخيرة، تعبر نفس العبري البار إلى حياة أبدية في الملكوت السماوي.

عام. والنظرة إلى البعث هي أنه عودة الشبح إلى حياة جسمية على الأرض، جددت، وهو نوع الحياة الذي كان يمكن للعقل العبري أن يتصوره. ولم يخطر لهم على بال قط فكرة روح، افترق عنها الجسد.

(1) عن طبيعة الرؤيا واختلافها عن النبوءة، راجع شارلس (الأخرويات) الصفحات ١٧٣ وما بعدها و ٣٨٧– ٨ والاختلافات الأساسية هي أن الرؤيا ترجع إلى تاريخ متأخر وتسمية خاطئة وأكثر شمولا في مداها. وقد شرعت في وضع فلسفة دين وتاريخ تسعى إلى التغلغل إلى ما وراء الحوادث لتصل إلى عصرها الألهي وتضم الماضي والحاضر والمستقبل في رسم مجمل وجد، خارق العادة، ينتهي بمجيء الملكوت الألهي والدينونه الأخيرة وبعث الأبرار إلى حياة مستقبلة مباركة. وقد حداها ميل لتحديد تواريخ الحوادث القادمة في أحكام زمني. أن مذهب (الألف سنة) هو نتاج الرؤيا اليهودية. لقد هيأت مخلصا خياليا لروح حب الوطن بين اليهود، الذين كانوا أضعف من أن يدركوا مطامحهم القومية تسير إلى تحقيق. ولقد ترجم تشارلس كتابات الرؤيا اليهودية، العديدة، في مصنفه العظيم **The Apocrypha and Pseud epigr apha of the O. T**) وعن الرؤيا المسيحية، راجع كتاب هذا المؤلف= (سفر الرؤيا) في (**Inter national Critical Commentary**) وعن موجز مختصر للموضوع كله، راجع كتابه (**Between the Old and the New Testament**) بين العهدين القديم والجديد) في (**Home University Library**) أن أهمية الرؤيا اليهودية لفهم البيئة الدينية التي ظهرت فيها المسيحية، عظيمة جداً وقد قام الدليل على أن تأثيرها على (الأخرويات المسيحية) عميق ودائم فمثلا: تصورات الدينونة الأخيرة والسماء والقصاص الأبدي ترجع أصولها إلى أدب الرؤيا.

وعلاوة على هذا، فإن مسيا بشخص أحيانا كابن إنسان، وأحيانا كأمير خارج من نسل داود، عليه أن يخلص الشعب اليهودي من نير الرومان ويستفتح الملكوت الأرضي كمقدمة للملكوت السماوي الأبدي [١]. من الشيق تتبع هذه التصورات في أدب الرؤيا اليهودي، بعد مجيء المسيح. ولكن قيل ما فيه الكفاية ليتضح كيف كان حاسما انتصار روح الانعزال القومي قبيل ذلك التاريخ، على نظرة النبوة الأولى، الأكثر اتساعا. ومن النادر الكشف عن أي أثر في الكتابات اليهودية في القرن الأول ق. م. أو القرن الأول الميلادي للسماح للأمم بدخول الملكوت [٢]. ومنذ ذلك اليحن يبقى التوحيد ويبقة التخصيص– على الرغم من عدم توافقهما الذاتي– في عقيدة المجتمع اليهودي.

٤- الخاتمة

١٧– لقد تقصينا منهاج تعليم النبوة ونتائجه حتى عشية تأسيس المسيحية. ويمكن أن نستخلص نتيجتين من فحصنا. ففي المكان الأول تمتزج حياة العبريين الدينية، حتى في أعلى تطور لها، امتزاجا لا ينفصل بقيود تختص بها. وترجع قوة الدين العبري إلى الاعتقاد باله أوحد وحكمه العالم حكما خلقيا. أما ضعفه، المقيم فكان الأفتراض الذي لا يمكن محوه بأن الغرض الألهي يتركز في شعب واحد، اختير من بين جميع الشعوب ليكون مستودع عطف يهوه الخاص وأن كل مجرى الطبيعة وتاريخ البشر، يدور بارادة يهوه حول حياة ومصير العبريين. ومما لا يمكن انكاره أن سياسة العزلة المصطنعة قوت الأخلاص الديني وأوجدت سموا خلقيا يناقض الانحلال السائد في العادات الأغريقية الرومانية والاغريقية الشرقية ولكنها أبعدت الأمم عن أي نصيب في الميراث الروحي. أن التاريخ الديني العبري ممتليء بهذه الشواذ الغريبة والأضداد المتناقضة وقد ازدوجت الذلة التي تصدر عن الشعور بالخطيئة الشخصية بكبرياء العضوية في مجتمع بار، العنيفة، غير المعتدلة، وروح التقوى الداخلية بحرص دقيق فيما يتعلق بالفرائض الخارجية. ولقد نجم عن الإيمان بوجود الله وجوداً مستمراً وبتنظيمه الرحيم لكل حادثة في الحياة العامة احترام

---

(١) يجب التمييز في وضوح بين مسيا، فوق مستوى البشر، ومسيا اللقب. ى توجد دلالة، خارقة الطبيعة في استخدام حزقيال الكثير له (وازن داود. أن اتخاذ المسيح لقب (ابن الإنسان) يضفي أهمية خاصة على تاريخ المزامير: ٨ حيث يعبر عن الإنسانية، على وجه عام، وفي دانيال: ٧، ١٣ يدل على أمة العبريين كطراز مثالي للإنسانية بالمقابلة بالحيوان= الممالية الوثنية، وفي انوخ الأول، وهو سفر رؤيا (القرن الثاني ق.م) يطلق غلى مسيا، فوق مستوى البشر.

(٢) ولكن ٤ اسدرس استثناء (**IV Esdras**).

متعادل لخصائص الواجب الخلقي الجوهرية ولقواعد صبيانية لمدونة مراسم [1].

وعلى هذا فان الشعب العبري عجز عن أن يدرك بصفة فعالة رجاء الأنبياء الأعظم أو يمكال رسالتهم الخاصة في القيام على تعليم البشرية تعليما روحيا. وإذا بحثنا عن السبب الذي يرجع إليه هذا الفشل، وإذا سألنا لماذا لم يتح لهم أبدا أن يدركوا عدم التلاؤم بين التخصيص والايمان بحاكم خلقي أوحد للكون، فيجب أن نشير في الإجابة على هذا إلى ما كان يلازمهم من قيود عقلية، فعلى غير شاكلة الأغريق، لم يكن العبري يفكر في الأمور تفكيرا يتسم بالعمق. ولم يصل أبدا إلى مستوى التقدم العقلي الذي تقوم فيه دعوى العقل بأن يكون له صوت في تقرير المعتقدات الدينية والخلقية [2] وهذا هو السبب في أن أنبل أقوال التقوى العبرية لا تنتظمها مجموعة متجانسة من الحقائق اللاهوتية، وتعميها الاختلافات والمتناقضات التي غفل عنها واضعوها. وهكذا، مرة أخرى، يمكنا أن نشرح ما يمكن أن نطلق عليه عرض الفكر الديني العبري، الحقيقة التي سبق أن لوحظت مرارا وهي أن أقواله يحددها تتابع الحوادث التاريخية التي حدث أن كان لها تأثير على الأمة العبرية. وكانت هذه الحوادث توحي ليس فقط بوقت النبوة العبرية ولكن إلى حد بعيد بفحواها. وكلما كانت ذلة الشعب المختار مريرة، وكلما كانت آلامه عظيمة الشدة، قوى تيقنهم من الأفتداء في النهاية.

---

(١) وهكذا تعالى الله وباطنيته كمستوطن في قلب البار، وعدالته ورحمته، ومبدأ الجزاء الوفاق ومبدأ الغفران الطليق، والرجاء في مثوبة مستقبلة عن الأفعال القيمة والسعي في الخير من أجل الخير، والحتمية والحرية، وغضب ومحبة الله– تجيء متلازمة في الفكر الديني اليهودي ولو أن صعاب تمحيصها لا تدرك أبدا ادراكا تاما.

٢ () وعندما جاء دور العقل، أصبح ينزع إلى السفسطة والرسميات ومنطق المدارس الجدب. وفي الوقت نفسه ظل التواصل قائما بين التعليم الروحي الأعلى ودين الشعب. وقد نجح الأنبياء اليهود هنا، حيث فشل فلاسفة الأغريق. (راجع وب (**Webb**)– محاضرات جفورد، السلسلة الأولى عن «الله والشخصية» الصفحات ٨٥، ٨٦). أن العلاقة الشخصية بين يهوه وعابده السهودي لم يأت عليها وهن في جميع مستويات الإدراك الديني. ويمكنا أن نلحظ أيضاً أنه بينما الرابطة الوثيقة بين النبوة العبرية والأزمات التاريخية التي انتابت الأمة كانت تقيد أغراض يهوه وإرادته بالحوادث الزمنية فإنها أضفت على اليهود أحساسا قويا بمغزى التاريخ، الخلقي، ولم يساورهم جنوح قط. كما كان يساور الفلاسفة الإغريق في الغالب، بأن يفرقوا بين القيم المثالية وسير الوقائع. «أن التاريخ بأجمعه هو كشف الغطاء عن الغرض الألهي وعلى هذا فإن التاريخ ككل، له أهمية عند اليهودي، لم تكن مطلقا عند المفكر الأغريقي أو اليهودي الذي اصطبغ بالهلينية. أن الفكرة العبرية عن الله دينامية وخلقية وعلى هذا فإنها تتأصل في فكرة الزمن» (انج (**Inge**)– مقالات صريحة– القديس بولس صفحة: ٢١٥). أن هذا الاحساس بقيمة الواقعة التاريخية كان له تأثير قوي على الفكر المسيحي– راجع السفر الثاني الفصل التاسع.

وكانت رؤية العبريين الروحية تتسع بنسبة عكسية لما كانوا ينجزونه من أعمال جليلة دنيوية، وكان المنطق، لأنه لا بد من وجود منطق، يرجع بعضه لمنطق الظرف التاريخي وبعضه الآخر لمنطق الضمير، الداخلي. ولم يكن قط من البداية إلى النهاية منطق العقل. وعلى هذا فقط اتيح للأنبياء أخيراً بأن يروا حقائق، أحداها في وقت غيرها في وقت آخر، في عزلتهم واستقلالهم. وما أتيح لهم أن يعرفوا الحقيقة. وهذا هو السبب في أن العبريين، حتى بمعزل من قيود القانون، لم تكن لهم قدرة على توصيل مغزى رؤيتهم الروحية إلى شعرب الغرب. وحتى يكون هذا بالأمر المستطاع، كتن يتحتم صوغ الحقائق العديدة في كل متجانس وتفريق الجوهري عن العرضي والكشف عما يكون هناك من دلالات وتحديد الصحة النسبية لكل حقيقة بعملية تنسقية يتوافر فيها التوضيح والأفاضة. وبهذا وحده كان يمكن لتعليم النبوءة أن يصل إلى عقيدة دينية يكون لها وقع ليس في القلب وحسب ولكن في العقب. هل كان يصدق أن يحدث مثل هذا التحول الأساسي إلا بالانفصال عن اليهودية.

١٨- والأمر الثاني هو أن حياة العبريين هيأت السوابق التاريخية للمسيحية. ولقد اعترف المسيح نفسه لبهذه القرابة عندما أعلن أنه جاء لا ليهدم الناموس ولكن ليكمل. وعند القديس بولس، رسول وساطة المسيحية، أن ميراث اسرائيل الروحي نقل إلى العالم الغربي. وفي عملية النقل النسقية، أعيد صياغته وحول. وقد أهمل الكثير مما كان يتميز به الدين اليهودي وأصبح ما مثل أساس بناء جديد ومنذ ذلك الحين، سارت الديانتان في طرقهما الخاصة المعتددة. وما كان الوعي بالعلاقات التاريخية إلا ليوسع الهوة التي تفصل بينهما. ويكون التواصل ظاهرا اعظم ظهور، في تصور الملكوت الألهي. وكان من الطبيعي أن تلاميذ العقيدة الجديدة يرجعون إلى الأنبياء عن سرابق الأنجيل، وليس إلى الشريعة لأنه كشف للأنبياء عن رؤية «يوم يهوه»، عندما تسود العدالة ويتوارى الاضطهاد والظلم، عندما الناس «يطبعون سيوفهم سككا ورماحهم مناجل. لا ترفه أمة على أمة سيفا ولا يتعلمون الحرب فيما بعد؟».

وعندما «لا يسوؤون ولا يفسدون في كل جبل قدسي لأن الأرض تمتليء من معرفة الرب كما تغطي المياة البحر»[1].

ولقد عاق تقبلهم هذه الحقائق قيود: تحيزهم لما كان لشعبهم الخاص من حقوق، وفشلهم في

(١) اشع: ٢، ٤ = ميخا ٤، ٣ واشع: ١١، ٩= حب: ٢، ١٤.

التوفيق بين مطلب الفرد الروحي ومطلب المجتمع وادراكهم الناقس للباطنية الألهية وارجاؤهم المجتمع المثالي لزمن يجيء في المستقبل. وفي تعليم الانجيل، تحررت فكرة الملكوت تحررا نهائياً من هذه القيود. أصبح الفرد يستطيع أن يجد الخلاص ويظفر بالحياة الأبدية فقط عن طريق الاندماج في المجتمع الالهي الذي كان يرتبط أعضاؤه، الواحد مع الآخر، بأصرتهم الشخصية مع رئيس ذلك المجتمع. وفي النهاية حطمت حواجز القومية إلى الأبد وفتحت أبواب الملكوت لليهودي والأممي، والأغريقي والهجمي، والأسير والحر.. ووحد ايمان– أزال الهوة التي كانت تفصل ما هو العي عما هو إنساني– كل البشرية بروابط أخوة عامة. ومرة أخرى، أصبحوا يتصورون إقامة الملكوت على أنها ليست حادثة بعيدة ولكن وقعة حاضرة، حقيقة حية لها وجود فعلي في قلوب الناس «على الأرض كما في السماء»[1]. ولكن بذور مبدأ الأيمان، هذه التي أتت بمثل هذه الثمار في تجديد البشرية تجديداً روحيا كانت مغروسة في تربة النبوة العبرية. ولهذا السبب كان يستطيع اليهودي، بل والمسيحي أيضاً أن يعترف بدعوى العبريين في أن يلقبوا بالشعب المختار: «أنتم فقط الذين عرفتهم من بين جميع عشائر الأرض». ومن بين شعوب عالم ما قبل المسيحية، سمح للعبريين دون سواهم برؤية ملكوت الله وما دونوه عن هذه الرؤية، هو تراثهم لبني الإنسان[2].

---

(1) عن الملكوت كواقعة قائمة: مرقس ٤، ١١، ٣٠ وما بعدها (حبة الخردل) ١٠، ١٤ و١٢، ٣٤ وكذلك متى: ٥، ٣= لوقا: ٦، ٢٠ ومتى ٦، ٣٣= لوقا ١٢، ٣١.عن عدم مجيء الملكوت بعد: مرقس ١، ١٥ (اقترب) وكذلك متى ٨، ١١و ٢٢، ٢ وما بعدها وأمثال الكنو المخبأ في حقل والدرة ذات الثمن العظيم. عن الملكوت كحياة أبدية في العصر القادم: مرقس ٩، ٤٣ وما بعدها و ١٠، ١٧ وما بعدها وكذلك متى ٧، ٢١ وما بعدها.

راجع جاكسون وليك، التمهيد الجزء الأول، لأعمال الرسل الصفحة ١٧٨ وما بعدها الذي أخذ منه المراجع آنفة الذكر. أن كلها تجيء، أما في مرفس أو في تلك الأجزاء من متى ولوقا التي يمكن ارجاعها إلى مصدر مشترك ويرمز إليها بالحروف (ا) الذي يعبر عن مرقس. ويذكر كتاب تشارلس(الأخرةيات الصفحات ٣٦٤ وما بعدها) متى ١٢، ٢٨ ولوقا: ٤، ١٨– ٢١ (الملكوت حاضرة) مرقس: ٩، ١ (مستقبلة، في السماء)، متى: ١٨، ٣، ٤ ولوقا ١٨، ١٧ (حاضرة ومستقبلة على السواء).

(2) يجب التنويه عن فرق آخر بين المسيحية واليهودية المعاصرة. جاء المسيح ليبشر «بأخبار طيبة تجلب فرحا عظيما». وكان على هذه الحال أن رسالته استهوت شعوب عالم البحر المتوسط. ولكن الفكرة السائدة في كتابات الرؤيا اليهودية في الفترة الواقعة بين ٢٠٠ ق.م– ١٠٠ م فكرة الانتقام الالهي. وكانت الرسالة للعالم بأسره، حتى لغير الصالحين بين اليهود رسالة فزع وليس رسالة رجاء. لقد كان اليهود يعتقدون في مفعول الخوف والعقاب وأنصب تعليمهم على عداوة الله عداوة لا هوادة فيها للأشرار غير التائبين. وحتى «عهد البطارقة الأثنى عشر» (القرن الثاني ق.م) الذي يحوي ما يقرب من مباديء الإيمان المسحي في الغفران، يقصر دون الوصول إلى المثل الأعلى المسيحي في محبة الأعداء. ويذكر مزننفيور (**Montefiore**) (في الأعمال، ١: ٨٩ لجاكسون وليك) أنه لا توجد في اليهودية المعاصرة النصيحة التي

تذكرة إضافية عن تاريخ العبريين بعد النفي

قد يكون من المفيد أن نلخص في إيجاز الوقائع البلوزة لتاريخ ما بعد النفي، وهي تقع في ثلاث حقب:

(١) كان المنفيون المعادون خاضعين لسيادة فارس الوادعة من منتصف القرن الخامس حتى غزو الإسكندر المقدوني.

(٢) وكان يحكمهم، قرابة قرنين، أسياد نقدونيون. وكانت فلسطين مرة أخرى، الغنيمة التي يتصارع للفوز بها البطالمة في مصر. وملتك آسيا السلوقيون. وقد فتحت الأبواب على مصاريعها للهلينية. وقا اضطراب مدني في عهد سليوقد أنطوخس افيقانس (١٦٨) بين اليهود الذين يسيرون على الهلينية يعاونهم الملك الأغريقي وحزب المباديء القويمة مما أدي إلى تدخل أنطوخس بالقوة وإلى انتهاك المعبد واستشهاد الكثيرين. وقد وجد «الاخيار» نصيراً فس يهوذا المكابي من عشيرة الكهنة الهسمونية (هشموناي) الذين حققوا الاستقلال القومي وأسسوا حكومة دينية ظلت باقية إلى أن ظهر الرومان على المسرح.

(٣) وفي الأعوام ٦٣– ٦١ أعاد بومبي، بعد أن تم له قهر مثرادطس ملك بنطس، عدو روما العظيم في الشرق، تنظيم ذلك الجزء من أقليم البحر المتوسط. وقد وضع اليهود تحت السيادة الرومانية واحتفظوا بقسط عظيم من الحكم الذاتي يباشره كبار الكهنة. وفي عام ٤٠ آلت الحكومة إلى هيرود العظيم الحاكم الأدومي ذي القدرة الاستثنائية الذي عاون باستمرار روما وعاونته روما.

ولقد أعاد أقامة المعبد في روعة عظيمة وأسس قيصرية. وكان كأجنبي، غير محبوب بين جمهرة اليهود. وعند موته (٤ ق. م) انقسمت المملكة وهي أبدا تحت السيادة الرومانية. وفي

تتميز بها المسيحية لمحبة تسعى إلى الخاطيء ومن سقط. وإذا كان هذا واجب الإنسان، فيجب أن يكون كتعبير عن المحبة الآلهية التي تنسحب حتى على غير الشكور والشرير. لقد كان كتاب الرؤيا يعجبون لماذا خلق الله جماهير الناس ليلاقوا العقاب الأبدي ولكن لم يناقشوا الواقعة قط. ومما لا يرب فيه أن علم اللاهوت المسيحي استوعب الكثير من هذا التقليد اليهودري، وفي قصيدة دانتي نفرأ أن جماعات من الأرواح تساق إلى الجحيم أمام بصر الشاعر بينما يمر شاعر ملحمة (Statuis) فقط، أثناء رحلته من المطهر إلى الفردوس. ولكن هذا التراث المهلك لم يمح اطلاقا تعليم المسيح الجوهري، الجديد عن محبة الله التي تشمل الكون، ذاك الذي تضمنه، على سبيل المثال، مثالا الخروف المفقود والابن الضال.

عام ٦ م. أصبحت اليهودية اقليما من المرتبة الثانية، يدير شئونها وال مسئول أمام مبعوث Legatus سوريا ودام هذا النوع من الحكومة (فيما عدا فترة الثلاث سنوات ٤١– ٤٤ م عندما حكم هيرود أغربا Herod Agrippa الأول اليهودية كملك) حتى الثورة العظيمة التي حدثت عام ٦٦ وتدمير طيطس أورشليم في عام ٧٠.

وكان بنطيس بلاطس Pontius Pilate أحد سلسلة من الولاة في عهد طبريوس. وأخيرا بعد ثورة اليهود الثانية ضد روما في عهد هدريان (١٣٢– ٥) أصاب الجماعة الضربة القاضية، فقد الغي اسم اليهودية، وتاريخ اليهود اللاحق هو تاريخ التشتت.

ويجب أن يلاحظ من بعد هذا:

(أ) أن الوطنية القومية اليهودية ازدادت شدة وانعزالا بازدياد صرامة الحكم الأجنبي، الفارسي والأغريقي والروماني. وكانت كل محاولة لفرض الآراء الغربية تثير اندلاع مقاومة عنيفة. وقد كسب الحزب القومي قوة في عهد الحكم الروماني على الرغم من الاحترام المدروس الذي كانت الحكومة الأمبراطورية تشايع به الشعور الديني اليهودي، والسلطات الواسعة القضائية والإدارية التي منحت إلى السنهدريم (سيندريون Synedrion الإغريقية= مجلس) وكان الشعب اليهودي على الدوام، على وشك الثورة خلال هذه الحقبة، وكانت الجليل مركز العاصفة الرئيسي.

(ب)أن جماعات التشتت اليهودية (Diaspcra= Dispersion) تزايد عددها واهميتها في اطراد في خلال الحقبتين المقدونية والرومانية. وكان يوجد على الدوام مستعمرة يهودية في بابل، عظيمة وهامة جدا. واستقر اليهود في مدن آسيا الصغرى وسوريا ومصر، وخاصة في الأسكندرية حيث أحتلوا اثنين من أحياء المدينة الخمسة وكانوا يستمتعون بمزايا عظيمة.

وهناك وضعت الترجمة الإغريقية «للعهد القديم»، المعروفة بالترجمة السبعينية (Septuagint) في القرن الثاني ق. م. وكانت الأسكندرية مكان اجتماع الفكر اليهودي والهليني، الرئيسي، ونرى اليهودية تنحني للنفوذ الغربي ولكن لا تتكسر تحت وطأة الضغط (أنظر ما سيجيء بعد، فصل ٦، ٨ وفصل ٩، ٢). وقد وجد بين اليهود كثير من المرتدين (وكذلك شبه مرتدين كانوا يقبلون العقيدة اليهودية دون ختان ودون غيره من الفروض الموسوية) في الأقاليم التي اصطبغت بالهلينية. ويعطي سفر أعمال الرسل: ٢، ٩–١١ فكرة عن مدى التشتت ووجود اليهود، الذي ألمع اليه، في فارثيا وغيرها من البلاد الشرقية، خارج الأمبراطورية الرومانية، يقيم الدليل على

التبشير بالمسيحية في تلك الجهات في الأزمنة القديمة (ولو أنه لا يعلم إلا النذر اليسير جدا عن هذه البعثات). وتوحي الرغبة التي عبر عنها القديس بوليس في التبشير في أسبانيا (سفر رومية ١٥، ٢٨)، بأن اليهود تغلغلوا إلى أقصى الغرب في العالم الروماني.

(ج) أنه كان في العهود الإغريقية والفارسية والرومانية أن اليهودية، وهي تتميز عن دين العبرانيين في فترة ما قبل السبى، تطورت كدين حتى بلغت الصورة الكاملة النهائية التي ظلت عليها منذ النصف الأخير من القرن الثاني وبداية القرن الثالث. وهذه العملية النسقية التي بدأت كما رأينا بتنفيذ قانون عزرا والتي حافظت بتأثير النبوة في المراحل الأولى على استمرار لا ينقطع، مع دين ما قبل اليهودية– كانت تتميز بسيادة تضطرد ازديادا للتوراة التقليدي، كما يفسره في المدارس والمجامع، الكتبة ومن جاء بعدهم من المفسرين الماهنين الذين أدمج عملهم في النهاية في «المشناه» وهي مجموعة القوانين التقليدية كما انفذت في ختام القرن الثاني، وبعد ذلك في التلمود (التعليم) الذي وضع في الجليل في أواخلا القرن الرابع، و بابل (في أواخر القرن الخامس). وأصبح التوراة، وقد وضع هكذا في مدونة قوانين، عقيدة يهودية عامة أساشها الاشتراك في الفروض والتغلغل في كل تفصيلات حياة المجتمع اليهودي، الدنيوية وكذلك الدينية والشخصية والمنزلية والقومية. وقد حل منهج التخصص محل منهج التعليم وانتصر مذهب الشريعة وبطلت النبوة ينطق بها أنبياء أحياء، ولكن يظل خلق المذهب اليهودي في شكله النهائي الدائم عملا جليلا حقا قامت به عبقرية الشعب المختار، الدينية [1].

---

(1) راجع مور **Moore "Judaism"** السفر الأول_ مقدمة، وفصل السفر ٩.

الفصل الرابع

قيام الهلينية

١- مقدمة

١– أن أصول الشعب الأغريقي يعسر اقتفاء أثرها. ولقد رأينا كيف أنه منذ عهد بعيد، في الألف سنة الثالثة، كانت كريت موطن مدنية زاخرة وصلت إلى اليونان في القارة وجزر ايجة والبحر المتوسط. والرأي السائد هو أن صانعي هذه المدنية كانوا يختلفون عن يوناني التاريخ اللاحق، في السلالة والخليقة واللغة. وعلاوة على هذا فان شهادة التقاليد القديمة وعلم الآثار الحديث تشير كلاهما إلى كارثة أطاحت بدولة كريت، في وقت ما، يقرب من ختام الألف سنة الثانية، وإلى فترة لاحقة من الفوضى والاضطراب، مماثلة لتلك التي وقعت بين سقوط الأمبراطورية الرومانية في الغرب وظهور نظام مجتمع جديد في العصور الوسطى، والأزمنة القديمة أيضاً كان لها عصور مظلمة، ومنها انبعثت يونان التاريخ. وفي كريت، على سبيل المثال، دمر حريق أبنية منويا العظيمة ثم بعد قرون لم يصل منها إلا اليسير من الوثائق نجد الأغريق الدوريين يحتلون الجزيرة. ولقد أنبأت قصة الديانة الاغريقية عن صراع بين آلهة عجائز وآلهة أصغر منهم سنا وعن انتصار هؤلاء. وقد حفظ الشعراء والمؤرخون الأغريق ذكريات عن هجرات بالبر والبحر وعن صراع وامتزاج بين الغزاة الأخائيين والدوريين من جهة والبلاسجيين السابقين للأخائيين من جهة أخرى. والقليل الذي نعلمه عن عصر الانتقال هذا يوحي بمشكلات لا بنتائج. ولكن هذا القدر على الأقل نعلمه علم اليقين، وهو أنه في زمن متأخر في الألف سنة الثانية، هبط محاربون طوال، صفر الشعر فاتحو اللون، من الجذع الهندي الأوربي في موجات متتابعات إلى العالم الأيجي من أصقاع الشمال الداخلية. وبعضهم وقد جلبوا معهم أسراتهم وما لديهم من متاع كالغوط والفرنجة في زمن متأخر عن هذا، شقوا طريقهم قسرا صوب الجنوب بالبر إلى طراقية ومقدونيا وتساليا وأفيروس وواصلوا السير إلى اليونان الوسطى وبلوبونسس. وآخرون غيرهم، ربما في تاريخ أسبق، عبروا السبنطس إلى آسيا الصغرى وكذلك آخرون كرجال الشمال، في القرن التاسع أغاروا بالبحر على سواحل وجزر ايجا. ويمكننا أن نتصور هؤلاء الشماليين

الأجلاف وهم لا يختلفون في عاداتهم وثقافتهم عن المقدونيين في عصر فيليب والأسكندر أو عن الألبانيين في زمننا. ولم يكونوا حين سادوا في خلال القرون مدنية كريت القديمة هدامين بكل ما تحمل الكلمة من معنى. ولقد تركت هذه المدنية آثارها على تدرجهم في الرقى، ومن المحتمل أن تفوق الثقافة الاغريقية بموازنتها بثقافة الرومان كان مرجعه إلى حد ما، إلى هذه الواقعة وهي الاتصال المبكر بالمدنية المنوية. وعلى أية حال كان أغريق التاريخ نتاج الامتزاج التدرجي بين الأخائيين وغيرهم من دخلاء الشمال والقاطنين القدامى بالعالم الايجي. ومن الطبيعي أن هؤلاء الأخيرين وقد كانوا أكثر عدا أن يطبعوا الغزاة بطابع ثقافتهم. واستقرار الغزاة في اليونان الأوربية كان يصحبه أو يعقبه هجرات المستعمرين الأغريق إلى جزر بحر ايجا وشواطئه الآسيوية والتقاتل مع ذوي قرابتهم الذين عبروا إلى هناك بطريق آخر في زمن أسبق. ومن المحتمل جدا أن ذكرى مثل تلك المعاوك هي التي حفظتها قصة حرب طروادة [1]. ولقد أبحرت احدى تلك الجماعات من المستعمرين، وهم الأيوليون، من تساليا إلى شمال غربي آسيا الصغرى والجزر اليت تقع فيما يلي الساحل. وغيرهم من المتسوطنين، بعيداً إلى الجنوب، اتحدوا في تحالف فدرالي، يطلق عليه اسم الجمعية الأيونية حول مقدس بولو في ديلوس. وكان باسم الأيونيين (بوفان في العهد القديم) أن قدماء الأغريق عرفوا لدى شعوب الشرق. ويمكننا أن نضع تاريخ هذه الهجرات البحرية عبر أيجا بين سنة ١٣٠٠ وسنة ١٠٠٠ ق.م. ومن المحتمل كثيراً أن هذه الهجرات ترتبط بالشدائد التي عانتها مصر من جوابي البحر في عهد الأسرة العشرين [2].

وأخيرا في ختام الألف سنة الثانية تماما وصلت آخر موجة من الغزو الشمالي إلى اليونان الأوربية عندما احتل الدوريون وهم جيل من أصلاب المحاربين، أسلاف الأسبارطيين الذين جاءوا في تاريخ لاحق، أجزاء من اليونان الوسطى والغربية، وعندما باغوا في سيرهم مناطق الجنوب دانت لهم السيادة على التدرج، على الجزء الأعظم من بلوبونسس. وعبر المهاجرون الدوريون أيضاً بحر ايجه واستعمروا كريت ورودس وشواطيء. آسيا الصغرى الجنوبية الغربية. وكان من أثر

(١) أن التاريخ التقليدي لحرب طروادة هو ١١٨٤ ق.م. ورأى العلماء في زمننا الحاضر أكثر تحفظا عما كان عليه منذ قرن. وهذه القلاقل في بحر ايجا وعالم شرق البحر المتوسط قد تكون السبب في فقدان الحيثيين لنفوذهم في غربي آسيا الصغرى. أنظر ما سبق قوله في الفصل الثاني فقرة ١٢ ومحاضرات اشفايش **Schweich Lectures** عن الحيثيين.

(٢) أنظر ما جاء في الفصل ٢ فقرة ٤ وقد كان بعض الغزاة المتأخرين يمتشقون سيوفا من الحديد من صنع أدخل التحسين عليه وأمامها كانت المدى من البرنز اليتي حملها خصومهم الكريتيون قليلة النفع.

هذه الهجرات التي استغرقت عدة قرون وانتهت حوالي سنة ٥٠٠ ق. م. استقر السلالة الأغريقية واللغة الأغريقية على جانبي ايجة.

٢- دولة المدن الهلينية

٢: أن حياة الشعب اليوناني خلال القرون البواكر من الألف سنة الأولى، كما في حقبة الهجرات السابقة، يكتنفها الغموض، وعلمنا بطبيعتها يتألف، على الأكثر من نتائج عامة تستند إلى استدلالات ترجع إلى العصر التالي. وهذا جلي في جميع الأحوال، فلقد امتدت المدنية الهلينية منذ فجر تاريخها، إلى ما يلي يونان القارة. وسنرى في الحال كيف أنه في القرنين الثامن والسابع، بسطت هذه المدنية رواقها فيما يوالي منطقة منطقة إيجا حول أكسين (البحر الأسود) وفوق أراضي الساحل في أفريقيا الشمالية وجنوبي أيطاليا وصقلية. وقد أصبحت إيطاليا الجنوبية تعرف لدى الأغريق باسم «هلاس العظمى» وأينما نجد في عالم البحر المتوسط مدنا أغريقية والتحدث بالأغريق فهناك، فيما له شأن بالتاريخ، نجد اليونان. ولكن الحقيقة التي لها الأهمية الأساسية للمدنية الهلينية هي أنه عندما يرفع الحجاب المتخلفة التي تقطن بالجزر، قد تجمعوا في دول مدينة، ونرى مماليك الملوك الآباء التي نقرأ عنها في الأشعار الهومرية قد أخلت في الغالب أمكنتها للأرستقراطيات الوراثية، وفي الجماعات المدنية الأكثر تقدما نجد القوانين والنظم الدستورية قد بدأت في الظهور. وكانت كل من هذه المدن الصغيرة تستمتع بالاستقلال السياسي التام وترقي بمنظماتها التي تتميز بها وبسنن الحياة، في سبيل التقدم. ومن الجوهري أن ندرك اليونان الحرة لم تتوحد أطلاقاً في دولة واحدة والوثاق القومي كان وثاق السلالة واللغة المشتركين وليس ذلك الذي يكون بالاتحاد السياسي. ويجب أن يكون مدار تفكيرنا في التاريخ الأغريقي على أنه سجل لمئات المدن المستقلة التي تناثرت في أرجاء جزر وشواطيء البحر المتوسط وكل منها يملك رقعة صغيرة من الأرض المدنية. ورقعة أثينا على سبيل المثال، التي كانت على أتساع منقطع النظير، كانت تشمل شبه جزيرة أتيكا ومساحتها تعدل مساحة مقاطعة انجلزية متوسطة. وفي عصر بركليس، كان عدد المواطنين الذين يمكن تجنيدهم يبلغ ٣٠.٠٠٠ يمثلون سكانا أحرارا تعدادهم زهاء ٢٥٠.٠٠٠ بما فيهم النساء والأطفال يضاف إليهم الكثير من العبيد والغرباء المستوطنين [١] .

(١) أنظر تذكرة الفصل الخامس فقرة ٥.

وعلى غرار الجمهوريات الايطالية في العصور الوسطى المتأخرة كانت هذه المدن الأغريقية تحرص حرصا شديداً على استقلالها. وكلما ظفرت واحدة منها مثل أثينا أو سيراكوز الصقلية بالسيادة على الأخريات فإن الأمبراطورية كانت في جميع الأحوال ذات أجل عابر وطالما بقيت، كانت تثير الجفاء العميق بين رعاياها. وكانت الوطنية الأغريقية مدنية وليست قومية. وليس معنى هذا أنهم كانوا مجردين عن الأحساس بآصرة القرابة الهلينية المشتركة، ولكن على النقيض كانوا يدركون في جلاء، الهوة التي كانت تفصل موازينهم في الأخلاق والمدنية عما كان لدى «الهمج» الذين كانوا يحيطون بهم ولكن الرابطة كانت رابطة شعور ولغة وثقافة [1]. ولقد وجدت تعبيرا خاصا بها في الحفلات الرياضية العظيمة التي كانت تعقد تحت الرعاية الدينية ومجالها مفتوح لكل الهلينيين وقاصر عليهم ومن بينها كان أقدمها وأبعدها صيتا، ذلك الاحتفال الذي كان يعقد كل أوربع سنوات في ألومبيا على تخوم الس تكريما لزيوس، وقد نظمت بواكير القرن السادس حفلات أخرى في نميا بالقرب من أرجس على برزخ كورنت– والفوئي– على سهل كريسا عن قرب من هيكل أبولو في دلفي. ودين الإغريق، على الرغم من طائفة جمة من الضروب المتباينة المحلية، كان يكون ارثا مشتركا. وكانت تحاط الآلهة الأولمبية الرئيسية مثل زيوس وبسيدون (**Poseidon**) وأثينا **Athene** أبولو **Apollo** بالتبجيل في جميع أرجاء المنطقة الهلينية. وفي عهد التوسع التجاري تطور مهبط الوحي في دلفي إلى منظمة جامعة هلينية دينية. وبفضل سهولة المواصلات بالبحر بين جميع أجزاء العالم الهليني، سرعان ما أصبحت ضروب الفن والشعر والعلم التي قامت في متنوع مراكز الثقافة ملكا مشتركا لها جميعا. وعلى هذا فان الحاجة إلى اتحاد سياسي كأداة للمدنية لم يشعر بها الأغريق طوال حقبة الخلق العظيمة، في تاريخهم، وحتى عندما كانت تسيطر على مدائن اليونان الوسطى والشرقية المملكة المقدونية في القرن الرابع، احتفظت مدن إيطاليا وصقلية باستقلالها وظفرت مقدونيا بسيادتها وحافظت عليها عنوة.

كان لدي اسبارطة وهي دولة– غزو محدودة جداً نحو ٨٠٠٠ مواطن في قدرتهم حمل السلاح، في زمن حرب الفرس– وقد هبط هذا العدد إلى ما يقرب من ١٢٠٠ إلى ١٥٠٠ قبيل عام ٣٧١ وفي زمن ارسطاليس إلى أقل من ١٠٠٠ وكان لدى أرجوس وطيبة قرابة ٢٠.٠٠٠ من المواطنين– الجنود، في آخر القرن الخامس.

(١) يذكر الأستاذ جلبرت مرى (**Five Staqes of Greek Religion**) خمس مراحل للدين الاغريقي (صفحة ٨١) أن الوعي بالهلينية كانت نشأته بين الاغريق الايونيين في آسيا الصغرى حيث كان التناقض مع الهمج المحيطين بهم أشد ظهورا، ولفظ هليني، معناه «مثل الهيلنيين» وليس «نسل الهلينيين» نفس المرجع صفحة ٥٨ وما بعدها.

٣– والبولس **Polis** دولة– المدينة كانت من خلق الشعب الهليني الخاص [١]. أن أمرها في مستقبل المدنية لا يحدده حصر، ففي المكان الأول، حياتها وبنيتها تستعرض، في شكل أبسط مما هو عليه في الدول الكبيرة في الأزمنة الحديثة، المعطيات والمشكلات الخلقية والاقتصادية جميعا، اللواتي يجابهم الإنسان في كل العصور كعضو في مجتمع اشتراكي. وكما صاغ الإغريق في فسلفتهم، في تعابير بسيطة نسبيا، النتائج الجوهرية للفكر الإنساني تلك التي توارت عن نظرنا الذي جاء فيما بعد، تحت كتلة مركبة من المواد فهكذا في نطاق العمل العام في دولة– المدينة، وطنوا أنفسهم على أدراك الشرائط الجوهرية لحياة المواطن الحقة. ومرة أخرى فان مشكلات المجتمع المتمدين كان يعالجها الإغريق إلى أن تصل إلى الحل التام الممكن في ظل ذلك الشكل من التنظيم. ويمكن تتبع تاريخ دولة_ المدينة الهلينية من بواكيره حتى تدهورها وسقوطها، ثالثا قدم الأغريق نظريتهم الخاصة في السياسة فإنهم لم يخلقوا فقط دولة– المدينة، ولكنهم كانوا يمعنون الفكر فيها. وأنا لنجد في فلسفتهم كلا من التحليل المثالي والتفكيري، لعملهم العام وتقوم دولة– المدينة الهلينية على النقيض من أمبراطوريات الشرق الأوليات من جهة، ومن دولة الأزمنة الحديثة، من جهة أخرى. والدولة الحديثة. لا حاضرتها، هي الوطن، وقد تتغير الحاضرة كما في روسيا من موسكو إلى سان بطرسبرج وبعد ذلك من لينيجراد إلى موسكو بينما الدولة باقية كما هي. وقد يقوم للدولة كيان كرابطة المصالح المشتركة (الكومنولث) الأسترالية حتى قبل أن يتحدد موقع خاضرتها المستقبلة. ولكن في اليونان وفي روما في عهد الجمهورية كانت الحاضرة هي الدولة بعينها، وعلى خلاف المماليك الشرقية، حققت دولة_ المدينة في اليونان توحيد الحياة المتمدينة والحرية السياسية. وفي الشرق يكون لحرية الحكومة وجود ولكن فقط بين القبائل غليظة الطباع التي تعيش في جماعات صغيرة، ويكون تقدم الثقافة ممكنا فقط عن طريق تكوين مجموعات عظيمة من مثل هذه الجماعات تحت حكم استبدادي وعلى ذلك تكون الحرية الثمن الذي يبذل للحصول عليه. وهكذا كانت حال الاسرائيليين في كفاحهم ضد جيرانهم فإنهم وضعوا أنفسهم

---

(١) أسس الفينقيون، في موطنهم وفي المستعمرات، وخاصة قرطنجة دولات– مدينة ولكننا لا نجد في أي مكان الحياة العامة الحرة التي ترتبط بهذا النظام كما في حالة المدن الإغريقية أو في روما. ويرى فولر **Fowler** (دولة– المدينة صفحة ٥) في دولة المدينة– أساس الأحساس بميراث المدنية المشترك الذي خلفه الإغريق والرومان (على سبيل المثال، المؤرخ الاغريقي بلوبيوس **Polybius** في القرن الثاني ق.م) وقد يوجد شك فيما إذا كانت الجماعات الإيطالية الحضرية دولات مدينة كاملة التكوين. أن مدينتا لاتيم **Latium** وقمبانيا **Campanai** كانتا بالحرى مراكز حضرية بين جماعة قبلية وعن روما التي وصفها بلوبيوس «دولة أعظم شبها بدولة هلينية». أنظر ما يلي فصل ٧.

طوعا تحت أمرة ملك كمناط رجائهم الأوحد في الخلاص القومي. وقالوا لا بل يكون علينا ملك فنكون نحن أيضا مثل سائر الشعوب ويقضي لنا ملكنا ويخرج أمامنا ويحارب حروبنا (١).

وطوال العصور القديمة، كان معنى الدولة العظيمة هو الحكم الاستبدادي وإلى أن ظهر الاغريق كان معنى التقدم في المدنية خلق دولة عظيمة. لقد كانوا أول من حل مسألة الجمع بين الثقافة والحرية في مجتمع صغير وحلوها عن طريق دولة– المدينة. وقد اجتمعت ارادتهم على أن يشابه الواحد منهم الآخر ووصلوا إلى نتيجة فريدة وحققوا في حياة دولة– المدينة، العامة الحرة تاريخا يتناقض تناقضا فاجعيا مع قصة الاستبداد الرتيبة ومزايا الطبقات الاجتماعية والاستعباد، التي يجيء سردها في سجلات الشرق.

٤– لقد أوجدت «دولة– المدينة» قاعدة المدنية الهلينية والمثل الأعلى لها في نفس الوقت. ولم يأتنا إلا اليسير من العلم عن النسق الذي درجت فيه السمتعمرات البدائية إلى دول– مدينة، وفي مكنتنل أن نتصور المغيرين الشماليين يسكنون كغزاة بين آهلين معادين في أزمنة كان البحر يكتظ فيها، بالجوابين من طلاب الغنيمة ويقيمون حصونا بدائية في مواقع ضاحية على التلال على مسافة قريبة من الشاطيء، يمكن أن يأووا إليها بقطعانهم في أوقات الخطر. وفي أثينا في العصور التاريخية، كانت قلعة الأكروبول لا تزال «المدينة»، ومن الجائز أن الجماعات القروية تجمعت هناك للدفاع عن النفس أو تآلفت حول مقدس مشترك للعبادة الدينية. وفي هومر كانت المدينة، أولاً وفوق كل شيء حصنا يمكن الدفاع عنه (٢).

يجب أن نرجع بتفكيرنا إلى الماضي، إلى زمن كان يذهب الاغريق كغيرهم من السلالات الباكرة، إلى أن ثمة قرابة كانت الآلهة والناس وحتى حيوانهم. وبقيام الهجرات وهن الوثاقوبدأت أواصر الأسرة تخلي مكانها للأخلاص للجماعة.

وأصبحت دولة_ المدينة الرمز المادي لهذا الولاء. وكان كل رجل في العشيرة يراها بعينه

---

(١) أنظر بيفان **Bevan** (بيت سليوكس **House of Seleucus**) سفر ١ فصل ١ وفيه المثال المقتبس من صموئيل الأول ٨١. ولقد كان الكتاب السياسيون في العصور الوسطي، يرجعون إلى الفقرة كثيرا، لدعم مبادىء الأساس الشعبي للملكية والعقد الاجتماعي.

(٢) أنها مقدسة (**hieros**) في هومر، مثلا، الالياذة: ١، ٣٦٦. وقد كانت أقدم المعابد تقام، بطبيعة الحال، على القلعة الصخرية على كثب من مقر الزعيم، وبعد ذلك، بتقدم أوجه النشاط التجاري، أصبحت المعابد تقوم حول ساحة السوق (**agora**).

المجردة تستوي أمامه وهو يفلح رقعته من الأرض في الأرباض أو يجتمع مع رفاقه للمقايضة أو للعبادة داخل أسوارها. وفي ساحات المدينة، كان كل شيء يقع تحت نظره، ذا قرابة وثيقة ومألوفة. وهناك في المجتمع الصغير الذي يضم مئات قليلة من المواطنين، يتجمعون في أسرات وعشائر ولا يزال الاحساس بالقرابة يدب بين جناياهم، وهناك كانت تسود مساواة في الزمالة، حقة [1]. وكان كل شخص يعرف الآخر بالنظر وبين الواحد والآخر من الأغنياء والفقراء والحكام والمحكومين كانت توجد أواصر شخصية مباشرة. ولم تكن تعوق الملوك والنبلاء، كما في الحاشيات الشرقية، قواعد آداب السلوك ورسميات الدولة ولم تقف القواعد الشكلية للتعريف حائلا أمام التواصل الإنساني. ولقد عاش الاغريقي عيشه في الخلاء، معرضا للشمس، يجوس خلال ساحة السوق (**agora**) أو حلبة المصارعة (**Palaestra**) متلكئا– كما يطيب للفرد من أهل الجنوب أن يتلكأ– وهو يتجاذب الحديث مع جيرانه، دون أن يعبأ بزمن [2]، وكان الأغريق شعب زراع، يزرعون الحنطة ويغرسون الكرم والزيتون وأتاح لهم عملهم ومناخهم أن يتفقوا معزم حياتهم في الهواء الطلق ولديهم أوقات فراغ للتواصل الاجتماعي [3] ولا يمكن تصور نقيضاً لحياة مدينة صناعية حديثة حيث يتزاحم الكل لأعمالهم بالمناكب، وحيث لحظات الاستجمام قليلة ومنتظمة، أعظم من الحياة غير الرسمية الطليقة التي كانت تحياها دولة_ المدينة الإغريقية. ولكنوقت الفراغ كان يعني للإغريق أي شيء إلا الكسل. أنه كان يهيىء مخلصا من ضغط المطالب المادية وفرصة لاستعراض العقل والموهبة. ويجب أن يدور تفكيرنا حول الإغريق كرجال

---

(١)هكذا كما جاء في الأدوسا (الكتاب السادس: ١– ١٠٩) فإن نوسيكا **Nausicaa**، وهي ابنة ملك كانت تغسل الملابس مع خدمها. ويصف هيرودوت (٣، ٤٢) طاغية القرصان بوليكراتس **Polycrates** وهو يطلب إلى صائد سمك أن يشاركه الغذاء.

(٢) أنظر زمرن **ZimmernK**، (الكومنولث الأغريقي **Greek Commonwealth**) الفصل الأول، من ديدن اليوناني في زمننا أن يغرق الغريب بأسئلة فيها تشوق، وكان اليوناني القديم يزهو بجسارته في الحديث (**Parrhêsia**) وكان متحررا من كل خجل أو تحفظ. وتوضح (الجمهورية ٨، ٥٥٧) لأفلاطون أن (الجسارة في الحديث) دليل على الديموقراطية في أقصى معانيها ويرى زمرن أن السؤال القصير والجواب الذي يلازم دخول شخصية جديدة في الفاجعة (دراما) الأتيكية تنعكس فيها هذه الخصلة القومية.

(٣) اللفظ الأغريقي لوقت الفراغ كان **Scholé** ومنه جاء لفظ **School** الذي نستخدمه. لأن وقت الفراغ كان معناه، بالنسبة لهم، الفرصة للقيام بأعمال لها قيمة جوهرية كتلك التي يختارها الإنسان لذاتها (مثلا، السعي وراء العلم) وهذه الفكرة هي أساس تفرقتهم بين الأعمال (الحرة) والأعمال (الضرورية) ولهذه التفرقة أهمية أساسية في (السياسة)، لأرسططاليس. أنظر فيما يلي فصل ١٢– ٩.

عمل أكثر منهم فنانين أو مفكرين.. أن فنهم وعلمهم كانا يتألفان تألفا محكما بمصالح الحياة العملية. ولقد قام النحت وفن العمارة بطبيعة الحال، بينهم لأن الحاجة كانت تمس اليهما لأقامة بيوت الآلهة والناس وقامت فلسفتهم لأن الحاجة كانت تدعو إليها للتحكم البصير في العالم الذي كانوا يعيشون فيه. وكان الإغريقي يعجب بالكفاءة أكثر من كل الأشياء، واللفظ الذي كان يطلقه على الفضيلة (arête) لا ينسحب على السمو الخلقي وحسب، ولكن على الموهبة العقلية والقدرة على الظفر بالنجاح في كل ميدان في الحياة العامة [1]. والمثل الأعلى لرجل قوي، يعرف ما يحتاج إليه من العالم وله القدرة على الحصول عليه، كان دائما يستهويه ويقصيه عن نهج الاعتدال. ولقد أوجدت دولة_ المدينة لهذا النشاط العقلي والبدني القلق، مجالا طبيعيا. والحياة الوحيدة التي تستحق العيش، في نظر الاغريقي كانت حياة الخدمة كمواطن. وكانت الأسرة تسترعى اهتماما يسيرا وقيمة خلقية ليست بذات خطر. وكان الابن عندما يصل إلى سن الرشد يترك أباه وأمه، وفي بيته كانت الزوجة لا نفس لها، ولا وزن لها. ومن هنا، كان المركز الوضيع للنساء والأطفال وفشل التعليم الاغريقي. ودولة– المدينة، وفي دولة– المدينة، كانت السوق بما يحيط بها من أروقة ذات عمد وأبنية عامة وطنه وعالمه. وعلى هذا فكلما أخذ أفق الإغريق العقلي والخلقي في الاتساع فإن الثقافة التي كانت تجد التعبير عنها فيه كانت في كل مرحلة ترتبط بالمدينة. ونغمة الرأي العام التي تحدد خلائق الرجال وعاداتهم، بطريقة غير محسوسة ومع ذلك في قوة عظيمة، كانت نغمة دولة– المدينة المميزة أو ethos [2] وفي القيام بدور ذي قيمة في حياة دولة المدينة، كان أعلى مطمح للمواطن والمعيار الذي يقيس به نجاحه وسعادته Spartam nactus es, hanc exorna . والمولد في دولة– مدينة وضيعة كان يعد عثور جد خطير. وعلاوة على هذا، كانت دولة– المدينة تحدد فحوى واجباته، لا الخلقية وحسب ولكن الدينية أيضا. ولم يعرف الأغريق التمييز بين الكنيسة والدولة ومن الأزمنة الهمرية وما بعدها كان الحاكم يرأس دين

---

(1) كان الأغريق يرون في رجل مثل نابليون رجلا بلغ من الفضلة أقصى ذراها وكان تمسطوقلس Themistocles يتجمل بالفضيلة إلى درجة عظيمة.

(2) لا يغيب عن البال، الجو الخلقي للمدرسة أو الكلية أو النادي أو الكتبة. ولقد أكد أفلاطون (الجمهورية ٦، ٤٩٢) أنه لا يمكن لأي فرد، مهما كان موهوبا، أن يقاوم قوة نغمة دولة_ المدينة، العامة.

المجتمع بينما كانت تنحصر أعمال الكهنة في تصريف واجبات الفرائض [1]. وهيأت المدينة أيضاً الواعز للتقدم العقلي. وفي مجالس الشعب الرسمية، كما في التواصل اليومي في ساحة السوق أو مائدة الطعام أتاحت الفرصة لحرية الفكر والتخاطب. أن مثل هذه الحرية في النقد، شيء مستقبل تماما عن الأنظمة الديموقراطية وأداة الحكم الذاتي السياسي. وكان الجند يخوضون في مناقشة أعمال وخلائق ضباطهم من وراء الستار والصغار في أولئك التي تكون لكبارهم، في المدرسة أو الكلية دون أن يكون لهم أي حق في التصويت لانتخابهم. وكانت الديموقراطية في اليونان النتيجة وليست السبب، للنقاش الحر. كان اليونانيون أمة متحديين وكان حديثهم في الغالي صبيانيا ويجانب الأخلاص ومن شأنه أن يثير الاحتقار في صدر الروماني الذي كان ديدنه أن يعمل في صمت. وما كان يميز الأغريق عن الشعوب الأخرى التي تشغف بالكلام هو أنهم كانوا يتحدثون أيضا فيما كان جديراً حقا بالمناقشة: القانون والحرية والواجب الخلقي وغاية الحكومة وطبيعة وأسباب الأشياء والفن والشعر والفضيلة وصالح الإنسان، وفوق هذا كله، كان حديثهم يلائم العقل والمنطق، والإفصاح عن التفكير الخالص وتفهم الواقع. ولم يفكر أي شعب أطلاقا بمثل هذا التعمق أو تحدث بمثل هذه الاجادة عن هذه الموضوعات السامية، كما فعل الاغريق. ولم يرسم أي شعي قط، بمثل هذه اليد الثابتة الخط الفاصل بين الخدعة والحقيقة أو وطنوا أنفسهم بمثل هذه العزمة على فهم واستيعاب عالم الطبيعة. وكل هذا كان نتاج المطارحة الطليقة بين العقل والعقل التي أوجدها التواصل المشترك، كمواطنين في دولة– مدينة.

٥– والمثل الأعلى الأغريقي للحياة، كان يتصور في حدود دولة_ المدينة، وكانت السعادة (**Eudemonia**) عند رجال السياسة والفلاسفة على السواء، هي النهوض بشرف، بالواجب المدني [2] ويعبر واضعوا الفاجعة والمؤرخون في القرن الخامس، على التقريب، في كل فحيفة من

(١) ولما لم يكن في وسع الآلهة أن يجبروا وكن يحذرون ويعاقبون فهكذا الكان كان في وسعه فقط أن يحذر ويعترض. لقد كان المنوط بشئون المنزل والحراسة **minter, servant** -????? لاهه وبين الفينة والفينة فقط يكون المتحدث عنه. وعندما يعطي وحي ????? يكون ذلك لأن الرجل قبل عون الألهة ????????.

(٢) **Eudemonia** (ومعناه أن يكون للمرء روح حارس طيب) كان التعبير الأغريقي عن »السعادة« أو «المرح» أي **Summum bonum** أو المثل الأعلى للحياة البشرية. وعن تفسير هذا المثل الأعلى، يورده إغريقي مثقف من القرن الخامس، راجع قصة هيرودوت عن الحديث الذي دار بين صولون وكروسس (١: ٣٠ وما بعدها). ولدى العقل الشعبي كانت السعادة في سعود الجد (**eutychia**) وقد رفض الفلاسفة عن وعي الرأي القائل أن الخير الأعظم كان يعتمد على ظروف خارجة أو نزعات الآلهة التعسفية أو الحظ.

كتاباتهم عن إحساسهم بقيمة دولة– المدينة وهي تهيء المجال لتحقيق الحياة الصالحة ([1]) والفلاسفة الذين كانوا يسعون إلى أن يحددوا بالاستدلال العلمي طبيعة ومعيار الصلاح الإنساني، لم يتزعزعزا في اعتقادهم بأن الحياة الوحيدة التي تستحق العيش، كانت حياة المواطن في دولة– المدينة الهلينية. عندما عرض على سقراط، بعد أن حكم الأثينيون عليه بالموت، الهرب من السجن، أجاب بأن التملص من قانون دولة– المدينة حتى عندما يكون قد طبق بالجور كان من الوجهة الخلقية خطأ أشبه بعمل من أعمال العنف يوقعه ابن على أبيه الهرم. وقد حكم أفلاطون بأن كل الدول الإغريقية القائمة فاسدة فسادا لا رجاء في تقويمه. ومع هذا فقد وضع تخطيطا مجملا في جمهوريته، للمجتمع المثالي على أنه دولة– مدينة هلينية أجرى عليها الإصلاح [2]. وعنده، كما كان عند أرستطاليس في الجيل التالي، كانت المدينة الصالحة توجد حالة الحياة الصالحة لأعضائها وكذلك ما يلازمها. وقد عرف أرسطو دولة_ المدينة بأنها جماعة تكونت لحفاظ حياة متكملة وفيها اكتفاؤ ذاتي، وأشكال أخرى من الجماعات يسرت للإنسان العيش ولكن دولة– المدينة وحدها، يسرت له العيش الطيب [3] ولقد عرف الإنسان بأنه (حيوان سياسي)، مخلوق حي نزعت به طبيعته نزوع حياة النشاط المدني [4]. ووظيفة المشرع والسياسي الأصلية. عهي إيجاد الصلاح الخلقي في المواطن وتعليمه حتى يمكنه النهوض الكامل بمواهب طبيعته في دولة_ المدينة. وحتى الرواقيون وهم يكتبون بين أشتات الاستقلال السياسي الاغريقي المتناثرة، جهدوا في أن يعيدوا تركيب نسج الواجب الخلقي بتعليم الناس أن يعيشوا كمواطنين في الجمهورية العالمية، دولة– مدينة أساسها العقل الخالص، مدينة الله [5].

٦: وبهذا تأصلت أرومة مدنية الشعب الأغريقي، تأصلا عميقا في تربة دولة– المدينة. لقد

([1])وازن على الأخص هيرودوت الكتاب السابق ذكره وكذلك الجزء الثالث صفحة ٨٠ وما بعدها وفي العبارة الأخيرة يذكر أن عظماء الفرس كانوا يتحاورون عن مزايا الديموقراطية والاستقراطية والملكية على الولاء. وبطبيعة الحال، كانت الأحاديث تعبر عن عواطف الأغريق كما كان رومانيو شكسبير في الواقع انجلترا عهد اليصابات. راجع أيضاً محادثة خشارشاي مع ديموطوس **Demaratus** ٧: ١٠ وما بعدها.

(٢) أفلاطون، الجمهورية ٥: ٤٧٠ وعن رفض سقراط راجع **Crito** لأفلاطون.

([3]) أرستطاليس (السياسة)، ٣، ٩، ١٢٨٠ ب، ١، ٢و ١٢٥٢ ب.

([4]) أرستطاليس، السياسة: ١، ٢، ١٢٥٣ أ. ويصر مؤرخ روما الأغريقي بلوبيوس **Polybius** الذي ترجع كتابته إلى عهد متأخر، منتصف القرن الثاني، على أن الدستور يكون صالحا أو رديئاً وفقا لما ينتجه من مواطنين صالحين أو طالحين من حيث طباعهم الخلقية (بلوبيوس ٦، ٤٧).

([5]) معنى **Cosmopolis** مدينة (**Polis**) الكون (**Cosmos**).

كانت (الصخرة التي نحتوا منها) و(نقرة الحفرة التي استخرجوا منها). أن فن العمارة والنحت، والحفلات الفاجعية والأنشودة العاطفية، والعلم والفلسفة، والدين والأخلاق، والطوائف الحرفية وفنون الحرب والسلم، وتكوين الدستور ومباديء السياسة العامة، وأشكال التواصل الاجتماعي، والحديث، والأخلاق، كانت فروعا كلها فروعا لتكوين عضوي أوحد دولة_ المدينة. ولكن للصورة جانب آخر. أن للحرية سيفا ذا حدين. وقد أفسحت حياة دولة_ المدينة المجال لمزاج الوطنية المدنية وكذلك مجال الطموح الشخصي. وفي اليونان القديمة، كما بعد ذلك بألفي سنة في فلورنسا في عهد دانتي. كانت عوامل التفكك في التشيع الحزبي والأغراض الذاتية في الأفراد تغلي مراجلها عن قرب تحت السطح. أن التوقف **Stasis**، وانفصام العرى المدني، كان المرض المزمن في دولة_ المدينة الهلينية. وكلا الشكلين اللذين اتخذهما وهماعدم قدرة المدن على التضام في اتحاد سياسي، حتى في مواجهة عدو مشترك، والنضال الداخلي الذي يقوم بين الرجال والأسرات والأحزاب داخل أسوار مدينة واحدة، عملا على انحلال الاستقلال اليوناني في نهاية الأمر. وفيي الحق. أنا لنقرأ باستمرار عن تحالف المدن لأغراض ترجع إلى الدين أو الدفاع. أن تاريخ الأغريق هو في معظمه تاريخ أحلاف، من حلف الجماعات التي يربطها الجوار إلى معبد **amphictyonic** في القرن السابع إلى الأحلاف الأخائية والأيطولية في القرنين الرابع والثالث. ولكن هذه الضروب من التضام كان ينقصها الدوام والتلاحم إذ كان لها أثر فعال فقط، في أغراض عابرة وداخل حدود الهلينية الضيقة، وقد دلت على أنها عديمة الجدوى تماما بالموازنة بقوات مقدونيا وروما [1]. وفي النهاية، كانت نتيجة المغالاة في الحرية الوقوع في العبودية لدولة أجنبية. والأغريق ولهم ذلك الأحساس المرهف بحقائق الحياة، لم يكونوا متباطئين في تعرف عوارض فوضاهم الخاصة ولكن كان لا حول لهم في علاجها، ولقد أرجع أفلاطون. ببصره الذي لا يخطيء بطبيعة البشرية، أصل الطغيان العام في الدولة إلى طغيان العاطفة التي لا ضابط لها في الفرد. ولقد رأى أن أعظم أولى المواهب من المواطنين، من أمثال ثمسطوقليس أو السبيادس **Alcibiades** بالنسبة إلى أعظم ما يستحوذون عليه، كانوا أكثر عرضة لأن يقعوا فرائس لشهوة السلطان وأن يحطموا أولا اقتصاد أرواحهم هم، ثم بعد ذلك اقتصاد المجتمع [2]. ومع كل ما فيه

---

(١) كان يظهر للإغريق أن التحالف والأمبراطوريات على السواء، خطوة تتخلف عن دولة المدينة المستقلة.

(٢) راجع الجمهورية: ٦: ٤٩٠ وما بعدها (حيث ترجع الإشارة دون شك إلى السبيادس) و٨، ٥٦٢ وما بعدها (حيث يبين أن الطغيان ترجع نشأته إلى المغالاة في الحرية الديموقراطية).

من روعة جلائل الأعمال، يزخر التاريخ الأغريقي بالمأساة. أن حطام النفوس التي أتى عليها الدمار يتناثر في مطوى صفحاته. وهذه الصفحات تعرض التضحية التي اشترى بها عقل الإنسان حريته في أن يفكر وأن يعمل. ولكن يجب ألا تخدعنا حتى نزعم لحظة أن النصر لم يكن يستحق التضحية.

٣- توسيع اليونان

٧- أن تأثير دولة- المدينة للخير أو للضير يتجلى في بيان أكثر وضوحا كلما درسنا تطورها في التاريخ الإغريقي. وقد شاهد القرنان الثامن والسابع انتشارها السريع في دزر البحر المتوسط وأراضه الساحلية. وقد كانت الأحوال المناخية والجغرافية تلائم توسع السلالة الإغريقية هذا. وكانت مدن منطقة إيجا تقع أما على الجزر وأما على الوديان التي تفصلها سفوح الجبال العالية وأصبحت بذلك في حماية من العدوان بالبر. ولكنها لم تكن منعزلة عن التواصل المتبادل وإلا كانت كالمدن السويسرية في التاريخ الحديث، لتحتفظ باستقلالها بأي ثمن. وكان البحر وثاق الاتحاد. وقد ضمن خايج كورنت والتعاريج الساحلية التي لا عد لها، والداخل، للأغريق الأوربيين خطا ساحليا بالغ الاستطالة ولا نكاد توجد أية ولاية إغريقية ليس لها مخلص سهل إلى البحر. وكان الأغريق سلالة بحرية منذ الأزمنة الأولى. وقد عمل التواصل في التجارة بينهم وكذلك بينهم وبين الشعوب الأخرى، وهو يتألف بحرية مدنهم وكيانها الفردي، على تنمية ثقافة متنوعة زاخرة. وندر أن وجدت سلالة، كائنة ما كانت، أضفت عليها الطبيعة في مثل هذا الاغداق عوامل مدنية، وطبيعة [1]. أن الجبال والبحر والمناخ المعتدل الذي يبعث على النشاط وتربة كانت تتطلب المهمة والمهارة وتجزل لهما العطاء، أن هذا كله عمل على بعث صفات حب المغامرة والعمل المتحرر اللذين حملهما الغزاة الشماليون معهم عندما هبطوا إلى العالم الإيجي [2].

٨- ولقد تميز القرنان الصامن والسابع بالمغامرات التجارية والنشاط الجم في الاستعمار، ونمو الثروة والتهذيب الاجتماعي والقلق السياسي الذي اتسع نطاقه. وقبيل سنة٦٠٠ ق.م. كان الإغريق قد أنشأوا مستعمرات تجارية على شواطيء بروينطس **Propontis** (بحر مرمره)

---

(١) ولكن لم تكن لديهم موارد قوي طبيعية (ومن هنا كانت الحاجة لخدمة العبيد على نطاق واسع) أو زجاج (وعلى هذا فلا كيمياء أو أدوات بصرية) أو فحم (وعلى هذا فلا ألواح مراجل أو بخار).

(٢) ولكن المتويين وكذلك الشماليين قاموا بمغامرات بحرية.

والأكسين (البحر الأسود) وعلى ساحل أفريقيا الشمالي وحول جنوب إيطاليا وعلى الخط الساحلي في صقلية، بطوله إلا حيث كانت حصون قرطاجنة تتحكم في غرب الجزيرة الأقصى. ولقد رأينا كيف أنه في بواكير القرن السادس استحوذ التجار الإغريق من أمراء موالين في الأسرة السادسة والعشرين على مقر دائم في نوكراتيس **Naucratis** في دلتا مصر. وكانت تجارة البحر المتوسط من صقلية إلى الشرق قد أفلتت من يد الفينقيين إلى الإغريق. وفي أقصى الغرب استمتعت قرطاجنة باحتكار لا ينازع. ولكن في غيره من الأصقاع تمكن اليوناني التاجر والمستعمر بما له من عبقرية طبيعية يكوف فيها مطمئن البال في أحوال جدد وبين ناس غرباء. من طرد السلالات السابقة من أسواق البحر المتوسط. وقد لازم هذه التوسع التجاري نتائج بعيدة الأثر في الحياة الاجتماعية والسياسية. وقامت المدائن الرائعة مثل مليتوس **Miletus** في أيونيا وسيراكوز في صقلية وسوبارس **Sybaris** في جنوبي إيطاليا ويدل لفظ **Sybarite** إلى يومنا على شخص يتعشق الدعة المترفة. ولقد نهضت إلى حيز الوجود طبقة من الأمراء التجار قامت برعاية الفن والشعر في سخاء ونبل.

وفي مجال السياسة كان يفور على الدوام شغب دائم وثورة. فقج أصبح أولو اليسار الجدد يكافحون من أجل السلطان والامتيازات ذد احتكار النبلاء القدامى. وقد نجم عن الكفاح الحزبي العنيف دافع لجديد من الاستعمار. ولم يكن من غير المعتاد أن يرسل غير الراضين وكثيرا ما يكون ذلك بارشاد مهبط الوحي في دلفي الذي علنت أهميته في هذه الحقبة، كمستعمرين إلى أية منطقة غير مأهولة تصلح للتجارة، حيث كانوا يؤسسون دولة– مدينة تتمتع بالحكم الذاتي. وكانت المستعمرة الأغريقية مستقلة سياسيا عن المدينة، الموطن الأصلي. والأسباب التي تربطهما كانت تلك التي تتصل بالدين أو العاطفة أو التحالف التجاري [1]. وعلى هذا كان العصر، عصر انتقال سياسي سريع. وقد مهد تنافس النشأة والثراء، والأرض والتجارة، الطريق حينا للديموقراطية وحينا آخر للطغيان. وأعظم ظاهرة تسترعى النظر في تلك الأزمنة، كانت قيام شكل الحكومة المعروف للإغريق باسم حكم الطغاة. ولو أنها كانت قصيرة الأجل في أية مدينة بعينها

---

(١) ومع هذا فإننا نقرأ عن مستعمرات كانت تنافس المدينة، الموطن الأصلي، منافسة تجارية مريرة مثل كورنث ومستعمرتها مركورا **Corcyra** أنظر ثقوديدس **Thucydides**: ٣، ٨٢ وما بعدها، حيث يجيء وصف الثورات في كركورا كمثال لنتائج الكفاح، الحزبي الخلقي والسياسي، في العالم الهليني في أواخر القرن الخامس. وعن مهبط الوحي في دلفي والاستعمار، أنظر هيرودت ٤، ١٥٠– ٨ (قورينا).

فإنها غدت منذ ذلك الزمن ظاهرة مستديمة في مراكز اليونان التجارية. ويغلب كثيرا، كما حدث في أيام النهضة الإيطالية أن تاجرا غنيا يطيح بالنبلاء الظالمين بمعونة الشعب ويقيم نفسه حاكما مستبدا. وكان «الطغاة» في الكثير الغالب حكاما متنورين ذوي شمائل إسنانية مثل بسسطراطس **Pisistratus** في أثينا في القرن السادس ولكنهم كانوا يسيئون إساءة بالغة إلى تعشق الأغريق للحرية ولقد آثار حكمهم المقت المرير. لقد وضعوا أنفسهم فوق القانون وبذلك، نبذوا كل دعوى في حمايته. وكانت سلطتهم انتهاك لطبيعة **ethos** دولة– المدينة الهلينية. يضاف إلى هذا، أن الإغريق كانوا يسهمون إلى أقصى حد في المقت الذي يحس به أحرار الناس في جميع العصور نحو السلطة التي يكون أساسها امتلاك الثروة. وقد كتب ثيوجنس مواطن مجارا: «أن الإطاحة بطاغية يبدد الناس ليس بخطيئة ولن تعاقب عليه الآلهة»، ويحتفل الشاعر سيمنيدس بحمد قاتلي ابن بسسطراطس بهذه الكلمات: «إن ضوءا عظيما تفجر على الأثينيين عندما ذبح هرمديوس **Harmodius** وأرسطغيطن **Aristogiton** ابرخس **Hipparachus**». وتتجلى نتائج هذه الحقبة في حياة اليونان العامة أيضا، في تقدم القانون والنظم السياسية والسير قدما صوب الديموقراطية، بهدم الحقوق المتوارثة [1] . ومما كان له شأن عظيم توسيع الثقافة في مجال الشعر والفن والعلم.

٤- بواكير أدب الشعر

٩– أن أدب اليونان، كأدب الكثير من الأمم يستفتح بالأغنية وأقدم ما بين أيدينا من قصائد شعرية هما ملحمتان تنسبان إلى هومر، الألياذة والأوسياد. وتسرد الألياذ قصة معارك حربية على «السهولة الداوية في طروادة التي تعصف فيها الرياح». وغضبة وجسارة أخلوس **Achilles** وذبحه هكتور **Hector** رجل طرواده– وتقص الأوسياد تجول أدوسيس **Odesseus** الذي استغرق عشرة أعوام في البحر والبر بعد أم سقطت طروادة ورجوعه إلى اتيكا وذبحه الخطاب الذين أفسدوا بيته [2]. أنهما الملحمتان الباقيتان من ملاحم كثيرة سابقة وتمثلان الثمرة

---

(١) أن تدخل فارس التي كانت تستطيع التعاون دائما مع حكم القلة **Oligarchy** أصاب تقدم الديموقراطية العادي أصابة بالغة. وهذا هو سبب بقاء حكم القلة إلى القرن الرابع.

(٢) لا تعرض تتابع الحوادث في أنه واحدة من الملحمتين نتيجة لتخطيط واسع، وكما أشار منذ عهد قريب السيد ث. س. لويس **Mr. C. S. Lewis** في مقدمة الفردوس المفقود، في إفصاح وتنوير، أنه من خصال بواكير ملاحم البطولة في اليونان كالحال بين شعوب أوربا الشمالية، وعلى غير شاكلة ما جاء من ملاحم «ثانوية»، أنها لا تعالج موضوعا عظيما

الناضجة لفترة مستطيلة من الخلق الشعري. ولقد أحضر أول المستعمرين الإغريق في آسيا الصغرى، الذين ينتمون إلى الأصل الأيولي، معهم من تساليا الجنوبية، الأغاني الشعبية الراقصة والأغاني القصصية القصيرة التي تسبح بحمد الآلهة والسلف القبلي والتي تتكون من أبيات يكون فيها البيت من ستة مقاطع «أنه أفخم وزن صاغته شفاه البشر»[1]. وقد حيكت هذه الأغاني في ملحمتين عظيمتين في جزيرة لسبس أو على شواطيء شمال غربي آسيا في المدة التي تقع بين عامي ١٢٠٠ و ٨٠٠ واتخذت الملحمتان شكلهما الحاضر بعد أن أتى عليهما فيما بعد، تعديلات وإضافات وتطهير من الشوائب بين المستوطنين الأيونيين على مسافة أبعد إلى الجنوب [2]. ويمكنا أن نتقصى في الملحمتين تغيرات في اللغة والفكر والعادات ونمو الأفكار الخلقية.

مثل تأسيس روما (فرجيل) أو سقوط الإنسان (ملتون) ويكتب في الصفحات (٢٨– ٢٩) «ذلك النوع من العظمة ينهض فقط عندما يقوم ثم حدث يمكن أن يبرز على أنه أتى بتغير عميق في تاريخ العالم، في دوام قليل أو كثير... ومجرد الصعود والهبوط الذي لا نهاية له والتبديلات المستمرة التي لا هدف لها، من مجد وبؤس اليت تتكون منها الظاهرة المروعة لما يسمى عصر البطولة لا تسمح بمثل هذا التخطيط. ولا يكون حدث بذاته أنه أتي بتغير عميق في تاريخ العالم، في دوام قليل أو كثير... ومجرد الصعود والهبوط الذي لا نهاية له والتبديلات المستمرة التي لا هدف لها، من مجد وبؤس التي تتكون منها الظاهرة المروعة لما يسمى عصر البطولة لا تسمح بمثل هذا التخطيط. ولا يكون حدث بذاته في الواقع أكثر أهمية إلى حد جد بعيد، من حدث آخر... لا شيء له بقاء، ولا شيء يتعدى مغزاه اللحظة ويوجد من البطولة أو المأساة الشيء الكثير وعلى ذلك يوجد الشيء الكثير من القصص الطيبة ولكن لا يوجد «تخطيط عام...» وخالص النتيجة ليس شكلا انموذجيا وإنما ضروب من الأشكال والألوان الجميلة».

[1] () «إلى فرجيل» لتينيسون **Tennyson**. لم يكن قصيدة أدب الشعر القديم يقفي. وكان دانتي أول شاعر عالمي عظيم يستخدم القوافي. وتعتمد الأوزان الأغريقية واللاتينية على عدد المقاطع وليس على النبر. ومن هنا كانت صنوف المحاكاة الحديثة فمثلا الأبيات التي يكون فيها البيت من ستة تقطيعات لا تقدم إلا تأثيراً ضئيلاً جداً عن الوزن كما استعمله الأقدمون. وقد يكون البيتان الآتيان **Bothie of Tober- na- vuolich** لكلوغ **Clough** مثالا لا يصل إلى الكمال:

So in the	Qolden	Morning they	Parted and	Went to the	weslward
There halh he	Farmstead and	Land, and	Fields of	Corn and	??????

والوضع العادي للسطر ذي الستة أقدام هو

- U U	- U U	- U U	- U U	- U U	- U
- -	- -	- -	- -	- -	- -

بحساب أن المقطع الطويل، له ضعف قيمة القصير.

(٢) أنها باللهجة الأيونية ولكن كان تأليفها في الأصل بالأيونية. وعن علم اللاهوت عند هومر، أرجع إلى تاريخ دين الإغريق، لنلسون **Nilsson**.

والأوديسيا وهي على وجه عام أحدث الاثنتين ربما تعبر عن المزاج الابداعي (الرومانسي) في عصر المغامرات البحرية، ولا يمكنا أن ندخل هنا في مشاكل يدور حولها الجدل وإلى أي مدي كانت الملحمتان أو أحداهما من عمل شاعر واحد ولكن نشير فقط إلى أن العلماء في زمننا يميلون إلى أن تكون لهم نظرة محافظة في هذه المسائل أكثر مما كان لهم منذ نصف قرن. والقول أن هومر كان شخصية واقعية وأن الألياذة والأوديسيا يجب أن تنسبا إلى تأليفه لم يعد بعد مما يمكن دحضه، في استعلاء كنافلة. وعندنا كما كان عند الأغريق، يمثل هومر كل الأسطورة الملحمية بأجمعها، والأعجوبة هي أن تلك السلالة أمكنها في ذلك العهد الباكر أن تنجب مدرسة من شعراء بلغوا أرفع شأو. ولا يوجد أدب باق بين ظهرانينا أستهل بمثل هذا المجد كأدب اليونان واستهلاله بهاتين القصيدتين. وفي فحواهما وصوغهما، على السواء تعنو لهما السيادة التي لا تقارع على الشعر الملحمي في كل سلالة وزمن، أن ما تنطويا عليه من مغزي لما أعقبهما من مدنية اليونان والعالم مثلوث العرة فقد كان جمالهما وروعتهما معينا دائما للألهام الشعري، وفي مكنتنا أن نقتفي نأثيرهما خلال مدرجة الأدب والفن الإغريقيين بأكملها. أن الشعر الروماني وخاصة الأنياد لفرجل صيغ إلى حد كبير، على أنموذج الألياذة والأوديسيا، ولا تزال روح هومر تصعد الأنفاس في شعر العالم الحديث ولقد قيل أن اسخولس **Aeschylus** أطلق على رواياته من نوع المأساة «فضلات من وليمة هومر العظيمة» ويمكن لشعراء جميع العصور أن يرددوا صدى أقواله. أن وداع هكتور لاندروماك **Andromache** والذكرى التي تجيش في هيلن عن أخوتها الذين قضوا نحبهم وهي ترقب جيش الأخائيين من أسوار طروادة واستعطاف بريام **I'riam** لاخلوس من أجل جسمان هكتور عندما عن للملك الهرم «أن أجسر على ما لم يجسر عليه أي رجل على الأرض قبلي، أن أبسط يدي أمام وجه ذابح أبنائي»– تثير نفس المشاعر في القارئين في أية أمة ولغة وفي الزارع الذي لم يؤت من العلم شيئاً كما في العالم أو الشاعر [1]. ومنذ فجر الشعر الإغريقي كان موضوعه كل ما هـ أعظم شيوعاً في الحياة والمشاعر الإنسانية. ثانيا– على مضي الزمن أصبحت القصائد الهومرية تقرأ وتدرس كمستودع للحقائق الخلقية والدينية. أن سطوراً كعبارة أخلوس إلى المبعوثين «بغيض لدى كأبواب الجحيم»، ذاك الذي يقول شيئاً بشفته ولكن يخفي شيئاً آخر في قلبه» أو عبارة أدوسيس «تحمل يا قلبي: لقد تحملت ما هو أسوأ كثيرا

---

(١) الألياذة: ٦، ٣٩٠ وما يليها و٣، ٢٣٤ وما يليها و٢٤، ٥٠٥– ٦ (ترجمة لنج وليف وميرز **Lang, Leaf and Myers**).

من هذا»_ كانت نصوصا يحفظا أطفال الإغريق، يشبهون في ذلك أطفال انجلترة الحديثة وهم يحفظون آيات من الكتب المقدسة [١] . أن القصائد الهومرية كان لها نصيب عظيم في تكييف وتوطيد دعائم الأفكار الخلقية والدينية في الأجيال اللاحقة ([٢]). ثالثا– أن لهذه القصائد قيمة من حيث التاريخ. أنها تصور في اخلاص مكين حياة رءوساء ومحاربي العالم الإيجي في أواخر قرون الألف سنة الثانية. ويعسر علينا في الحق أن نقول في توكيد عما إذا كان الأشخاص عاشوا فعلا أو أن الحوادث وقعت فعلا ولو أن حصار طروادة ليس من غير المحتمل أنه واقعة تاريخية. أنه صدق أن الشعراء يتغنون بعصر تولي ودخلت في الصورة ألوان عادات جاءت فيما بعد. ومع هذا فإننا نعلم الكثير عن العادات القديمة، عن الزواج والعبادة الدينية وعن طرق إقامة المنازل وأحوال الحياة المنزلية وأساليب القتال، والزراعة وجوب البحار. وعندما نقرأ وصف أنظمة الملك ومجلس الشورى ومجمع الشعب (كما في الكتاب الثاني من الألياذة) وعن ترس أخلوس (في الكتاب الثاني عشر) وعن القصور والسلاح والملابس فإننا نجد تأييداً جلياً لدقة وصفها في كشوف شليمان **Schliemann** وخلفائه. كان عالم هومر عالما حقيقيا. مظهران من بين المظاهر الأخرى، يبرزان في أتم جلاء. أن الحياة التي صورت هي حياة ارستقراطية اقطاعية. ولا نسمع ألا اليسير عن عامة الشعب إذ ليس لهم دور يؤدونه وحتى العبيد هم أسرى يرجعون إلى الإمارة بالمولد. والشعر الذي بين أيدينا لم يكن شعراً شعبياً، كما أن دينه لم يكن دينا شعبيا، لقد وضعه

([١]) الألياذة: ٩، ٣١٢– ١٣ أوديسيا ٢٠، ١٨. ومن الجهة الأخرى، كانت توجد فقرات عديدة يراها شعور الأغريق الخالقين، الذي ارتقى، لا تليق بتعليم الصغار كالحوادث التي وردت في «قصص الآلهة»، الفاضحة. التي ربما كانت إضافات متأخرة تعبر عن المجانة والشك الديني عند الأيونيين في القرن السابع مثل مكر هيرا بزيوس (الياذة: ١٤، ١٥٣ وما بعدها) ومباغتة ما وقع من حب بين هفيستوس **Hephaestus** وأفروديت (أديسيا: ٨، ٢٦٦ وما بعدها) الذي نعاه أفلاطون (الجمهورية: ٣، ٣٩٠) وعراك أثينا **Athena** مع آرس– **Ares** وافروديت (الياذة: ٢١، ٣٩١ وما بعدها)، التي يمكن موازنتها بالتقليد الهزلي في توم جونس **Tom Jones** (الكتاب الرابع فصل ٨)– مقابلة مولى سجرم **Molly Segrim** (نساء القرية). وينبئنا فيلدنج **Fielding** «أنها معركة غنتها ربة الفن على الأسلوب الهومري». وعن هذه الإضافات المتأخرة أنظر مرى **Murray** (نهوض الملحمة الأغريقية، المحاضرة العاشرة). أن لها قيمة من وجهة التاريخ مثل زينة هيرا (الياذة: ١٤، ١٧٠ وما بعدها) فإنها تعلمنا بأمور كثيرة. وما ساقه موحه ليس إلى قيمتها كشعر، (الذي اعترف به تماما، الجمهورية ١٠، ٦٠٧) ولكن إلى دعواها في أنها هادية التعليم الديني والخلقي. وهو يعرض بصفة خاصة للأطراء (الجمهورية ٣، ٣٩٠)، كلمات أدوسيس التي اقتبسناها في النص.

([٢]) أن هيرودوت (٢: ٥٣) يعترف بهذا والعبارة اقتبست في ١١ التي تلي. ويرجع انتصار الدين الألومبي، (متميزا عن العبادات الشعبية الأعرف في بدائيتها)، انتصارا باقيا على الزمن يرجع الفضل فيه، لحد عظيم، إلى هومر.

للنبلاء من الرؤساء مسدون كانوا يتغنون بشرف أسرهم وعشائرهم. ومع هذا فإنه بالرغم عن هذه الصفة غير الديموقراطية فإننا نتنسم عبق الحرية في العالم الهومري حيث لا يوجد استبداد سياسي أو كهانة، والدسيسة والسحر على السواء نادران والنساء يعشن في مساواة مع الرجال إلى حد لم يعرف في اليونان التي جاءت بعد ذلك ويستمتعن بمكانة جليلة الشأن في الأسرة، والعبيد يتحدثون إلى أربابهم ويتحدث اليهم كما يكون الحديث بين الرجال والرجال [1]. ويصل الشعور الإنساني المشترك قريبا من الذروة في المجتمع الهومري أكثر مما يصل إليه في عالمنا الحديث الأكثر تعقيدا.

١٠- والملاحم الأوليات كن قصصا عن أفعال البطولة مشاهير الرجال. وبعد ذلك ضرب الشعراء على نغمة ذاتية جديدة وفي روح أكثر أن تكون إبداعية (رومانسية) عبروا عن مشاعرهم الغنائي. وكان يتركز أهتمامهم، ليس في الماضي ولكن في الحاضر، فيما تمرس به الشاعر شخصياً من الحياة. وقد شاهد عصر التوسع التجاري مولد الشعر الغنائي وشعر المراثي وفيه تنوع زاخر في صيغة الموضوع والوزن ويحوي قصائد حب وحرب وحزن وضجر وأنشودة الجنازة وأغنية الزواج والقصائد الغنائية المذهبية والتهكم الشخصي والسياسي. أن الزمن لا يمكن أن يذوى جمال هذه القصائد الذي لا يفني. أنهن يتحدين الترجمة ولكن صدى من روعتهن يمكن أن يحس وقعه فيما نقل روستي **Rossetti** عن سافو **Sappho**.

كالتفاحة الحلوة التي يعلوها الأحمرار في أعلى فرع

فوق أعلى غصن- التي نسيها القاطعون لثم داع.

لم ينسوها، كلا، ولكن لم يظفروا بها لأن أحدا لا يستطيع الظفر بها إلى الآن

كزهرة عنصل، برية يعثر عليها فوق الربى.

تمزقها وتدميها أقدام الرعاة المارة.

إلى أن تداس المنورة الأرجونية في الأرض.

---

(1) عن النساء ارجع إلى الأدوسيا. أن العلاقات بين الجنسين تعالج في رفق وتحفظ. وعن العبيد انظر يزمايوس **Eumaeus** في الأوسياد أنه نبيل بمولده وقد أسر في الحرب ويعامل كتابع للأسرة، مكرم، راجع التذكرة الأضافية فصل ٥، فيما يلي.

ويمكن توضيح عنصر الملحمة بالبيتين اللذين كتبهما سيمثيدس في بواكير القرن الخامس على قبر الموتى الأسبرطيين في ثرموبولاي **Thermopylae** «اذهب، أيها الغريب وخبر رجال لاكديمونيا **Lacedaemon** أننا نرقد هنا إطاعة لأمرهم». وقد كتب الشعر الغنائي، كما يدل اسمه، ليغني بمصاحبة الموسيقى وكان يصحب القصيدة الغنائية الكذهبية التي تقدمت إلى أن أوفت على كمال عظيم في نفس هذا العصر، الموسيقى والرقص، وكان الجزق يحتفل بمديح الآلهة أو الأبطال أو المظفرين في الألعاب، أن قصائد بندار **Pindar** الغنائية إلى الآن (وهي ترجع إلى القرن الخامس)، وتعد أحدى مفاخر الشعر الإغريقي، وضعت أصلا لتكريم الانتصارات في الألعاب الرياضية. وسنرى في الفصل القادم كيف كيحت عبقرية الأغريق في الشعر الغنائي، مع الملحمة في الفاجعة الأتيكية.

١١- وجنبا إلى جنب مع أشكال الشعر الغنائي هذه، أدى الاهتمام المتزايد بالتفكير الخلقي إلى قيام شعر الحكم والأمثال [١]. الذي يعبر عن نقد للحياة، ساذج، ونصائح عن السياسة أو التعقل ووصايا عن العمل الخاص والعام. ولقد قام الشعر التعليمي في أزمنة أسبق بين زراع اليونان الوسطى كشطر مقابل للملاحم الهومرية، بين الاستقراطية الأيولية والأيونية. وهو لا يزال موجوداً في القصائد التي تنسب إلى هزيود البيوطي [٢]. ويمكن موازنة شعر الأمثال في آخر القرن السابع وفي القرن السادس بمصنفات بيرز بلاومان **Piers Plowman** أو جور **Gower** «الخلقي»، في الأدب الإنجليزي. ولقد عبر ثيوجنس مواطن مجارا في أوزان المرثية عن احتقار الشريف الدوري للعامة من الشعب الذين استلبوا من طبقته الثروة والسلطان وتغني رجل السياسة الأثيني، صولون بخدمة الولاء للمدينة وواجب الكبح في استخدام السلطة، لشعب كان ينزع دائما إلى تخطي جادة الاعتدال. وهذا اللون الجديد من الشعر له اعتبار خاص عندما نذكر كيف كان الشعراء لا الكهنة، في نظر الإغريق، المعلمين المعترف بهم للحقائق الخلقية والدينية. وليس معنى هذا أن الأغريق كانت تعوزهم التقوى فلقد تجاوز الأثينيون في عهد صولون،

---

(١) **(gnome= maxim)- gnomic poetry**.

(٢) «الأعمال والأيام» لهزيود يقدم صورة شيقة للحياة في الجزء الأخير من العصر المظلم الذي أعقب الهجرات الشمالية إلى ايجا، طالع يور **Ure** «النهضة الأغريقية»- الفصل الثاني «**The Greek Renaissance**».

كأعقابهم إبان زيارة القديس بولس الحد في خشية الله [1]. وفي بعض الأحايين كانت رابطتهم بعبادات دولة– المدينة تتصاعد في غلو جنوبي ([2]). وكان جزءا من وظيفة الشاعر أن يقص ويفسر حكايات الآلهة والأبطال وسمح لهم بمجال عظيم في اختيارها وإعادة تكوينها، ولقد قال هيرودوت أن شاعري الملحمة الأولين هومر وهزيود: أعطيا الآلهة القابهم وقسما بينهم صنوف التكريم والفنون ووضعنا أشكالهم». وكان يرمي إلى أنهما رسما ثم مذهب وتناسق للعدد الجم من العبادات المحلية وعلى هذا ساعدا على تبلور الخطوط الرئيسية للتقاليد الدينية في الأزمنة اللاحقة. ولا يستطيع أي فرد أن يدرك الدور الذي قام به الشعر في حياة الأغريق وتعليمهم إلا إذا وضع نصب عينيه رابطته الوثيقة بدينهم [3].

١٢– ولقد كان شعراء الأمثال الرواد الأوائل لما صنفه بندار وكتاب الفاجعة في القرن الخامس وذلك بأنهم حاولوا جعل التعليم الشعري يتلاءم مع الوعي الخلقي الذي كان يطرد نموا في ذلك الزمن. ولقد أدى القلق السائد بما لا معدى عنه، بين ناس أوتوا قدرات عقلية نادرة، إلى تغيرات في نظرات الناس للحياة وإلى استبدال القيم الخلقية القديمة بقيم جدد ومن عوارض هذا المزاج والكتأمل ذيوع الأقوال المأثورة التي جرت مجرى الأمثال نحو «أعرف نفسك»و «لا شيء تجاوز الحد» و «القاعدة تكشف عن الإنسان» وهي تمثل استقراءات شعبية من التجاريب الخلقية. ولقد اتخذ تصور معيار خلفي، شكله في المثل الأعلى للسفرسونيه **Sophrosyné** وهو تعبير يتحدى الترجمة بلفظ انجليزي واحد ومعناه الحرفي «حفظ العقل سليما» أو كما يجوز أن

([1]) الأعمال: ١٧، ٢٢. أن التعبير الإغريقي الذي ترجم «**superstitious**» في النسخة القديمة والمعدلة ٠من الأنجيل باللغة الانجليزية) معناه الحرفي «يخاف الأوراح (الوسيطة بين الآلهة والناس)». وكانت هذه الأرواح كائنات الهية مثل هرقل وغيره من أبناء في قصة الأغريق الدينية.

([2]) مثلا عن حادث تشويه تماثيل هرمس ابحار الأرمادا إلى صقلية عام ٤١٥، أنظر ثفوديدس: ٦، ٢٧ وما يتلوها وتأثيره على الجماهير يمكن أن يوازن بما كان يمكن أن يكون لتدنيس صور العذراء من أثر على مدينة أسبانية في زمن الأرمادا عام ١٥٨٨. رعن علم اللاهوت الهومري أنظر نلسون (تاريخ الدين الإغريقي). كان مجتمع الآلهة الأولمبية اقطاعيا في صفته على شاكلة المجتمعات البشرية في عصر البطولة. وكانوا يتصورون الآلهة وقد اتخذوا شكل الإنسان ويختلفون عن الناس في درجة المعرفة والقوة فقط ولكنهم كانوا خالدين. ولم يكن لهم علم غير محدود أو قدرة غير محدودة، ومع هذا فإن كل شيء في حياة البشر كان يعتبر خاضعا لنفوذهم.

([3]) أنظر أفلاطون الجمهورية ٢ و ٣ عن مكانة القصص الشعري عن الآلهة والأرواح والناس، في التعليم الخلقي للشباب من حكام المدينة الم؟؟الية.

نقول «الرأس صافيا»[١]. ونوانه البدائية هي لفظ aidés الهومري أو الأحترام وهو الشعور الداخلي الذي كان في أزمنة الحروب الهمجية يغل يد الرجل عن إيقاع الأذى البالغ باليتيم والهرم والمستعطف أو العدو المغلوب على أمره ويكبح النزعة إلى الجبن أو عدم الولاء ويحفظه مطيعا للوالدين والحكام والآلهة [٢]. والمعنى الجوهري للفظ سفرسونيه Sôphrosyné، كما نشأ في العقل الإغريقي هو كبح جماع النفس وطاعة القانون سواء أكان قانون الدولة أو المبدأ الداخلي أمام الغواية التي تستبد به لاساءة استخدام الثراء والسلطان وأخضاع الولاء المدني لمطالب الطموح الشخصي. وبالإضافة إلى هذا الواجب السلبي، فقد كان يدل على الخصلة الإيجابية، في النظر الصافي وليد المعرفة بالذات ذاك الذي يساعد الفرد أو المجتمع على أن ينهضا بأمورهما في اتزان حكم خلال اللحظات العصيبة من تاريخهما. والعبارة المعروفة «الحكم الصائب في جميع الأمور» ربما تقدم أقرب تعبير عن المعنى [٣]. ونقيض هذه الحكمة المنقذة كان هبرس Hubris وقد جاء التعبير في الملحمات الأولى. ومعنى أصله، تجاوز الحد في عنف، ولؤم النصر وكبرياء الحياة التي تطأ بالقدم شريعة الآلهة والناس، غير المكتوبة. وهبرس Hubris هو أقرب ما يعادل في الاغريقية لفظ خطيئة، وأعظم اطلاق تميو به كان على التعطش الذي لا تطفأ سورته، التعطش للسلطان ذاك الذي يدفع إنسانا أو أمة دفعا إلى الأمام كأن شيطانا ركبهما في مسلك التوكيد الذاتي الذي لا يكبح جماحه. وهذه العاطفة التي تعمي والتي تنتهك الحرية الشخصية كما تنتهك القانون العام، على السواء، تستغوى الضحية في جنون من الثقة بالذات إلى موارد الهلاك. وهي تثير في الآلهة وفي رفاقه القصاص nemesis الشعور الحق بالاستنكار. «أن خطيئة

---

(١) يفسر ارستطاليس (قواعد السلوك ٦ فصل ٥) التعبير بأن معناه الحرفي الفضييلة (التي تحفظ الحكمة العملية :phronésis" سليمة). ويعني لفظ phronésis القدرة على الصفحات ٧٨ وما يليها. وفي الألياذة: ٤، ٤٠٢ وما بعدها، عندما يوبخ اجا ممنون Agamemnon ديومادس Diomedes لتباطئه في جمع الحكم الصائب في مسائل سلوك الإنسان.

(٢) انظر Murray نهوض الملحمة الأغريقية، رجاله للمعركة فإنه لا يحير جوابا، «احتراما aidôs لصوت الملك المبجل aidoios». وعندما يجيب اسثنالس Sthenelus غاضبا بدلا عنه يؤنبه ديومادس. لأني لا أحس شعور القصاص nemesis نحو اجا ممنون، راعي الشعب عندما يحض الأخائيين المدججين على القتال.

(٣)ارجع على الأخص إلى تحليل السفرسونيه في أفلاطون، الجمهورية: ٤، ٤٣٠ وما يليها وارستطاليس «قواعد السلوك» الكتاب الثالث، ويمثل التعبير لدى هذين الفيلسوفين نتاج الاحترام aidôs المفكر، ذلك الشعور البدائي الذي وصل إلى شكل واضح التحديد، من السمو الخلقي والعبارة التي جاءت في النص، مقتبسة من الدعاء في عيد الفصح في كتاب الصلاة العامة الإنجليزي.

nemesis قديمة تولد على الدوام خطيئة جديدة حية لتزيد من ويلات البشر[١] . هكذا صور الشاعر الاغريقي وهو يجهد في إعطاء الجبرية المتوارثة والاستحقاق الفردي حقهما، السحابة التي تتجمع للقدر الذي يتفقد ذنوب الآباء في الأبناء لأجيال متعاقبة من سلالة تفارق الخطايا. وعندما ظهر الطغيان فإنه اعتبر ختام مظهر الخطيئة في الحياة العامة لدولة– المدينة [٢]. وبعد ذلك أطلق التصور على مجموع عمل أمة دفعتها كبرياء الأمبراطوية لتهدد الاستقلال الهليني كما كانت حال الغزو الفارسي وسيادة أثينا البحرية [٣]. ولقد كان اليوناني يعرف تمام المعرفة موطن ضعفه والعواطف الأثيمة التي كانت ابداً في ترقب لتستغويه على توكيد فرديته فيما يتعدى الحدود التي رسمها العقل والقانون. ولقد كان من العسير عليه، بما كان له من ملكيات عظيمة، أن يلج ملكوت روحه ذاتها. أما المشاعر الغاوية فإن أهمها كان الحض **Peitho** والرجاء **Elpis** والعاطفة **Eros**. وكان يذهب التصور إلى أنها عوامل شخصية لا دوافع مجردة. «أن الحض التعس يبرز قوته. أنه وليد القدر المنذر **Ate** لا يمكن تحمله وكل دواء لا نفع فيه»[٤]. وكتب هزيود «ان الرجاء هو رائد سيء لرجل معوز» وسفوقلس «الرجاء الذي يشطح بعيدا ولو أن الكثيرين يجدون فيه عواء فإنه لكثيرين خدعة يعطي أجنحة لحلم الحب والشخص الذي يراوده

---

[١]اسخ. أغام. صفحة ٧٦٠ وما بعدها. عندما تأمر ملتمنسترا **Clytemnestra** سيدها اجا ممنون بأن يطأ الأرجون وهو يدخل منزله، عند عودته من طروادة استعدادا للمصير الذي أعدته له فإنه يفعل ذلك في وجل:

(وأنا أطأ مواد البحر هذه، أرجو ألا تصيبني عيني اله، بعيدتين بغيرة (**Phthonos**). لأن لدى احترام **aidôs** عظيم لتبديد مادة، أن أتلف بخطاي ثروات وأنسجة اشتريت بفضة) (أغا، ٩٤٦– ٩).

[٢]سفو. و.ت ٨٧٣ (الخطيئة **hubris** تنجب طاغية).

[٣]عن خطيئة **hubris** فارس وما نتج عنها من قصاص **nemesis** أنظر اسخولس **Aeschylus** (الفرس) وتاريخ هيرودوت وخاصة هير: ٧، ٧– ١٨، (محادثة خشيارشاي وأرطبانس **Artabanus**). وعن خطيئة الاثينيين في الشطر الأخير من القرن الخامس، نحو رعاياها راجع ثقوديدس: ١، ٧٥، ٧٦ و٣، ٣٧ وما بعدها وخاصة الديالوج الميلي **Melian** ٥، ٨٩ وما بعدها، وقد أعقبتها مباشرة الغزوة الصقلية (القصاص)، وكان الإغريقي ليفسر في يسر نمو القومية الألمانية السريع على أنها سياسة لصبغ العالم بالقوة، بالصبغة الألمانية كمثل للخطيئة القومية. وعن القصاص **nemesis** راجع مرى في المؤلف المشار إليه انفا. والفكرة تتصل بصفة قاطعة بقواعد الساوك. وبينما يعبر الاحترام **aidôs** عن شعوري بعدم إمكان تصور مسلك كهذ فإن القصاص **Nemesis** يعبر عن اعتقادي بأني (أو شخص غيري) يجب ألا يفعل هكذا.

[٤]اسخ. أغام: ٣٨٥.

لا يدري شيئاً إلى أن يحرق قدميه بالضرام اللتهب»[١]. ويرِ الشعراء والفلاسفة على السواء، أن الحب طاغية يستعبد ضحاياه الذين أعموا، للعاطفة الجامحة. ويهتف دينرا (Deianira) عاثر الجد «أن الحب يحكم حتى الآلهة بارادته وكذلك أنا أيضاً، كيف أذن، لا يحكم آخرين مثلي؟».

لأن قلب الحب به جنه

وذهب هو التماع جناحه

والكل، تحت تأثيره السحري.

ينحنون، عندما يثب وثبته [٢].

وقد عن لعصر لاحق أن يرى في هذه القوى الثلاثة، الإيمان والرجاء والمحبة ثالوثا من الفضائل هو منتهى مجد الإنسان الروحي. ولكن عند الإغريق في هاتيك الأزمنة العظام كانت أرواحاً شريرة تستغوى المقامر في لعبة الحياة لأن يجازف بكل ما لديه، دون بصر، في رمية واحدة، قاتلة وبذلك يثير قصاص السماء. لأن الآلهة الألومبيين كانوا غيورين وكانوا يسعون بطيفهم لايقاع الأذى بالإنسان لئيم الطبع الذي يجسر على انتهاك ما لهم من حقوق [٣] .

ويزخر الأدب الشعري الأغريقي بالتأملات التي تتركز حول فكرتي السفرسونيه والهبرس وهما

---

(١) هزيود (الأعمال والأيام) ٤٩٤، سفو انتغ ٦١٦ وازن عن الرجاء اسخ. أغام ٩٩٠ وما بعدها وسفو. طراخ ٦٦٦ وثفوديدس ٣، ٤٥و ٥، ١٠٣ وكورنفورد Thucydides Mythistoricus.

(٢) سفو. Trach: ٤٤٣– ٤ اير Hipp: ١٢٦٨ وما بعدها (ترجمة مرى) وراجع أيضاً صورة أفلاطون للروح يسيطر عليها. ارس Eros طاغية في الجمهورية: ٩، ٥٧٢– ٣ وافتتاحية الأغنية المذهبية في سفو. انتغ: ٧٨ وما بعدها ترجمها سونبرن Swinburne (أغنية لأثينا) هكذا:

«الحب في صراع لا يغلب، الحب يتأتب أسلاب عظام الناس

لم يعن أبدا في مثل هذه الحلاوة من حنجرة سيدة أو حمامة

الحب الذي مهاده بالليل خدود فتاة، ملس

وسيره يكون على بحار، وسطوح وطيئة لا تعدم الحب

وليس واحد من كل من يعيش، وشيك الزوال أو أبديا

بمستطيع الفرار أو الاستخفاء من الحب ولكن من يعانقه بشدة يجن جنونا».

(٣) عن غيرة (Phthonos) الآلهة، أنظر هيرد ٣، ٤٠– ٤٣ (قصة فلوقراطس) و ٧، ١٠)خطاب أرطيانس) وأنكار أفلاطون أنكارا عنيفاً بأن الله غيور الذي ردد صداه ارسطاليس وكل الفلاسفة الذين أعقبوه يدل على إحدى خطوات التقدم العظيمة التي جاء بها التفكير العلمي على الدين الشعبي

الشطر الهليني المقابل لتعليم قواعد السلوك عند أنبياء العبريين ويمثلان الاعتراف الواعي من جانب الشعراء بوظيفتهم كمهذبين للأخلاق، للشعب الإغريقي. ولكن في القرن السادس، كان صوت آخر قد أصبح مسموعا، أن الفلسفة كانت تقيم دعوى منافسه، تعارض الشعر، لتعليم الحقيقة عن العالم والحياة الإنسانية.

٥- مولد الفلسفة

كتب ارستطاليس «أن الرغبة في المعرفة طبيعية في كل الناس» ومرة أخرى وهو يعبر عن رأي أفلاطون «أن التعجب كان أول ما هدى الناس إلى الفلسفة»([١]). والرغبة التي تدور في مخيلته هي حب الحقيقة المجرد عن النفع، الحافز على التفكير لمجرد التفكير وليس كوسيلة لأغراض عملية وحسب. «أن الرجل الذي تتخذ به الحيرة والعجب مدرك لجهله. وعلى هذا فيما أنهم جنحوا إلى الفلسفة حتى يخلصوا من الجهل، فمن الواضح أنهم درسوا العلم ابتغاء المعرفة وليس من أجل أي غرض نفعي». وعند الإغريق كان حب الاستطلاع لمعرفة أسباب الأشياء وفحص طبيعتها الداخلية يجيء طبيعيا. وفي فجر تاريخهم كانت تجتاحهم كل رغبة الطفل لمعرفة الكيف والسبب». ولقد كانوا في مبدأ الأمر، يتعجبون من الأشياء المحيرة الواضحة وبالتدرج شيئاً فشيئاً تقدموا إلى البحث في المشاكل الأكثر جسامة كظواهر القمر والشمس والنجوم وأصل الكون»([٢]). وفي هذا الميل إلى الاستطلاع، الذي يتجرد عن النفع كما كان يعلم ارستطاليس، كان مولد العلم والفلسفة. ولم يفرق الإغريق بين الأثنين لأن المعرفة لم تكن قيد وضعت لها بعد مصورة تقسمها إلى أقاليم. أن عالم التجارب الإنسانية في كليته وتفصيله، كان موضوع بحثهم العام. وكان عصر التوسيع هو الي أنعش نزعة التفكير المتأصلة على هذا النحو في العبقرية الإغريقية ليكون لها نشاطها الفعال. وكانت مليتوس وهي مركز عظيم للتجارة الأيونية والمغامرات الاستعمارية، مسقط رأس الفلسفة الإغريقية ([٣]). والقلق الذي لحظناه في ميدان

([١])أرستطاليس– متا: ١، ١، ٩٨٠أ ٢١ و١، ٢، ٩٨٢ ب ١١ وما يليها من ترجمة روس **Ross** (بتعديل طفيف جدا)، وازن أفلاطون **Theaet** ١٥٥ د. زسزضح أفلاطون بالقصة التي جاء فيها أن اريس **Iris**، رسول الآلهة كانت ابنا لثاومس **Thaumas** (التعجب).

([٢]) ارستطاليس **Met**: ١، ٢.

([٣]) كانت مليتوس على اتصال بمدينة بلاد ما بين النهرين بالطريق العظيم الذي يسير من ساحل ايجا شرقا عبر آسيا الصغرى وبمصر بالمستعمرة الملزية التي أنشئت حديثاً في نوكراتيس.

السياسة كان يفوز أيضاً في عقول الرجال المفكرين وكأن عالمنا أوسع قد تكشف أمام أنظارهم فرأوا العادات التقليدية تتباين بتباين الأحوال المحلية والوقتية والقصص القديمة تدحضها التجارب الأوسع نطاقاً. ووجد أن سقولا **Scylla** وخروبدس **Charybdis** اللذين جاءا في الأدوسيا كانتا مجرد ظاهرتين طبيعيتين، صخرة ودوامة. ولقد فصمت هجرات ذلك العهد، المعددة، عرى الحلقات التي كانت تربط المعتقدات الأولى بمواضع خاصة. ولأول مرة في تاريخ المدنية البشرية، سارت الروح العلمية وقد تخلصت من الأشتباك بالمعتقدات الدينية الشعبية.

١٤ – وقد تميزت محاولات أول الفلاسفة المليزيين في نفسير الكو، عن أية محاولات سبقتها بمظاهر ثلاثة، ففي المكان الأول، كانت تحمل، كغيرها مما خلقته العبقرية الهلينية، طابع الفردية. والعلم الشرقي، إذا جاز لنا تكريمه بهذه التسمية [١]، كان في معظمه لا ينتمي إلى أحد، إذ كان العمل الجليل الذي تتوارثه وتستحوذ عليه طبقة أو طائفة [٢]. ولكن ثاليس وأناكسيماندر **Anaximander** وأناكسسيمانس **Anaximenes** أول فلاسفة مليطوس في القرن السادس يبرزون كشخصيات ولكل منهم ما أضافه اضافة متميزة إلى تقدم الفكر [٣]. وعلى شاكلة أفلاطون وارستطاليس في زمن لاحق، أسسوا مدارس ولكن التقليد في مجموعة كان مؤسسا على العمل الخلاق للأفراد المفكرين، أولئك الذين بقيت أسماؤهم والذين كانت شخصيتهم تسيطر في تزايد تدرجي، على منهاج التقدم العقلي. وفي الموضع الثاني، كان أسلوبهم علميا على أتم وجه وكانت الملاحظة يتسع نطاقها بالتجربة [٤]. وينيرها الفرض. ولو أن مدى الوقائع التي يمكن الوصول إليها كان محدوداً وكذلك وسائل البحث فإن هدفهم كان الكشف عن مباديء لها

---

(١) أن العلم الشرقي جدير بكل تكريم. لقد أخذ فلاسفة اليونان معظم أصول علومهم عن مصر القديمة. ويمكن الرجوع إلى ما جاء في هامش صفحتي ٣٦، ٣٧ عن الطب في مصر القديمة، على سبيل المثال. (المترجم)

(٢) راجع بورنت **Burnet** «الفلسفة الإغريقية الأولى» الصفحات ١٨ وما بعدها. وكما أوضحنا في الفصل السابق، لم يكن الأنبياء العبريون بأية حال مفكرين علميين. وتنسحب الملاحظة التي جاءت في النص على الرجال الحكماء في مصر وبابل وكذلك على مؤرخي الحوليات وواضعي مدونة القانون بين العبريين. حتى النبوءة أصبحت لا تنسب إلى أحد عندما أصبحت تأملية مثلما جاء في اشعياء ٤٠– ٦٦ بينما صارت أسفار الرؤيا، التي جاءت بعد ذلك أما غير منسوبة إلى أحد أو مرتبطة بمعلمين سابقين (مثل نوخ) أنظر ما سلف ذكره في الفصل ٣ فقرة ١١، التذكرة. والفقرة ١٥، التذكرة.

(٣) عاش ثاليس حوالي عام ٥٨٥ وأناكسيماندر حوالي عام ٥٦٥ وأناكسيمانس حوالي ٥٥٠– ٤٥٤.

(٤)وازن ملاحظة أناكسيماندر على علم الأحياء البحري وتجربة أنبادقليس **Emnedocles** على الساعة المائية ليبرهن على أن الهواء جسم مادي: بورنت «الفلسفة الإغريقية الأولى» صفحة ٧١ و ٢٢٩.

ارتباط بالضرورة، بين مختلف المظاهر المتغيرة. «لا شيء يمكن أن ينبعث من لا شيء»– «لا شيء يحدث لغير شيء ولكن كل شيء يحدث عن سبب وضرورة» [1] . وعلى غير شبه بالفلكيين الكلدانيين الذي اقتصروا على استخدام رصيدهم من الوقائع التي حصلوا عليها بالملاحظة لتكون أساسا لتفسيرات خيالية فإن المفكرين الإغريق وطنوا أنفسهم على فهم العالم كعالك له قانون عقلي، بمذهب ووحدة تكوين. وقد تابعوا هذا المنهاج في ثقة وشجاعة لا يحيدان وأظهروا عبقرية نادرة في الفرض العلمي وفي النهج المنطقي على السواء. ويكتب الأستاذ بورنت «لا يكاد الفيلسوف الأيوني يستوعب بضع نظريات هندسية ويسمع أن مظاهر السموات تعود للحدوث في دورات، حتى يتهيأ للعمل في البحث عن قانون في كل مكان في الطبيعة وفي جسارة تكاد تصل إلى خطيئة hubris ليقيم مذهباً ينتظم الكون». وعلى هذا، تمكنوا من أن يكشفوا في مدى قرنين أو ثلاثة قرون النظرية الحقيقية للكسوف وكروية الأرض وحقيقة جورانها كغيرها من الكواكب السيارة، حول مركز نظامها (٢) . هذه هي الثمرات الأولى التي جنتها روح أتخذت لنفسها كلمتي المرور «الاحتفاظ بالظواهر» و «إقامة الدليل». وثالثا، تتجلى عبقرية الفلاسفة الإغريق العلمية في تصورهم الواضح للمشاكل التي عنوا بحلها وبعد أن رفضوا نهائياً السعي الذي لا ثمرة فيه ليروا بداية الكون الأولي في فوضى أول عصر والذي مان قد أنهك في اليونان كما في غيرها مهارة الأجيال السابقة، فأنهم التمسوا الحقيقة التي تكمن وراء ما هو كائن. وكانوا يتساءلون ما هي حقيقة العالم الأساسية كما نعرفه الآن؟ والرغبة في إيجاد وحدة ومبدأ في متنوع أشكال الطبيعة التي لا تستقر على حال، اتخذت شكل بحث عن مادة أولية تبقى ثابتة وسط التغير، عن مادة فعالة توجد الطاقة، وتولد حركتها التي تحددت وفق قانون ضروري ظواهر تجارب الحواس. ولقد كانت هذه المادة الأولية التي يطلقون عليها اسم فيسس Physis (الطبيعة) موضوع بحثهم وعنوان عجالاتهم [3]. وقد أعتقد ثاليس أنها الماء، ووجدها غيره في البخار أو في التار أو في تآلف أو توافق أصول متضادة. واختلفاا أيضاً في تفسيراتهم للنسق الذي ينهض به عالمنا من هذه الحقيقة القصوى. ولكنهم جميعاً على السواء يبدأون من

---

(١)فارمنيدس fr.- Parmenides ٨ وأنبادقليس ١٢ ولوسبوس Leucippus (بورنت: الفلسفة الاغريقية الأولة صفحة ٣٤٠). وقد أشير إلى الأجزاء وفق الترقيم في الترجمات التي وضعها بورنت.

(٢) الفلسفة الإغريقية الأولى، صفحة ٢٣ و ٢٥.

(٣) أن ترجمة فيسس Physis بلفظ (طبيعة) قد يكون مضللا إذ ينقل الانتباه من النهج النسقي إلى الأصل. أن Physis هو لفظ يدل دائماً على (اسم فعل) معناه نهج نسقي كنمو نبات.

وقائع مشاهدة ويتقدمون بالاستدلال المنطقي صوب تصور كون منظم، فيه بفعل قانون الضرورة، يولد «الواحد» «الكثير» وتنقسم تفصيلات «الكثير» في «الواحد»([1]) .

١٥– وبيس في وسعنا أن نفعل أكثر من تبيان منحى هذه الأفكار الأولى لنوضح كيف أنها تقدم تتابعا منظما للتفكير العلمي:

(أ) أدت أول جهود المفكرين الأيونيين التي المعنا إليها في القسم السابق، في بداية القرن الخامس، إلى فلسفة هيرقليطس **Heraclius** الأفسوسي **Ephesus** ([2]). الذي كان مبدؤه الرئيسي أن حياة الطبيعة كانت تتألف من نضال قوي متعارضة والواحدة في توتر مع الأخرى، وتكون في عملها المتبادل وحدة العالم المنسجمة. والنار وهي أعظم العناصر نشاطا تتحول إلى هواء وتغذيها الرطوبة في معايير متعادلة والصيف والشتاء واليقظة والنوم والنهار والليل والحياة والموت كلها تمثل الصراع العام الذي لا ينقطع بين «الطريق الصاعد» والطريق الهابط، «أن الحرب هو أب الكل ملك الكل» «أن الطريق الصاعد والطريق الهابط واحد ونفس الأمر». «أن الناس لا يعلمون كيف أن ما يختلف مع نفسه، يتفق مع نفسه. أنه توفيق لنغم توترات متضادة كالذي يكون لقوس وكنارة». وقد أدرك هيرقليطس أن قانون الطبيعة هو قانون تغير لا ينقطع وأن العالم كما يظهر للحواس هو أبدا في حالة صيرورة وزوال ولا يكون ففي أي مكان «موجوداً» وليس شيء، يمكن أن نقول عنه أي مكان «أنه كائن». زقد قال «أنك لا تستطيع بأن تخطو في نفس النهر مرتين» وأضاف واحد من أتباعه «لا، ولا حتى مرة واحدة». ونتائج هذا الفكر عن السبيل الذي لا ينقطع

([1]) لقد استمدت المعرفة بهولاء المفكرين الأوائل من أجزاء متناثرة من كتاباتهم ومن أشارات جاءت في مصنفات المؤلفين الإغريق المتأخرين. وثاليس وحده هو الذي لم يترك كتابة بعده. وقد ذهب أناكسيماندر، خالفه، إلى أن الفيسس **Physis** هي جوهر مادي لا حد له تحوي وهي ممتزجة كل الأصول المتعارضة (الرطب والجاف والحار والبارد) فصلت عن الجرم الذي لا حد له بنهج غربلة. نسقي وبذلك سبب قيام عوالم لا عد لها، ومن بينها عالمنا. وكان أناكسيماندر أول من أدرك أن الأرض تسير طليقة في الفضاء وليست في حاجة إلى سند مادي. وكان أساس الطب الإغريقي الأول (القمايون **Alcamaeon** أنظر ما يلي صفحة ١٢٤=٥. تذكرة ٢) يقوم على نقائض أناكسيماندر. وتصوروا الصحة على أنها **Isonomy** أو متعادلة مع الحار والبارد والرطب والجاف_ وكان المرض طغيان أحد الأضداد على الآخر. أما أناكسيمانس وهو ثالث الفلاسفة المليزيين من حيث الزمن فكان يذهب إلى أن فيسس **Physis** هي البخار الذي ينهض منه عالمنا بالتكثيف والتنقية. وعم معلومات مفصلة عن هؤلاء وغيرهم من المفكرين الأوائل، انظر بورنت الفلسفة الأغريقية الأولى، و «من ثاليس إلى أفلاطون».

([2]) عاش هيرقليطس بين عامي ٥٠٠ و٧٨٠ وقد تأثر أيضا بالعلم الفيثاغوري الأول، والاقتباسات التي تلي مأخوذة من الشذرات ٤٤ و٦٩ و ٤٥و ٤١ (وازن ٨١).

في عالم الحس ظاهره، كما سنرى فيما بعد، في فلسفة أفلاطون.

(ب) وفي نفس الوقت الذي حدث فيه هذا التقدم بين الأيونيين الإغريق، كان الحافز للبحث العلمي بثور في الغرب. (أ) في القرن السادس كان فيثاغورس وأتباعه في جنوب إيطاليا قد أسسوا دراسة الرياضيات في ميدان الهندسة البحتة وكذلك في تطبيق الرياضيات على فروع العلم الأخرى وخاصة على نظرية الأصوات الموسيقية وعلى الفلسفة على وجه عام [1] ومبدؤهم «أن الأشياء هي أعداد» لم تكن تمثيلاً خيالياً ولكن النتيجة الاستدلالية التي وصل إليها مفكرون وجدوا أنفسهم في تحليلهم للتجارب يواجهون في كل منعطف قوانين تسمح بوضع صيغ رياضية. ولقد كانوا يتحسسون طريقهم نحو مذهب يشبه مذهب ديكارت **Descartes** الذي قرر حقيقة الكون المادي، المستقلة في حدود خواصه الهندسية كامتداد له شكله الهندسي. وهذا، على التحقيق كان الموقف الذي اتخذه أفلاطون في طيمايوس **Timaeus** تحت تأثير سلفه الفيثاغوريين [2]. (ب) ومدرسة فكر أخرى، الاليائية، التي أسسها فارمنيدس **Parmenides** الإليائي كان

(1) عاش فيثاغورس حوالي سنة ٥٣٠ وكان موطنه ساموس الأيونية واستقر في إيطاليا. وقليل هو الذي يعرف عن حياته أو تعليمه الشخصي مستقلا عن تعليم مدرسته. وقد جمع الفيثاغوريون بين البحث العلمي ومبدأ للحياة ديني، وقاموا بدور فعال في سياسة جنوب إيطاليا. ومنذ هذا الحين لا تكون الفلسفة الإغريقية أبدا ذات نزعة عقلية وحسب. أنها توجه التجربة **Praxis** النظرية **theoria** على السواء، واستمرت المدرسة في عملها حتى ردح عظيم من الزمن في القرن الرابع. وعلى النقيض من الفلاسفة الإغريق الشرقيين كانت أبحاثهم يغلب أن تكون رياضية. ارجع سر.ت. هيث **Sir. T. Heath** «تاريخ الرياضيات الإغريقية» خاصة الصفحات ٢ و ١٦٦ وما بعدها حيث جاء تلخيص لأعمال الفيثاغوريين الرياضية (وتشمل اقليد الكتب ١و ٢و ٤و ٦ وربما ٣).

(2) كان الفيثاغوريون يفسرون الأعداد في حدود الهندسة وكانت الوحدة نقطة لها موضع في مجال فراغي ومن هنا وجد التعبير أشكال (رياضية). راجع بورنت «الفلسفة الإغريقية الأولى» الصفحات ٩٩ وما بعدها و «ثاليس إلى إفلاطون» الصفحات ٥١ وما بعدها. ويبين بورنت كيف أثر الكشف بأن أنغام الكنارة تعتمد على نسب رياضية، على التفكير الرياضي. وقد حفز العلم الفيثاغوري أيضاً على دراسة الطب والفصاحة في جنوبي إيطاليا وصقلية. وعلى هذا فإن أهميته كانت عظيمة جدا. والرأي أن العالم المادي يتكون من عناصر فراغية (أو فراغية زمنية) وأن طبيعته يمكن تفسيرها في حدود معادلات رياضية، له مكانته البارزة في علم الطبيعة والفلسفة المعاصرين. ويفسر أحدث مذهب ميتافيزيقي (علم ما وراء الطبيعة) في هذا القطر (انجلترة) مذهب الأستاذ س. الكسندر **S. Alexander** (الفراغ والزمن والاله– محاضرات جفورد **Gifford** في جلاسجو ١٩١٦– ١٩١٨) الكون بأنه تولد من عناصر زمنية– فراغية خالصة أي لحظات– نقطة. أن دراسات الفيثاغوريين العلمية أو صلتهم، في فجر التقدم العلمي ذاته، إلى تصورات أنتجت ثماراً خارقة العادة.

موطنها أيضاً جنوب إيطاليا [١]. وقد كشف فارمنيدس في منطق قويم عن النتائج التي تستتبع الفروض التي كان المفكرون السابقون قد قبلوها دون نقاش, وقد كان المل يسلمون فرضا ليس فقط أن الطبيعة **physis** أو الحقيقة كانت واحدة ولكنها كانت أيضاً مادية. وعلاوة على هذا، فإن الجميع كانوا يتصورو أن هذا الجسم الواحد مستحوذ على حركة ملازمة وبذلك استمد منها ظواهر التجربة وفيرة العدد. ولقد أوضح فارمنيدس أنه إذا كان الواقع واحدا وماديا فإن الكثرة والحركة على السواء خدعة.

وقد قبل هذا الدحض لواقعية عالم الحواس المتغير ولكنه منطقه أقام في الحقيقة البرهان على قياس الخلف **reduction ad absurdum** [٢] على الفروض المقبولة. ومن الآن ضحى جميع المفكرين بوحدة الطبيعة واحتفظوا بإيمانهم بالعقيدة الفارمنيدية الأخرى، بأن الواقع كان من طبيعة الجسم [٣].

(٣) ونتيجة لفلسفة فارمنيدس، قام في منتصف القرن الخامس عدد من مذاهب الكثرة. أن انبادقليس **Empedocles** من أغريغنطوم **Agrigentum** في صقلية وأناكساغوراس **Anaxagoras** من اقلزومنا **Clazmenae** في أسيا (أول فيلسوف يتخذ أثينا موطنا له)، ولوسبوس **Leucippus** من مليطوس (معلم دموقريطس ومؤسس مدرسة الذرة)، كلهم يتفقون مع الفيثاغوريين في اتخاذ موقفين، الرأي التقليدي بأن الواقع مادي، والرأي الجديد الذي ساقهم إليه فارمنيدس بأنه ليس واحدا ولكن كثرة [٤]، ثم التمس أنبادقليس وأناكساغوراس بعد ذلك

---

(١) عاش فارمنيدس بين عامي ٤٨٠– ٤٥٠ وحوالي التاريخ الأخير زاد أثينا، راجع أفلاطون **Parm** ١٢٧. وقد ورد في النص، رأي بورنت عن مكانته في الفلسفة الإغريقية.

(٢) قياس الخلف **reduction ad absurdum**_ قياس أساسه البرهنة على صحة المطلوب بأبطال نقيضه أو فساد المطلوب بإثبات نقيضه.

(٣) أن نقائض زينون **Zeno** ذائعة الصيت مثل نقيضة أخلوس والسلحفاة، قدمت دعما لأنكار أستاذه فارمنيدس للحركة. وبالطبع كانت توجد طريقة أخرى للخروج من المأزق بالتمسك بالقول أن الواقع واحد ولكن الوحدة كانت روحية وليست مادية. وقد ظهر هذا الرأي أول ما ظهر عند سقراط وأفلاطون راجف فصل ٥– ١٧ و ٢٠.

(٤) عاش أنبادقليس حوالي عام ٤٦٠ وعاش أناكساغوراس ولوسبوس حوالي ٤٥٠، أما دموقراطيس فإنه ينتمي إلى الجيل التالي وتأثر بالسفسطائيين ويمكن الرجوع إلى الفصل ٥، ١٣– ١٥ عنهم. قد كان منتصف القرن الخامس زمن نشاط عظيم خالق في الغكر الإغريقي ويجب أن يلاحظ أنه أصبح للعلوم التي تتصل بعلم الحياة أهمية متزايدة في غضون القرن الخامس. ولقد أينعت أيضاً مدارس الطب وهي ترتبط، في البداية، ارتباطاً وثيقاً بالفلسفة كمدرسة القمايون القروطوني **Alcmaeon of Croton**، في جنوب إيطاليا، الذي خصص عمله للجماعة الفيثاغورية. ولكن بعد

سبب الحركة، ووجدها الأخير في النوس Nous أو الذهن [١]. ولو أنه فسر فعله آليا، كفعل عامل طبيعي خارجي [٢]. وقد لخص منهاج التقدم التفكيري بأجمعه، الذريون الذين كانوا أول من أكد واقعية الفضاء الفراغ وأرجعوا الكون إلى مجموعات من الذرات التي لا عد لها، متجانسة ولكن تختلف فقط في الجرم والشكل والموضع. تسرع في الفضاء اللانهائي في حركة لا تنقطع [٣]. وباذاعة هذا المذهب فإن الجهد لتصور العالم في حدود عناصره المادية أنجز سبيله إلى التمام.

١٦– وكان من الطبيعي تماما أن المشكلات التي تتعلق بطبيعة الواقع عما إذا كان واحدا أو كثرة، يجب أن يجيب عنها هؤلاء الفلاسفة الأوائل في حدود الطبيعة. وكانوا يعنون بلفظ physis أما جسما واحدا وأما كثرة من الجسوم، وفي الحالة الأخيرة تكون الجسوم أما محدودة وأما غير محدودة العدد وتختلف في نوعها أو تتجانس. وكان لا بد أن يجيء وقت تنهض فيه فكرة واقع روحي، في عقل المفكرين الإغريق، ولكن لم تكن الساعة قد حانت بعد لهذا وتظهر كل مرحلة للفلسفة الإغريقية متعاقبة في نظام التقدم المنطقي إطاعة لقانون لم تفرضه ظروف خارجية ولكن طبيعة العقل الإنساني الملازمة، ويجب ألا نظن أن هؤلاء الباحثين الطبيعيين كانوا يتجاهلون وقائع حياة الإنسان العقلية والخلقية. والتمييز، وهو جد مألوف ومه هذا فإنه جد محير للفكر المعاصر، بين المادي والروحي لم يكن حتى ذلك الحين قد تحددت معالمه, فعلى سبيل المثال، ذهب أناكسيمانس المليطي إلى أن الروح هو بخار [٤]. وتسمية هذا مادية بالمعنى الحديث يكون أقل صدقا من القول أن بخاره كان شيئاً ليس مجرد مادة. ومرة أخرى، تحدث هيرقليطس

ذلك استقلت عنها كما في حالة مدرسة أبقراط في القرن الخامس، في جزيرة قوس. ولقد كان القمايون المؤسس الحقيقي لعلم النفس «راجع عن هذا وعلى وجه عام عن علم النفس الإغريقي الباكر، والنظريات الإغريقية عن المعرفة الأولية (بير Beare) وتايخ علم النفس (برت Brett) وعلى الأخص الصفحات ٢٤، ٢٥ وفصل ٥» ويستبين من النحت الإغريقي اللاحق (مدرسة فرغامس Pergamos) شيء من المعرفة بعلم التشريح راجع بورنت، الفلسفة الإغريقية الأولى، الصفحات ٢٦ و ١٩٣ وما بعدها.

(١) مذهب الكثرة– يقابل الواحدية ويعتمد في تفسير الكون على مباديء متعددة كعناصر (أنبادقليس) ومونادات (ليبنتز).

(٢)عن عدم رضاء سقراط عن تصور الذهن كقوة آلية (ميكانيكة) واستبعاد العمل الذي اوفر فيه الغرض، راجع البيان العام عن تاريخه العقلي الباكر في أفلاطون فايدو Phaedo الصفحات ٩٦ وما بعدها.

(٣) كتب دموقريطس من أبدرا في طراقية، خليفة لوسبوس والأبعد منه صيتا، في الثلث الأخير من القرن الخامس عندما كانت آراء السفسطائيين الجدد تثير مسائل عن نظرية المعرفة وقواعد السلوك قد ملأت الآفاق. أن مذهب الذرة لأبيقور (راجع فصل ٦– ١٨) مؤسس على مذهب دموقريطس.

(٤) كان «هواء» أناكسيمانس يشتمل على «نسمة» الحياة والريح والبخار.

عن نار توقع الجرم بكل شيء وعن الشمس تراعي حدود العدالة [1]. بينما الحب والكفاح وهما القوتان المحركتان عند أنبادقليس كانا يصوران كتلتين ماديتين ونوس **Nous** «عقل» عند أناكساغوراس على أنه يملأ الفراغ ولكن إلا بعد انقضاء شطر عظيم من القرن الخامس أن تفكير الناس ومسلكهم استرعى نفس الانتباه الذي كان يوجه إلى مشكلات الطبيعة المادية. ثم جاء في البداية السؤال: بما أن الموازين الخلقية والمعتقدات الدينية وقوانين ومنظمات دولة– المدينة تقدم، كالطبيعة المادية، مشهداً من عدم الاستقرار والتغيير، فهل هي، نتيجة لهذا، ذات قيمة محلية وعابرة فقط و «أوضاع» أقامتها بصفة مصطنعة، قوانين وضعها الإنسان؟ أو هل يوجد ثم فيسس **Physis** أو خلق أدبي طبيعي. ثمقانون لا يتغير، من وضع الله أو الإنسان تكون الأوضاع المتغيرة هي شكلها العابر. كان لا معدى عن مثل هذه الأسئلة في زمن سادة القلق السياسي عندما كان قد قوم أذهان الناس أكثر من قرن من البحث العقلي. ولقد سألهم إغريق الأعوام الوسطى من القرن الخامس وبمجرد أن تلقوا السؤال فإنهم أنجبوا، كما سنرى في فصل تال، ليس فقط الفلسفة السياسية والخلقية ولكن تصوروا فسيح المجال، جديدا عن طبيعة الواقع ومكان الإنسان ومصيره في الكون.

١٧– ويبقى علينا أن نشير إلى الرابطة المزدوجة للعداوة والامتزاج بين الفلسفة حديثة المولد والدين القديم [2] . فمن جهة كان من شأن توسع مجال الاختبار بين الناس ونمو المزاج

---

(1) شذرة ٢٧ وازن ٢٩. «أن الشمس لا تتخطى حدودها، فإذا فعلت فإن الأرينوس **Erinyes** ، خدمة العدالة سيكشفن أمرها. وعلى هذا، فإن الأشياء عند أناكسيماندر تقوم بالتعويض والترضية، الواحد نحو الآخر، لجورها في مرحلة من الزمن، (بورنت– الفلسفة الإغريقية الباكرة ص ٥٢».

(2) وفقا لغرضنا من تركيز الانتباه على تلك العوامل التي كان لها أعظم تأثير مباشر على الأزمنة اللاحقة، فقد أهملنا موضوع الدين الإغريقي الشيق إلا فيما كان له من أثر على تاريخ الفلسفة الإغريقيية. ولقد ألقت البحوث الحديثة الكثير من الضوء على هذا الموضوع وهو ذو أهمية ليس فقط لفهم الشعر الإغريقي والقانون والحياة اليومية ولكن أيضا بالطبع، لدراسة الكتاب هي التفرقة بين الآلهة الألومبية الذين يمثلهم أبولو وآلهة الأسرار الذين يمثلهم ديونوسيوس، وكان الأولون كائنات فوق مستوى البشر أضفيت عليهم الصفات المثالية ومتعالين تعاليا بعيدا وكان يعسر تصور أي شيء له خصيصة الاتصال الروحي الشخصي معهم. أما الآخرون فكان يمكن، لمن تلقن أسرارهم، الاتصال بهم اتصالا مباشرا، في حالة الجذب العاطفي وعن طريق طعام وشراب الفروض المقدسة. ولقد قدمت ديانات– الأسرار مواردا للفلاسفة (راجع ما يلي$ ١٧ وفصل ٥ $ ٢١). أما دين الألومبيين فقد أثار العداء وحسب وأجع محاضرات جفورد لوب _C.C.J. Webb) عن «الشخصية البشرية والآلهية» ١، ٧٧ وما بعدها ويجب قراءة «مولد المأساة» لنيتشه

النقدي ويقظة النطامح الخلقية العليا بعث مذهب التشكك (الارتياب) ولكن هذا التأثير كان ينحصر في الأقلية الذين كانوا يفكرون في جد في مثل هذه المسائل أو على الأغلب في الجمهور المثقف. وكان يمكن لاناكساغوراس أن يعلن أن الشمس ليست الها ولكنها حجر يبلغ حجمه جحم بلوبونيس، وكان الأثيني في القرن الخامس يحس بارتياح لإخلاصه وحكم على الفيلسوف بالزندقة (عدم التقى) وكان مرجع هذه العداوة ليس إلى مج للتفكير ولكن لولاء متأصل لعبادات المدينة، التقليدية.

وكان هذا، السبب الأصلي لعدم الثقة في العلم والفلسفة التي عبر عنها تعبيراً رائعا في تهكم مسلاة (كوميديا) أتيكا القديمة. وكانت احدى الاتهامات التي وجهها إلى سقراط متهموه تهمة ادخال آلهة جدد وتعليم الناس أن يكفروا بالآلهة اذين كانت تعبدهم المدينة. وكان أمرا ذا مغزى عظيم في الحياة الإغريقية أن المعارضة ضد الفلسفة، كان لا يتزعمها الكهنة، ولكن الشعراء والسياسيون. وكان الفلاسفة من جانبهم يشددون التكير دون هوادة، على المعتقدات التقليدية. وخاصة في أيونيا موطن العلم والتاريخ حيث كون الأمراء التجار جمهورا مثقفا، كان ذيوع روح التشكك سريعا وعاما. وكتب اكسنوفانس **Xenophanes** القلوفوني **Colophon**) «لقد نشب هومر وهزيود إلى الآلهة كل الأمور التي تكون عارا وخزيا بين الناس، السرقات والفسق وخداع الواحد للآخر» ولقد قال هيرقليطس «يجب أن يطرد من القوائم ويجلد بالسياط هومر وكذلك أرخيلوخس **Archilochus**. ولقد أشار أفلاطون في الجمهورية إلى أن النزاع بين الشعراء والفلسفة ظل دهرا طويلا، وكان لا يعني نزاعا بين الفن والمعرفة، لأن هذين ليس لهما مجال للصراع ولكن بين الدعاوي المتنافسة، للتقليد الديني والعقل العلمي، في تعليم الحق»[1].

١٨- وفي موضوع علاقة العلم الجديد بعقائد دولة- المدينة المتأصلة كانت توجد من البداية نتيجة واضحة. وكانت الحال محتلفة وأقل بساطة فيما يتعلق بموجة أحياء الدين الشعبي البدائي التي اجتاحت اليونان في القرن السادس. ووراء عبادة الآلهة الألومبية التي رعاها الشعراء الهومريون. وأرستقراطية العصور المظلمة، ربما كان ما يزال راسخا في أذهان جمهرة الشعب قدر

Nietzsche_ راجع أيضا «خمس مراحل للدين الإغريقي» لجلبرت مرى ومؤلفات أخؤى ذكرت في قائمة الكتب الملحقة بالمجلد الثاني من هذا الكتاب.

(١) أفلاطون «الجمهورية» :١٠، ٦٠٧ واكسنوفاس، شذرة: ١١ وهيرق، شذرة: ١١٩ وازن شذرة: ١٦ و ٣٥و ٤٣.

من المعتقدات القديمة، ربما تكون ما تبقى من الدين المينوي السابق لقيام الهلينية [1]. وهذه المعتقدات البدائية التي تظهر آثار منها في القصائد الهزيودية وحتى في القصائد الهومرية كانت ترتبط بعبادة الموتى وبآلهة العالم السفلي وخاصة بتجسد الآله غير الهومري ديونوسيسوس. وأورفيوس كانا كلاهما يرتبطان ارتباطا وثيقا بطراقيا. ولقد لقيا اعترافا رسميا في الفرائض التألهية لاليوسيس **Eleusis** في أطيقا التي كانت تتكون من ضروب التمثيل الفاجعي للحوادث المقدسة والاحتفالات الأساسية لتطهير روح المعابد من الذنوب. والتطهير كان جوهر النهضة التي حدثت في القرن السادس. ويظهر الأنبياء ومطهرو المدن مثل افيمانيدس **Epimenides** الكريتي– الذي استدعى لتطهير أثينا_ في العالم الهليني، وكذلك تظهر جمعيات الأخوان المنظمة التي تماثل الكنائس ومنعزلة عن وشائج القرابة ودولة_ المدينة، وهي التي أقامت أساس العبادات المقررة. وكانت لديهم كتابات شعرية مقدسة منسوبة إلى أورفيوس البطل الأسطوري وتحوي مباديء معينة لعلم اللاهوت، وخاصة فيما يتصل بمصير الروح في عالم ما بعد القبر، وكانت جمعيات الأخوان الأرفية تذيع التعليم عن وجود للروح سابق وعن خلودها الملازم بسبب قرابتها للآلهة وتجسيدها المتعاقب في أشكال الناس والحيوان البدنية وتطهيرها من الذنوب باتخاذ الجذب مع الأله [2]، وكانت تقدم للناشئين الرجاء في نعيم أبدي وفي هذه الحياة تعاني الروح الحبس، والجسم هو

---

(١) ربما كان الغزاة الشماليون (الإيجية، الأقدم منها. ويمكن تفسير الارتباط الوثيق بين طغاة القرن السادس والانتعاش الديني ونشأة الفاجعة (الدراما) الباكرة (التي اتصل قيامها بعبادة ديونوسيوس)، إذا اعتبرنا أن سلطانهم كان سلطان الرأسماليين الأثريا الذي يعتمد على التعضيد الشعبي ضد الأستقراطية الاقطاعية وكان هؤلاء، بطبيعة الحال، يرتبطون بالعبادات الدينية الألومبية، التقليدية.

(٢) يعتمد الاعتقاد في الخلود على الاعقتاد بقرابة الإنسان بالله، ولا يمكن الوصول إلى الخلود إلا بأن يصير المرء الها. وفي التعليم الأورفي تتصور الروح بأنها اله هوى ويمكن اطلاق سراحها من سجن الجسد بالتطير والفرائض المقدسة (الجذب_**Ecstasy**_ وباليونانية **ecstasis** معناه «الخروج» عن الجسد) وتستعيد ألوهيتها (راجع بورنت، الفلسفة الإغريقية الأولى فصل ٣ الصفحات ٨٠– ٤). أما في الدين الهومري (الألومبي)، فإن الآلهة والناس طبقتان من الكائنات مختلفتان، ولا يمكن أن يصبح أي إنسان الها وعلى ذلك، فلا يوجد خلود لبنى الإنسان. وفقط قلة من المحظوظين، كان يحملهم الآلهة إلى الومبس أثناء حياتهم ولم يكن يحمل أحد بعد الموت. ويعتقد هزيود أن الأبطال يمكنهم الذهاب عند الموت إلى الوسيوم **Elysium** بدلا من الجحيم **Hades**. وكان الأمر جد مغاير في الدين البدائي وفي نهضته في القرن السادس. ويجب أن يلاحظ أن اعتقاد الأغريق في الخلود استخدم موادا استمدت من الدين البدائي بينما نهض اعتقاد العبريين فيه في استقلال تام عنه. راجع عالية فصل ٣ $ ١٥ صفحة ٩٧ تذكرة. وعلى هذا فإن تصور الأغريق، على غير شاكلة تصور العبريين كان يدل على وجود سابق أي الخلود **es parte ante** كما **es parte post** راجع عن الموضوع كله «المذهب الأورفي **Orphism**» لجوثري **Guthrie**.

قبرها، وعن طريق سلسلة من الحلول في الأجساد تنجز دورة مصيرها. وعمليا، كان يبشر بهذه المبادىء وتقبل في شكل مادي غليظ، فكان التطهير يعني مراعاة محرمات غريبة واحتفالات سطحية، والحياة الأخرى فردوس للاستمتاع الحسي_ وفي عبارة التحقير لأفلاطون_ «نشوة سكر أبدية»[١] . ومع هذا فقد كانت الآراء التي تتأصل في التعليم الأورفي خليقة بتفسير أعلى. لقد استخدمها شعراء مثل فندار وأسخولس في الجهد الذي بذلوه للتوفيق بين السلطة الدينية ومطالب الوعي الخلقي في زمنهم، الأكثر سموا [٢] . و«فايدو» لأفلاطون هو أثر تذكاري لا يفنى للاستجابة التي كان يمكنهم إثارتهم من الفلسفة. وفي هذا، وفي غيره من كتاباته، فإن نفس المفكر الذي صب جام غضبه على صانعي الغفران وأشباع صنوف الأسرار الخرافية، حول المبادىء الأورفية عن حبس الروح في الجسد وعن سابق وجودها وعن خلودها وعن دينونتها في عالم آخر إلى أداة لأسمى تعليم ديني ومتافيزيقي [٣] . وهنا كان أفلاطون يقتفي الخطوات الفيثاغورية [٤]. وكانت أبحاث هذه المدرسة العلمية ترتبط ارتباطا وثيقا بعقائدهم الدينية ومذهب الزهد الذي اتخذوه قاعدة الحياة, وكان فيثاغورس نفسه قد وضع المثل لهذا الامتزاج وهو يعلم أن العلم كان التطهير الحق للروح وأن الخلاص يمكن إدراكه بالتنشئة في خفاياه. ومنذ ذلك الوقت كانت الفلسفة تعني للمفكر الإغريقي «مذهبا للحياة»[٥]. والفيلسوف في نظر الفيثاغوريين وفي نظر أفلاطون، كان قديس المذهب العقلي وفي اجتماع الحديث الفلسفي **Symposium** فإن العقيدة الأورفية في اتحاد المتعبد مع الهة عن طريق الجذب تصاغ في حدس عقلي للجمال المطلق وهو منتهي الطواف الشاق تصعيداً في سلسلة جبال الاستدلال العلمي [٦]. وسنرى ثمرات أخرى لهذا التصور عندما يحين الوقت للتحدث عن الأفلاطونية الحديثة في

---

(١) راجع النص بأجمعه عن تنبيذ الأسرار والتعليم الأورفي (الجمهورية/ ٢، ٣٦٣ وما بعدها).

(٢) راجع فندار «الومب»: ٢، ٦٢ وما بعدها و«شذرات»: ١٢٩– ٣٣ وأسخولس، أما: ٢٦٩ وما بعدها «الدينونة بعد الموت» وبقخا **Bacchac** لأريفيدس_ إحدى اخريات رواياته (شيقة على الأخص لأجل المسائل التي تثيرها).

(٣) وخاصة في الأساطير التي تتصل بالأمور الأخروية في **Phaedrus, Republic, Phaedo, Gorgias** راجع «أساطير أفلاطون» لاستوارت و «الفكر الديني في اليونان» لآدم.

(٤) أهديت **Phaedo** إلى الرابطة الفيثاغورية في اليونان الأوربية، لقد عقد سقراط الصلات الوثيقة بعدد من الفيثاغوريين الذين التجأوا إلى اليونان بعد نفيهم من إيطاليا في غضون النصف الأخير من القرن الخامس.

(٥) وازن أفلاطون، الجمهورية: ١٠، ٦٠٠.

(٦) أفلاطون: ندوة الفلاسفة. **Sym**: ٢١٠.

القرون الأولى من العهد المسيحي. ومن نفس المصدر الفيثاغوري فاض التمييز، الذي استمد عن طريق التشبيه من الألعاب الهلينية، لثلاثة ضروب من الحياة الإنسانية، فالبعض كأولئك الذين يغشون تلك الاحتفالات لبيع سلعهم اختاروا سبيل الرضى المادي سبيل الكسب وأسباب المتعة وآخرون كاللاعبين المتنافسين يطمحون لنيل التكريم في ميدان العمل، في السياسة أو الحرب بينما يوجد أولئك الذين يؤثرون، على مثال المتفرجين في الألعاب، حياة المتفرج يتأملون بعقل لا تعيقه ميول بيت سجنه الجسدي، مرأي الحق الكامل، وتصور التأمل العقلي (**thecrio**) هذا، كأرفع نشاط إنساني قريب لما هو إلهي، ذاك الذي ادركه أولا الفيثاغوريون ونماه أفلاطون وأرسطو يأتي بنا إلى صميم العبقرية الهلينية عينه.

٦- الخاتمة

١٩– أن نسق التوسع الذي دون في هذا الفصل يوضح صفة الهلينية العقلية. يوجد منطق ملازم في كل ما خلقه الإغريق. ونظرة إلى فنهم المعماري والمامه التام بالصوغ والوظيفة والتوازن الرياضي تكفي لأن توضح كيف بعثت الروح العلمية الحياة في الفن التخيلي. والاعتقاد أن «الله يهندس دائما» كان يتحكم في نظرتهم للطبيعة. وفي إنتاجهم الجمالي. والفن لدى الإغريق يعتبر أبدا أحد أشكال الحكمة (**Sophia**) وليس فقط المفكر الإغريقي، ولكن الفنان الإغريقي أيضاً كانا يملكان الإحساس بالحق الذي أدى بهما إلى أن يفرقا في وضوح بين المثالي والواقعي وأن يعطيا كلا منهما حقه. وقد كانا يشعران أيضاً بالهام تلك القوة التي خصص لها حياته شاعر من بين الشعراء المعاصرين، ولج تماما روح اليونان القديمة_ رؤيا الجمال العقلي [١]. أن الصرامة والصدق هما طابع الفن الإغريقي، فمثلا عندما يقول هومر «هيلن» فإنه يعني «هيلن» وعندما يقول فرجل «ديدو» فإنه يعني «كليوباترة» أو «قرطاجنة» ويمكن تبين منطق مماثل في منهاج تقدمهما. لقد رأينا آنفا كيف أن سجلات التاريخ السياسي وأدب الشعر والفكر العلمي تكشف عن تتابع أشكال منتظم [٢] . وما لحظه الفلاسفة الأيونيون في الطبيعة يصدق أيضا على عقل اليونان. ففي كل مكان يوجد تنوع وتغير، ولا شيء في استقرار. ولكن التغيرات ولو أنها لا تنقطع وتستغرق كل شيء، فإنها كانت تسير على هدى قانوني عقلي. وطارز يتبع طرازا ومدرسة

---

(١) راجع شلي **Shelley** «أنشودة للجمال العقلي».

(٢) راجع على الأخص دراسة شكول الحكومة السياسية التي تحوي عيوبا، في جمهورية أفلاطون الكتابين الثامن والتاسع حث يعرض النظام المنطقي الذي يعالجها فيه أفلاطون، أشباها كثيرة لمنهاج تطور التاريخ الإغريقي الواقعي.

تقتفي أثر مدرسة في تعاقب منطقي إلى أن ينتهي مدى كل الشكول الممكنة وتكمل دورة التقدم. وكانت خدمة اليونان الأساسية للمدنية أن تخلق في العمل وتحدد في الفكر الخصائص الجوهرية في تجارب الإنسان. أن الصيغ التي نستخدمها اليوم للتعبير عن الفروق والتجميعات التي تكون أساس فهمنا للعالم في السياسة– الملكية **monarchy** والأرستقراطية**aristocracy** والديموقراطية **democracy** وفي الأدب– الملحمة **Epic** والقصيدة الغنائية **Iyric** والفاجعة **drama** والمأساة **tragedy** والمسلاة **comedy** وفي المعرفة_ أسماء الفنون والعلوم والشعر **poetry** والطبيعة **physics** والفلك **astronomy** والرياضة**mathematics** والتاريخ **History** والفلسفة **philosophy** نفسها، كلها صيغ اخترعها الأغريق. والشكول التي ميزوها وسموها هكذا هي تاني أنشأوها في سير تاريخ حياتهم. ولا توجد سلالة أدركت في مثل هذه البصيرة الصافية وحددت في مثل هذه الدقة، حقائق الحياة والمعرفة [1]. وبسبب هذه الموهبة العجيبة في الحكم العقلي، التي عاونتهم في الفكر والعمل على إدراك الموضوعات التي وضعت لها هذه الصيغ، أن جميع الأجيال المتعاقبة رضيت وفي الواقع أجبرت، على أن تقيم البناء على الأسس التي أرسوها.

(١) أن سجلات العيادات الطبية للأبقراطيين، على سبيل المثال، هي بيانات دقيقة عن الوقائع لا تثقلها أية زيادة في اللغة فوق ما تدعو إليه الحاجة. وحتى الخطباء الإغريق كان ديدنهم الاقتصاد العجيب في خطبهم.

الفصل الخامس

عظمة أثينا

١- دولة أثينا

١– كان في أثينا في القرن الخامس أن المدنية الإغريقية وصلت ذراها. وكانت أثينا في ذلك الوقت أهم مدينة تجارية وسياسية في العالم الهليني الذي كان تفيض إليه كل تيارات الأدب والفن والمعرفة وفي عبارة بركليس رجل السياسة فيها، الشهيرة، أصبحت «مدرسة هلاس». ولا يوجد في التاريخ ما يعادل الثروة وتنوع العبقرية الخالقة اللذين أنتجتهما أثينا في هذا القرن أو ضمتهما إليها من جميع أرجاء اليونان. وفي مدينة وحدة لم يكن تعداد سكانها الأحرار، أكثر من تعداد سكان بلدة انجليزية متوسطة الحجم، كان يقطن خلال أجيال من مدى الحياة الإنسانية، رجال سياسة مثل ثمسطوقلس وبركليس والثلاثة من شعراء المأساة اسخولس وسفوكلس ويوربيس، وشاعرا المسلاة (كوميديا) أرسطوفانس **Aristophanes** وفيدياس **Phidias** ومدرسة النحاتين الرائعة التي كانت له، والمؤرخان هيرودوتس وثقوديدس والفيلسوقف أناكساغوراس وسقراط أعظم معلمي البشر أجمعين، وتلميذ سقراط الخالد، أفلاطون. وكان يوجد غيرهم كثير، لا عد لهم_ رجال سياسة وشعراء ومفكرون، من بينهم عدد وفير ليسوا أكثر من مجرد أسماء للأزمنة التي ترادفت وهم مع ذلك، في عهد أقل التماعا كان يمكن أن يكونوا من بين مشاهير رجال التاريخ. ويخال أن فردية المدنية الأغريقية بذلت الجهد في فترة نضجها الوجيزة لتتجاوز حدود أجل عمل ممكن.

٢– ولو أن أثينا تطورت إلى مدينة تجارية عظيمة، فإن أساس حياتها المدنية كان زراعيا. ولقد أنضم، قبيل القرن السابع، سكان أتيكا في اتحاد (كومونولث) واحد، وأخلت الملكية مكانها لحكم أرستقراطية من ملاك الأراضي وأصبحت فروق طبقات الأشراف والزراع وأصحاب الحرف، وقد تحددت نهائيا وغدت مساويء الدين والعبودية الشخصية واضحة وضوحا بينا. وصار الأصاغر من ملاك الأرض مدينين للكبار لدرجة ميئوس منها وسمح لهم بأن يرتهنوا حريتهم الشخصية لدائنيهم. ولقد رأى ختام ذلك القرن نشر مدونة قوانين وهو حادث له أهمية في تاريخ

كل الجماعات الأولى وعلى الأخص في حالة أثينا حيث كان «القانون المتماثل» isonomia فخر مواطنيها ووصل علم الاختصاص القضائي إلى متسوى من الكمال لا يضارع في العالم الهبيني ([1]). وبفضل قربها منى البحر وفرضتها فرايوس Piraeus تمكنت أثينا من الحصول على قسطها الكامل في توسع التجارة. وهنا، كما في أماكن أخرى، كان فيض الثروة وقيام حكم الأغنياء من التجار مما زاد القلق السائد شدة. وكان مصدر المتاعب يرجع إلى أن الامتيازات السياسية أَبحت تنحصر في ملاك الأرض. وسمح صولون باديء ذي بدء، للذين يملكون رأس مال تجاري بأن يشتروا الأرض من الملاك الذين يعوزهم المال، وعلى ذلك يكونون أهلا بصفة فعالة لحقوق المواطنين وللوظائف العامة. وفي بواكير القرن السادس وقد استدعى صولون لتولي زمام الحكم حتى يحل الأزمة الاقتصادية واتاه النجاح_ بأصلاح القانون الجنائي وخاصة بانشاء المحاكم الشعبية التي كان الحكام مسئولين أمامها_ في وضع أسس الديموقراطية. وفي المجتمع القديم، كانت محكمة القانون وليست الجمعية، موطن الحرية السياسية حيث ظفر الشعب بالرقابة على السلطة التنفيذية. وأعقب هذا في تتابع سريع تغييرات دستورية طوال القرن السادس. وكان حكم بسسطراطس الاستبدادي، الذي ربما كان يستند إلى تعضيد عماله في مناجم أتيكت الجنوبية، يتميز، بصفة ملحوظة، باحترامه للقانون واجراءاته الدستورية وتشجيعه للزراعة والتجارة وانعاش الفن والثقافة. وقد شجع أيضاً سغار المستردين للأرض البور في أتيكا. وقد مدت أثينا في ذلك الحين علاقاتها التجارية والسياسية على كلى شاطيء بحر إيجا ([2]). وكان حكم بسسطراطس الأستبدادي قصير الأمد، لأن التعطش إلى المساواة السياسية وقد أثير لفيف المواطنين الأثينيين، أصبح من الشدة بحيث لا تشفى غلته ولا يقبل هوادة. وقد نفيت أسرة

---

(١) عن isonomia راجع هيرد: ٣، ٨٠ وما بعدها وازن ٥، ٧٨ وفيه التعبير المستعمل iségorié «المساواة في الحديث».

(٢) راجع الأستاذ ف.ن. يور Prof. P.N. Ure «النهضة الإغريقية» فصل ٧– عن علاقة الطغيان على وجه عام وطغيان بسسطراطس على وجه خاص، بالرأسمالية واستخدام العمال.

وقد عالج البحث في استيفاء أعظم في مؤلفه الذي جاء بعد ذلك «أصل الطغيان» وقد كان حكم بسسطراطس من الأهمية بحيث يعتبر فاتحة عصر جديد لأثينا في الفن والأدب والدين. ولقد أصبحت أثينا عندئذ مركز النفوذ الهومري في اليونان. وعن هذا، راجع مرى Murray «خمس مراحل للدين الإغريقي» صفحة ٦١. وبازدياد سكانها، كانت أثينا تجلب ما يلزمها من المواد الغذائية من يوبيا Euboea والأكسين. ولهذا كان امتداد قوتها البحرية في الشرق والشمال الشرقي أمرا جوهريا لبقائها. وكانت حالها كحال هولندا في أواخر القرن السادس عشر والقرن السابع عشر. وهذا يفسر السبب في أن الديموقراطية الأثينية كانت دائما تنادي بالتوسع الأمبراطوري.

بسسطراطس بثورة شعبية تظاهرها قوة أسبرطة ولكن أعداءهم الحقيقيين كانوا القمايوندا **Alcmaeonidae** وهم أسرة منافسة، من النبلاء. وفي ختام القرن أوقع أفلسثينس **Clisthenes** ضربة قاضية على نفوذ الأستقراطية الأقليمي وأعاد تنظيم الحكومة على أساس ديموقراطي صريح. ولم يسمح فقط للمقيمين الأجانب بكسب حقوق المواطن الكاملة ولكنه حل التجمعات السياسية التي كان أساسها روابط الأرض المحلية، واستبدلهم بقبائل جدد جلب أعضاءها من أنحاء متفرقة في أتيكا. وكان من أثر هذا، أنه عندما فاضت موجة الغزو على اليونان في فجر القرن الخامس، أستطاعت أثينا أن تواجه الأزمة بعدة من المنظمات السياسية حقيقة بمزاج مواطنيها وبمكانتها الجديدة في اتحاد (كومونولث) دول_ المدن الهلينية. ثم في قدرتها على التقدم السياسي وفي حرية التواصل بالمدن الأخرى، قدمت أثينا في هذا الوقت وما بعده نقيضاً ظاهراً للدولة التي كانت لها السيادة على أرض اليونان الأصلية، أسبارطة [1]. ومن موطنهم في وادي يوروطاس **Eurotos** المنعزل، أخضعت الأستقراطية الأسبارطية بلوبونيسس الجنوبية اخضاعا تاما. وبفضل شجاعتهم التي تماري ومهارتهم في استخدام السلاح، اعترف بهم دولة عسكرية دانت لها الزعامة في اليونان. ولكن أسبارطة كانت ثكنة، لا دولة، وكان يتحكم في تدريب وحياة مواطنيها، الهدف الأوحد وهو حذق فن الحرب. وقد احتفظت بمنظماتها البدائية قرونا، دون أن يطرأ عليها تغيير، في الغالب. ولما كانت تحتقر التجارة، فقد قامت بحراسة تخومها من تدخل الأجانب، في بأس. ولم تضف إلا القليل أو أنها لم تضف شيئاً على الأطلاق مما له قيمة دائمة في بناء المدنية الهلينية. وكانت قوتها ترجع إلى شدها أزر العهد القديم **Ancien Régime** في كل مكان في اليونان، في سياستها الشعبية **Herrenvolk** ومبدأ العولة الذي ضمن لها سيادتها. ولقد أنجبت جنوداً شجعانا. ولكن لم تنجب إلا القليل من رجال السياسة الممتازين. وكان المواطنون أولو المواهب العظيمة أهدافا للريبة في موطنهم، وعندما كانوا يتحررون من جو التقاليد الأسبرطية، يصبحون فرائس للفساد، سهلة.

وأنا لنعجب للصيت الذي أحرزته أسبارطة في عيني اليونان المعاصرة وللسلطة الخلقية التي بسطتها على الكثير من أحسن العقول الهلينية. ولما قنط أفلاطون من خلاص أثينا السياسي، تطلع صوب أسبارطة بحثا عن العلاج ويرجع السبب إلى هذا: أنه ولو أن الارستقراطية

---

(1) يعبر ثقوديدس عن هذا التناقض في خطبة المبعوثين الكورنثيين في أسبارطة في ٤٣٢، ١، ٧٠ وكذلك في خطبة الجنازة لبركليس ٢، ٣٥– ٤٦ التي جاءت مقتبسات منها في $ ٥ من هذا الفصل.

الأسبارطية كانت ضيقة وغير مثمرة وظالمة فقد ظهر أن ثباتها والتمسك بوحدة المبدأ والولاء للدولة يكمل النقص الذي كانت الحاجة تمس إليه لديموقراطية أثينا العاطفية التي لا استقرار لها [(١)].

٣- وأتاحت الحرب مع فارس الفرصة العظمى لأثينا,. لقد سبق أن سردنا قصة نهوض الدولة الفارسية السريع وإخضاعها الإغريق الآسيويين تحت نيرها. وهدد أسطولها البحري الذي جند رجاله من مدن فينقية التجارية، بتحويل إيجا إلى بحر فارسي. ولقد اصطدم الحكم الذاتي في دولة_ المدينة الإغريقية بالقيصرية الفارسية بينما ألقت الحركات الديموقراطية وهي تهدد الحالة الراهنة، الاقتصادية والسياسية، بحماتها المحافظين بين يدى فارس. وقد وصم القوميون الإغريق هذه الوسيلة للنجاة «بالميدية» لأن تاريخها يرجع إلى ما قبل قيام فارس. وقد أوقعت القوة البحرية التي كانت لبوليكراتس الساموسي، الخطر على تحكم فارس في سواحل آسيا الصغرى. وفتحت غزوات دارا في طراقيا عيني مليطوس التي كانت في البداية قد طغت عليها «الميدية». وقد أكدت ثورة الإغريق الأيونيين في السنوات الأولى من القرن الخامس، للحكومة في سوس الحاجة إلى تعزيز حدودها الغربية، وفي عام ٤٩٠، أرسلت حملة تأديبية بحرا ضد الأثنيين الذين كانوا قد قدموا قوة عسكرية مسلحة كعون للثورة الفاشلة التي أشعلها ذوو قرابتهم الأيونيون. وقد قوبل جيش فارس وأوقعت به الهزيمة، على سهول مراثون Marathon على ساحل أتيكا الشمالي الشرقي. ومن العسير، بالنظر إلى الحوادث التالية التي كان لها شأن أعظم، أن ندرك ما كان يعني هذا النصر لليونلن. ولأول مرة قوبل التمثال الفارسي الهائل في الميدان المكشوف. وبالنسبة لأثينا، قدمت مراثون ذكرى لا تفني وبعد ذلك بزمن مديد عندما سرد أعظم خطبائها كيف جمع مواطنوه شملهم أمام كفاح الموت ضد مقدونيا، فإنه رجع بفكره إلى أولئك الذين سقطوا ممجدين في مراثون [(٢)] وأما بالنسبة للفرس فليس ثمة شك في أن الموقعة لم تكن تعني أكثر

---

(١) أن صورة أفلاطون للحكومة التيموقراطية (شكل للحكومة يؤهل فيها الأفراد للوظاف بما يملكون) في الجمهورية: ٨، ٥٤٧- ٨ يماثل بصراحة شكل الحكومة الأسبرطية. ومبدءاها الهاديان هما «الشرف» (**timé**) و «النصر» وهي أقل أنواع الحكومات «غير العادلة» فسادا، وبعد ذلك، في «القوانين» نجد أفلاطون أقل تسامحاً، لحد عظيم، نحو المنظمات الأسبرطية. ويوجه أرستطاليس النفد القاسي لأسبرطة في «السياسة» ٢- ٩ و٧- ١٤، ١٥ ويصرح بلوبيوس (٦، ٤٨- ٥٠) في فحصه المنظمات الأسبرطية أنه لا يوجد مثيل لها للاحتفاظ بالاستقلال والاكتفاء الذاتي في الداخل ولكنها غير كفيلة تماما بمباشرة العلاقات الخارجية والأمبراطورية.

(٢) دمسثينس**Demosthenes** دي كرونا **de Corona $** ٢٠٨.

من صد عنيف لسياستهم الأمامية على الحدود. وجعلت القيام بعمليات على نطاق واسع أمرا لا مناص منه، ولكن جمع الجندين الأمبراطوريين تطلب زمنا. وسببت ثورة في مصر وموت الملك دارا تأخيرا لسنين عدة. ولم يكن الجيش حتى عام ٤٨١ قد تجمع تحت قيادة خشيارشاي في سردس، بينما كان الأسطول في إيجا مرابطا عن كثب، لغزو اليومان غزوا نهائيا. ولقد وافت اللحظة الحاسمة المدنية الهلينية آخر الأمر وأثناء تقدم الفرس، قدم نصف المدن الإغريقية خضوعها وقام مهبط الوحي في دلفي بدور الخائن للدعوة الهلينية. كانت أسبارطة وهيي العمود الفقاري للدفاع بالبر تفكر، كما كان العهد بها دائما، على الأخص في البلوبونيسس. وفي تلك الآونة، تقدما أثينا كنصير للحرية الهلينية. ولقد شاهد مواطنوها مرتين، من ملجئهم الجزري في سلاميس دون خوف نهب آراضيهم وتدمير مدينتهم. ولقد أحرز أسطولها النصر الحاسم في سلاميس (عام ٤٨٠) وفي السنة التالية، حارب جنودها جنبا إلى جنب مع المشاة الأسبرطيين في «الرحمة الختامية» في فلاطيا **Plataea** ووجدت أثينا في شخص ثمسطوقلس قائداً له قدرة غالبة في الحرب وفي السياسة، ونجت اليونان وكانت نجاتها ترجع على الأخص إلى وطنية أثينا [(١)].

وكان هذا آخر تهديد يوجه للحرية الهلينية من الشرق. وكان الخطر مزدوجا، ففي الغرب أيضاً كانت قرطاجنة قد هاجمت إغريق صقلية في سنة غزو خشيارشاي فلحقت بها هزيمة قاصمة في الهمرا على يدي جيلو **Gelo** طاغية سيراكوز. واستهل نصر جيلو حقبة باهرة في سيادة سيراكوز. وفي الحق تحتل سيراكوز من ذلك الحين المكانة الثانية بعد أثينا، كمركز للفن والثقافة الهلينيتين [(٢)].

٤– وكان أنتصار اليونان رائعا، ولكنه على أية حال لم يكن أعجوبة. وهو يقدم أول مثال واضح، في التاريخ عن انتصار دنيوي للنوع ضد الكم. ولقد صنع الإغريق في سلاميس وفلاطيا

---

(١) راجع هيرد ٨ و١٤٣ وما بعدها عن وطنية الأثنيين في هذه الضائقة. وقد أورد قصة حملة عام ٤٩٠ في الكتاب السادس، ٩٤– ١٢٠ وحملة خشارشاي في ٧– ٩. وقد وضع اسخولس هزيمة خشسارشاي في فاجعة، في «الفرس» الكتاب الذي صنفه.

(٢) وجه بندار عددا من أحسن القصائد الغنائيية إلى الأمراء الصقليين بما فيهم هيرو **Hiero** خليفة جيلو. وقد زار اسخولس صقلية أكثر من مرة ومات في جيلا **Gela** وكان جورجياس **Gergias** الليونتيني **Leontini** من مشاهير السفسطائيين واستاذ الفصاحة. وفي القرن الرابع زار أفلاطون سيراكوز في مناسبتين أو ثلاث. وكان جيلو القائد العام لأولجارشية (حكومة الأقلية) من الرأسماليين، قاصرة عليهم. وقد دعت المدن الأيونية في غرب صقلية قرطاجنة وهي في يأس. وتقدم سيراكوز نقيضاً يسترعى البال، لأثينا الديموقراطية.

وما صنعه الأسكندر بعد ذلك في أسوس **Issus** وجوجميلا وكليف **Clive** في الأزمنة الحديثة في بلاسي **Plassey** [1]. أن تاريخ الإنسان يكذب في كل مرحلة المثل الأحمق بأن «الله يكون إلى جانب الكتاب العظيمة»، وإذا كان نابليون قال هذا على الإطلاق فلا بد أن قوله يحمل في مطواه تحفظاً بأن «يكون النوع متعادلا» والأعجوبة الحقة هي في استخدام الأثينيين للنصر الذي حازوه. ولقد اظهروا في ساعة النصر، نفس البصر بالحقائق واتساع النظر، كما في ساعة الخطر الداهم. وعندما ارتضت اسبارطة والدول الإغريقية الأخرى بما نالوه من أكاليل الغار، أجمعت أثينا الرأي على أن تواصل الجهاد حتى تتحرر كل مدينة إغريقية في منطقة إيجا من النير الفارسي.

وكانت السياسة وكذلك روح الوطنية دون ريب، تشيران إلى هذا الاتجاه ولكن مما فيه شرف أثينا الخالد، أنه في هذه اللحظة الأعمت أثينا بين دعوة نفع المدينة ودعوة الاستقلال الهليني. ولقد جنت الثمار ألف ضعف، في العظمة السياسية كما في حياتها الداخلية التي تتصل بالمدينة وفي تجارتها وأمبراطوريتها في البحار، وكذلك كما سنرى، في أنبل ثمرات الثقافة العقلية، التي كانت أبدا من نصيب النوع الإنساني. وقد تركتها حرب التحرير (٤٧٨– ٤٧٠) سيدة مياه إيجا دون نزاع. وقد أمن تحصين المدينة ومرفئها، فرايوس من منافسة أسبارطة لها في البر، وكانت أساطيلها تقوم بالحراسة على إيجا الذي أصبح من الآن موصدا، كما كانت أراضي ساحل آسيا الغربية، أمام الفرس. وكانت هذه الحقائق أساس التفاهم الذي أنهى في عام ٤٤٨ الصراع الذي استطال حتى بلغ أربعين سنة ونيفا. ولقد تركت أثينا وفي حيازتها التجارة الشرقية. وكانت المدن المحررة ما تزال منتظمة في جميعة تحت رياستها ولها خزانة مشتركة في جزيرة ديلوس المقدسة، كانت تقدم إيليها كل مدينة حصة معينة للاحتفاظ بالأسطول البحري الحامي. وفي روعة بالغة، حققت أثينا ما انتوته وقطعت العهد به. ولكن والقرن يسير في مداه، حدث تغير في سياستها. لقد تحولت الدولة التي عقدت لها الرياضة على الاتحاد الديلي إلى مدينة ذات سيادة على أكبراطورية خاضعة لها. ولقد غدا حلفاؤها القدامى تابعين يلتزمون بدفع الضريبة وكان مطلبهم في الانفصال عن الجمعية يداس تحت الأقدام في عنف، ونقلت الخزانة إلى أثينا وأعيد وضع منظماتها الداخلية لصالح سيادة أثينا. ولما كانت أثينا ديموقراطية فإن المدن الخاضعة يجب أن تكون أيضاً ديموقراطية. ومن خصائص التاريخ السياسي الإغريقي أن الصداقة والعداوة بين الدول كانا

---

(١) رأى الأثينيون أنفسهم في وضوح، أن النصر يرجع إلى قوة ومهارة أسطولهم البحري وإلى ذكاء ثمسطوقلس ولروح حب الوطن التي لا تحيد، التي تشيع فيهم (أنظر ثقد ١، ٧٣و ٧٤و ١٤٤).

يعتمدان إلى حد عظيم على اللون السياسي للحزب الحاكم. وقد تحالفت الحكومات الديموقراطية مع أثينا والحكومات الارستقراطية مع أسبارطة. وفي زمن بركليس (٤٦٠- ٤٣٠) كانت الأمبراطورية الأثينية تشمل جزر إيجا ومدن طراقيا وآسيا الصغرى الساحلية والسبنطس والمجاز البحري إلى الأكسين. ولو أن نكسس **Naxos** ثارت عام ٤٦٥ وساموس عام ٤٤٠. وأكثر من هذا، فإن أثينا أظهرت نشاطها في محاولات فاشلة لبسط سيادتها على اليونان الوسطى وفي حملة عسكرية أنفذتها إلى مصر وانتهت بنكبة. ونمت المدينة في الثراء والسكان كنتيجة طبيعية لتجارتها الواسعة المتنوعة. ومع الكراهية المريرة التي كان يشعر بها رعايا أمبراطوريتها، لا يوجد أي دليل على أنها كانت تحكم حكما غير عادل. ويجب أن يكون الهادي في حكمنا اعتبارين. بتركيز القضايا التي تنسحب على مدن مختلفة وكذلك أعظم الدعاوي الجنائية خطورة، في المحاكم الأثينية، فإن أعلى مذهب في الإدارة القضائية، رقيا، كان يوجد في العالم في ذلك الحين، فتحت أبوابه لكل اليونان الشرقية، وعلاوة على هذا، كانت أثينا تدرك تماما الواجب الذي تفرضه عليها سيادتها. وكان لزاما على مواطنيها. كما كان يشعر على الأقل ساستها الذين كانت لهم الصدارة، أن يعيشوا عيشا خليقا بقدر أمبراطوريتهم. ولقد حازت جهود بركليس لإدراك هذا المثل الأعلى ثقة شعب ديموقراطي. ولم يصل حلم اتحاد جامعة هلينية تحت زعامة مدينة واحدة، إطلاقا، قريبا من تحقيقه كما في عهد الأمبراطورية الأثينية في زمن بركليس.

٥- وعندما تضع إلى جانب قوة أثينا الخارجية لنمعن النظر في حياتها العامة الداخلية، نجد أنه منذ عهد أقلسثينس كان يهيمن على الحكومة لفيف المواطنين الأحرار [١] . ولقد رأينا كيف أنه، عند الإغريق كانت حياة المواطن الحقة هي خدمة الدولة في السلم وفي الحرب وقد حقق هذه الفكرة في أسبارطة، الاستقراطية الحاكمة. ولما كانوا قد وهبوا الضياع التي يقوم بالعمل فيها الرعية من السكان، فقد تاح لهم وقت فراغ ليخصصوا كل حياتهم للخدمة العسكرية. وقد جهد بركليس وخلفاؤه في القرن الخامس في جعل مثل هذه الحياة ممكنة لديموقراطية أثينا. واستحداث

---

(١) يمكن أن يكون تعداد شكان أطيقا الأحرار في عصر بركليس قد بلغ حوالي ٢٥٠.٠٠٠ نسمة ويؤكد ثقو ٢، ٣١ أنه حوالي عام ٤٣٠ كانت تبلغ قوة المواطنين الأثينيين ٢٠٠و ٣٠. ويجب أن يضاف إليهم نحو ٢٠.٠٠٠ من الطبقة التي لها أقل ملك فيكون المجموع ٥٠.٠٠٠ من المواطنين الذكور البالغ. وربما يبلغ تعداد النساء والأطفال والعجاشز أكثر من ضعف هذا العدد، وبذلك ربما كان يصل المجموع الكلي إلى ٢٠٠.٠٠٠ نسمة من الأحرار يضاف إليهم ٥٠.٠٠٠ من الأجانب المستوطنين **metics**. ويظهر في إحصاء عام ٣٠٩ ق.م نقص في المواطنين الذكور البالغين، يبلغ ٢١.٠٠٠ يضاف إليهم ١٠.٠٠٠ من الأجانب المستوطين.

الأجرة لحضور المجلس ومحاكم القانون، التي كان أعظم مشاغلها الدعاوي السياسية، كان مباحا لكل مواطن أن يحضر بشخصه وأن يدلي بصوته وأن متحدث في الاجتماعات الأسبوعية للمجلس ذي السيادة (Ecclesia) حيث كانت تبرم مواضيع السياسة الخارجية والأمبراطورية والمواضيع المالية ويعين الحكام وتناقش تقاريرهم وتفحص. وكان مجلس الرأي **Boule** يعهد إليه بتحضير التشريع للجمعية وكان يجتمع عشر العدد (phytany) كمجلس تنفيذي دائم، في دار البلدية مل شهر في السنة. وكانت لجان تتألف من بضع مئات من المحلفين يختارون بالقرعة في لفيف المواطنين، تصدر أحكامها في الاتهامات الدينية والسياسية. ولقد صب الشاعر المحافظ أرسطو فانس التحقير المرير على مغالاة هؤلاء الدبابير [1] الأثينيين في الدعاوي القضائية. ولقد تصاعدت روح التشيع وكان الحزب الأرستقراطي ينادي بالسلام والصادقة مع أسبارطة، أما الحزب الديموقراطي بقوته بما يضم من السكان البحريين، فكان يناصر توسيع الأمبراطورية في البحر والبر. ولكن عندما نتسامح في المغالاة في الروح الحزبية والمطامح الفردية فإن الديموقراطية الأثينية لم تكن غير جديرة بالمثل العليا للسياسي العظيم الذي وطد سيادتها.ولقد عبر بركليس عن هذا المثل الأعلى في خطبة له في الثناء على الجنود الذين سقطوا في معمعة القتال في حملة عام ٤٣١. وقد سجل الخطبة المؤرخ ثقوديدس ويمكن اقتباس النص الآتي لتوضيح تصور بركليس للديموقراطية الأثينية:

«أن شكل حكومتنا لا يدخل في مجال التنافس مع أنظمة غيرنا، وأننا لا نحتذي حذو جيراننا ولكننا نضع الثمال لهم. وهو صدق أن الديموقراطية تطلق علينا لأن الإدارة في أيدي الكثرة وليست القلة ولكن بينما القانون يضمن المساواة في العدالة للجميع على السواء في منازعاتهم الخاصة فإن دعوى التفوق يعترف بها أيضاً وعندما يمتاز مواطن في أية ناحية فإنه يفضل للخدمة العامة، ليس كامتياز ولكن جزاء للفضل. ولا يكون الأملاق مانعا ولكن يمكن للإنسان أن يحقق نفعاً لوطنه مهما كان شأنه مغمورا. ولا يوجد احتكار في حياتنا العامة... وبينما لا نخضع لأي قسر في تواصلنا الخاص فإن روحا من الاحترام تشيع في أعمالنا العامة ويجنبنا عن ارتكاب الخطأ، الأحترام للسلطة والقوانين إذ لنا اعتبار خاص لتلك التي وضعت لحماية اللذين وقعت عليهم مساءة وكذلك لتلك القوانين غير المكتوبة التي تجلب على الخارجين عليها تنبيذ الرأي

---

[1] أرسطوفانس «دبابير»

العا... أننا عشاق للجمال ولكننا بسطاء في أذواقنا وأننا نثقف العقل دون خسران للرجولة. والثراء نستخدمه ليس للحديث والزهو، ولكن عندما يوجد نفع صادق في استخدامه. والجهر بالفاقة عندنا ليس مذلة، والمذلة الحقيقة هي في العقود عن عمل شيء لتحاشيها. أن المواطن الأثيني لا يهمل الدولة لأنه يعني ببيته. وفيما بيننا، حتى أولئك الذين ينهمكون في الأعمال، لديهم فكرة جد طيبة عن السياسة ونحن، دون سوانا، نعتبر الرجل الذي لا يهتم بالمسائل العامة، ليس شخصا ولا ضرر منه، ولكنه شخص لا جدوى فيه. وإذا كانت قلة منا مبتكرين، فإننا جميعاً حكام صادقون لثمة سياسة. والعائق العظيم أمام العمل، في رأينا، ليس النقاش ولكن الأفتقار إلى تلك المعرفة التي تكتسب بالنقاش، ارصاها للعمل. لأن لنا قدرة خاصة على التفكير قبل العمل وعلى العمل أيضاً، بينما ناس آخرون لهم شجاعة وليدة الجهل ولكن يترددون بعد إمعان الفكر... والخلاصة، أقول أن أثينا هي مدرسة الأغريق وأنه يبدو أن الفرد الأثيني في ذاته، يستطيع أن يكيف نفسه في أعظم شكول العمل تباينا، بأجل ما يكون من قدرة، متعددة النواحي، وكياسة. وليست هذه كلمة لغو عابرة ولكنها الحق والواقع. والتوكيد تصدقه المكانة التي رفعت إليها هذه الخصال الدولة لأننا أجبرنا كل بر وكل بحر ليفسح طريقا أمام بساتنا وغرسنا في كل أوب، آثارا خالدة لصداقتنا وعداوتنا. هذه هي المدينة التي لأجلها حارب هؤلاء الرجال وماتوا في نبل. ولم يكن في وسعهم احتما الفكرة بأنه يمكن أن تستلب منهم، وكل واحد منا على قيد الحياة يجب أن يكدح في اغتباط لأجلها»[1].

٦- أن أمبراطورية أثينا وحكم الديموقراطية الذي خلقها ورباها كان كلاهما قصير الأمد. ويقع التاريخ الأثيني في القرن الخامس في ثلاث حقب تتميز الأولى بنهوض قوتها في الحرب الفارسية والثانية ببلوغ ذراها في زمن بركليس والثالثة بتدهورها وسقوطها. والحياة العامة الإغريقية هي في كل مكان سجل من التغيير متنوع المناظر. ولقد أظلت سحائب أيام قيادة بركليس السعيدة، حتى قبل موت السياسي العظيم (٤٢٧) وكان منافسو أثينا يتحينون الفرصة لجمع الشمل ومهاجمة سيادتها. وأتى الواعز من دول البرزخ وخاصة من كورنث التي كانت مصالحها التجارية في اليونان الغربية يتهددها مطمح أثينا المتزايد. وبينما كان الكورنثيون يدفعون إلى النشاط قوات أسبرطة القوية، ولو أنها متكاسلة، كانت المدن الخاضعة في الأمبراطورية الأثينية

---

(١) ثقو، ٢، ٣٧- ٤١ (ترجمة جوت Jowett).

ترقب في تلهف الفرصة المواتية للثورة. وفي عام ٤٣١ قام الصراع الذي يعرف في التاريخ باسم الحرب البلوبونيسية [١] .

وفي الواقع اورطت كل اليونان في الصراع وقد ناهضت قوة أثينا البحرية من جانب، تحالفا ينتظم أعداءها تحت القيادة الأسبرطية. واستمر مع فترات انقطاع حتى عام ٤٠٤ عندما أعقب تدمير الأسطول البحري الأثيني سسقوط المدينة الأمبراطورية. وقد سرد ثقوديدس قة الحرب وقام بنفسه بدور في مشاهدها الأولى في توليف أبد الدهر خلقا رائعا للتاريخ الذي يتبع فيه التأمل. وعنده، كان الصراع فاجعة تتركز حول خطيئة **hubris** الديموقراطية الأثينية التي كانت تأخذ في النمو، وتنتهي بالقصاص **nemesis** الذي نجم عندما تخطوا، في محاولة غزو صقلية، المعلم. وكما فعل سالفه هيرودوتس في تقفي أثر يد عناية الهية غيورة، في القصاص الذي لحق الأمبراطورية الفارسية عندما ألقت بجحافلها في صلف القوة، ضد اليونان، رأي ثقوديدس في روح فلسفة أكثر نضجا في الجائحة التي أصابت المدينة وطنه في اللحظة التي ظهر فيها أن تعطشها لأمبراطورية عالمية قد أدرك مرماه، عملية لا ليان فيها للقوانين التي تقرر مصير الأمم. والديالوج الذي يقص فيه انذار أثينا النهائي إلى سكان جزيرة ميلوس بتوكيده الذي لا هوادة فيه، أن الضرورة لا تعرف أي قانون وأن حاجة السياسة الملحة لا تعبأ بكل مطالب الفروض الخلقية وأن طغيان القوي على الضعيف هو الحق الطبيعي للآلهة والناس، يجيء بعده دون فاصل، قصة إبحار الأرمادا ضد سيراكوز وما أصابته من ضروب النجاح الأولية وما أعقب ذلك من نكبات ثم ذهابها أباييد [٢]. ولم تقم لأثينا قط قائمة بعد هذه الضربة. ولما رأى السبيادس صديق سقراط وأعظم شخصية سياسية ألتماعا وتعددا في نواحي قدرته، أن النائبة أوقعت عليه العار، انضم إلى أعدائها ونصح بالتحالف مع فارس التي أمدتهم بموارد غير محدودة لخلق قوة بحرية. وما كانت أثينا لتقهر إلا بالبحر. وقد استمر شعبها في القتال في ثبات وشجاعة عجيبين ضد كثرة هائلة ولكن دم حياتها كان قد نضب معينه وكان لا مندوحة من الخراب في النهاية [٣] . وعندما وافت

---

(١) كان يتوقع حدوثها من حرب سابقة (٤٦٠– ٤٤٥).

(٢) راجع ثقو، ٥، ٨٩ وما بعدها عن الديالوج الميلي. وتورد هذه الآراء في الحاح للذاكرة دفاع الألمان عن انتهاكهم حياد بلجيكا في عام ١٩١٤، أن ثقوديدس يكتب كمتفرج في عيادة للمرض السياسي.

(٣) كان الحزب الأرستقراطي والمشايع لأسبارطة يعمل داخل المدينة لصالح العدو. وكان يرجع نشاطهم إلى عام ٤١٥ (ثورة الأربعمائة) وكانت صيحة_ الحرب، السياسية «العودة إلى عام ٤٦٠» أي قبل بركليس.

النهاية، كانت حامية من الأسبرطيين الممقوتين تعسكر في الأكروبول، ووقعت المدن الخاضعة التي كانت قد ثارت ضد أثينا والأمل يحدوها في استعادة استقلالها في قبضة الظافر، ولا حول لها. ولو أن أثينا استطاعت أن تزيح نير أسبارطة، ولو أن الديموقراطية استعيدت وفاضمت التجارة مرة أخرى في فرايوس، إلا أن أمبراطوريتها أصبحت في خبر كان. ووجدت عبقرية المدينة، بعد فترة وجيزة من الروعة السياسية والعسكرية، موطنها الحقيقي الدائم في ميادين الأدب والفكر.

٢- الفن والأدب في أثينا في القرن الخامس

٧- نوهنا فيما سبق بأن جميع ألوان النشاط الخالق التي عبرت عنها العبقرية الإغريقية تجمعت في أثينا في أزمن القرن الخامس العظام. ويصدق هذا، في المكان الأول، على فنون العمارة والتصوير والنحت التي تربطها قرابة. ولقد كان الوازع للثلاثة وازعا دينيا، أقامة وزخرفة المعابد لعبادة الآلهة. وكان الطرازان، الدوري والأيوني في فن عمارة المعبد، الواحد ضخم وقاس والآخر أكثر أناقة وخرفة، قد تطورا في الحقبة السابقة، من أشكال بدائية للبناء بالخشب [١] . وكان النحت أيضاً منشؤه حفر الخشب وقد حل محل دمي المعبد الخشبية في عصر التوسع التجاري وتحت رعاية الطغاة الأثرياء التماثيل من الحجر. وفي القون السادس، تقدمت مدارس أرجوس وسسيون **Sicyon** وإيجينا **Aegina** وأثينا تقدما سريعا في مهارة الصنعة وفي معرفة التركيب التشريحي وجرية المعالج وتحرر فن النحت من ارتباطه القاصر على الموضوعات الدينية. وتوضح تماثيل اللاعبين الرياضيين الاهتمام المتزايد بطرز جمال الرجولة. ولقد وصلت هذه التطورات الباكرة إلى قمتها في المدرسة الأثينية في عصر بركليس تحت زعامة فيدياس. وقد قدم إلى أثينا أيضا بوليجنوتس **Polygnotus** مواطن ثاسوس **Thasos**، وأعظم مصور في ذلك الزمن والذي اشتهر بانشاءاته العظيمة الهائلة مثل نهب طروادة وأدوسيس في الجحيم وقد امتدحه أرستطاليس لحذااقته في تصوير خليقة الإنسان [٢] . ولقد دمر الغزاة الفرس أبنية ثينا وفي الجيلين التاليين وطن ساستها العزيمة على جعل المدينة الجديدة خليقة بمكانتها في الأمبراطورية. وجهد بركليس على الأخص، في تدريب المواطنين على حب ما هو جميل عن طريق أبنيته وما يزخرفها من أفانين النحت. وفي عصر كانت فيه الكتب نسبيا، لا سبيل إلى الوصول إليها، فمن

---

(١) من المعابد الأثينية في عصر بركليس كان ثسيوم **Theseum** وبارثنون **Parthenon** (راجع $ ٨) أهم مثالين للطراز الدوري والأرخثيوم **Erechtheum** ومعبد «النصر دون جناح» (**Nike Apteros**) للطراز الأيوني.

(٢) أرستطاليس، الشعراء فصل ٢ وفصل ٦ والسياسة ٨، ٥.

المستحيل المغالاة في تقدير قيمة الأبنية الرائعة، في التعليم. وكان الأكروبول في أثينا ببوابة المدخل ومعابده وتماثله، يؤدي للأثينيين في ذلك الزمان، نفس الخدمة التي كانت تؤديها الكاتدرائيات التي تزخر بالنحت، لمدن أوروبا في العصور الوسطى. وفي عبارة جاءت في «الجمهورية» يختتم أفلاطون حجته بأن حكام المدينة المثالية، من الشباب، يجب أن تحيط بهم بيئة من الرشاقة والجمال بهذه الكلمات.

هل يجب أن نقتصر على الإشراف على الشعراء وقسرهم على أن يضفوا على إنتاجهم طابع الخصال الطيبة وجزاء مخالفة ذلك عدم قرض الشعراء بيننا، أو هل يجب أن نبسط إشرافنا على أساتذة كل حرفة أخرى على السواء ونمنعهم من أن يطبعوها بتلك العلامات سيئة النوع من الانحلال والخسة وعدم الأناقة سواء في صور الكائنات الحية أو في الأبنية أو أي عمل آخر من صنع أيديهم. ونمنع منعاً كليا أولئك الذين لا يستطيعون القيام بغير هذا، من العمل في مدينتنا حتى لا تكون تربية أوصيائنا بين صور الرذيلة كما في مراع غير صحية يقتطفون الكثير كل يوم، قليلا قليلا، من أمكنة عديدة ويطمعون منه حتى يجمعوا، دون أن يشعروا، كتلة عظيمة من السواء في قرار أرواحهم؟ ألا يجب علينا، على النقيض، أن نلتمس فنانينا من طابع آخر، أولئك الذين بقوة العبقرية يمكنهم أن يقصوا طبيعة ما هو جميل ورشيق حتى أن شبابنا، الذين يقطنون كما هي الحال بصقع صحي يتاح لهم أن بنهلوا الطيب من كل مكان وبقع أي فيض من الأعمال النبيلة على أعينهم أو آذانهم، كعاصفة تجلب العافية من المراتع الصحية ودون أن يحسوا، يظفر بهم نعومة أظفارهم ليكونوا على تشابه وحب وانسجام مع جمال العقل، الصادق؟([1]) . ولا يستطيع أي فرد أمضى حداثته تحت ظلال ثمة كتدرائية رائعة أو داخل حيطان ملية من كلياتنا العتيقة أن يناوع هذا الحكم على ما للفنون من تأثير خفي غير مدرك على خليقة وعقل الإنسان.

٨– وأهم الأبنية التي أقامها بركليس على الأكروبول كان معبد أثينا العذراء، البارثنون. ولم يعرف ضريب في أي عصر لأعمال النحت التي كانت تزين المعبد، من صنع فيدياس وزملائه من مهرة الصناع. وفي بواكير القرن التاسع عشر جلب لورد الجن معظم ما تبقى منها إلى انجلترة وعي

([1]) أفلاطون «الجمهورية» ٣، ٤٠١ (ترجمة ديفس **Davies** وفوغن **Vqughan**) لاحظ تعرف أفلاطون أهمية ما دون الشعور.

الآن في المتحف البريطاني. لقد صور على الطنف مثلثة الشكل مولد الألهة أثينا من رأس زيوس والصراع بين أثينا واله البحر بسيدون على امتلاك تربة أتيكا. وعلى ألواح الأفاريز التي كانت يزخرف الشريط الخارجي من الحجر المحيط بالمعبد فوق صف العمد الدورية، نحتت مشاهد الكفاح في أسطورة البطولة، في المباراة بين سنتورس **Centsurs** ولابنس **Lapitahs**. وعلى النقيض من المناظر المصورة على المعبد من الخارج، كان الأفريز الذي يربط الحائط الخارجي للناوس **Cella** يحمل رسوما بالنفس البارز الوطيء عن الحياة التي تتصل بالمدينة، لأثينا المعاصرة، الركب الديني في عيد الجامعة الأثينية ورجالا في المركبات وعلى متون الخيل والأغنام والماشية تقاد للتضحية وحكام المدينة والموسيقيين والفتيات اللواتي يحملن الرداء المنسوج المقدس، قرباناً لأثينا وهي تجلس بين آلهة الأولمب. والشكل الأوسط في المجموعة، تمثال أثينا الهائل الذي صنعه فيدياس من الذهب والعاج، أتى عليه البلى. ولكن الأشكال المصنوعة من المرمر في متحفنا الوطني، تكشف للرجل الأنجليزي المعاصر أكثر من أية آثار تذكارية أخرى من العصور القديمة عن صفات النشاط والأسترواح والمثل الأعلى الرفيع والجمال الرزين، التي تميز بها الفن في عصر بركليس [(١)].

٩- وفي مجال الأدب، فلأثينا القرن الخامس الذكر الباقي لخلق شكلين من التعبير، جديدين، الفاجعة (الدراما) في الشعر والتاريخ في النثر.

أن الحافر على تمثيل الشخصيات تمثيلا فاجعيا يشترك فيه كل بني الإنسان في الواقع لأنه كما ألمع أرستطاليس البشر[(٢)]. ولكن توجد هوة واسعة بين ارتجالات الإغريق الأولى والسلالات الأخرى، التي تظهر فيا الغلطة وأمثال تلك النماذج العليا التامة من الفن الدرامي كالمأساة والمسلاة في أثينا في عهد بركليس. واحصاء وتفسير هذا الكنز الزاخر من الأدب الفاجعي يقعان خارج نطاق هذا السفر ويكفي أن نشير إلى عدة خصائص مميزة تكون المعرفة بها مطلبا لدراسة

---

(١) يجب ألا يغرب عن البال أن خارج المعبد وكذلك الأشكال المنحوتة كانا ملونين.

(٢) أرستطاليس «نقد الشعر» فصب ٤، توضح هذه العجالة كيف أن الإغريق، في الشعر كما في غيره من الميادين، لم ينتجول النواليف وحسب ولكنهم كانوا يصلون بالتفكير إلى نظرية إنتاجها والفسم الموجود بين أيدينا من «نقد الشعر» يعالج في معظمه المأساة، وقد فقد الكتاب الثاني الذي يعالج المسلاة. ويشير أرسنطاليس (١٤٤٩ أ ١٠) إلى أن المأساة المسلاة كليهما، ترجعان إلى الارتجال.

الروايات عينها دراسة فطنة [١] . والقاريء في زمننا عندما يراوده التفكير في الفاجعة، فإنه يفكر في شكسبير، بما لا معدى عنه، ولكن الرواية الإغريقية كانت تختلف اختلافا بينا في الجو وفي التركيب جميعا عن الطراز الشكسبيري ويرجع بعض الاختلاف، إلى الأحوال التاريخية التي ظهرت فيها الفاجعة الأنيكية إلى حيز الوجود [٢]. فعلى سبيل المثال، كان يؤلف المأساة والمسلاة شعراء مختلفون وكانتا تمثلان في أعياد مختلفة، الواحدة تعالج الموضوعات المثالية والأخرى تصور طبيعة الإنسان في مستوى أوطى من المستوى العادي وكانت تثير الضحك بالسخرية من نقائص البشر[٣]. وكانا يختلفان في ظروف أصلهما فقد قامت المأساة (تراجيديا= **tragos**= عنزة) من الترانيم التي كان يغنيها جوق يرتدي جلود المعز، بين الدوريين في بلوبونيسيا الشمالية بينما

---

(١) عن الآراء في الترجمات الإنجليزية، راجع فهرس المراجع.

(٢) أن الفارق بين الفاجعة الشكسبيرية والهلينية كان مرجعه أصلا إلى الإ٭حساس بالنظام والقاعدة وهو من خصائص العقل الإغريقي. وقد وضع الفرنسيون، بعد ذلك، التقليد في صوغ قانوني في مبدأ توحدات الفاجعة (توحد المكان والزمان والعمل، الثلاثة قوانين االدراما الأتباعية (الكلاسيكية) (المترجم) وهو ما لم يضعه الإغريق مطلقا ولم يكن له إلا اليسير من الأثير في هذه البلاد حيث قام شكسبير بعمله، دونه. «وكان للتوحدات أثر في فرنسا لأن الفاجعة الفرنسية كانت قد برهنت على أنها ليست حد فعالة دونها. ولقد وضع شكسبير، دون أن يسير عليها، نماذج مسرحية عجيبة من ابتكاره وبلغ بعضها الكمال في الصوغ والتماثل». (و. ب. كر **W. P. Ker** «المثل الأعلى لعالم الآداب القديمة– مواضيع ودراسات لأعضاء الجمعية الإنجليزية» المجلد السادس.

(٣) انظر أرسطاليس "نقد الشعر" فصل ٢، ٣ وفصل ٥، ٥ ويجب أن يلاحظ أن أرسطاليس يتجاهل الفاجعة التي تكون واقعة تماما وفي ختام "ندوة الفلاسفة" لأفلاطون (٢٢٣) بصور سقراط وهو يقيم الدليل على أن شاعر المأساة يجب أن يكون أيضاً شاعر المسلاة. وفي مقدمة **Samson Agonistes** يتحدث مليون عن "خطأ الشاعر في مزج مواد المسلاة بحزن واكتئاب المأساة". ومن الجهة الأخرى، يقول شلي في "الدفاع عن الشعر" الذي صنعه، أن "ما جرت عليه العادة الحديثة من خلط المسلاة بالمأساة ولو أنه عرضه لأن يساء استخدامه إساءة عظيمة من حيث مراسة، هو دون ريب توسيع للمجال الفاجعي" ويضرب مثلا بالملك لير **King Lear** وتعريف أرسطاليس، الشهير، للمأساة، في "نقد الشعر" فصل ٦– ١٤٤٩ ب، ٢٤ وما يتلوها هو ما يأتي: "المأساة هي محاكاة عمل يتسم بالجد وكذلك بما له من عظم، يكون كاملا في ذاته: وفي لغة لها أدوات ميسورة التناول، فإن كل صنف يوضع على حدة في أجزاء التوليف، في صيغة فاجعية وليست قصصية بوقائع تثير الاشقاق والرهبة وبذلك يحقق التطير **catharsis** لإهمال هذه العواطف" (ترجمة بابوتر **Bywater**) وتشير الشطرة الثانية إلى مزج الأغنية المذهبية بالموسيقى والرقص وكلمة "جد" والإشارة إلى الإشفاق، والرهبة، هو ما يفرق بين المأساة والمسلاة ولفظ **Catharsis**، تعبير طي معناه "التطهير". ويناقش بايوتر تفسيرات التعبير المختلفة في تذكرات النص في طبعته "نقد الشعر". أن العواطف تطرد كأنها بمطهر عن طريق نفس إثارتها في الفاجعة– وعلى حد قول ملتون فإن المتفرج "يصرف، يغمره السلام والعزاء وسكينة العقل وقد زال كل انفعال" (ختام سطور **Samson Agonistes**)

درجت المسلاة في صقلية وكانت نشأتها في المجون الذي لا ضابط له، لمقيمي الولائم الصاخبة (Komos= عصبة من الماجنين) الذين كانوا ينعشون مواكبهم في فصول الحصاد وجنى الكرم بقذف شخصيات من رفاقهم من أجلاف المهرجين بين الحشد الذي يحلق حولهم. وما يسترعى الانتباه الخاص ثلاث خصائص أخرى تبرز من خلال تاريخ الفاجعة الاتيكيو.(١) في "الحوادث" الفاجعية أو الفصول وفي القصائد الغنائية المذهبية التي كانت تغني في الفترات التي تقع خلال التمثيل، نجد الاتجاهين الأساسيين في الشعر الهليني الباكر، وهما يتألفان في وحدة أعظم، الملحمة والقصيدة. إنه وجود هذا العنصر الأخير بما يصحبه من موسيقى ورفض حتى أن الفنون الثلاثة تكون انتاجا واحدا من الجمال الفني تكون فيه كلمات الأغنية العامل الحاسم، هو الذي يظهر لنا عند أول تعرفه أنه غير مألوف[١]. وكانت الترنيمة المذهبية في ذلك الحين أو **dithyramb**- النواة الأصلية للفاجعة. وقد فصل على التدرج عنصر القصص وتحول أولا، إلى شكل فواصل ينطق بها قائد الجوق بين أجزاء الترنيمة ثم إلى اشراك مجيب **hypocrites** أو ممثل يتحدث من مسرح (وهنا نجد بداية الديالوج والتمثيل) ثم إلى إضافة ممثل ثان وأخيرا ممثل ثالث. وبهذا تدرج العامل الفاجعي صعودا على حساب عامل الشعر الغنائي إلى أن أصبح دور الجوق، وهو الغالب في الأصل، يخضع خضوعا تاما للديالوج والتمثيل[٢]. وفي هذا، وفي اختيار المدار بما يغلب أن يكون عاما، من قصص البطولة، نرى تأثير شعر الملحمة. لقد بين أرسطاليس الذي كان شغوا بتقصى أثر السوابق لما جاء بعد ذلك من أشكال أن "كل أجزاء الملحمة تضمها المأساة ولكن أجزاء المأساة لا توجد كلها في الملحمة"[٣] وبهذا تمازجت الطرز الأولى من شعر الملحمة والشعر الغنائي، وكذلك الموسيقى والرقص وانضوت تحت شكل التمثيل الفاجعي في هذا الخلق المتفوق،

---

(١) راجع أفلاطون "الجمهورية" ٣، ٣٩٨ لقد سار فن الموسيقى وفن الرقص في تطورهما، في اليونان، تربطهما أصرة وثيقة بالشعر الغنائي الذي كان الغرض منه دائما أن يغني بمصاحبة الموسيقى والرقص.

(٢) تبين "الفتيات المتوسلات" لأسخولس وربما كانت أقدم فاجعة اغريقية باقية إلى الآن، أن "الجوق" ما يزال له السيادة، والتجديد الحاسم كان اشراك الممثل الثاني، وهو يرتبط باسخولس الذي استخدم ثالثا بعد ذلك. ولم يكن يوجد اطلاقا أكثر من ثلاثة ممثلين لهم أدوار يدور فيها حديث، يشركون خلال فاجعة إغريقية ولو أنه قد يظهر ممثل واحد في أجزاء مختلفة من مشاهد مختلفة. وأقوال الرسل التي تجئ كثيرا في روايات المأساة الإغريقية تعيد إلى الذاكرة الفواصل القصصية، التي كانت في عهد أسبق.

(٣) "نقد الشعر" فصول ٥ و٢٦ وأزن الفصول ٤ و٢٣ و٢٤.

للعبقرية الشعرية الإغريقية[1].

(٢) وكانت الأحوال الخارجية التي أنتجت فيها الروايات لها تأثير على خصائصها. لأنها، لسبب، كانت تمثل في الهواء الطلق في مسرح نحت في منحدر الأكروبول على مقربة من معبد ديونوسيوس وكان يشهدها حشد عظيم من المتفرجين ربما يبلغ عددهم زهاء ثلاثين ألفا يجلسون في منحنيات متحدة المركز، ترتفع فوق الفرقة الموسيقية والمسرح اللذين كان موضعهما في القاعدة [2]. وقد جعل هذا من الضروري استخدام الوسائل الاصطناعية لمساعدة النظر والسمع، والأحذية ذات النعال العالية لرفع قامة الممثل والتحشية والأقنعة التي ترمز للدور الذي يمثل، وقد ركبت فيها أنابيب للتحدث، لمعاونة الصوت حتى يصل إلى أقصى مداه. ولقد عظمت هذه الأدوات، بالضرورة، الصفة التقليدية للفاجعة الإغريقية التي كانت تمثل الأنواع في أشخاص الأفراد. ومع هذا فقد نجح واضعو الفاجعة والممثلون الإغريق بإتقانهم الصنعة، في التغلب إلى حد كبير، على هذه الحوائل. ويمكننا أن نتتبع نمو وضع خصائص الفرد ونحن نسير من أسخولس إلى سفوكلس ومن سفوكلس إلى يوربيدس. ولكن حتى في آخر تطور لها كانت الفاجعة الإغريقية أبسط، إلى حد بعيد، في مدارها وتكوينها، من الفاجعة في أوربا الحديثة[3].

(٣) وكان شعراء الفاجعة، كالرياضيين في الألعاب، يضاول الواحد الآخر، للظفر بجائزة. وعندما نذكر أن كل متسابق كان يقدم أربع روايات تمثيلية في احتفال واحد وأن المباريات كانت كثيرة وتقع مرارا عديدة، فيمكننا أن نقدر وفرة الخلق الفاجعي في أثينا القرن الخامس. وليست الروايات التمثيلية الباقية لدينا وهي سبع فاجعات لأسخولس وسبع لسفوكلس وثماني عشرة ليوريبيدس، وأحدى عشرة مسلاة لأرستوفانس، إلا جزءا يسيرا من مجموع المؤلفات الدرامية التي أنتجها

---

(١) أن التمثيلية كلها كانت شعرا واستخدمت أوزان الشعر الغنائي في الأغاني المذهبية والوزن **iambic** القدم الذي يكون فيه النبر على المقطع الثاني (= –ب هو القدم **iambic**) الذي لا تصحبه موسيقى، ويتكون من ستة أقدام ("أعظم الأوزان قابلية للنطق" كما يقول أرستطاليس) في الديالوج والأحاديث. ويوضح مولويدج **Coleridge** وزن **iambic** بالعبارة "الأوزان **iambic** تسير من القصير إلى الطويل" ويقول السيد فرنون رندال **Mr. Vernon Rendall** "إن المقاير الإنجليزية قلما تكون واضحة، ولكن قد تكون أكثر وضوحا في الكلمات الأجنبية التي أدخلت إلى اللغة الإنجليزية مثل **a rose, a canthus, asphodel, chrysanthemum** (**iambic**– مكونة من **I am** –النبر فيها على المقطع الثاني– المترجم).

(٢) وعلى هذا كانت التمثيليات منظورة و (بفضل الوسائل التي أشير إليها في النص) كانت مسموعة لحشد عظيم كالذي يجتمع في زمننا لمشاهدة مناظرة تجريبية أو مباراة دولية في كرة القدم.

(٣) على سبيل المثال، كان يوجد مجال أقل إلى مدى بعيد، من الفاجعة الحديثة، للمدار الفرعي.

هؤلاء وشعراء غيرهم من ذلك العصر، كثيرون. وكان لغشيان هذه الاحتفالات المستمر والدربة التي اكتسبت فيها على الحكم بالجوائز ما أتى، في زمن كانت فيه الكتب نادرة، بتأثير تعليمي له قيمة خارقة العادة، على الجمهور الأثيني. ونعلم من توكيد أفلاطون لأهمية مقاييس الإنشاء الفاجعي، الحقه، من الوجهة الخلقية على تدريب الأحداث ما كان لتعليم الشعراء من أثر عميق على عقول المستمعين[1]. وكما في السياسة، كذلك في الأدب لابد أن المواطن الأثيني كان في جميع الأحوال، حكما صادقا، لما له قيمة جمالية، إن لم يكن المبتكر له.

١٠- ويشير الشاعر شلي في عجالة، سبق لنا أن اقتبسنا منها، إلى الفاجعة الأثينية قائلا إنه "مما لا نزاع فيه أن الفن نفسه لم يفهم قط أو ينتهج وفق فلسفة الحقيقة، كما في أثينا". وبعد أن وكد الحصلة العلقلية للفن الهليني، كما سميناها آنفا، يضيف: "لأن الأثنيين استخدموا اللغة والتمثيل والموسيقى والتصوير والرقص والمنظمات الدينية لكي ينتجوا تأثير عاما في تمثيل المثل الأعلى في ذروته، للعاطفة والقوة، وكل قسم في الفن وصل به فنانون وانتهم مهارة في أبعد حدها، إلى مرتبة الكمال في نوعه وقوم في تناسب جميل ووحدة، الواحد تجاه الآخر. وعلى المسرح الحديث، لا يستخدم إلا القليل فقط من العناصر القادرة على التعبير عن شكل تصور الشاعر، في آن واحد. أن لدينا المأساة دون موسيقى ورقص وموسيقى ورقص دون أعلى تمثيل للشخصيات وهو ما يليق أن تصاحباه، وكلاهما دون دين ووقار. قد أصبح من المعتاد أبعاد التعليم الديني عن المسرح، في الواضع"[2]. إنه هذا الترابط الوثيق بالعرف الديني، هو الذي تتألف منه أعظم خصائص الفاجعة الأتيكية ظهورا. وكان يحتفل بأعياد "الفاجعة" تكريما لإله الطبيعة ديونوسيوس وقد عقدت رياستها لكاهن ديونوسيوس على مرقربة من معبده بمصاحبة المراسم الدينية[3]. وفي وسط الإركسترا **orchestra** أو حلبة الرقص، كان يقوم محراب الإله. ولقد كان شهودها واجبا من واجبات الهي مفروضا على كل مواطن صالح. وكجزء لا يتجزأ من عبادة دولة- المدين، فإن الأعياد كان يعهد بها، بصفة مباشرة، إلى الحكام المدنيين. وتقدم

---

(١) أفلاطون، الجمهورية: ٢ و٣.

(٢) شلي "دفاع عن الشعر".

(٣) ليكن معلوما أن الأساة والمسلاة كليهما تنتميان في الأصل إلى ديونوسيوس أي إلى دين التأله المتميز عن الدين الأولمبي. وفي القرن الخامس، فإن أبولو وهو الإله الأولمبي المثالي، وليس في خدمة تأله ولكن معرفة بالذات خالصة- يأتي في الفاجعة بما يليق له ويتركز دين سفوكلس حو أبولو. انظر ولاموتز- مولندورف **Wilamowitz-Moellendorff** محاضرة عن أبولو (اكسفورد- مطبعة كلارندن ١٩٠٨).

الروايات التمثيلية نفسها الأمثلة العديدة عن الشعور بحب الوطن الذي يجيش في نفس الشاعر. وكان مدار الرواية– على الأقل في المأساة– يستمد في المعتاد، من قصص الآلهة والأبطال التقليدية ويمكن أن يستدل على مدى وتنوع هذه المادة من الحقيقة الواقعة وهي أن أكثر من مائتين من مختلف الموضوعات، على ما هو معروف، عالجها واضعو الفاجعة في القرن الخامس. وعلى هذا، كانت الفاجعة الإغريقية تدور حول مواقف متتالية وحوادث كانت– على الرغم من الحرية التي كان يسمح بها للشاعر في معالجة الشخوص والوقائع المفصلة– مألوفة تماما للمستمعين الذين كانوا يعتقدون أنها وقعت فعلا في أزمنة البطولة، المواضي. ومن هذا كله، قام في عقل الجمهور الأثيني ترابط وثيق بين شعر الفاجعة وتعاليم الحقائق الخلقية والصلاح. ويقوم الدليل على أن الأمر كان كذلك حتى في المسلاة من دعوى أرسطوفانس بأن شاعر الفاجعة كان المعلم الخلقي للمواطن البالغ[١]. ولكن كان الثلاثة العظام من واضعي المأساة، أسخولس (٥٢٥– ٤٥٦) وسفوكلس (٤٩٦– ٤٠٦) ويوريبيدس (٤٨٠– ٤٠٦) هم الذين أودعوا في تقاليد الإغريق الدينية معنى روحيا جديدا. وسعى أسخولس في لغة أوحت مرارا بأنها تتماثل مع نصوص جاءت في النبوة العبرية لكي "يبرر طرق الله للناس" وأن يفسر سيادة زيوس القديرة حتى يمكن أن يجعل البر الالهي على توافق مع حقائق الألم والخطيئة، وأن يلائم بين قوانين الجبرية والقدرية التي لا ليان فيها وحرية الإرادة البشرية[٢]. وفي سفوكلس تمثل المراسيم الالهية بأنها تعمل عن طريق خليفة الإنسان، الوسيط الخفي، والحيد دون تعقل والعمل الأحمق الذي يكون وليد العماية والجهل، يسنزلان القضاء غير المتوقع على طبيعة هي، دون هذا، نبيلة[٣]. وكان الشاعر على دين أبولو، اله الطهارة والنور، بكلمة النداء التي تضمنها "اعرف نفسك" ومثله الأعلى

---

(١) أرسطوفانس "الضفدع" ٢، ١٠٠٩ و١٠٥٥ وازن ٦٨٦: "إنه جد خليق بالجوق المقدس أن يقدم النصح ويعلم المدينة ما هو صالح" وفي ١٥٠٠ وما بعدها، حيث يدعو **Plua**= =أسخولس بأن ينقذ دولة– المدينة الأثنية بالنصائح الحسنة. وفي الجوق السابق (١٤٨٢ وما بعدها) يبين في وضوح النقيض بين حكمته ومهاترة سقراط التي لا طائل تحتها ويدور كل المشهد الختامي (١٤١٨ وما بعدها) حول وظيفة شاعر المأساة في المحافظة على الدول.

(٢) راجع على الأخص بروميثيوس المقيد **Prometheus Bound** وربما كان يظهر الملحق، بروميثيوس الطليق **Prometheus Freed** زيوس وقد روضة الألم على الشعور الإنساني.

(٣) هكذا كان مصير أوديب **Oedipus** في "أوديب ملك" راجع أرسطو "نقد الشعر" فصل ١٣ ومأساتان (تراجيديتان) شبيهتان نجمتا عن الخطأ في الحكم والنوازع العمياء تكونان موضوع عطيل **Othello** والملك لير **King lear** وعن دهاء الخليقة، راجع فلوكتيتس **Philoctetes** ويبين مصير دينرا في طراخنيا **Trachiniae**، جيدا كيف أن الأمل والخوف يتحدان فيعميان حكم امرأة ضعيفة ويستغويانها إلى موارد الهلك– راجع عالية فصل ٦، ١٢.

لقواعد السلوك السفرسونية **Sophrosyne** وهي نتعارض مع توكيد الذات وكبرياء الحياة (هبرس **Hubris**). وفي جد خلقي معادل، ولو أنه يعبر عن مذهب الشكاكم الديني الذي يتناقض مع التقي المحافظ في سالفيه، مزق يوريبيدس، قناع التبجيب الذي كان يخفي أفعال وخصال الآلهة عن التحليل النقدي، وفي واقعية لا هوادة فيها، أظهرها للعيان كما كانت في الواقع. ويخال أنه يقول: أنكم تطلبون الحقيقة وها أنا ذا أعطيها لكم، إذا كانت هذه الأمور، كما تعتقدون، حدثت فعى فإن الآلهة الذين ارتكبوها لم يكونوا صالحين ولكنهم كانوا أشرارا، وليسوا آلهة مثاليين ولكن قساة ينزعون إلى الانتقام وفيهم شر عواطف النوع الإنساني. لقد كانت صورة مزعجة، تلك التي رسمها، تعبر عن المزاج الذي تغير في عصر عقلي المذهب وكان يوريبيدس كذلك جادا إلى غور عميق في هذا التحليل الذي لا لاحمة فيه للعقيدة الصادقة، وفي عزمته التي لا يعتريها وهن، لأن يرى الحق، وأن يواجه حقائق الحياة. وفوق كل شيء في اشفاقه على الضعيف والمنكوب، على النساء والأطفال والأسرى والعبيد وعلى جميع الضحايا الذين لا عد لهم، لجور الإنسان والقانون الطبيعي[1]. وكان قد وافي الزمن عندما كانت القوى خارقة الطبيعة لعقيدة أسبق، تخلي السبيل لقوى الطبيعة، أمام العقول المفكرة. ولكن بمجرد أن أصبح هذا جليا، فإن مهنة الشاعر، كمعلم للمعرفة صار مقضيا عليها وتطلع الناس إلى العلم، وليس إلى الشعر، للهداية في البحث عن الحق.

١١- وكانت "المأساة" قد وطدت لنفسها مكانا في أثينا قبل الحروب الفارسية. ولكن كانت تلك الأزمة وما اعقبها من توسع الحياة العامة الأثينية هما اللذان أوجدا الحافز في سبيل تقدمها. أن كل واحد من واضعي "المأساة"، الثلاثة العظام يمل أحد العصور الثلاثة التي ينقسم إليها تاريخ أثينا القرن الخامس، بطبيعة الحال. كان أسخولس قد حارب في مراثون وفي مصنفة "الفرس" وضع في صيغة الفاجعة الانتصار البحري في سلاميس. وفن سفوكلس هو التعبير الذي وصل إلى مرتبة الكمال لمثالية عصر بركليس. ويعبر يوريبيدس، كما لاحظنا، عن القلق العقلي

(١) توضح هبوليتس **Hippolytus** هذه النقاط. ومن الناحية الأخرى، تبين أنه كان في قدرة يوريبيدس أن يندمج في روح ديانة ديونوسيوس. وكلما كان القرن يتقدم في مداه، كانت تؤخذ قصص الآلهة في حد أقل، وبينما كان الجمهور الثيني المثقف يسير وفق عبادات دولة- المدينة فإنه كان متشككا في صراحة. ويمكننا أن نتبع في صور الأواني، في ذلك الزمن تحول الاهتمام من الموضوعات الدينية إلى مسائل الصنعة في تجميع الأشكال وانجازها. وهكذا كانت الحال في فن عصر النهضة فإن الدافع التعبدي يخلي السبيل أمام الدوافع الجمالية الخالصة، في معالجة صور العذراء **Madonna**.

الذي يبسط روافة فوق أثينا في سني الحرب البلوبونيزية. ولكن في المسلاة الأتيكة نجد أعظم أصرة مباشرة بين الفاجعة والحياة المدنية الأثينية. وكان أرسطوفانس، كمعظم شعراء المسلاة، محافا أضفى المثل الأعلى على الديموقراطية المعتدلة في زمن الحروب الفارسية. ولما كان ذا منحى شخصي وفيه مجانة رابلية **Rabelais** لدرجة لا يمكن تصورها في أحوال الحياة الحديثة فإنه هال التهكم، في رواياته التمثيلية، على الاتجاهات الجديدة في الشعر والفلسفة والسياسة، التي قامت في اثلث الخير من القرن[١]. وفي الفرسان (٤٢٤) كان هدفا لسخريته كليون **Cleon** السياسي الديمقراطي وفي "الدبابير" (٤٢٢) المحلفون في محاكم القانون الشعبية وفي "العصافير" (٤١٤) أحلام الإمبراطورية الجامحة التي أدت إلى الكارثة الصقلية وفي "الضفادع" (٤٠٦) فن يوريبيدس الحديث، وهو الذي يمثل في "المأساة" الثقافة الجديدة وفي "السحب" (٤٢٥) آراء وتعليم سقراط وفي لبسستراتا **Lysistrata** (٤١١) و"السيدات في البرلمان" (٣٩٢) مطالب النساء في أن سهموا في الحياة العامة للمدينة، المطالب التي نادي بها الكلبيون من أتباع سقراط وبعد ذلك أفلاطون في "جمهورية"[٢]. أن لأغانيه العاطفية التي تتناثر في رواياته التمثيلية جمالا خارق العادة. ومن مظاهر "الكوميديا القديمة" التي أتاحت للشاعر فرصة خاصة للتهكم الشخصي كانت "براباسس **Parabasis**" وهي بقية من احتفالات القرية الصاخبة، القديمة، وفيها كان الجوق يستدير في وسط الرواية التمثيلية ويخاطب الحاضرين بأغنية فيها مساس بأشخاص أو بموضوعات اليوم. ولقد أوقع سقوط أثينا وانهيار سياستها الديموقراطية، الضربة القاضية على مثل هذا النقد السياسي الصريح. والحال مع الشعوب كالحال مع الأفراد في أنهم يستطيعون فقط الاستمتاع بالسخرية طالما كان وعيهم بالأمان باقيا لا يتزعزع. وفي ساعة القوة، كان الأثينيون يحبذون حق كل مواطف في الافصاح عن دخيلة عقله دون أن تقيده قوانين القذف. وقد عبر عن حرية الكلام هذه التي اختصوا بها، أصرح تعبير في "الكوميديا القديمة". ومن الجهة الأخرى فإنه بقيام القرن الرابع، كفت المسلاة عن أن تكون شخصية أو تعني بالسياسة وكانت "الكوميديا الجديدة" كوميديا أخلاق تصور طرزا من الحياة الاجتماعية في مناهج اتبعها

---

(١) كانت لغلظة "الكوميديا القديمة" مغزى تعبدي، ومن الضروري أن نتذكر هنا مكان في الفاجعة، علاقتها الوثيقة بالعبادات الدينية.

(٢) راجع "الجمهورية" الفصل الخامس. العنوان الإغريقي لرواية أرسطوفانس التمثيلية هو **Ecclesiazousai** ومعناه الحرفي "أعضاء الجمعية الشعبية" **ecclesia** من الأثاث".

الرومانيات فلاوطس **Plautus** وطرنس **Terence**وفي الأزمنة الحديثة موليير **Moliere** وواضعو الفاجعة الإنجليز في عصر الإصلاح. وقد شاهد نفس العصر تدهور المأساة. ولكن أعمال واضعي الفاجعة في القرن الخامس تظل مع تحت فيدياس من عداد جلائل الأعمال التي بلغت الذروة التي قامت بها العبقرية الهلينية في مجال الخلق الجمالي. وفي عبارة شاعر معاصر وهو يجبل الفكر في تمثال زيوس الهائل الذي صنعه فيدياس من ذهب وفضة لمعبد ألومبيا وفي المأساة التي صور فيها أسخولس المارد الجبار الذي وهب الناس النار ولفنون وقد صفده بالأغلال، "على القوقاز المغطى بالصقيع" طغيان الاله ذاته، القلق.

قضى الاله العظيم المصنوع من ذهب وعاج، وعندما سقط الندى عشية أمس أن رغام الأرض أو زبد المحيط رمز رأسه.

والأرض والمحيط سيكونان ظلالا، عندما يحين حين بروميثيوس[١].

١٢– لقد كان موطن أدب النثر الإغريقي إيونيا حيث تطور إلى صورتين، الفسفة والتاريخ[٢]. وقد سبق أن تحدثنا عن الفلاسفة الايونيين الأوائل. كان اناكسيماندر أول من عرف أنه صنف كتابا. وكان أدب اليونان الغربية شعرا حتى شوط بعيد في القرن الخامس عندما أدت دراسات جورجياس الصقلي الفصاحية إلى تطورات هامة في كتابة النثر ولو أن فارمنيدي وأنبادقليس كانا قد أوضحا فلسفتهما نظما. وكان أول مؤرخ نقدي، هقطايوس **Hecataeus** من أهل مليطوس وكان له دور بارز في الثورة الإيونية ضد الفرس. وتبين كلمات كتابة الافتتاحية، المحفوظة في جذادة أنه ضرب على نغمة علمية جديدة بالموازنة بتواريخ البلدان، الإخبارية في جيل أسبق. "يتحدث هقطايوس المليطوسي، أني أكتب كما أرى أنه صدق لأن تقاليد الإغريق

---

(١) سونبرن **Swinburne** "أثينا" و"الفاجعة" المشار إليها هي بالطبع "بروميثيوس المقيد". ولا يغيب عن القارئ تأثير نماذج وقوانين الإنشاء التي قدمها واضعو الفاجعة الأغريقية وأرساطاليس في "نقد الشعر" على الأدب الفاجعي الأوربي في القرنين السابع عشر والثامن عشر وهو تأثر كانت نتيجته، من وجوه عدة، أشكالا صورية مصطنعة. وتوضح "فاجعات" كلدون **Calderon** وكورني **Corneille** وراسين **Racine** وفولتير **Voltaire** هذا التأثير في مستويات من الجودة متباينات. ويمكن أن يشار في هذه المناسبة إلى **Samson Agonistes** لملتون و**Iphigenie** لجوته. ولكن "بروميثيوس الطليق" **Prometheus Unbound** لشلي تمثل روح الفاجعة الإغريقية تمثيلا أبعد من هذا بكثير في قدرته.

(٢) كذلك كان الحديث المنظوم في الفاجعة وكان الوزن **Iambic** من أصل ايوني.

تخال أنها متعددة، ومضحكمة"[1] لقد خلق الإغريق التاريخ، كما خلقوا الفاجعة، إذ كانوا أول من فهم كنه حقيقتها الجوهريتين التفرقة التي لم يدركها قط في وضوح مؤرخو الجوليات الشرقيون بين الواقع والخرافة والحاجة إلى تفسير للحقائق المدونة يقوم على الاستدلال العقلي[2]. والقول أنهم قذفوا بشخصيتهم في كتابتهم ودونوا انطباعاتهم وأحكامهم هو طريقة أخرى فقط لذكر الدعوى نفسها. لقد كان التاريخ العبري لا ينسب إلى اسم بعينه، إنه كان نتاج جماعة. وحتى الأنبياء يضعون التمهيد لرسالتهم ليس بالعبارة "هكذا يقول أشعياء بن عاموس" ولكن "هكذا يقول الرب". لقد كان المؤرخ الإغريقي كالفيلسوف الإغريقي يتكلم كل منهما باسمه الخاص. "هذا هو عرض لبحث هيرودوتس الهلقرناسسي **Halicarnassus** و"كتب ثقووديدس الأثيني عن حرب البلوبونيزيين والأثينيين". ولقد فعلوا ذلك عن صواب لأن التاريخ والفلسفة على السواء، يعبران عن نقد المفكر الفرد نقدا تأمليا لحقائق الحياة. ولقد وصل إلينا مؤلفان تاريخيان عظيمان من القرن الخامس وكلاهما يرتبط ارتباطا وثيقا بأثينا في عصر بركليس. أن هيرودوتس اتخذ موطنه هناك أعواما قبل أن يلحق بمستعمرة بركليس في ثوري **Thurii** في ايطاليا الجنوبية، وكان تقوديدس أثيني المولد وتشبع في حداثته بتقاليد سياسة بركليس العظيمة. وكان هيرودوتس رحالة نافذ البصيرة وزار مصر وفينقيا وبابل وسواحل الأكسين وكذلك كل أرجاء العالم الهليني ونزعته المتحمسة للاستطلاع والرغبة في فهم ما يسمعه ويراه "الأعمال العجيبة التي قام بها الإغريق والهمج وخاصة لتذكر الأسباب التي لأجلها شن هؤلاء الحرب، الواحد على الآخر" مما يجعله على الراجح أعظم من توفرت فيه الخصائص الإغريقية من بين جميع الكتاب الإغريق[3].

---

(١) مري **Murray**– "الأدب الإغريقي القديم".

(٢) وعلى هذا فإن الساميين، على الرغم من كل احساسهم بالمغزي الديني للحوادث التاريخية، لم يتركوا تاريخا جديدرا بهذا الاسم. والأسفار التاريخية في العهد القديم، على سبيل المثال، ليست إلا مجرد تاريخ اخباري، التعبير عن حكم جماعي وليس فرديا. وكان الإغريق أول من أقاموا الحكم على الماضي بالاستدلال العقلي. وكان مدلول كلمة **historie** في الأصل واسع النطاق– كان معناها "البحث" وكانت تنسحب على جميع البحوث في مسائل الواقع، والتاريخ الطبيعي والجغرافيا وعلم الإنسان (انثروبولوجي) وكذلك التاريخ السياسي. ولقد نبئنا أن مؤرخا إغريقيا من القرن الرابع (افورس **Ephorus**) وجه اللوم في صراحة لإدخال الأسطورة (**mythos**) في التاريخ

(٣) ولد هيرودوتس في حوالي عام ٤٨٤ في هلقرناسس في آسيا الصغرى الجنوبية الغربية وزار أثينا حوالي عام ٤٥٠ واستقر في ثوري عام ٤٤٣ وكان قاريا **Carian** في نبعته، ايونيا في ثقافته وأثينيا في عواطفه وآخر اشارة في كتابه (٧ فصل ٢٣٣) هي إلى الحوادث التي وقعت في العامين ٤٣١– ٤٣٠ في بداية الحرب البلوبونيزية والعبارة المقتبسة جاءت في الجملة الافتتاحية من المتاب الأول.

وفي السياسة الهلينية تجيش فيه عواطف قوية نحو أثينا والحكومة الديمقواطية. إنه مرارا وتكرارا يظاهر المساواة في القوانين وحرية القول ضد دعاوي الطغيان[1]. وفي منهاج العقل، له صفات النوع لجيل كان يتأرجح على خط الحد بين التصديق والتشكك. إنه يوشك على الدوام أن ينبئنا بأن تقاليد شعبه الدينية حكايات عجائز ولكنه لا يستطيع قط أن يوطن نفسه تماما على أن يقول ذلك. وهو يرى إلى ما وراء كل الطبيعة وتاريخ البشر، يد إله خفي "إلهيشكل مصائرنا، وينحتها في أول صورة، لما سنكون". ولقد ظفر، بعدالة، باسم "أبي التاريخ" ليس لمجرد أن تاريخه هو أول تاريخ موجود يفرق بين الحق والخرافة ويسعى إلى معرفة أسباب الأمور التي تحدث ولكن أيضا لأنه سعى أولا إلى أن ينظم قصته لغرض واحد وخو أن يستعرض قيام فارس والقصاص الذي لحق بها لخطيئتها hubris، باستخدام اليونان أداة لذلك[2]. وكان موضوع ثقوديدس أكثر تركزا ونظرته للأمور أعظم مراعاة للنهج العلمي، وكان هدفه تدوين الحرب البلوبونيزية حتى سقوط أثينا عام ٤٠٤[3]. وبينما يسرد هيرودوتس قصة الخطيئة الفارسية hubris بكل ما لدي فنان أدب من سماحة واستفاضة هزهوا في بهاء الظفر الرائع، فإن ثقوديدس سجل قصة أثينا في وقار صارم كئيب تدفعه الرغبة الوحدة في كشف الغطاء عن الحق في واقعة المرير. وبين المؤلفين، حدث ليس فقط سقوط أثينا ولكن عصر الاستنارة. وفي اللغة وأكثر من ذك في الفكر، ينتمي ثقوديدس إلى صفوف السفسطائيين. ولما كان يكتب كسياسي لتعليم السياسيين، فإنه يحلل في

(١) انظر الفصل ٤، ٥ تذكر ١ عاليه ووزان بالنصوص التي أشي إليها فيه، ٥، ٧٨ و٩٢ وما بعدها (عن الطغيان في كورنث كتوضيح لمساوئه) وعن وطنية أثينا الديموقراطية ٧، ١٣٨ وما بعدها و٨، ١٤٣ وما بعدها.

(٢) عن خطيئة خشيارشاي راجع ٧، ٧ وما بعدها وعن غيرة العناية الربانية وعدم ثبات رخاء البشر ١، ٥، ٣٠ وما بعدها. والأسفار ١– ٥ تصل بالتاريخ حتى الثورة الأيونية والسفر ٦ حتى انتصار مراثون بينما تسرد الأسفار ٧، ٩ قصة غزو خشيارشاي. كان فر نية هيرودوتس أن يكتب تاريخ حرب التحرير (راجع ٧، ٢١٣) ولكنه ترك عمله دون أن يتمنه. ولقد أدمج ثقوديدس خلاصة السنوات ٤٧٨– ٤٣٢ في السفر: ١، ٨٩– ١١٧ من تاريخه.

(٣) لقد كان ثقوديدس منفيا عن أثينا لمدة عشرين عاما نتيجة لفشله كقائد للأسطوللانقاذ أمفيبولس **Amphipolis** في سنة ٤٢٣. ولم يكن صديقا للديموقراطيين الذين جاءوا بعد بركليس (مثل كليون **Cleon**) وكان من أعوان مذهب التحرر المعتدل البركليسي. ولقد عاش بعد سقوط أثينا (٤، ١٠٤–٧ و٥، ٢٦) ولكن سار بتاريخه فقط حتى عام ٤١١. وقد استمر اكسنوفن **Xenophon** في كتابه **Hellenica** وهو عمل أقل مرتبة من عمل ثقوديدس، في القصة من هذه المرحلة حتى موقعه منطنيا **Mantinea** (٣٦٢).

دقة أسباب ونتائج الظواهر الخلقية والسياسية[1]. ولقد أشرنا إلى قصته عن الحملة الصقلية التي دونها في شدة فاجعية لا مثيل لها في الأدب التاريخي لأن ثقوديدس كان يعتقد كما كان يعتقد يوريبيدس أن منهاج الحياة البشرية لا تقرره عوامل خارقة للطبيعة ولكن يقرره القانون الطبيعي.

وهو يبدي ضيق تشكك تام في قبول الدعوى بودود دافع لعمل الإنسان لا غرض من وراءه وله كل إيمان رجل ينتهج المذهب العقلي، بالعقل كمفتاح يكشف أسرار خلائق الرجال ومسلكهم. وأخيرا في الأحاديث التي يزخر بها مؤلفة، يمكنا أن نتتبع تأثير فن الفصاحة الجديد الذي كان موطنه صقلية ولكن سرعان ما وجد جوا صالحا في أثينا[2]. وفي الربع الأخير من القرن الخامس، بدأ يكون له أثر حاسم على النثر الأتيكي. واتخذت الخطابة في المحاكم والسياسة مكانا معترفا به، كصورة لفن أدبي. وفي القرن الرابع، لا نجد المستوى العالي للخطابة الإغريقية في خطب ديمسثينس فقط، ولكن في ديالوجات أفلاطون الفلسفية، العمل الجليل الذي وصل إلى أعظم كما في النثر الذي عرفته اليونان والعالم على الإطلاق، فيما هو راجح.

٣- السفسطائيون وسقراط

١٣- لاحظنا أن تاريخ ثقوديدس، وتراجيديات يوريبيدس، وكوميديات ألارسطوفانس على السواء، في مختلف طرائقها تحمل طابع الحركات التفكيرية الجديدة، التي كانت تموج في العصر البركليسي، وكانت نزعة الفكر المتزايدة تتجه نحو مسائل النظرية الخلقية والسلوك. وكان بعض

---

(١) راجع على الأخص، العبارة الافتتاحية (١: ١-٢٢)-قصة الطاعون في أثينا وأثرها الخلقي (٢: ٤٧- ٥٤) الدراسة التحليلية للثورات السياسية (٣: ٨٢- ٤) عرض القصاص الأثيني والطغيان الإمبراطوري (١: ٧٤- ٣.٨: ٣٧ وما بعدها و٨٣:٦ وما بعدها وفوق كل هذا الديالوج الميلي ٥: ٨٤ وما بعدها) والمقابلة بين الخليقة والسياسة الأثينيتين والأسبارطيتين (١: ٧، ٢: ٣٥-٤٦) وكذلك **Cornford Thucydides Mythistoricus**.

(٢) عن خطب ثقوديدس راجع "الكلمة الافتتاحية" من وصفه (١، ٢٢) وعجالة جب **Jebb** في **Hellencia**. والخطبة الجنازية التي اقتبست عالية (٥) تكاد لا تكون شيئا غير، تقرير دقيق لعبارات وحجج بركليس وربما ألقيت على مسمع من ثقوديدس نفسه.

ومما يسترعى النظر عند قراءة أعمال المؤرخين الإغريق (والرومان) قربها الوثيق للشعر وخاصة الشعر الفاجعي في الصيغة والفحوى والغرض، ولقد كانوا يفهمون التاريخ على أنه شيء جد مختلف عما يذهب إليه تصورنا في القرن العشرين. إنه كان فنا وليس علما ولم يكن يدرس قط، كما تدرس العلوم، في الجامعات. فضلا عن هذا، فإنه كان يكتب لتقوية رجال الأعمال. ويبدي كونطليان **Quintilian** ملاحظا (**Inst. Orat** ١، ١٠، ٣١، ٣٤): "أن التاريخ يأتلف ائتلافا وثيقا بالشعر ويمكن أن يشبه بقصيدة منشورة وغرضه هو السرد وليس البرهان.... وقيمته الرئيسية هي في تقديم أمثلة لتعليمنا".

هذا يرجع إلى شعور بالاصطدام بالواقع فيما يتصل بالبحوث الطبيعية في الحقبة السابقة، وكانت خطوط التفكير المتنوعة قد أنجزت حتى تمامها وأصبح يواجه الناس تيه من النتائج المتضاربة التي يبدو أن التوفيق بينها كان مستحيلا. ولقد قنطوا من الوصول إلى اليقين في مثل هذه المسائل، وتحولوا إلى السعي نحو معرفة لها اتصال مباشر أعظم، بالحياة العملية. وكذلك غدا للعلم الطبيعي نواحي تخصص أكثر، وكان المتخصصون يميلون إلى استنكار اقتحام الفيلسوف للأمكنة التي هي حرم لهم. وعلى أية حال فإن المشكل الخلقي كان ينادي بأعلى صوت لمعالجته وفقا لمناهج البحث العقلية. ولقد رأينا في الفصل الأخير، كيف أن نقدا للمقاييس والمنظمات الخلقية، كان النتيجة المنطقية للجهد الذي يبذل للعثور على جوهر دائم يقع فيما وراء تغيرات الطبيعية المادية. ولقد عمل على تنمية الاهتمام، الذي استيقظ حديثا، بالمسائل التي تتصل بقواعد السلوك، الأحوال الخاصة للحياة العامة في أثينا الديمقراطية، والطموح العام لمقياس أعلى، في الدين والأخلاق الذي جهد الشعراء، على تحقيق بغيته. وكان العهد من عام ٤٥٠ وما بعده عهد خصب خارق للعادة في النقد وفي الإنشاء على السواء، في الفكر السياسي والذي يتصل بقواعد السلوك، وقد مهد هذا كله إلى ثورة قوية في حياة الإغريق العقلية، وعن طريق الإغريق في الحياة البشرية. ولأول مرة في التاريخ، سلط نور العقل الصافي على مسألة سلوك امسان. ولقد كان عصر استنارة كالعصر الذي أطلقت عليه مثل هذه التسمية، في أوروبا القرن الثامن عشر، حيث كان فيه فولتير قطب الرحى. وكما ان الاستنارة الحديثة أدت إلى فلسفة "كانت" الإنشائية العظيمة، فكذلك مهد العصر الأسبق الطريق لفلسفة أفلاطون. ويمكن أن يعتبر قول فروطغراس: "الإنسان مقياس كل الأشياء" دليل ذلك العصر[1]. وقد قام اعتقاد واسع النطاق في العالم الهليني مؤداه أنه في المهن الخاصة وفي الفنون، على السواء، وفي فن العيش على وجه عام، لا سبيل للنجاح بغير اعداد من المعرفة يقوم على الاستدلال العقلي، وأن الفضيلة

---

(١) وفد ششرع فروطغراس من أبدرا في طراقية، الذي ولد حوالي عام ٥٠٠ وتوفى حوالي عام ٤٣٠، لمستعمر بركليس في ثورى. وقد طلب إلى أحسن عقول في اليونان القيام بهذا العمل. ولقد وضع تخطيط المدينة هبودامس من مليطس، أعظم مهندس معماري وكان هيرودوتس، كما ذكرنا آنفا أحد سكان المستعمرة. ومعنى قول فروطغراس، الذي اقتبس في النص، أن حكم أي فرد كان المعيار لما كان مرغوبا فيه أن يفعل أو لا يفعل في أي موقف عملي. وبعد ذلك طبق المبدأ آخرون لدعم نظرية عن نسبية المعرفة، أي، أن أي شيء يدركه الإنسان ادراكا حسيا يكون صادقا لديه عندما يدركه. وأن هذا هو الصدق الوحد الذي يمكن الوصول إليه. راجع ثياططس لأفلاطون (**Plato's Theaetetus**) عن هذا التطور، ونقدا له على أنه القول الفصل، كأي شيء في الفلسفة يكون كذلك.

(**arete**) لا تعتمد على القدرة الطبيعية أو على هبات الشراء وحسب، كما كان يتوهم الناس على وجه عام، ولكن على عدة من النظريات المكتسبة. وقد قامت الحاجة إلى نوع جديد من التعليم تأهب له وقام على تنشئته لفيف من المعلمين النابهين وقد جعل أساتذة الثقافة الجديدة معرفتهم تأخذ وجهتها نحو المران على الحرب والموسيقى والزراعة وكذلك التدريب الأكثر تخصصا على الفروسية وفن المسرح والطبخ. وقد وضعوا كتبا للتعليم أطلق عليها **technai** (فنون) عن طائفة عظيمة من مثل هذه الموضوعات، وعلاوة على هذا كله، فإنهم كانوا يعلمون الفصاحة، فن مخاطبة الجماهير الذي كان لا غنى عنه للأرستقراطي الذي كان يجد نفسه على الدوام مهددا باتهامات أمام المحاكم الشعبية وللشاب الطامح إلى مراتب الشرف السياسي في محكمة القانون وفي الجمعية. ولقد أثر نهوض الفصاحة لا على خاصية الحياة العامة الإغريقية فحسب، ولكن على تطور الأدب الإغريقي عن طريق الفنيين القريبين له، النجو والأسلوب ولكن أهميتها الكبرى كانت فيما قدمته من تدريب على السلوك العام، في الحياة العامة والخاصة. عندما سأل سقراط فروطغراس، في ديالوج أفلاطون الذي يحمل اسمه، ما الفوائد التي سيحصل عليها تلميذة الحدث، أجاب بأنه سيعلمه أن يتكلم وبذلك يجعله يوما بعد يوم مواطنا أفضل وأكثر قدرة على الاضطلا ع بالشئون سواء أكانت شئون دولة– المدينة أم شئون بيته الخاصة[1].

وفي الواقع استهل واضعوا الفصاحة عهدا جديدا في البحث الخلقي، أن الألفاظ رموزا لأفكار، ودراسة التعبير عن الأفكار الخلقية يترتب عليه تحليل الأفكار نفسها.

١٤–روكان يطلق على القائمين بالتعليم الجديد السفسطائيين **Sophists** وكان معنى اللفظ ببساطة أساتذة الحكمة (**Sophia**) ولم يكن بعد قد اتسم بالدلالة التي كان مصدرها أفلاطون، بأن الحكمة التي جهروا بها كانت خدعة[2]. ولقد قدموا من جميع أصقاع العالم الهليني، وكانوا

---

(١) أفلاطون، فروط: ٣١٨– ١٩ وازن ٣٢٨ و"الجمهورية" ٦٠٠، ويجب دراسة الديالوج بأجمعه على أنه مثال لتعليم السفسطائيين. ولقد قال اسقراطس في القرن التالي أن السفسطائيين كانوا يدعون أن أولئك الذين يأخذون العلم عنهم :سيعرفون ماذا يجب أن يفعل وعن طريق هذه المعرفة يحققون السعادة".

(٢) أن ما يوحي به التعبير مبدئيا هو التعليم المهني، ولو أنه يطلق أيضا في معني أوسع على رجل حكيم، كان يكون شاعرا. أن هيردوتس يدعو صولون سفسطائيا. ولقد كان السفسطائيون كثيرا ما يأخذون أجرا عن تعليمهم، وقيل أن فروطغراس سمح لتلاميذه في نهاية الفترة الدراسية أن فروطغراس كان أول من سمى نفسه سفسطائيا. ولقد كان أفلاطون بأن يدفع كل منهم ما يعتبره موازيا تعليمه. ويقول أفلاطون (فروطغ ٣١٧) يفرق بين الفيلسوف الصادق والسفسطائي تفريقا دقيقا مطبقا نقيضته المحبوبة "حقيقي" و "ظاهر" راجع غرغ. **Gorg**: ٤٦٣ ووزان سف **Soph** ٢٢١ "الذي

يرتحلون من مدينة إلى مدينة ويلقون المحاضرات والتعليم غير الرسمي في جميع فروع المعرفة[١].

وقد ادعى هيبياس (Hippias) وهو أحد جماعة السفسطائيين الذين قدموا إلى الفروطغراس، بأنه أستاذ كل فن، وعلاوة على ما قدمه من بحوث ذات قيمة حقيقية في علمي الرياضة والفلك فإنه كان يعلم علم التقويم وعلم إثارة الذاكرة (mnemonics) وعلم الأصوات ودراسة الإيقاع ونظرية النحت والتصوير والموسيقى والمهن الصناعية. وقد جاء في قصة أنه ظهر في الألعاب الأولمبية وهو يرتدي ملابس، كلها من صنعه.

وقد كان أيضا عالم أخلاق وشاعرا وخدم دولته الوطنية كسفير، ومن الخطأ الظن بأن علم السفسطائيين كان سطحيا لأنه في تلك الزمنة، كان من الأيسر أن يكون المرء عارفا بعلوم وبفنون عديدة عما هي عليه الحال الآن– حيث تتطلب المقادير العظيمة من المواد، التخصص.

ووراء عداء أفلاطون للطراز، يمكننا أن نتبين احترامه الصادق للمفكرين العظام من أمثال غرغياس وفروطغراس، ولقد قال الأخير: :إن الثقافة لا تزدهر في الروح إلا إذا سبر المرء أغوارها" ولم يكن السفسطائيون شيعة تلتزم مبدأ منتظما، وأنا إذا التمسنا نظيرا في العصر الحديث، فإننا نجده في الصحفيين في زمننا أو فيما كان للكتاب أمثال هكسلي **Huxley** ورسكن **Ruskin** وماثيو أرنولد **Matthew Arnold** من تأثير على الرأي العام الفطن في النصف الأخير من القرن التاسع عشر[٢]. وكان في مقدور أفلاطون أن يحقر السفسطائي وينعته بأنه "مصدر بالجملة لبضائع روحية صنعها آخرون"، وفي أحوال معينة كان للزراية، دون ريب ما يبررها ولكن كان بينهم عدد ليس بالقليل جمعوا في أشخاصهم مواهب الوسيط العقلي ومواهب المفكر المبتكر.

يتمرس بفن من فنون الخديعة، الذي دون معرفة حقيقة بما هو خير يمكنه أن يضفي على نفسه مظهر تلك المعرفة". وهكذا قال أرسطاليس في "الفصاحة" **Rhet**: ١ و١ و٤ "مدع يداجي بالمعرفة مستخدما ما يعلم أنه باطجل بغرض الخديعة والكسب المالي" ولقد كان جورج غروط **George Grote** (تاريخ اليونان: ٨ فصل ٦٧) هو الذي أنقذ صيت السفسطائيين من الوصمة التي ورثوها من أفلاطون وأرسطاليس. وفي هذا، سبقه إلى حد ما، هجل.

(١) مثل غرغياس، من ليونطيني في صقلية، وهبياس من الس **Elis** وفردقس **Prodicus** من الجزيرة الايجية قاوس **Ceos** واثراسومخس **Thrasymachus**(راجع "جمهورية" أفلاطون: ١) من خلقدن **Chalcedon**.

(٢) أو، مرة أخرى، هربرت سبنسر. ومن بين الكتاب المحدثين يمكن موازنة مستر برنارد شو وه.ج. ولس بالسفسطائيين الإغريق. ويمكن أن نجيل الفكر أيضا في التوسع السريع في جامعاتنا في تطبيق النظريات على الأعمال، في الزراعة والهندسة والتجارة والعلوم الاجتماعية وخاصة أعمال الرعاية والخدمة الاجتماعية. ومن شأن التعليم في زمننا أن يعمل لأجل الكثرة ما كان السفسطائيون يدعون عمله نجو القلة.

١٥- وكانت المناقشات التي تتصل بعلم الأخلاق، التي أثارها تعليم السفسطائيين تتركز حول لفظي طبيعة (physis) وعرف (nomos)[١].

وقد اختلف أفراد السفسطائيين اختلافا بعيد المدى في النتائج التي وصولا إليها، فكان بعضهم مثل هبياس يذهب إلى أن أساس الواجب الخلقي هو قانون الطبيعة غير المكتوب، الأبدي والالهي، في حين يعتقد غيرهم مثل ثراسوماخس Thrasymachus أن الحق للقوة بموجب قانون الطبيعة أو مرة أخرى، أن العدالة الاجتماعية كانت تصالحا مصطنعا فرضة على القوى الضعيف، في الدفاع عن النفس. وأنكر غيرهم أيضا مثل فروطغراس، وجوده أي مبدأ طبيعي لا يتغير وكانوا يعلمون أن قواعد العرف في المدينة يجب أن يقبلها ويراعيها المواطن[٢]. وتهيئ هذه المناقشات في نغمتها شبها يلفت النظر بتلك التي جرت في استنارة أواخر القرن الثامن عشر والتي تضمنتها كتابات روسو Rousseau وتوم بين Tom Paine ووليم جودون William Godwin.

وفي مقدمة اعلان الاستقلال الأمريكي وفي بيانات الثورة الفرنسية وفيما أثاره في زمننا، المنادون بدعاوي الإنسان الأعلى (السوبر مان) والدولة العليا ضد قيود التقديرات[٣] الخلقية التقليدية، وإنها لتمثل عبقرية الإغريق، في إدراك المشاكل الجوهرية والدائمة في سلوك الإنسان، ولقد أفاضوا البحث في موضوع الطبيعة والعرف ذاته، في متنوع تطبيقاته، على أصل المجتمع واللغة ومركز المرأة والرقيق الاجتماعي، وإقامة نظام الملكية الخاصة وصحة التقاليد الدينية[٤].

---

(١) Nomos= "العرف" وكذلك "القانون" أي ما يكون من وضع الإرادة البشرية ويمكن أن يشرع أو يلغي ويختلف باختلاف الزمان والمكان. وكثيرا ما يستخدم في معنى "القانون والعادة" كما جاء في نص لأرسطاليس (علم السلوك- ٥ فصل ٢، ١) بأن ما لا يأمر به nomos فإنه يمنعه.

(٢) عن آراء هبياس راجع اكسنوفن Mem:٤، ٤ وازن انطيغون، لسفوكلس ٤٤٩- ٥٧ عن مبدأ مماثل. وعن ثراهومخس، راجع أفلاطون "الجمهورية ١" ووازن خطاب غلوقن Glaucon في مستهل الكتاب الثاني ويجئ حكم أفلاطون النهائي عن التناظر التاريخي بين nomos, physis في "القوانين ٨٨٩".

(٣) كان الإنسان الأعلى superman موضوعا شائعا في اليونان في النصف الأخير من القرن الخامس. وكان يمثل البطل هرقلس Heracles راجع تمثيلية أريفيدس "هرقلس المجنون". وعن الدولة العليا راجع الديالوج الميلي Mellian dialogue في ثقوديدس.

(٤) عن أصل المجتمع- راجع أفلاطون- فروطغراس صفحة ٣٢٠ وما بعدها والجمهورية: ٢ (خطاب غلوقن). أما عن الرق فانظر التذكرة الإضافية عن هذا الفصل. ويجب ألا يغيب عن الذاكرة أنه بينما كانت الثقافة الإغريقية تقوم، دون ريب، على أساس الرق فإن الإغريق كانوا أول شعب شك في مبرراته. وعن الشيوعية راجع أفلاطون: الجمهورية- ٤،

وكان نتاج المناظرة استخلاص تصور اكثر صدقا، عن الطبيعة وللطبعي على أنهما يعنيان، ليس حالة بدائية وهمية تتجرد عن كل اكتسابات اجتماعية، ولكن بالحرى الإدراك التام الإنسان الاجتماعية، وكان هدف أفلاطون في "الجمهورية"– الكشف عن هذا المثل الأعلى لشخصية انسانية، اكتملت لها خصائصها، وبهذا يشفى الانفصام الجافي بين نفع أو صالح الفرد وذلك الذي يكون للمجتمع.

وسنعود فيما بعد إلى حله للمشكل، وهو الذي جعلته بحوث السفسطائيين النقدية ميسورا. ولو أن تعليمهم كان ينحو منحى التشكك، وبهذا أثار الخصومة المريرة في المحافظين أمثال أرسطوفانس، فقد ثبت مع هذا أن نتائجه كانت في جوهرها إنشائية، وكان من الضروري التحليل التام للمعتقدات التقليدية، إذا كانت القيم الخلقية ليعاد صوغها على مبادئ عقلية، وقد أتى نقد السفسطائيين النفاذ بالثمار على مذهبي أفلاطون وأرستكاليس، التفكيريين.

١٦– وأبعد المفكرين شهرة، في ذلك العصر، دون منازع كان سقراط الأثيني (٤٦٩– ٣٩٩) أعظم معلم بشري عاش على الإطلاق[١]. وبين فيض العبقرية التي ازدانت بها أثينا في النصف الأخير من القرن الخامس كانت شخصيته فريدة ولها تأثير في الروح، إلى اقصى حد. كان مظهره الغريب وأساريره– الشكل البدين وال{أس الصلعاء، والأنف المفرطح والشفتان المكتظتان والعينان الجاحظتان– يذكر أفلاطون بصور اله الغاب سلنوس **Silenus** وكان يسير في خيلاء وهو حافي القدمين مهلهل الثياب، خلال شوارع أثينا "كابن الماء" كما يقول أرسطوفانس، وكانت عاداته وسمته يبعثان الانزعاج في نحو غريب، عندما كان يفاجئ جماعة من السفسطائيين

٤١٦– ١٧ و٥. وينتقد أرسطاليس– السياسة: ٢ هذه الآراء وخطط غلياس الخلقدوني **Phaleas of Chalcedon** لوضع تعادل بين الملكية الحقيقية وامتلاك الدولة للعبيد، وما يترتب عليه من رقابة الدولة على الصناعة. وعن مركز النساء، راجع أول التذكرات الإضافية في هذا الفصل.

(١) أن أهم المصادر للمعرفة بسقراط هي مذكرات اكسنوفن **Xenophon's Memorabilia** والسحب "**Clouds**" لأرسطوفانس وديالوجات أفلاطون. وما ذكر في النص يرجع أصلا إلى المصدر الأخير. وليس من الميسور في هذا المؤلف مناقشة الأسباب التي تحدو إلى رفض اعتبار سقراط أفلاطون، أسطورة فاجعية. وللقارئ أن يرجع إلى كتابات الأستاذين بورنت **Burnet** وتايلور **Taylor** (اللذين أثرت آراؤهما على ما أورد هنا) على أن يذكر أن ما وصلا إليه من نتائج ليس، بأية حال موضع قبول عام. ومع هذا فإن المؤلف مقتنع أنه إذا لم يقبل أفلاطون على أنه المصدر الأساسي عن سقراط، فمن المستحيل تقديم تفسير مفهوم لفلسفة أفلاطون أو تأثير سقراط أو "تهكم" أرسطوفانس. راجع بورنت من ثاليس إلى أفلاطون **Thales to Plato** وتايلور "متنوعات سقراطية **Socratica Varia**" ومقدمة طبعة بورنت لكتاب أفلاطون **phaedo**.

أو الصاخبين في وليمة، أو نبلاء أحداث في حلبة المصارعة، أو وهو واقف في تجهم وصمت مددا من ازمن في طريق المرور أو في المدخل ذي العمد وقد استولت عليه غيبوبة تألهية[١]. والهاتف الداخلي أيضا– (الشيء الإلهي) "daimoneon" كما كان يدعوه– الذي كان يقدم إليه النصح في صوت مسموع ليتجنب الخطر في اللحظات الحاسمة في حياته وينهاه على سبيل المثال، من ولوج السياسة، كان مما يتفرد به عن غيره من معلمي زمانه[٢]. ولقد كان يعيش في فقر نسبي ويحقر أن يستولى على أجر عن القيام بما كان يعتبره رسالة الهية، وكان يقف في معزل عن السبل المعترف بها للوصول إلى الميزات المدنية، إلا في فرصتين حدثتا في ختام حياته عندما أجبر على أن يكون في الطليعة في السياسة، وأظهر الاستقلال الذي كان ديدنه في مقاومة وصاية الديمقراطية ووصاية الطغيان، على السواء[٣]. ومن الوجهة الأخرى، فإنه خدم في مناسبات عديدة في بسالة ظاهرة في الميدان، وكانت شجاعته الشخصية مضرب الأمثال في جميع أرجاء اليونان[٤]. ولم يكن سقراط معنزلا، ولم يكن في طبعه شيء من الصرامة التي تكون في الأرستقراطية العقلية أو زهد المتطهرين.

وكآخر– كان يأتي طاعما شاربا، وكانت رقة حاشيته صفة تميز بها كضبط النفس الذي أثار إعجاب وحسد معاصريه. وكان سر تأثيره في قوة شخصيته وفي سحر حديثه. وفي هذا، كما كان أيضا في مظهره العجيب ومسلكه، ورحابة اهتمامه الإنساني وميله الشديد للجدل وحبه للمدينة التي لم يغادر حيطانها قط إلا عند الاحتجاج– "أني أتعشق المعرفة، والناس الذين يقطنون بالمدينة هم معلمي، وليس الأشجار أو الريف"[٥].– فإنه يورد إلى ذاكرتنا أحيانا دكتور جونسون، ولم يترك أية كلمة مكتوبة، ولكنه عاش مدى سبعين عاما تحت بصر الجمهور، ينفق أيامه في محادثات مع أقرانه من كل صنف وحاله، الأغنياء، والفقراء ورجال السياسة وقواد الجيش والشعراء والمفكرين والوضعاء من رجال الحرف والنسوة الدنيويات، محادثات يصفها أفلاطون بأنها مضحكة عند أول سماعها. وحديثه يدور حول الحمالين والحدادين وراتقي الأحذية، وهو أبدا

---

(١) أفلاطون "Symposium"– ندوة الفلاسفة ٢١٥– ٢٢ وعن الغيبوبة .Sym: ١٧٤– ٥ قابل أرسطو: الغيوم ١٥٠.

(٢) عن daimonion راجع .Apol: ٣١، ٤٠ و.Rep: ٦.

(٣) كانت المناسبتان في ٤٠٦ و٤٠٣ راجع أفلاطون .Apol: ٣٢.

(٤) راجع Symp في النص المذكور.

(٥) أفلاطون: Phaedr، ٢٣٠.

يكرر نفس الأشياء في نفس الألفاظ حتى أن أي جاهل أو أي شخص غمر لم تصقله التجارب قد يحس ميلا إلى الضحك منه. ولكنها ألفاظ هي في صميمها الألفاظ الوحيدة التي تحمل معنى في مطواها والتي هي الهية إلى أعظم حد، وتزخر بالجميل من صور الفضيلة ومفهومها اعظم ما يكون رحابة، أو بالحرى تنسحب على واجب الرجل الخير الكريم، بأجمعه[١].

١٧- وعندما يلخص أرسطاليس ما أضافه سقراط لتاريخ الفكر في عبارة "الاستقراء والتعاريف العامة" فإننا نتعرض إلى هزة من الرجوع للواقع وذهاب الوهم[٢]. أن عمل حياته لابد أنه كان يعني أكثر من ذلك. أن أرسطاليس بالطبع معنى بخدمة سقراط للمنهج الفلسفي وكل باحث يعلم كيف أن اصلاح المنهج يعلن مقدما عن كل تقدم حاسم في تاريخ العلم. وفضلا عن هذا- فإن استقراء سقراط كان يتضمن الاعتراف بطبائع الأشياء الحقيقية التي تشمل عليها مظاهرها المحسوسة، بينما "التعريف" في اعتباره كما في اعتبار أرسطاليس لم يكن مجرد ألفاظ، ولكن التعبير الدقيق عن جوهر الأشياء المعرفة. وفي حداثته، كما نعلم من "الغيوم" ومن نص عن تاريخ حياته في "فيدو" لأفلاطون كان سقراط باحثا شغوفا في المذاهب الطبيعية التي اكتسحت وقتذاك الميدان. ولكنها عجزت عن ارضائه لأنها كانت تتحدث فقط عن "كيفية" الأشياء وكانت رغبته تجنح إلى معرفة "أسبابها"، وخرج من نفس الباب الذي دخل منه[٣]. والفيثاغويون وحدهم، الذين هدتهم البحوث الرياضية إلى التفكير في حقيقة فطنة تقع إلى الخلف من مرأى الظواهر المحسوسة، كما يظهر أنهم يبينون الطريق الذي يؤدي إلى هدف مسعاه، المعرفة التي يدعمها الاستدلال العقلي بالخير المثالي. ولقد كان سقراط مفكرا يسير على النهج العلمي ومتألها دينيا في الوقت عينه. وكان إيمانه بالعقل لا تطفأ غلته- إنه كان ابن اليونان الصادق في اعتقاده أنه فقط بالكدح العقلي تستطيع روح الإنسان أن تصل إلى رؤية الحق الكامل، ولهذا كان تقوم الفلسفة في نفس الوقت، انجاز دعوة دينية. وقد حفظت القصة التي تحكي كيف أنه وهو بين الثلاثين والأربعين عاما من عمره أعلن مهبط الوحي في دلفى أن سقراط أحكم الناس، وعلى

---

(١) على فم القبيادس، يمتدح سقراط .Sym ٢٢١- ٢.

(٢) أر :Met: ١، ٦ و٨، ٤.

(٣) راجع Phaedo: ٩٦ وما يليها. في مطلع شبابه، قابل سقراط فارمنيدس وزينون وكذلك فروطغوراس: أفلاطون: Parm. ١٣٠: ١٣٥ و,.Protag: ٣٦١.

ذلك استدعى إلى الرسالة التي خصص لها بقية حياته[١]. وقد سأل نفسه كيف يتأتى ذلك بما أن الله وحده هو الحكيم وهو، سقراط، لا يعلم من الحكمة شيئا. ولدينا هنا التفسير لتصور سقراط لأروس Ercs أو الحب، وليد الوفرة والحاجة الذي كان يتلاعب حوله في أحاديثه مرة في مزاح ومرة في جد عميق– الفكرة أن الإنسان خليقة عالمين، ويتوسط الطريق بين الجهل والمعرفة وخلاصة يكون في التعطش بعاطفة عنيفة للحكمة "Philosophia" ذلك التعطش الذي يقود الروح صعودا من حب مسائل الحس الزائلة، إلى حدس جمال عقلي، نوره وحده هو مصدر النعمة والحق لحلم الحياة القلق[٢]. وقد صدق سقراط مهبط الوحي بقوله: "إنه ولو لم يؤت من العلم شيئا آخر، فإنه يعلم أمرا واحدا– جهله هو، بينما كان غيره يظنون أنهم حكماء وهم ليسوا على شيء من ذلك. وهذا هو "تهكم" سقراط (irony منهج سقراط في المناقشة بادعاء الجهل) الذي كان ينير مثل ذلك الدهش والضجر في سائليه[٣]. كيف كان يستطيع أن ينقذ أرواحهم بالكشف عن معرفة هو لا يزال يبحث عنها– إلا بإقناعهم بجهلهم هم، وبذلك يوقظ فيهم الرغبة في أن يعرفوا؟ وهذه كانت في الحق الرسالة التي تهيأ لها في ولاء لا تعتريه كلالة، أن يأتي بالفحص على موازين الرجال في السلوك والغايات التي يحبونها ويعيشون لأجلها ويختبرها بمنطق صارم مبدد، إلى أن ينزاح عن السامع طمأنينته ويقر أنه أصبح متسلولا ولا حول له." ولقد قال سقراط "إن حياة لم تفحص لا تستحق العيش"[٤].

وقد شبه نفسه بنعرة أرسلها الله ليلسع حصانا كريما هو الشعب (Jemos) الأثيني ليخرجه من عفوة الخمول، ومرة أخرى يشبه نفسه بقابلة روحية تأتي بمولد أفكار صادقة في أرواح الناس[٥]. وعلى هذا يمكن أن نتخيله وهو يسأل انجليزيا معاصرا– ماذا كان يعني على وجه التدقيق بمثل هذه التعبيرات، الشرف "honour" الرجل المهذب "gentleman" أو مسيحي "Christian" ولماذا حدا به الطموح لدخول "البرلمان" ولماذا أرسل ابنه إلى الجامعة أو إلى مدرسة عامة.

---

(١) .Apol: ٢١ وما يليها.

(٢) شلي "ترنيمة للجمال العقلي" Hymn to Intellectual Beauty راجع .Symp : ٢١٠ وما يليها.

(٣) .Sly= Eiron- 216: Symp ماكر (بورنت الذي يقابلها باللفظ الاسكتلندي "Canny"). كان يوجد الكثير من الحس المشترك في سقراط ويستخلص من تهكم رفضه اطلاق "معلم" عليه .Apol: ٣٣.

(٤) Apol: ٣٨.

(٥) Apol: ٣٠، ٣١، Theaet ١٥٠، ٣٥١ راجع أيضا Meno ٧٩، ٨٠ لما كان من تأثير على سامعيه.

وكان سقراط يعمل دون هوادة ليكشف غموض آراء الناس في مثل هذه المسائل وأنهم لم يقطعوا بالتفكير فيها نهاية الشوط أو يواجهوا بديلا لها، وفوق كل شيء أن نظراتهم ومراسهم العملي لم يكونا غلا انعكاسا باهتا لرأي يمثل المستوى العام لما يراه العالم المحيط بهم. وهذا يعتبر الموضوع ذا الأهمية القصوى الدرة غالية الثمن، الخير الأعظم وغاية الحياة!.

وعلى هذا، اتخذ تعليم سقراط، صورة سلبية تكذب مغزاها الحقيقي. وتخلي عن لقب معلم لأنه كان يعلم أن الحكمة المنقذة يجب أن يظفر بها كل إنسان لنفسه، وأن مهمته الخاصة تكون فقط في أن ينتزع حجاب الجهل الذي يخفي الناس عن أنفسهم. والمعرفة بالذات وهي شعار معبد دلفى، كانت الشيء الوحيد الذي يحتاج إليه في الحياة وقوام الفضيلة.

وكان يقول أن الرذيلة هي الجهل، أو إذا اقتبسنا ما يظهر أنه طرفا نقيض "لا يخطئ أحد بإرادته الحرة"[1]. وكان يعلم أن الرخاء دون معرفة بالذات كان مصدر نصف التعاسة والشر في حياة البشر، وكان يعلم أيضا، وأفرط في علمه، كيف أن الناس، يغتفرون أي شيء أي إظهار جهلهم لهم وكيف يمقتون مقتا مريرا تحطيم شعورهم بالرضى عن ذواتهم، ذلك الرضا الذي قبروا فيه أرواحهم. وقد أنبأ قضاته " لم أكن غير عليم بالعداوة التي أثرتها ونالني الأسى والخوف من ذلك ولكن الضرورة وضعت على– ورأيت أن كلمة الله يجب أن يكون لها الاعتبار الأول"[2].– والقاعدة الرئيسية التي وضعها لإخوانه المواطنين بأنه يجب عليهم "أن يراعوا أرواحهم"، كانت تحمل دلالة، تميز عصرا ليس في الفلسفة الإغريقية وحسب، ولكن في الفكر البشري بأجمعه عن الروح، وكانت الروح (Psyche) تعني للإغريقي العادي في القرن الخامس ما كانت تعنيه لهومر، وكما سبق أن رأينا[3]. للعبريين كذلك، بأنها أصل الحياة الذي يغادر الجسم عند الموت ويسير إلى العالم السفلي حيث يعيش كشبح لا حياة فيه، في حالة دون وعي. أن أمر الناس بمراعاة مثل هذه الروح، كان استخدام الفاظ لا معنى لها. ومن الجهة الأخرى، فإن المعلمين الأرفيين والفيثاغوريين ميزوا في تحديد واضح الروح بأنها الهبة، وعلى ذلك خالدة، عن الجسد الذي احتسبت فيه عقابا لخطيئة ما قبل الميلاد، وهي في غفوة إلا في أحلام التنبؤ وكانوا يعلمون طريقا

---

(1) المعرفة بالذات: Phaedr: ٢٢٩ وMen:, Xem: ٤، ٢، ٢٤ وما يليها. الخير هو المعرفة Laches: ١٩٤ وProtag: ٣٤٥ وApol.: ٢٥ راجع Mem, Xem. ٣، ٩، ٤ وEthics. Arist: ٧، ٣، ١١٤٥ ب، ٢١.

(2) Apol.: ٢١ ي

(3) راجع ما سبق فصل ٣، ١٥ تذكرة ١.

للخلاص، بالتطهير من الحاجة إلى العود للتجسد. ومثل هذه الطريقة للتطهير يمكن على اليقين أن توصف بأنها "مراعاة الروح". ولكن سقراط كان يعلم شيئا آخر يختلف عن أي من هذين الرأيين. لقد رأي في هوية الروح شخصيتنا الواعية، الذات التي تملك القدرة على النشاط العقلي- التفكيري والعملي كليهما- الذي إذا ما روعى في عناية فإنه يجد تعبيرا له في المعرفة العلمية وفي الطبع الخلقي على السواء. وكان هذا مبدأ ثوريا وجديدا على الإطلاق، ويمكننا أن نفهم في يسر ما كان له من مغزى لسقراط والعداوة التي أثارها في جماعة سامعية الذين فزعوا لما كان ينطوي عليه من معان، وأخرجهم عن طمأنينتهم[1].

١٨- وجاءت النهاية عام **٣٩٩** عندما وصل سقراط إلى سن السبعين، وقد وجد أنه أذنب في تهمتين- عدم التقي وإفساد الشباب وحكم عليه بالموت- والعجيب حقا هو أنه تأجل زمنا استطال بهذا المقدار وكان الأثينيون كغيرهم من الشعوب الأخرى يحدوهم ميل للاشتباه في أولى العقل ولم يظهر سقراط قط أنه يضمر للديموقراطية ودا. وكان يعتقد أن الحكومة السياسية، كأي ناحية أخرى من نواحي العمل، يجب أن تكوم في أيدي أولئك الذين يعملون. وفوق هذا كله، وهنا قوة الاتهام- عد من بين المقربين إلى سقراط رجلات يحملان من بين الكافة، المقت الذي نجم عن سقوط أثينا حاكم القلة اقرطياس وهو أحد الطغاة الثلاثين الذين أقامهم الأسبرطيون لتولى زمام الحكم بعد استيلائهم على المدينة والسبيادس الذي أدى به مطمحة الجامع أولا إلى الحض على الحملة المشئومة إلى صقلية، وبعد ذلك إلى ما قدمه من نصح لأعداء أثينا عن السياسة التي كان فيها دمارها. ولم يكن هذا، في نظر الديمقراطيين الذين أعيدوا للحكم إلا ثمرة التعليم الجديد فعادوا باللائمة على سقراط باعتباره المصدر الحقيقي لما أصابهم من محن. على أية حال كانت عداوتهم سياسية وليست دينية، لأن سقراط كان يحرص أدق الحرص على المحافظة على عبادات المدينة. وكما حدث، فإنه كان قريبا من الحكم ببراءته. لو أنه رضى بالانسحاب إلى النفي، أو لو أن دفاعه لم يتخذ صورة تبرير رسالته تبريرا لا يقبل مساومة ويغلب أن يكون فيه زراية، لكان قد أنقذ حياته دون ريب. ولكن طبيعة سقراط لم تكن لتهيئ أي سبيل لفكرة المساومة على التصالح. لقد أقامه الله حارسا ويجب أن يكون أمينا على حراسته. وقد دفع عنه ما عرض عليه من فرار من السجن، إذ عده عملا ينطوي على عدم ولاء قوانين أثينا التي في

---

(1) راجع بورزنت عن مبدأ سقراط عن الروح (**Proc. Brit. Acad., 1915-6**) أعيد طبعه في "مقالات وخطب" **Essays and Addresses London 1929, pp. 126- 62).**)

كنفها ولد ونشأ، كما ولد ونشأ والده. ومات يتجرع السم[١]، شهيدا في سبيل العقل وحب الحق[٢]. وهو برفضه أن ينكر ما كان يعتبره رسالة الهية، ولو لمجرد انقاذ حياته وفي رفضه أن يرتكب ضرا ضد سلطة القانون، بتجنب العقوبة التي أوقعتها المحاكم فإن سقراط يقدم أعلى مثال "للمعارض الذي يهتدي بضميره".

٤- أفلاطون

من بين رفاق سقراط الأحداث، كان أفلاطون (٤٢٧– ٣٤٧) وهو ثري أثيني من أسرة كريمة خصص أعوام نفيه الاختياري التي أعقبت الحكم بإعدام أستاذه لتلك الكتابات التي حفظت ذكرى عقل سقراط وشخصيته أحسن حفظ. ويقع خارج نطاقنا أن نتتبع أثر ينبوع الفكر، الذهبي الذي يفيض خلال الديالوجات الأفلاطون[٣]. أن هذه نماذج عليا بلغت الغاية

---

(١) hemlock– شوكران– صرو– درست (فارسية) Conium masculatum 1 (المترجم).

(٢) راجع Apolcgy وCrito وPhaedo لأفلاطون ولفايدو الذي خص بها رفاق سقراط الفيثاغوريين، أهمية خاصة (أ) في أنها توضح تأثير الأفكار الأورفية والفيثاغورية على سقراط وأفلاطون، عن الروح والفلسفة على أنها نهج في الحياة والصور (أو الأفكار) على أنها موضوعات المعرفة الحقة، (ب) للتمهيد الذي يعالج السيرة حيث يسرد سقراط تاريخه العقلي الباكر، (ج) للمشهد الختامي الذي يصف موت سقراط وربما كانت أعظم نص في الأدب المنثور بأجمعه. وي١كر هجل (فلسفة التاريخ ٢٨١) أنه ولو أن سقراط أدى واجبه في ولاء نحو دولة المدينة، فإن عالم الفكر، وليس أثينا، هو الذي كان موطنه الحقيقي.

(٣) لقد وصلت إلينا جميع كتابات أفلاطون. ولا يمكن أن تذكر هنا الأسباب التي حدث إلى تحديد ترتيبها التاريخي لدرجة عظيمة من الاحتمال. ويمكن أن تذكر النتائج كالآتي لإرشاد القارئ في أول تعرف بأفلاطون. والترتيب بين كل حقبة أكثر مدعاة للشك.

الحقبة الأولى– (بين ٣٩٩ وحوالي ٣٨٧)

Crito, Apology, Euthyphro Euthydemus, Cratylus, Lysis, Laches, Charmides, Meno, Gorgias, Protagoras,

(والثلاثة الأخيرة كانت في ختام الحقبة).

الحقبة الثانية– (حوالي ٣٨٧ إلي حوالي ٣٧٥): **Phaedo, Symposium** (مبكرا) و**Phaedrus, Republic**.

الحقبة الثالثة– (حوالى ٣٦٧ إلى حوالي ٣٦٠):

Parmenides, Theaetetus,(أو السياسي)**Politicus Sophist**

الحقبة الرابعة– (حوالي ٣٦٠ إلى ٣٤٧):

Critias, Timaeus, Philebus Laws.

و"الجمهورية" هي نقطة التحول عندما بدأ فكر أفلاطون، الذي كان دائما لا يني يتحرك، في الانتقال إلى ما يوالي خطوط فلسفة سقراط، وفي الديالوجات الأخيرة، لا يكون سقراط (إلا في فليبس **Philebus**) بعد، المتحدث الرئيسي.

في الاستدلال العقلي الذي يسير على النهج العلمي، وفي الفن الفاجعي، على السواء. ويمكننا أن نقدر تمام التقدير كيف أن أفلاطون، في صدر شبابه اجتذب إلى كتابه الشعر. ولم تفسح الصورة الديالوجية المجال فقط أمام خيال الفنان ولكنها كانت تعكس– بطبيعة الحال– الحركة الحية لمحادثات سقراط وتصور أفلاطون الخاص للمنهج الفلسفي على أنه المحاولة الصاعدة للأرواح المقاربة، بمصاولة العقل للعقل في السعي وراء الحق المطلق[1]. ومن بين هذه لكتابات تقدم "الجمهورية" التي وضعها بعد عودته إلى أثينا، وعندما بلغ نضج عبقريته مداه، أفضل مدخل إلى دراسة فلسفة أفلاطون[2]. ولقد أوجزت أعظم ايجاز في مدى جميع الديالوجات وتستهل بالسؤال ما هي العدالة؟ وهي تضع صورة للمجتمع المثالي ولتقدم الروح صوب الحكمة الفلسفية وتختتم بصورة للحياة فيما يلي القبر. ويعالج مسائل علم الأخلاق والسياسة وعلم النفس والتعليم والدب والفن والدين والعلم في وحدة حية كعوامل في مسألة الكون الموحدة، مفكر كان موضع فخاره الذي يزهو به أن بكون "المتفرج على الزمن كله وعلى الوجود كله"[3]. ولكن جاء الالهام لأفلاطون ليس فقط بدافع الفلسفة ليعرف الحق، ولكن أيضا عن عاطفة متحمسة للإصلاح العملي. ومنذ حداثته عندما كان يتطلع إلى ولوج الحياة العامة في أثينا وطنه حتى رحلته الأخيرة، في شيخوخته إلى صقلية التي كانت على غير طائل، كانت تستبد به رغبة مستعرة لكي يخلص أرواح الناس وأن يقيم، على قدر ما كانت تسمح به الأحوال الدنيوية، مدينة الله، على التربة الهلينية وعنده، كما كان عند أستاذه سقراط، كانت الفلسفة أبدا "نهجا في الحياة" وكان قد معلم من سقراط أيضا أن الخير كان المعرفة وأن الأساس الوحيد الوطيد للسلوك العملي كان الإدراك الذي يقوم على الاستدلال العقلي، لمبدأ الخير. وعلى هذا فإن المسألتين، التفكيرية

وعن الموضوع برمته راجع بورنت **Thales to Plato** وتذكرة ١، ١٦. ورسائل أفلاطون أما أنها أصلية وأما أنها على أية حال وثائق معاصرة عظيمة القيمة.

(١) أن تعبير أفلاطون عن الفلسفة، كعلم وكمنهج على السواء هو **Diatectic** وهو مستمد من الفعل **dialgesthai** (=يتحادث) ويرتبط بلفظ "ديالوج". ويقول أفلاطون أن الروح، حتى عندما يكون الإنسان مشغولا في تفكير منعزل، تناجي نفسها في ديالوج (**Theaet, 189, Soph, 263**). وكان أفلاطون نفسه يفضل التعليم الشفوي على العبارة المكتوبة راجع– **Phaedr**: ٢٧٥ وما يليها.

(٢) ربما أكملت الجمهورية في الوقت الذي كان فيه أفلاطون مشغولا بتأسيس الأكاديمية بين حوالي ٣٨٧ وحوالي ٣٧٨. وكان حينئذ بين الأربعين والخمسين من عمره.

(٣) "**Rep**" الجمهورية: ٦– ٤٨٦.

والعلمية أوجدتا لأفلاطون حلهما المشترك في الفلسفة، في معرفة يجب أن تكشف حقيقة العالم الداخلية، كخير مالي وتكون الهدف لعمل الفرد والمجتمع. ما كنه هذه المعرفة، وكيف يستطيع الإنسان الوصول إليها؟ هذه هي الأسئلة في فلسفة أفلاطون.

٢٠- ولم يخامر أفلاطون ريب قط في أن المعرفة يجب أن تكون معرفة ما هو كائن وموضوعها يجب أن يكون له وجود حقيقي. وعنده أن الحقيقة لا يجب أن تكون قابلة للمعرفة وحسب، ولكن المعرفة يمكن فقط أن تكون بما هو حقيقي. إذن أين يوجد الموجود الحقيقي؟ اعتقد هو قليطي أن كل ما يوجد في عالم الحس هو في تغير لا ينقطع يصير أبدا إلى وجود وينقطع عن أن يكون موجودا، ولا يظل ثابتا في وجود. وطبق اتباع فروطغراس هذا المبدأ ليبينوا كيف أم كل مظهر عابر، على الأقل في مجال الحس، كان حقيقيا بالنسبة للفرد القادر على الإدراك الحسي في لحظة إدراكه الحسي، ولقد جردت هذه الآراء الحقيقة من كل معناها ولم يستطع أفلاطون أن يظل قانعا بها وعلى ذلك، سيق مثل سقراط قبله إلى أن يلتمس الموجود في مكان آخر غير عالم الحس. ويبين التأمل في تفكيرنا الواقعي أنه يشمل مواضيع من نوع جد مختلف عن معطيات- الحس لأن هذه يمكن معرفتها فقط بمعاونة التصورات العامة التي تدرك ليس بالحواس ولكن بالفكر. وهذا جلي على الأخص في أحكام علم الرياضة وتلك التي تعبر عن القيم الخلقية والجمالية. ولا توجد خطوط أو دوائر ندرك بالحس. تتعادل تعادلا تاما وإطلاق "خير" على عمل و"جميلة" على صورة يتضمن ميزانا واحدا من الخير أو الجمال، وتكون الحالات الفردية بالنسبة له تقريبا ناقصا[١]. وعلى هذا اهتدى أفلاطون إلى الاعتقاد بعالم يمكن أن يدرك بالتفكير فقط حيث تكون فيه الصور أو الأفكار في "وجود" لا يتغير كحقائق مادية، وهي الأنواع الأولى في درجة الكمال "يسهم فيها" أو "يحاكيها" نماذجها العديدة المتغيرة، في عالم الحس. وهذه الصور وحدها كانت مواضيع "المعرفة" العلمية وأمثلتها المعينة، في عالم الحس، من الجهة الأخرى، كانت مواضيع "الظن" المعرض للخطأ والتقلب ومصدر الخطأ التفكيري والخدعة الخلقية. وذاك الذي يفكر ويعيش في عبودية لجسده وأشياء الحواس فإنه على الرغم من بصيرته النفاذة في الظروف الخاصة التي تحيط به يشبه شخصا يسير وسط أطياف حلم في نومه، والفيلسوف بعين عقله وقد حددها في الحقائق التي يمكن أن تدرك بالتفكير فقط، هو دون سواه

---

(١) راجع **Phaedo** التي توضح كيف وصل أفلاطون (سقراط؟) إلى مبدأ الصور (أو الأفكار) بدراسة الأحكام الرياضية والخلقية والجمالية.

الذي له رؤيا يقظة[١]. ولقد نادى أفلاطون بمبدأ عالمين وربما لأول مرة في تاريخ الفكر الغربي، ينسب الوجود الحقيقي للجواهر غير المادية. وبالإضافة إلى هذا، فإن الصور ليست ذرات روحية منعزلة ولكنها تكون اقتصادا أو نظاما يمكن إدراكه بالتفكير فقط ومهمة الفيلسوف الأساسية هي في تقصيه. وفي أسمى مكانة في هذا النظام التدرجي الذي يقع فوق ما يدرك بالحس، تعلو صورة الخير، أصل القدرة على المعرفة وعلى الموجود، على السواء في جميع الصور الأخرى وهو في ذاته "يسمو فوق المعرفة والموجود"[٢]. وفي "الجمهورية" يعبر أفلاطون عن ضيقه في أن يفسر تفسيرا مباشرا "موضوع المعرفة الأعلى" هذا ولا يأتي بتكملة النقص في أي مكان في كتابته، وفي الواقع فإنه يذكر بإيضاح في خطاب "لا توجد كتابة لي عن الموضوع ولن توجد أبدا. لا توجد القدرة على التعبير عنه كغيره من فروع الدراسة ولكن نتيجة للتواصل الطويل وحياة عامة أنفقت فيه، فإن نورا يشتعل كشرارة تقفز وعندما تصل إلى الروح تجد تغذية لنفسها"[٣]. ومع هذا فإننا نعلم أن الخير كان يكون المرمى لكل مسعى أفلاطون العقلي وأنه كان يلقى محاضرات عن الموضوع في الأكاديمية حتى ختام حياته[٤]. لقد اعطى وحدة ومذهبا للعالم الذي يمكن أن يدرك بالتفكير فقط، وجاء بالانسجام على الصور في غرض عام واحد وله مكان السيادة.

وكما في عالم الحس تكون الشمس مصدر النور والحياة لكل المخلوقات فهكذا الحال في عالم الفكر، تستمد الصور قدرتها العقلية ووجودها من صورة الخير[٥]. كان هذا مجمل أفلاطون على السؤالين: ما هي المعرفة؟ وما هو الموجود؟ وهما اللذان يكونان عبء الميتافزيقيا (ما وراء الطبيعة) في جميع العصور وحله عرضة لإساءة التفسير وفي ثلاثة اتجاهات: (١) أن الصور ولو أنها تدرك بالذهن عن طريق التصورات العامة، ليست معنويات فكرية ولكنها جواهر توجد

---

(١) راجع الجمهورية: ٥، ٤٧١ وما يليها و٦ و٧. من المحتمل جدا أن مبدأ الصور (ويستخدم أفلاطون اللفظين **Eidos** (صورة) و**Idea** فكر– واللفظ الأخير غامض في الإنجليزية)، قال به سقراط وإنه استمده من التفكير الفيثاغوري. ووقد وضع أفلاطون النظرية، كما قدمت في **Phaedo** و"الجمهورية"، موضع النقد والتعديل الأساسي في الديالوجات الأخيرة (وخاصة **Parmenides**).

(٢) الجمهورية ٦، ٥٠٩ هذا التعبير كان النص الذي استمدت منه، بعد ذلك، الأفلاطونية الحديثة فكرة الواحد، الذات الأعلى= الخير وهو أعلى عضو في ثالوث فلوطينس **Plotinus** الروحي (راجع المجلد الثاني فصل ٩، ١٢).

(٣) **Epp**: ٧– ٣٤١ (ترجمة بورنت).

(٤) لقد نشر ارستطاليس تذكراته على محاضرات أفلاطون عن الخير ولكن هذه لسوء الحظ لم يحتفظ بها.

(٥) "الجمهورية": ٦، ٥٠٤ وما يليها.

مستقلة عن ذهن أي مفكر، في عالم روحي موضوعي[1]. (٢) وصورة الخير لا يربط أفلاطون هويتها بالله. أن الله ليس صورة ولكنه روح نشيط حي. المصدر– المتحرك بذاته– لحركة السموات وكما يسرد أفلاطون في لغة شبه أسطورية في "طمايوس"، فإنه خالق الكون الذي يدرك بالحس (أي الكون المحسوس)، نقلا عن نماذج الصور ووفقا لقانون رياضي. أن المبادئ القائلة أن الله هو بذاته الخير الأعظم وأن الصور هي أفكاره الأبدية ووجودها كائن في العقل الالهي، لم تكن مبادئ أفلاطون ولكن تعديلات لنظرية أفلاطون أوحت، بطبيعة الحال بذاتها للأفرطون الحديثة ولمفكري العصور الوسطى[2]. وأخيرا (٣) يجب ألا يذهب الظن إلى أنه بإنكار المعرفة العلمية لأشياء الحس، فقد نبذها أفلاطون على أنها خدعة أو لا قيمة لها. ليس لأن عالم الحس لا حقيقة له، ولكن لأن حقيقته الجزئية يمكن أن يراها فقط الذهن الذي يدرك اعتمادها على الصور– هو ما يدعو أفلاطون إلى أن يصر على أن الصور هي في ذاتها موضوعات الدراسة العلمية الحقة. وفي الواقع تصور أفلاطون عالم الحس بأن الله صاغه في الفراغ من أشكال هندسية وهي نظرية لا تبعد كثيرا عن ارجاع ديكارت للجسم المادي إلى حدود امتداد له شكل. ولقد كان أفلاطون باحثا متعمقا في العلوم الرياضية التي كان يعتقد أنها المدخل المناسب للفلسفة. وتوجد أسطورة تقول إنه كتب على بوابات الأكاديمية هذه الكلمات "لا تدع أي شخص لا يلم بالهندسة يدخل هنا". وفي رأيه، كانت الرياضيات تهيء التفسير للطبيعة المادية ونظريته التي جاءت بعد ذلك، عن الصور، كانت على ما يرجع كثيرا مبدأ من مبادئ النسب الرياضية، قريبا من مبدأ علم الطبيعة الحديث، إلا أنه في اعتبار أفلاطون، يتطلب التفسير الرياضي أساسا له– وهو أبعد من أن يعزل الشرح عن حدود الغرض– صورة الخير الذاتية[3].

---

(1) في **Parmenides**: ١٣٢، رفض في إيجاز الرأي الذي يقول أن الصور هي تصورات في العقل.

(2) وهب الله العالم المحسوس روح– عالم حتى يمكنه، إلى أبعد حد ممكن، أن يشبه خيره هو. ولقد كان لهذا التصور تأثير على التفكير اللاحق. وكان فيلو **Philo** (القرن الأول الميلادي) اليهودي المتأهلن، في الإسكندرية أول من عالج الصور على أنها أفكار الله. ويذهب بورنت "تاليس إلى أفلاطون" الفصل ١٧ إلى أن أفلاطون كان أول فيلسوف يضع الألوهية على أساس علمي

(3) عن العلوم الرياضية راجع الجمهورية: ٧، ٥٣٢ وما يليها. وكانت فلسفة أفلاطون، كفلسفة سقراط، في جميع مناحيها، تنتهج بحث العلة الغائية، ويرجع الموجود أو الحقيقة لكل جزء في الطبيعة إلى وظيفته أي في علاقته بغاية أو خير. ويكون أحسن فكرة لصورة الخير كفاية عليا، وحدة، تجمع كل الغايات الفردية والجزئية في وحدة ذات مذهب. وكل قوانين الموجود لجزاء العالم الخاصة يمكن الاستدلال عليها من هذه الغاية العليا الوحدة. أن مبدأ أفلاطون يبعد بعدا عظيما عن مبدأ الحتمية الميكانيكية، وأينما يجد قانونا وهو يجده في كل مكان، فإنه يجد العقل والخير.

٢١- وفي طبيعة الإنسان، يظهر التمييز بين النظام الذي يمكن إدراكه بالتفكير فقط، والمحسوس، كالتمييز بين الروح والجسد والروح **Psyche** عند أفلاطون، كما كانت عند أرستكاليس بعده هي أصل الحياة والحركة وعلى هذا، فأينما توجد الحياة والحركة، توجد روح والروح الإنسانية وهي أبعد من أن تكون التعبير الوحيد أو الرئيسي للروح، ليست إلا صورة واحدة من مظاهرها. والفلسفة الإغريقية تتناقض تناقضا تاما مع النزعة الحديثة في اعتبار الذهن الإنساني الواقعة المحورية للتجربة. وبجانب الروح البشرية وما دون الروح البشرية. يوجد في كون أفلاطون روح الله وروح العالم والأرواح الالهية التي تحرك التي تحرك النجوم. وفي شدة اعتقاد عنيفة، كان أفلاطون يؤمن بأن الأرواح خالدة خلودا ملازما، وبرهانه القاطع الذي ذكر في فيدرس ومرة أخرى في آخر ديالوج له "القوانين" يقيم الدليل من واقعة الحركة على ضرورة سبب للحركة التي تتحرك ذاتيا وعلى ذلك لا يمكن أن تبدأ أبدا أو تنقطع عن الحركة[١]. وتبعا لهذا فإن الروح البشرية كغيرها من الأرواح كافة، كانت توجد قبل حلولها في الجسم وستبقى بعد موت الجسم. وبهذا يشرح أفلاطون كيف أن نسخ الصور، غير الكاملة، في عالم الحس تورد للذهن، الأنواع الأولى الكاملة التي كانت تعرفها قبل الحلول في الجسد وتوجد حلا للتساؤل الصعب وهو "كيف يتاح للإنسان معرفة تتعالى عن حدود الاختبار الحسي"[٢]. وتساعده أيضا على معرفة السبب في أن الألم الحاضر هو تفكير عن شر ارتكب في تجسد سابق وعلى أن ينشئ المبادئ الخلقية الصادقة عن الثواب أو العقاب بعد الموت وفي التطهير الا طرادي في سلسلة من الحياة[٣]. وهنا يقيم أفلاطون البناء على تربة التعليم الأورفي الذي وصل إليه عن طريق الفيثاغوريين وسقراط. أن الجسم هو سجن وقبر الروح وموته هو تحرير الروح وحياة الفلسفة التي تعلق فكر الذهن على صور ما وراء الحس هو التمهيد لهذا التحرر وفي الحقيقة البحتة، دراسة الموت[٤]. وتظهر الروح البشرية وهي في اتحادها الموقوت بالجسد، ليس في نقاوتها الطبيعية، ولكن كاله البحر غلوقس **Glaucus** في القصة، "تتغشاها الأصداف والأعشاب البحرية"، حتى

---

(١) **Phaedrus ٢٤٥** ج القوانين: **٨٩٣** ب وما يليها. وقد أهملت الدلة الأولى في **Phaedo** و"الجمهورية" في الديالوجات التي جاءت بعد ذلك ومن المرجح أنها كانت أدلة سقراط خاصة، بمعزل عن حجج أفلاطون.

(٢) راجع **Meno**، ٨١ وما يليها عن مبدأ التذكر **anamnesis**، هذا.

(٣) راجع الأساطير في **Republic, X, Phaedo, Gorgias, Phaedrus** وأساطير أفلاطون لاستوارت **Stewart**.

(٤) راجع **Phaedo**، ٦٤ وما يليها.

أن طبيعتها الذاتية، "العقل" يكون مستخفيا عن الرؤية الخارجية[1]. وفي تجاربنا الواقعية تكون الروح وحدة مركبة من ثلاث قوى: العقل وهو الموهبة الفلسفية والسلطة العدل في اقتصاد الروح الذي يضمن حكمة الانسجام في الداخل وكذلك مع العقل القريب له في الأرواح الأخرى وفي الكون، ثم الموهبة "النشيطة" أو العاطفة المندفعة، المشاغبة وهي الخادم الطيع للعقل ولكنها عرضة إذا لم توجه، لأن تقود الروح إلى الانحراف في طريق التوكيد الذاتي والشهوات التي ترتبط بالمتع الجسدية، بعضها مشروع والبعض الآخر غير مشروع ولكنها جميعا لا يشفى لتعطشها للرضى غلة وإذا لم يقومها العقل في صرامة فإنها تهوى بالروح في مضطرب من الفوضى والتفكك. ويمكننا أن نتصور وراء مظهر الرجل، الخارجي، مخلوقا يتركب من ثلاث طبائع– تلك التي لرجل (العقل) لأسد (العاطفة) والعدار **Hydra**[2] ذي الرءوس العديدة (الشهوات) [3]. ومنهاج "الجمهورية" الخلقي والتعليمية يستند في معظمه على هذه التفرقة النفسية مثلوثة العري، فمثلا صورة ثلاثة أنواع من الحياة، ألهم بها على التعاقب، حب المتعة وحب الشرف وحب الحكمة وتحليل الفضيلة الخلقية إلى ثلاث الصور المعينة، الحكمة والشجاعة والاعتدال، التي ترجع إلى أصل واحد وهو العدالة والمبدأ الذي يعاوم كل قسم في النفس على القيام بعمله المناسب، في اقتصاد المجموع ويضمن انسجاما أو "موسيقى" في الروح بأجمعها وتقسيم التعليم إلى موسيقى وألعاب بدنية وأنواع تقويم الشهوات و "المزاج". التي تكون الأساس الخلقي المطلوب لاستخدام العقل في الأعوام الأكثر نضجا وأخيرا تصور الفلسفة على أنها تحويل الروح من ظلمة عالم الحس إلى نور عالم الصور وعلى أنها استعداد يستمر مدى الحياة، لمراسى العقل مراسا لا يعوقه عائق في عالم ما وراء القبر[4].

٢٢– وعلى النقيض من أولئك الذين كانوا يعتقدون أن الأخلاق ما هي إلا مجرد عرف

---

(١) **Rep** ١٠: ٦١١.

(٢) العدار هو في أساطير اليونان حية عظيمة قتلها هرقل وزعموا أنه كان لها تسعة رءوس كلما قطع رأس منها نبت آخر. وفي أساطير العرب دابة في اليمن لها شيء أعظم من رءوس عدار اليونان– المترجم عن معجم الحيوان لأمين المعلوف.

(٣) "الجمهورية": ٩، ٥٨٨– ٩قابل تشبيه مركبة الروح **Phaedrus**، ٢٤٦ وما يليها.

(٤) عن علم النفس عند أفلاطون وتطبيقه على علم الأخلاق وتعليم الصغار راجع "الجمهورية": ٢– ٤ ولتدريب العقل تدريبا عاليا– "الجمهورية": ٧ (وخاصة القصة الرمزية عن المسجونين في الكهف) وكذلك عجالة نتلشب **Nettleship** عن نظرية التعليم في "جمهورية أفلاطون" في المجلد بعنوان **Hellenica**.

وأن الفرد يجد سعادته الحقيقية في حياة توكيد الذات، بين أفلاطون كيف أن الإنسان في صميم كيانه، عينه، تميز بالتعاون الاجتماعي وقد صاغ موقفين لهما ارتباط وثيق وهما أن كل فرد له بطبعه قدرة فريدة تحدد وظيفته الخاصة في المجتمع وأن هذه الوظيفة يمكن فقط القيام بها على الوجه الأتم، حتى تجلب السعادة للقائم بها، عندما يكون المنظم لها "الخير العام"[١]. أن "اقتصاد" الدولة يتوقف على نفسية المواطنين، وهذا التماثل بين دولة– المدينة والفرج يتحكم في صورة طرزهما، الخيرة والسيئة خلال "الجمهورية" بأجمعها. ويلزم تقسيم الوظائف الاجتماعية على أساس خصال المواطنين الفردية، فأولئك الذين تغلب في نفوسهم الشهوة يؤدون العمل البدني بأن يمدوا المجتمع بحاجاته المادية كالصناع والزراع، والنفوس "النشيطة" تكون الطبقة العسكرية، والنفوس "الفلسفية" التي برهنت في اختبارات متكررة على قدرتها على حياة العقل، يوكل إليها أعلى مهمة وهي الحكم. وبهذا يخلص أفلاطون، في خلال خطوات منطقية، إلى نقيضته المشهورة "إلى أن يصبح الفلاسفة ملوكا والملوك فلاسفة فلن يكون خلاص للدول أو لأرواح الناس"[٢]. ولن يكون خلاص للدولة بما أن العقل هو القوة الكامنة في الروح، التي تدعو إلى الوحدة. وتحقيق العقل في الحياة الفلسفية هو الضمان الوحيد من الفوضى الاجتماعية ولا يكون خلاص لروح الفرد لأنه إذا لم يكن للعقل السيادة في المجتمع، فلن يستطيع أي فرد مقاومة ما للرأي العام وغوايات العالم[٣] من تأثير مفسد. ولما كان يعتقد أنه في مقدور الفيلسوف أن يصل في مدره حياته الدنيوية إلى قصارى المعرفة التفكيرية في رؤية الخير المطلق فقد استخلص النتيجة اللازمة الطبيعية في أن الفشل في التوافق في السلوك مع تلك الرؤية، كان مما لا يمكن تصوره وكانت المعرفة في هذا المستوى الرفيع تتطلب توافق السلوك. وكان من المستحيل ارتكاب الخطيئة ضد النور. ولقد آزرت المسيحية في الحال المبدأ الأفلاطوني وأدخلت عليه التعديل. فمن جهة كان للمفتدين في النعيم الذين يستمتعون برؤية الله رؤية مباشرة، الخير المطلق **non posse peccare**.

ومن جهة أخرى لم يكن في مقدور الناس في هذه الحياة الوصول إلى تلك الرؤية المباشرة

---

(١) راجع الجمهورية: ٢، ٣٦٩ وما يليها ويعبر عن مطالب التوكيد الذاتي في الفرد ثراسوخس **Thrasymachus** في الكتاب الأول، وغلوقن **Glaucon** وأيمنطس **Adimantus** في بداية الكتاب الثاني وقليقلس **Callicles** في غرغياس **Gorgias**.

(٢) الجمهورية ٥، ٤٧٣.

(٣) الجمهورية: ٦، ٤٩٢.

حتى في المستوى الأعلى من التأمل التألهي. والقديس، على الرغم من كل قداسته، يظل خاطئا. إنه يرى الله فقط "من خلال زجاج، في ظلام" Per speciem in aemgmate وليس "وجها لوجه" وصورة الخير عند أفلاطون لم تكن هويتها الله (الذي كان "روحا" وليس "صورة") ولكن كان يمكن للفيلسوف معرفتها "وجها لوجه" وعلى هذا وقد أتاه بعض الالهام من الاعتقاد بأنه في مجتمع كامل يجب أن تكون كل الأشياء مشتركة ويشعر كل عضو بالفرح والحزن في فرح وحزن كل واحد غيره، وبعض الالهام الاخر من شعور بالخطر، حتى على القلة المختارة، من لعنة المصالح الخاصة فإن أفلاطون كان ينكر على الطبقات الحاكمة الاستحواذ على الممتلكات الخاصة واستبدل بالمنزل الخاص أسرة– دولة واحدة ينظمها الملوك والفلاسفة في حزم لا هوادة فيه. وفي هذه الشروط نرى على الفور شوق أفلاطون العارم للوحدة وإدراكه الواضح لعوامل الشر التي هي أبدا على أهبة لأن توكد مطالبها في حياة الفرد والمجتمع. ولقد تآلفت مثاليته الصارمة ومنطقه الذي لا هوادة فيه ليؤديا به، في مزاج مؤسس نسك بأن يقصى عنه كل المغريات، كالممتلكات الخاصة والفن الفاجعي، التي قد يرجح أن تثير الاباحية الخلقية. وهو ينحي على عالم زمنه وعلى الأخص نغمة أثينا القرن الرابع، السياسية والخلقية، بالائمة، في "الجمهورية" دون تحفظ. وكان يظهر له أن الفرد الأثيني قد قذف به بعيدا عن اتجاهه السوى في طوفان من الفساد العاطفي وأن الدولة الأثينية قد مزقها اربا التشيع الحزبي والتعاظم الذاتي في قادتها. وإذا كانت نفوس الناس أو المجتمعات الإنسانية لتفر بالخلاص، فيجب أن يكون هذا عن طريق تغير أساسي في القلب، تغير يحمل معه تقويم الذات تقويما عنيفا وثورة في مبادئ الحياة والحكومة.

وتذكرنا بصيرة أفلاطون النفاذة، في شر طبيعة الإنسان وإحساسه المرير بأن المجتمع الواقعي لا رجاء فيه، مرارا كثيرة، بتولستوى ولكنه كان يختلف عن تولستوي في أنه كان أيضا على الدوام فيلسوفا. وكان علاجه لمساوئ العالم هو أن توضع السلطة في أيدي أولئك الذين يعلمون، فإنهم دون سواهم، الذين وصلوا، كثمرة لتدريب عقلي وخلقي مديد، إلى معرفة وجب الخير الأعظم، هم المؤهلون لتكييف خليقة المواطن وتوجيه سياسة الدولة. وعلى النقيض من المثل الأعلى عند الديموقراطية البركليسية فإن أفلاطون يبشر باشتراكية الأساتذة.

وفي تشبيه شهير جاء في الكتاب السادس من "الجمهورية"، يمثل الشعب الأثيني بربان سفينة دمث الطبع غير أنه متكاسل، سهل التأثر بتملق النوتية الدهاة الذين يتنافسون الواحد

منهم مع الأخر في التزلف إليه ليوكل سكان السفينة لواحد منهم، ولم يكن واحد منهم قد تعلم قط فن الربان أو أوتى المعرفة الحقة التي يكون فيها صالحا لقيادة السفينة على الطريق الأقوم. وطوال الزمن يظل الربان الحقيقي الذي أتقن مهنته مهملا ووحدا وعلى هذا، في رأي أفلاطون وقع الشعب الأثيني في أيدي مغامرين لا يقيمون وزنا لشيء وليسوا بأكفاء. بينما الفيلسوف بحقه الطبيعي، الحاكم، الخليق بالحكم بنشأته، يحكم عليه بخمود حياته الخاصة[١].

٢٣- ولا حاجة للقول أن أفلاطون فشل في اقناع مواطنيه وواصلت الينا سيرها حتى مجيء المغير المقدوني. ولما كان لا يعتريه كلال في جهوده في القيام بالاصلاح العملي فقد زار، ثلاث مرات، سيراكوز الصقلية والأمل يحدوه في أنه كناصح لطاغية، قد ينجح في إنشاء الدولة التي تقوم على أساس فلسفي ولكن كان قد وصل في "الجمهورية" إلى الرأي بأن المدينة المثالية مانت "أنموذجا أقيم في السماء" لا يمكن تحقيقها تحقيقا كاملا على الأرض[٢]. وفي اثنين من الديالوجات الأخيرة "السياسي" و"القوانين" عبر عن مزاج اكثر اعتدالا نحو الصور الموجودة للحكومة وفي مصنفة الأخير وضع تخطيطا مجملا لسياسة في المستوى الثاني تكون مجالا للمثل الأعلى الذي يتكافأ مع حقائق الحياة ولكن وظيفته الحقة في خلال الأربعين سنة الأخيرة من حياته كانت في الأكاديمية كلية البحوث العلمية والفلسفية التي أسسها ومنحها الهبات. ويمكن أن تقيم الأكاديمية وهي على حق، الدعوى في اعتبارها أقدم جامعة في التاريخ. وكان الطلاب يهرعون إلى هناك من جميع أنحاء العالم الهليني وخاصة أدكسس **Eudoxus**[٣] وهو رياضي وفلكي من كوزكس **Cyzicus** وأرستكاليس الشاب من ستاجيرا، على الساحل المقدوني. وكان أعضاء المدرسة يسهمون في حياة مشتركة ويقيمون في الأكاديمية وينهمكون لا في الدراسات الفلسفية الخالصة فحسب، ولكن في البحوث، في الرياضيات وعلم الحياة ومسائل الخلاق والقضاء. وكان من بين جلائل أعمالها وضع الهندسة المجسمة، ولقد نادي أفلاطون عند وضع تخطيط مجمل، لمنهاجه في الدراسات العليا، في "الجمهورية" بمعاونة الدولة لهذا العلم الجديد[٤].

---

(١) الجمهورية: ٦، ٤٨٨، ٤٩٦.

(٢) الجمهورية: ٩، ٥٩٢.

(٣) عن أكسس راجع هيث **Heath** في "تراث اليونان" الصفحات ١١٧ وما يليها وقد كشف عن نظرية التناسب التي جاء شرحها في اقليدس الكتاب الخامس وكذلك منهج الفناء في قياس المساحات والمجسمات منحنية الأضلاع، الذي أفاض فيه بعد ذلك، أرخميدس.

(٤) الجمهورية: ٧، ٥٢٨.

ويرجع أساس النهج الذي سار عليه بعد ذلك الفكر والمراسى التعليمي في العصر الإغريقي- الروماني وفي العصور الوسطى على السواء، إلى إنشاء أفلاطون للأكاديمية ولقد جرت العادة في البحث عن المصلحين في التشريع من بين صفوف المدرسة. وآخر مصنفات أفلاطون "القوانين" هو مثل لهذا الفرع من بحوثها[1]. وللأكاديمية تاريخ طويل باقي الذكرى. لقد كانت النموذج للمؤسسات التي جاءت بعد ذلك مثل كلية أرستطاليس في اللسيوم **Lyceum** "الملعب الرياضي" وكليات الرواقيين والأبيقوريين واستمرت قائمة كموطن مركزي للتعليم الأفلاطوني طوال ألف سنة إلى أن قطع الاعانة نهائيا عن المدارس الوثنية وألغى نظامها الامبراطور المسيحي جوستنيان (٥٢٩ م).

٢٤- لقد ظهرت فلسفة أفلاطون، بسبب أعراضها عن الدنيويات ومثاليتها الكاملة، التي لا تقبل انتقاصا، لعقول كثيرة، أكثر قربا لروح المسيحية منها لروح اليونان التي كانت تتطلع إلى هذه الحياة وفرصها لإرضاء مطامح الإنسان العقلية والخلقية. وفي هذا التوكيد صدق، ولو أن للاختلافات أهمية حيوية أكثر من التشابه. أن مباجئ أفلاطون عن خلاص النفس عن طريق تقويم العقل تقويما شاقا وقيام ارستقراطية علمية بالتوجيه الروحي للمجتمع، تقصينا في شوط بعيد، عن المثل الأعلى لحكومة روحية يكون دخولها ليس للحكيم والمتعقل ولكن بروح الطفل الصغير. وعلاوة على هذا، فقد قام الدليل على أن أصول التصورات في فكر أفلاطون، أتت بالثمار فوق ما كان يتوقع، في صوغ المثل الأعلى الهليني في الحياة. وظل الاعتقاد الذي عبر عنه في "الجمهورية" بأن أسمى حياة ليست حياة المتعة أو السلطان، ولكن حياة التأمل، المثل الأعلى الذي كان له السيطرة على الفكر القديم. وعندما فقدت دولة- المدينة استقلالها وأوصدت الحياة العملية للنشاط العام أمام المواطن الإغريقي فإن أحسن العقول شغلت نفسها، في زيادة مطردة، بالسعي وراء المعرفة. أن أرستطاليس ولو أنه كان على نقيض أفلاطون، في الكثير الغالب، فإنه مع هذا يقيم البناء في مل مرحلة، على أسس أستاذه ويمكن بالحرى أن يعتبر أول أفلاطون عظيم أسهم في اعتقاده بأن حياة الفلسفة هي التي تجد فيها الروح أتم رضى وتقرب قربا عظيما مما هو الهى. وفي القرو التي ترادفت بعد ذلك، كانت نفس العقيدة يشترك فيها على

---

[1] أن وضعه لمدونة القانون الإغريقي وخاصة الأثيني، كما تطور فيما بعد، كان له تأثير عظيم- على القانون الهليني وعن طريق القانون الهليني، على القانون الروماني، راجع ما يلي فصل ٧، ٦ تذكرة ٢.

السواء الأفلاطيونيون والأرستطاليون والراقيون والأبيقوريون[١] ولم تكن محصورة في العالم الوثني. ولما انتزع عنها التفسير العقلي الخاص بها بصفتها حياة الفلسفة فإن المثل العلى لنشاط التأمل، أصبح يسيطر على مسيحية القرن الوسطى[٢] وأصبحت مريم ومرثا اللتان ذكرهما الانجيل تمثلان نوعين من الحياة، الحياة النظرية وحياة العمل والنشاط وقد اختارت الأوى النصيب الأفضل. أن قيام الرهينة وكتابات دانتي وفنون النحت التي تزدان بها كاتدرائيات العصور الوسطى كلها شواهد على السيطرة التي ظفرت بها هذه الفكرة، وهي نتاج العبقرية الهلينية والعبقرية المسيحية مجتمعة، على مطامح البشرية، الروحية. أن أفلاطون مثل جميع عظماء الإغريق، سواء أكانوا في الأدب أم في الفلسفة، له اعتبار شيء ذي نفع عام. ولكما تعرض روح الإنسان عن عالم الحس والتغير وتتجه صوب ما هو ابدى ولا يتغير وله وحدانية، سواء أكان في التأمل العقلي أم الديني، فإنها تكون قد أقامت دعوى القرابة بروح أفلاطون.

تذكرة إضافية

من بين الأسئلة الخلقية التي كان المفكرون في عهد الاستنارة في القرن الخامس في اليونان يلقونها على أنفسهم، كان يوجد سؤلان يتشوق إليهما القارئ في عصرنا، بصفة خاصة وهما (أ) مسألة مركز النساء في المجتمع (ب) مسألة الرق.

١- مركز النساء[٣]:

في الخطبة الجنازية كما أوردها ثفوديديس، خاطب بركليس النائحات من النسوة بكلماته المعروفة تمام المعرفة: "إذا كان لزاما على أن أتحدث عن الفضائل النسوية إلى أولئك من بينكن اللواتي سيصبحن أرامل منذ الآن فاسمحن أن اجملها في نصيحة واحدة وجيزة: إنه لمجد عظيم ألا تظهر المرأة ضعفا أكثر مما هو من طبيعة جنسها وألا يتناولها الحديث بالخير أو بالشر بين الرجال"[٤]. وهذه العاطفة التي لا يمكن تصورها على شفتي رجل سياسة معاصر يقدم تعزيه علنية لثكالى الحرب، لابد أنها كانت تظهر مناسبة للمقام تماما لدي غالبية مستمعي بركليس من

---

(١) وخاصة أشياع الأفلاطونية الحديثة راجع السفر الثاني فصل ٩، ١٠- ١٤.

(٢) راجع ما يلي فصل ١١.

(٣) راجع بالإضافة إلى المراجع الموضحة فيما بعد، أكسنوفون **Oeconomicus** (ترجمة دكينس **Dakyns**)، وبنيكي **Benecke** "النساء في الشعر الإغريقي" **Women in Greek Poetry** وزمرن **Zimmern** الجزء الثالث فصل ١٢.

(٤) ثقو: ٢، ٤٥ ترجمة جوت **Jowett**.

الجنسين. ومنذ قرن قبل ذلك، كان نيوجنس قد كتب "أنني أمقت المرأة التي تتملكها نزعة الاندفاع هنا وهناك" وبعد ذلك بقرن، أعلن ماناندر **Manander** "إن باب المنزل هو حد المرأة الحرة". ولم يكن للنساء دور في حياة أثينا العامة المدونة. ومع هذا، ففي الفن والشعر كما في الدين. فإنهن حاضرات في كل مكان. وقد يكن حينا موضوع شعفة وحينا آخر موضوع رعب وقد يضفي عليهن المثل الأعلى في فزع، أو يؤني عليهن بالتحليل في تدبر دقيق، ولكن لا يهمل شأنهن ابدا. كانت بطلات هومر يستمتعن بوفار وحرية يتناقضان مع خصوعهن وانعزالهن في الأزمنة اللاحقة ولو أنه من الجائز أن فروسية الأخائيين، كفروسية العصور الوسطى ألقت على زوجات وبنات الرؤساء هالة من الرومانسية "الابداعية" أنكرت على النسوة من أصل وضيع[١].

ولا يوجد أدب فاجعي فيه مثل هذه الوفرة من صور النساء كما في الأدب الإغريقي، الذي لم يهمل أي مظهر من مظاهر البشرية النسوية– إلا (حتى الزمن الهلينيستية) الحب الذي يقع بين فتى وفتاة، بغير أن يرتاد[٢]. أن كلتمنسترا **Clytaemnestra** وأنتيجون **Antigone** وميديا **Medea** وفيدرا **Phaedra** والسستس **Alcestis** يقفن في مستوى بطلات مآسي شكسبير العظيمات. وفي حياة الإغريق الواقعية، لا نتبين إلا القليل الذي ينطبق على هذا الاهتمام. والمرأة الوحيدة التي كان لها شأن يذكر في التاريخ الأثيني أسفزيا **Aspasia** كانت أجنبية وارتبطت ببركليس في رابطة ليس فيها تكافؤ[٣]. وفي أثينا كانت دائرة المرأة المنزل. أما دائرة الرجل، من الناحية الأخرى، فكانت المدينة ولم يكن للمنزل إلا شأن يسير في حياته. وفي أسبارطة، لأسباب عسكرية، كان يسمح للنساء بحرية أعظم وقد كن يتدربن على التمرينات العلنية حتى يشببن

---

(١) ومن المرجح أيضا، كما يذكر الاستاذ مري **Murray** (نهوض الملحمة الإغريقية صفحة **Rise of the Greek Epic p. 75**)، أن تقليد نظام المومة الذي كان حينا من الزمان سائدا في العالم الايجي، بقى بعد الغزو الأخائي. ويشير نفس الكاتب (ص ١٢٤) إلى أنه في الالياذة، كملحمة حرب، لا نسمع إلا القليل عن النساء(إلا في نصين عظيمين الالياذة ٣ و٦، ٢٣٧ حتى النهاية) في طروادة. ويظن أنه في الحملات العسكرية، كانت النساء محظورات. ولقد كان صموئيل بتلر يصدق النقيضة الشيقة أنامرأة كتبت الأوجيسيا وربما كانت نوسيكا **Nausicaa** (انظر كتابه "مؤلفة الأوديسيا").

(٢) أن الاستثناء الوحد في رواية باقية لدينا من العصر الاتباعي هو حب هيمن **Haemon** وانطيجون في "انطيجون **Antigone**" لسفوكلس. وفي "المسلاة الجديدة" في القرن الرابع يكون الحب بين فتى وفتاة، الذي ينتهي بالزواج موضوعا شائعا.

(٣) بعد قانون عام ٤٥١، الذي كان ينص على أن كلا الوالدين يجب أن يكونا مواطنين، إذا كان الطفال ليعتبروا شرعيين، أصبح هذا الزواج الثاني من النسوة غير المواطنات، أمرا ذائعا ولم يكن يلحق به شين.

أمهات جنود، قويات– ولقد أنبئنا أن النتيجة هي أنهن كن، على ملاحتهن، سريعات الحركة، يملن إلى الترف والبخل والعصيان وينزعن إلى الدسائس السياسية[١]. ولقد أثار أبعاد النساء عن الحياة العامة افغريقية الكثير من الاعتراضات في القرنين الخامس والرابع. ومما يدل على أن خطط الإصلاح كان يدور التفكير فيها، المسلاتان ليسستراتا **Lysistrata** (٤١١) وبرلمان النساء **Ecclesiazousae** (٣٩٢ أو ٣٨٩) وفيهما نال أرسطوفانس مطالبهن في التحرر، بالتقريع. وكان يوجد بين الكلبين نسوة مبعوثات، ولقد كانت تجيش في يوريبيدس عاطفة من الاشفاق والاشمئزاز لمصير النسوة اللواتي كان يفرض عليهن عند الوضع تحمل آلام أشد قسوة من تلك التي يلاقيها الرجال في معمة القتال[٢]. ولقد تأثر أفلاطون من ضياع مادة طيبة لخدمة الدولة. وكان يعتقد أن الاختلاف بين الجنسين لم يكن اختلافا في النوع ولكن في الدرجة. كانت النساء في الواقع أضعف من الرجال ولكن لين أقل قدرة على أن يسهمن في وظائف المدينة بما فيها وظيفة السيادة الفلسفية ويمكن أن يكون للنساء مكان في كل من الطبقات الثلاث في مدينته المثالية. وكما يسهمن في الوظائف فكذلك يسهمن أيضا في تعليم الرجال ولا يوجد تفكير هنا في "حقوق المرأة" وكان لزاما أن يتبع في تعليمهن المناهج الموضوعة للرجال، ليس لصالح جنسهن ولكن لصالح المجتمع ويسير النص بأجمعه الذي جاء في الكتاب الخامس من "الجمهورية" على مذهب المنفعة إلى حد عظيم. وعلاوة على هذا، فإن أفلاطون يقترح إلغاء البيت الخاص وادماج جميع المواطنين من كلا الجنسين في أسرة– دولة واحدة والارتباطات الزوجية وتربية (أو التخلي عن) الأطفال والتغذية في بواكير الطفولة يجب أن تسيطر عليها، بصفة شاملة، الحكومة[٣]. وكانت الدوافع التي جهر بها:

(أ) تحسين النسل للمحافظة على نوع الطبقة الحاكمة.

---

(١) وفي زمن لاحق، أصبحن يملكن جزءا عظيما من الأراضي الأسبرطية. وعن النسوة الاسبارطيات، راجع أرستطاليس "السياسة **Politics** ٢، ٩ وكذلك أفلاطون: القوانين ٧٨٠ وما يليها و**Protag**" ٣٤٢ و**Euripldes**، **Andromache**، ٥٩٥ وما بعدها.

(٢) **"Medea", Eur**": ٢٤٨ وما يليها ومناجاة السستس **Alcestis** لنفسها في الرواية التي تحمل اسمها يستفاد منها أمور كثيرة عند موتها سيصيب طفلها الابن حظه ولكن ما سيكون من أمر البنت؟

(٣) أن وأد الأطفال، الذي يرجح أن أفلاطون أقره في بعض الحالات، كان شائعا في كثير من المجتمعات القديمة ولو في غير أثينا على ما يحتمل. أن خطب اساوس **Isaeus** تقدم الأدلة على ما يناقض هذا. لقد كان، على وجه عام، الطفال من الاناث هم الذين يلاقون هذا المصير.

الخوف من التفرق والتشيع المدني (Stasis) اللذين ترجع نشأتها إلى المصالح والممتلكات الخاصة.

(ج) مطمح مثالي إلى مجتمع لا يعرف تفرقة بين "مالي" و "مالك"، ولكن يدق في نبض واحدج ينتظم جميع الأعضاء[1].

وأخيرا وطن أرستطاليس نفسه على حصر مشروعات المصلحين من الأحرار المتطرفين في داخل حدوج الحس المشترك. واعتقد على عكس أفلاطون، أن النساء يختلفن عن الرجال في النوع وعندهن نقص في القدرة العقلية والقدرة الخلقية ولو أنهن لا يفتقرن كلية إليهما. وعلى هذا فبينما يحال بينهن وبين حق المواطنين الكامل، يجب أن يحكمهن الرجال حكما دستوريا لا حكم طغاة، كالعبيد. ويجب أن يستمتعن بحرية محدودة ويلقن تعليما، جعل بحيث يتناسب مع وظيفتهن الثانوية في دولة– المدينة، وما يظهر أنه كان متأثرا به هو عدم وجود فطنة علمية لديهن وخصيصة العقل الذي يكون له السلطان[2]. ويمكنا أن نسمعه يردد صدى صوت تفوق الكور في كل عصر: "كوني طيبة أيتها الفتاة الحلوة، ودعي من له القدرة"– والرجال– "كونوا مجتهدين" وظل على اتصال وثيق بالفكر الإغريقي السائد وهو يضع فيه خميرة من بها التحرر ولكن في معالجته للقيم المثالية وحقائق الطبيعة البشرية، على السواء، فإنه كان يتخلف عن أفلاطون شوطا بعيدا.

ب- الرق[3]:

كان الرق بين الإغريق، كما كان على وجه عام خلال الأزمنة القديمة جزءا من نظام تقليدي وبهذه الصفة كان يقبل دون سؤال. ونقرأ في هومر وخاصة في الأودسيا عن عبيد– قليلي العدد نسبيا– يؤسرون في القرصنة أو الحرب. لقد كان مصيرا يمكن أن يلاقيه أي إنسان. كان يومايوس **Eumaeus** ويوروكليا **Eurycleia** عريقي النسب ولو أنه كان يشطر عن الضحية "نصف رجولته" فلم يكن يترتب عليه أي عار. كان يومايوس يستمتع "بحياة طيبة" كملحق بالأسرة، مكرم ويتحدث إلى أسرة سيدة كما يتحدث رجل إلى رجل. وكانت خطوط الفواصل الاجتماعية

---

(1) انظر الجمهورية: ٥

(2) راجع على الخص "السياسة": ١، الفصلين ١٢، ١٣ وما وجه من نقد إلى "الجمهورية" في ٢ الفصول من ٢– ٤.

(3) راجع عن الموضوع زمرن فصل ١٥ وقاموس سمث عن الآثار والفن **Smith's Dictionary of Antiquities, Art, servus.**

أقل حدة في تلك الأزمن الأكثر بساطة[١].

ويظهر في العصر التالي مع الغزو الدوري نوع من الرق جديد. أن الرقيق كانوا آهلين مقهورين يرتبطون بالأرض كالعبيد في أسبرطة **Helots Penstae** في تساليا، وبعد ذلك أيضا، جلب انتشار الصناعة والتجارة في أعقابه تجارة الرقيق في العالم الايجي، والمناطق الرئيسية التي كانوا يؤخذون منها كانت بين همج آسيا الصغرى وتراقيا والأراضي التي تقع حول أكسين، وكانت الأسواق الهامة، في الولايات البحرية التي كانت تسيطر على تجارة النقل مثل خيوس وبعد ذلك أثينا. وفي أثينا، كان يستخدم العبيد: (أ) في البيوت للأعمال المنزلية وليس كما كانت الحال بعد ذلك في روما، للمتعة (ب) في الصناعات العظيمة وخاصة في مناجم الفضة في لوريون **I aurion** (ج) كرقيق دولة أ لخ، كمجدفين في السفن الحربية[٢]. وقد أوردت قائمة الاحصاء عن سنة ٣٠٩، عددا من العبيد يبلغ ٤٠٠.٠٠٠ في أتيكا. وكانت الغالبية العظمى همجا أما الأسرى الإغريق فكان المجال مفتوحا أمامهم للفدية. وكان يوجد ما يخفف من مصير الرقيق الأثيني العادي ويمكن مقابلته مقابلة بمصيره في عصر لاحق في روما أو في مزارع ملاك الرقيق المسيحيين في زمننا الحاضر. وكان القانون الأتيكي يبسط حمايته على الرقيق ولم تكن حياته رهن مشيئه سيده. وكان تعذيب الرقيق محصورا داخل حدوج محكمة، ولم يكن يوجد تمييز في الملابس بين الرقيق محصورا داخل حدوج محكمة ، ولم يكن يوجد تمييز في الملابس بين الرقيق والحرار ولو أنهم كانوا ممنوعين عن ارتياد المعابد وميادين وأبنية الرياضية والحديث **Gymnasia**، والجمعية العمومية، فإنهم في الكثير الغالب كان يسمح لهم بحرية الكلام والعمل. ويدعو اكسنوفن الرقيق "الزميل العامل" للمواطن، الذي يجب أن يحكم بالحث وليس بالعنف ويوعز إليه بأن يعمل عن طيب خاطر على أمل التحرر. وهو يأتي بالتعليق على اللين الذي يعامل به العبيد في أثينا وحكمه تؤيده الصور المرسومة في "المسلاة الجديدة" وتفريع أفلاطون الساخر للإباحية التي يتصف بها الرقيق في الدولة الديمقراطية[٣]. ولقد أصبحت عادة شائعة أن يمنح السيد رقيق منزله

---

(١) عن يومايوس **Eumaeus** راجع الأودسيا: ١٥، ٣٨٠ وما يليها.

(٢) كان الرجل الفقير يمتلك عبدا واحدا لمنزله وقد يقتني الغني عددا قد يصل إلى الخمسين. وكانت مساوئ الرق أكثر وضوحا في المناجم. وقد كان نسياس **Nicias** يمتلك ألفا من الرقيق في لوريون. قابل ثقو:٧، ٨٧ عن محن الأسرى الأثينيين في محاجر سيراكوز. ولقد أورد برونج **Browning** في قصيدته مغامرة بلاوستيون **Balaustion's Adventure** قصة ظفر بعض هؤلاء الرقيق بحريتهم بتلاوة يوريبيدس.

(٣) **Men, Xen**: ٢، ٣، ٣ والجمهورية **Ath**: ١، ١٠– ١٢ وأفلاطون: الجمهورية: ٩، ٥٦٣.

العنق أما في حياته، وأما في وصية عن موته. ودون ريب، كان يختلف مصير الرقيق مصير الرقيق اختلافا عظيما تبعا لمركزه كخادم أسرة أو صبي مهنة في التجارة أو مرة أخرى، بما فيه عثور جده، كمستخدم في المناجم. والحقيقة البشعة كانت ماثلة خلال التاريخ الاغريقي كله. ولكن التوكيد بأن المدنية الإغريقية كانت تعتمد على الرق كأساس لها، يصدق فقط بتحفظات والأمران لا يختلف الواحد منهما عن الأخر اختلافا فيه تناسب. كان الرق على مجال واسع قد جاء لاحقا لقيام الفن والعلم الهليني وازداد كلما سار ذلم الفن وذلك العلم إلى تدهور. إن الأمم الأخرى مثل مصر وأشور التي كانت تستخدم الرقيق في إعداد اكثر وفرة عجزت عن أن تحقق ثقافة يمكن مقابلتها بثقافة اليونان. وعلى ذلك فلا يمكن تفسير الصفة الفريدة التي اختصت بها المدنية الإغريقية، على أنها ترجع إلى الرق. وفوق كل شيء كان الإغريق أول من ناقش المبرر الخلقي له[1]. حتى لو أن ثقافتهم كانت ترجع إلى الرق، فكذلك كان أيضا فكر أولئك الذين وصلوا، مثل السفسطائيين، إلى أصول هذا الشر. لقد كان موضوعا عاما بين شعراء وفلاسفة القرنين الخامس والرابع، أن الرق لا يقوم على أسس طبيعية ولكن على العرف. ولقد كان الكلبيون ينادون في جسارة بالتحرير. وكان السفسطائي ألكيداماس **Alcidamas** يبشر في أرجاء اليونان بأن "الاله خلق جميع الناس أحرارا وأن الطبيعة لم تستبعد أي إنسان[2]. وقد نعي أفلاطون استعباد الإغريقي للإغريقي[3]. وعلى هذا المثال فعل أرسطاليس الذي عالج الموضوع في "السياسة" كالعهد به، بروح مصلح محافظ[4]. وكان يعتقد أن العبيد بالطبيعة كانوا، مثل معظم الهمج، أولئك فقط الذين بسبب قصور في العقل والقدرة الخلقية فقدوا أهليتهم للاشتراك في حياة دولة- المجينة. ومثل هؤلاء الرقيق "الطبيعيين" كان مقضيا عليهم بالعبودية كأدوات لازمة للحياة الخيرة، للمواطن الهليني الحر. لقد كانوا وسائط لغايات آخر، ولم يكونوا غايات في أنفسهم وفي لغة زمن جاء بعد ذلك كانوا "متاعا" ولم يكونوا "أشخاصا" ويجب أن يحكم الرقيق

---

(1) راجع مرى، نهوض الملحمة الإغريقية الصفحات ١٦ وما يليها.

(2) وهكذا يوريبيدس **Ion**: ٨٥٤- ٦.

"الاسم فقط هو الذي يرى فيه العبد عارا وفي كل الأمور الأخرى، فإن رجلا كريما استعبد لا يقل مستوى عن طبيعة الحر".

(3) "الجمهورية": ٥، ٤٦٩. يظهر أنه لا يوجد رقيق في "الجمهورية" وفي "القوانين" حيث يعترف بالرق، توجد نصوص لتخفيف مساوئه.

(4) راجع على الأخص "السياسة": ١، الفصول ٣- ٧ و١٣.

حكما استبداديا، لصالح سيده، وليس لصالح الرقيق ذاته إلا أن يكون ذلك بصفة عارضة. وكان يجب حقا أن يعامل بروح إنسانية ولقد ذهب أرستطاليس ابعد من هذا حتى صرح أن الرقيق، بهذه الصفة ولو أنه لا قدرة لع على حياة العقل ولا يستطيع أن يكون له أية علاقة صداقة (**Philia**–رباطة الاتحاد الاجتماعي) مع سيده، فإن مثل هذا الارتباط قد يكون ميسورا له بصفته إنسان. أن منحاه يتناقض تناقضا ظاهرا مع المثل الأعلى المسيحي للروح الإنساني. وعند أرستطاليس لا يكون للفرد من الناس، على شاكلة هذا، قيمة جوهرية ولم يخطر له على بال أبدا أن السلالات المتخلفة يمكن أن تدرب حتى تصل إلى القدرة على حياة أتم وتقرر مصيرها نسبيا. وكان أرفع وظيفة لهم هي القيام على خدمة حاجات المواطن الهليني المادية. أن طرق الحصر هذه طليقة في ظاهرها. لقد أدت عند الإغريق كما عند غيرهم، إلى مساوئ خلقية لا يرغب أي شخص في التخفيف من خطورتها. وأن ما حدث من أن المفكرين الإغريق أدركوا وجود الشكل وحاولوا ايجاد حل له، يدل على تقدم عظيم على كل ما تحقق حتى ذلك الحين في التاريخ. وفي قصر الرق على أولئك الذين لم يكن لهم قدرة على الحياة الحرة فإنهم صاغوا مبدأ يمكن أن يتوسع في تطبيقه في نطاق لا حد له ومثال ذلك ما فعله الراقيون. وتوجد مشاكل مماثلة في العالم الحديث ولو أن حالة الرق وطرازه قد عفا عليهما الزمن. وعلى سبيل المثال: كيف يمكن تحقيق مستوى من الثقافة، رفيع دون التضحية بالكثرة في سبيل قلة تاح لها ووقت فراغ وكيف تذاع المعرفة بين الجماهير دون المجازفة باستقرار المجتمع[1]. أن ما تسير عليه الأمور في عصرنا الحاضر كما يقوم عليه الدليل في معاملة السلالات المتخلفة والسير الرتيب وبشاعة الأحوال الصناعية في البلاد المتمدينة، على السواء، هو على نقيض صارخ مع المثل الأعلى الذي جهر به. وليس من اللائق لناقد أن يقذف حجرا على افغريق القدامى، لأن ما قاموا به فعلا كان دون مستوى وصايا أعظم مفكريهم.

---

(1) أن قراء روايات هنري جيمس **Henry James** لهم أن يعجبوا، كيف يمكن للعالم المثقف الرائع الذي صور فيها أن يحتفظ بكيانه وهو بمعزل عن الرق الموجود افتراضا وليس فعلا، في الجالبين لراحته غير المثقفين.

الفصل السادس

الثقافة اليونانية المقدونية

١- الإسكندر

١- بانبلاج فجر القرن الرابع نلج علاما جرى عليه التغيير. ولم تعد السلطة السياسية تتركز في أثينا واسبارطة، ولكن مكانها انتقل إلى مراكز جديدة في الشمال، وبدأت أحلام حكم عالمي في مجال لم يسبق له مثيل في التاريخ الإغريقي تثير مطامح رجال السياسة والقادة العسكريين. ولم تكن لسيادة اسبرطة– قصيرة الأمد، تلك التي أعقبت سقوط الإمبراطورية الأثينية– الأهمية يسيرة أو لا أهمية للمجينة، وسرعان ما أيقنت المدن البحرية خواء دعوى أسبرطة الظافرة في أن تكون محررتهم من نير الأثينيين، وأن أصبح طغيانها الصغير أغلظ من حقوى أثينا. وكان العالم افغريقي يتحرق خجلا وسخطا عندما أعادت في صلح أنتالسيداس Antalcidas (٣٨٧) المدن الأسيوية إلى ملك فارس، ومما كان له مغزى أبعد في خطورته، اتجاه مركز الثقل السياسي صوب الشمال، أولا إلى طيبة في بويوثيا عندما حطمت تشكيلاتها المتكتلة المتراصة مشاة الأسبرطيين الذين كانوا مرة، أولى منعه، في لوكتراLeuctes (٣٧١) ثم عن طريق ثساليا إلى مقدونيا. أن قيام مملكة مقدونيا هو الواقعة الأساسية في تاريخ يونان القرن الرابع[١]. وكانت تربط المقدونيين آصرة قرابة مع الإغريق في السلاسة واللغة. ولما كانوا من سكان الجبال الآصلاب ومحاربين بنشأتهم، ويملؤهم نشاط مضطرم ويخلصون إلى رؤساء عشائرهم فقد حافظوا على عاداتهم البدائية التي كانت لغزاة العالم الايجي الأولين. على الرغم من قشرة الثقافة التي تحيط ببلاط كان قد رحب بؤلفي الفاجعة يوريبيدس وأغاثون Agathon. أن ملكا قويا داهية يستطيع أن يظفر ويستحوذ على اخلاص النبلاء الجامحين وأتباعهم، كان ليجد في هذا الشعب أداة رائعة لسياسة عسكرية عظيمة.

وفي الواقع كان مثل ذلك الملك، فيليب الذي ارتقى عرش مقدونيا عام ٣٥٦ وهو في سن

---

(١) سمح للمقدونيين الذين كانوا قد حاربوا مع الإغريق ضد فارس بدخول الألعاب الألومبية، عام ٤٧٦.

الثانية والعشرين. وفي شبابه كانت تنشئته في طيبة حتى يقدجر الثقافة الهلينية، وما كان أقرب لغرضه، أن يتقن تنظيم المحاربين، للمشاة المتكتلين المتقاربين (Phalanx). وعلى غرار بطرس الأعظم الروسي الذي استخدم المدنية الغربية لتوثيق شمل امبراطورية شبه همجية فقد نقل فيليب حاضرة ملكه من الداخل إلى موقع ضاح على مقربة من الساحل وأعاد تنظيم مملكته ودرب المحاربين من رعاياه على فن الحرب. وبهذا السلاح الذي صنعه فتح تراقيا إلى الشرق وأفاد من التفرق الدائم بين الدول الإغريقية في إخضاع مدن ايجا الشمالية وأمكنة أحيانا بالقوة وأحيانا بأعمال السياسة التي كان فيها استاذا لا يجاري أمكنة بهذا كله الظفر بالسيطرة على ثساليا واليونان الوسطى. وحازذروة النصر في خايرونيا **Chaeronea** (٣٣٨) على جيشي طيبة وأثينا مجتمعين فغدت اليونان كلها تحت قدميه. وكانت خايرونيا– التي تتجلى فيها البطولة، تعني أكثر من فشل دمسثيتس **Demosthenes** خطب أثينا الوطني، لانقاذ دعوة الحرية الهلينية. لقد دق في ذلك الميدان المشئون ناقوس موت دولة– المدينة المستقلة. ومنذ ذلك الحين، أصبح تاريخ اليونان السياسي تاريخ غزاتها المقدونيين.

٢– وكان اخضاع اليونان في اعتبار فيليب مجرد الخطوة الأساسية لتحقيق مشروع امبراطورية، كان يعتمل في عقول رجال السياسة والمفكرين في اليونان خلال نصف قرن ونيف. وقد بينت هزيمة الغزاة الفرس عام ٤٨٠ تفوق جيش من المواطنين مدرب، يدفعه الولاء لدولة– المدينة الحرة كانت رابطتهم الوحدة في الاتحاد، خضوعهم المشترك لطاغية شرقي– وتعلمت فارس أن تعترف بهذا التفوق، وقبل ختام القرن الخامس رحبت بزعماء العصابات المرتزقة من المغامرين العسكريين **condottieri** في خدمتها بينما تمكنت بأربها السياسي وذهبها من بث الفرقة في الوطن الإغريقي.

ولقد أوضح ارتداد ١٠.٠٠٠ من المرتزقة الإغريق من قلب الإمبراطورية الفارسية حتى الأكسين عبر أرض وعرة وبين أهلين معادين يناوئهم جيش من الأعداء– أن اليونان لا يمكن التغلب عليها حتى لو كانت الحرب على غير تربتها.

ومنذ تلك اللحظة (٤٠١– ٤٠٠) خامرت فكرة حرب انتقام، غزو يوناني لفارس، عقول الإغريق[1]. ولقد رأى الفلاسفة وأصحاب المثل العليا من السياسيين من أمثال أفلاطون

---

(١) مثل الملك أجسيلاوس **Agesilaus** الاسبرطي وجيسون **Jason** من فراي **Pherae** الزعيم التسالي القوي.

واسقراطس في حملة صليبية قومية ضد الهمج الفرصة للاتحاد الهليني وعلاج الصراع الداخلي[١]. ولكن دول- المدينة في اليونان كانت تحرص على استقلالها حرصا جاوز الحد، دعاهم ألا يتسامحوا في قيام تكتل سياسي. ولقد فرض الاتحاد من الخارج، الملك المقدوني. ولما دانت السياجة لفيليب بعد خايرونيا بقوة عتاده، أعلن عن المغامرة التي طال وضع الخطة لها. وكان جيشه قد نظم وأخذ أهبته للحرب عندما مات بيد سفاح (٣٣٦). ووقع عبء تحقيق المهمة على عاتق ابنه الاسكندر.

٣- أن الاسكندر يجئ في ختام فصل قديم في تاريخ العالم وبداية آخر جديد. كان غزو خسيارشاي لليونان قد استهل ناحية جديدة في المباراة العتيدة بين الشرق والغرب. وكان اجتياح الاسكندر للإمبراطورية الفارسية ختام هذه القصة في الفاجعة التاريخية. وكانت الكارثة تغشي البصر في سرعتها. ففي ربيع عام ٣٣٤ عبر الاسكندر السبنطس وسحق حرس الفرس الأمامي على جرانيفس **Granicus** واجتاح الأراضي الساحلية في آسيا الصغرى واستوثق التحكم في الطريق العام العظيم التي تيسر عبر جبال الداخل حتى بوابات كيليكية وفي السنة التالية. ظفر بأول نصر له عظيم على الملك دارا بشخصه في اسوس **Issus** فر الركن الشمالي الشرقي من أرض المشرق وقد عرض عليه الملك المغلوب الشطر الغربي من امبراطوريته حتى الفرات غير أنه رفض في استعلاء تصالحا فيه مساومة.

أن الاستيلاء على صور في عام ٣٣٢ بعد مقاومة تنبئ سلفا عن مقاومة قرطاجنة أو أورشليم- كان الساميون مروعين عندما يحاصرون- جعل الاسكندر يملك القوة البحرية في شرق البحر وأعقب هذا اجتياح كنعان ومصر.

وفي عام ٣٣١ وأصل السير إلى قلب الإمبراطورية الفارسية وظفر بالغلبة في ذروتها على دارا في جوجميلا، في وادي دجلة. وقد كشف موت الملك الهارب، في الصيف التالي للعالم عن غرض الاسكندر الحقيقي الذي كان إلى ذلك الحين، ملكا مقدونيا وقائدا عاما للإغريق، وهو الآن يبرز للأمام كوارث للملكة الفارسية، "كملك الملوك"، بدلا عن دارا. ولقد شهدت السنوات الخمس التالية سلسلة من الحملات الرائعة والتقدم دون عائق وأخضع فيها الاسكندر الولايات الشرقية حتى أكسس جاكسرتس **Jaxartes** وإلى ما وراء الهندوكوش، واخترق ممر

---

(١) يظهر أن هذا ما ينطوي عليه ما جاء في جمهورية أفلاطون ٥، ٤٧٠-١.

خيبر وفتح البنجاب واجتاز وادي السند حتى مصبه. وعندما رفض جيشه السير صوب الشرق إلى الكنج Ganges عاد الأسطول عن طريق الخليج الفارسي والقوات البرية عبر صحراء مقران المروعة، ورجع الاسكندر إلى سوس حاضرة فارس القديمة في ربيع ٣٢٤ وقد خصصت شهور قليلة لتنظيم الامبراطورية واسعة الأرجاء. وقبيل يونيو من عام ٣٢٣ كان قد جمع في بابل جيشا لجبا لغزو بلاد العرب. وهناك أخذته فجأة حمى ووافته المنية بعد مرض دام عشر أيام، وله من العمر اثنان وثلاثون عاما.

٤– وقد فتحت غزوات الاسكندر عالما جديدا أمام اليونان، وبتوسيع مدى المعرفة أتت بنتائج هامة على الفكر العلمي. ولكن أعظم جلائل أعماله كان نشر الهلينية على العالم الشرقي. وتظهر عبقرية الاسكندر السياسية في أعظم بيان فيما انتواه عند تدبر، من صهر الروح الهلينية والروح الشرقية في كتلة واحدة.

فمن جهة تبني الوسيلة الفارسية في العيش واللبوس الفارمي والعادات الفارسية– ومارس وشجع التزاوج المتبادل واعترف بديانات الشعوب المغلوبة وصار في جميع الأمور شرقيا أمام الشرقيين. ومن الجهة الأخرى أدمج في نظام المشاة المتكتلين المتقاربين، الفرس وربي شبابهم على الثقافة الهلينية ورقي أشرافهم في خدمته. ولما كان يدرك في وضوح أن سياسة المزج هذه يجب أن تقوم على أساس اقتصادي، جهد في أن يخلق مذهبا للتجارة العالمية يربط النيل ودجلة والسند، بالبحر المتوسط[1]. أن قلة من أتباعه المقدونيين كانوا قادرين على أن يسهموا في هذه الأفكار العظيمة وانا لنقرأ عن سخط وعصيان بين حين وآخر في الأعوام التي تلت عام ٣٣٠ مما كان يدفع الاسكندر إلى ندرة من أفعال القسوة هي على نقيض بين من دينه في السماحة وإنسانية طبعه. وكانت أداته الهامة في العمل علا تلاحم الشرق بالغرب، تأسيس المدن على النموذج الهليني وكانت مدن الإمبراطورية لفارسية قليلة العدد وهي حقيقة تفسر نهائية انتصاراته الحاسمة في الميدان.

([1]) كان الاسكندر يقدم نفسه في كل مكان على أن نصير الأديان والعادات الوطنية. وقد أظهر مجاملات خاصة، على سبيل المثال، لليهود ومن المحتمل أن اليهود كانوا منتشرين في جماعات عظيمة في أرجاء الإمبراطورية الفارسية وكانوا يحافظون على طرق المواصلات الداخلية (وخاصة مع بيت المقدس)، قدموا له خدمة عظيمة كمرشدين في سيره في بلاد لابد أنها كانت، في الواقع، غير معروفة. ويتحدث مهافي Mahaffy عنهم في "امبراطورية البطالمة" صفحة ٨٥، على أنهم "إدارة مخابراته الطبيعية".

وكان الاسكندر يقيم المدائن في كل مكان أثناء تقدمه.

الاسكندرية وهي أشهرها جميعا، في مصر. وفي وادي الفرات، وفي أقصى شمال شرقي التركستان، وعلى ضفاف السند، وعلى شواطئ الخليج الفارسي. وهذه المدائن بمستعمراتها من المقيمين المقدونيين والهلينيين كانت تكون المراكز الدائمة للثقافة الإغريقية. وكانت نتيجة هذه السياسة، التي اتبعها خلفه، أن حياة الإقليم الشاسع من ايجا إلى السند ومن القزوين إلى الحبشة أتت عليه الروح الهلينية بالتحول، في درجة تعظم أو تصغر، وقد تأصل العلم الإغريقي في بابل وتأثر فن ودين وحكم الهند السياسي، بطابع العقل الإغريقي. وعندما تمعن الفكر في أن العمل العظيم يمثل جزءا فقط من سياسة الاسكندر أنجزه في شهور الفراغ القليلة بين الغزوات، تدرك أنه حدث لا يكاد يوجد له مثيل في تاريخ البشر.

٥- وقد ادعت الأسرة الحاكمة في مقدونيا أنها من سلالة اغريقية وكان الاسكندر في خصائص الخليقة الجوهرية، اغريقيا- وفي أوقات، كانت العواطف الجامحة تحطم حدود ما كان يتجمل به من شمائل انسانية وتقويم نفسي بطبيعته ولو أنه أظهر، عن أعمال العنف القليلة المدونة، ما يوازيها من ندم عارم.. ولم تكن الثقافة الإغريقية عنده، كما كانت عند الكثير من ضباطه قشرة رقيقة تحجب الطبع الهمجي فيه- أن شعرها وفكرها أثارا اثارة عميقة طبيعته المتحمسة المستعمرة، وكان لمدة ثلاثة اعوام في حداثته وهو بين الثالثة عشرة والسادسة عشرة تلميذا لأرستطاليس أعظم مفكر في عصره، ولقد تغذى خياله بقصيد هومر، وفي بلاطه ومعسكره كانت تقام احتفالات الألعاب الرياضية وتمثيليات الفاجعة، وفي ساعة الانتقام من طيبة عفا عن منزل بندار من أن تلتهمه ألسنة النيران. وعندما كان يجلس "كملك الملوك" على عرش دارا العظيم أو يتخذ في مصر أنواع التشريف التي كان يتميز بها فرعون، لم يكن أبدا ضحية مجده الخاص، ولكن ظل قلبا وعقلا اغريقيا وكانت له قوة بدنية عظيمة وشجاعة ويجازف بحياته في تهور ظاهر في الميدان. وحدث مرة في الهند أنه وثب مع ثلاث رفاق داخل مدينة محاصرة وأصابته جراح كادت تقضي عليه. وكان لزاما على ملك المقدونيين غلاظ القلوب، الذين كانوا ينزعون إلى الحرب، أن يملك زمام ولائهم بالبسالة الشخصية. أن قلة من الشخصيات التاريخية العظيمة يتجردون عن ضعة الروح، كما كان الاسكندر.

ولما كان مكشوف الطوية، صادقا، متحمسا في الصداقة الشخصية- ويتسم بصفات

الفروسية للأصدقاء والأعداء على السواء، وتستبد به كبرياء نبيلة وحب للشرف فإنه قسر وقواده وجنوده كليهما على خدمته بوشيجة قوية من المغناطيسية الشخصية، وكانت نقاوة خصاله الخلقية مضرب الأمثال، وأعجوبة زمانه. وبهذه الخصائص في عقله وشخصه كان يأتلف صفاء البصيرة وقدرة على أن يلائم بين الوسائط والغايات وأسمى تفوق في فن الحرب والجمع النادر بين الخيال السياسي وفن إدارة شئون الدولة، في ذروته. وكان بطل خياله الابداعي (الرومانسي) أخلوس الالياذة ولكن في الاسكندر ترى وقد ازدوج بالحماس والشجاعة وحب المجد الذي كان للبطل الهومري، ميراث الثقافة الخلقية والعقلية الزاخر الذي جاءت به السلالة الهلينية في مجرى تاريخها الطويل.

٦- وقد جاء في الأسطورة أن الاسكندر وهو في النزع عندما سأله قواده عمن يورثه امبراطوريته، أجاب "للأقوى" ولمدى عشرين سنة كانوا يتأمرون ويتحاربون من أجل الميراث، إلى أن قررت معركة أفسس في بروجيا (عام ٣٠١)- الخطوط العريضة للتقسمي، للعصر اللاحق. وقد آلت شبه جزيرة البلقان إلى لوسماخس Lysimachus وكونت مملكة مقدونية منفصلة لها السيادة على اليونان الأوروبية وكان بطليموس قد احتل مصر عقب موت الفاتح العظيم مباشرة، واستمرت أسرته في حكم ذلك القطر إلى أن اندمج في الامبراطورية الرومانية. ووقع معظم أملاك الاسكندر، الأقاليم الآسيوية من ايجا حتى السند، في يد سلوكس الذي أصبح منذ ذلك الحين ملكا على آسيا. ولا يمكننا أن نتقصى التاريخ المفصل التاريخ للمشاحنات التي وقعت بين هؤلاء الحكام خلال القرنين التاليين اللذين ثارت فيهما العواصف والتغيرات. لقد كانت سياسة شرق البحر المتوسط في أيدي حكام مستبدين، هلينيين كثيرا ما كانوا قادة قادرين في الحرب والسياسة، وكثيرا ما كانوا ابداعيين (رومانسيين) في شخصياتهم وأقدارهم، ومن الجهة الأخرى، كثيرا ما كانوا مجرد أوساط، لعبا للفرص والظروف، مغامرين محبين لذاوتهم أو هاوين فن، فيهم حمولة، أو عبيدا للفساد والعاطفة التي تنزع للانتقام[1]، وفي عصر كان يتيح فرصا لا حد لها للعبقرية الفردية فأننا

---

(1) أن أول السلوكيين، وأول البطالمة وحكام فرغامس الأتاليديين هم أمثلة للحكام ذوي القدرة، دمتريوس **Demetrius** محاصر المدن (**Poliorcetes**) وفورهس الافيروسي **Phyrrus of Epirus** زعيم عصابة المرتزقة من الجنود المغامرين، الرومانسي وانطيوخس افيفانيس **Antiochus Epiphanes** (مظهر الله) من هواة الفن. وتضيف "الأميرة- النمرة" التي ترجع إلى أصل مقدوني إضافة عظيمة، إلى الاهتمام بأشخاص العهد (راجع بيفان **Bevan**- بيت سلوكس **House of Selencus**)).

لا نجد زعيما للناس من الطراز الأول إلا إلى تلك اللحظة التي سار فيها في فجر القرن الثاني شخص البطل القرطاجي العظيم إلى مصيره، عبر المنظر العام للعالم الشرقي يضمر إلى النهاية المريرة، كراهية لروما لا يخمد أوراها.

ولكن هنيبال كان ساميا ومنفيا في بلاد غريبة، وكان حكامها الانتيجونيين والبطالمة والسلوكيين قد صيغوا في قالب جد مغاير. وأهميتهم للتاريخ ترجع غالبتها تقريبا إلى توسيع سياسة الاسكندر في صبغ الشرق بالهلينية. وبخلاف ذلك فقد تابعوا طريقة التعاظم الشخصي أو اتبعوا في مناهجهم في الإدارة النماذج التي وضعها السلف من حكام مقدونيا ومصر والإمبراطورية الفارسية.

ولما كانوا إغريقا في السلالة واللغة والعادات، فقد كانوا يديرون دفة الحكم في القصور الهلينية بمعاونة الجند الهليني والوزراء الهلينيين. وفي نية مدبرة نشروا المدنية الهلينية وحافظوا عليها، وسبقوا في جيلهم رسالة روما التاريخية في زمن لاحق، وكان تأثير هذه السياسة في الشرق وفي الغرب على السواء لا يمكن حصره. وكان معظم نجاحها مستقلا عن شخصية الملك الذي كان كما لاحظنا لا يعمل شيئا أو فظا جافي الطبع. أن بلوبيوس يوصم اسم البطالمة في صراحة بأنهم شخوص لا أهمية لهم[1]. ومع هذا فقد كان هؤلاء البطالمة عينهم هم الذين درجوا على تأليه الحكام. لقد كان ملوك مصر القديمة يعبدون على أنهم المظاهر الجسدية لأمون (= رع) وحتى الاسكندر عبد كاله أثناء حياته:. وسرعان ما شاعت العادة، بين السلوكيين مثلا. وفي منشأها كانت هلينية دون أن تكون شرقية. أن الدين الألومبي كما رأينا قد صور الآلهة في شكل الإنسان وفي نهج غريب عن ديانات الشرق، وكان اختلافهم عن الناس اختلافا في الدرجة لا في النوع، إلا في واقعة خلودهم. وفي العصر الهليني كانت الحاجة إلى الخلاص يحس بها احساسا ملحاً، والأناجيل الفلسفية (التي سأتحدث عنها قريبا) كانت عسيرة الفهم عسرا تجاوز الحد، لتستهوى الخيال الشعبي، لماذا اذن لا يجب اعتبار مخلص حي الها؟ وزيادة على ذلك فإن الممالك التر تركز

---

(1) إنه يقابل "عدمهم" (**Oudemeia**) بقدرة السلوكيين العالية ٣٤، ١٤. ولو أن الاسكندرية كانت مركزا هاما للثقافة الهلينية (راجع القسم الثاني) فقد حكم البطالمة مصر على مناهج الفراعنة القدامى، واستخدموا القطر كضيعة شخصية تأتي بالكسب قاصرين همهم على سيادتهم ونفعهم. وأنا نسمع القليل عن وزراء السلوكيين ولكن يبدو أنه أحسن القيام على الحكومة حتى تحت حكم ولاة خاملين. أن البيروقراطية كانت قد وطدت نفسها، قبيل هذا الوقت، في عالم البحر المتوسط.

الحكم فيها والتي أقيمت في الجيل الذي جاء بعد الاسكندر كانت في حاجة إلى رمز ظاهري للوحدة والولاء الشخصي للحاكم. وقد حققت عادة التألية هذه المطالب الجديدة في عهد السيادة المقدونية كما بعد ذلك، في عهد سيادة الامبراطورية الرومانية، وأنها تظهر للعبريين والمسيحيين الذين ترعرعوا في عبادة اله واحد، خالصة، لعنة كفر. ولكن الإغريقي والروماني كانا ينظران إليها نظرة جد مغايرة. ولم تكن تعمي عندهم أكثر ما يعني الوضع في قائمة القديسين، عند المسيحيين الكاثوليك في زمننا، إلا قليلا.

لقد كانت طريقة طبيعية للتعبير عن العرفان بالجميل لمنافع الخلاص. ولو كان ما لدينا من سجلات وافيا أكثر مما هو عليه، لكنا على الأرجح قد وجدنا أن مهمة بسط الهلينية كانت في أيد بيروقراطية قديرة، وأن الأداة الإدارية كما حدث بعد ذلك في عهد الإمبراطورية الرومانية حافظت على كفاءتها على الرغم من شطحات الأفراد من الحكام. ومثل يسترعى النظر، لهذه الكفاءة هو تقدم الزراعة المصرية تقدما سار على مذهب منظم، في عهد البطالمة وهي مهمة كان قد أهملها الحكام الفرس. ونتيجة لهذا، أصبحت مصر أهم مخزن للغلال في الإمبراطورية الرومانية، وزيادة على هذا– فإن المدينة الهلينية وهي أداة السياسة العظيمة كان من شأنها بمجرد أن تؤسس، أن تزدهر عن طريق حيويتها الخاصة، العضوية. وسنتحدث في قسم ثان قادم، من هذا الفصل، عن طبيعة الثقافة التي نشأت على هذا المنوال في الاسكندرية عند مصب النيل وفي انطاكية على الاورنط وفي سلوكيا على الدجلة وفي مائة مدينة أخرى كانت تدين بوجودها إلى الاسكندر وخلفائه. ولقد كان الملوك لسلوكيون في آسيا، من بين الأسرات الثلاث الإغريقية المقدونية هم الذين حملوا أثقل عبء، ومع هذا فقد ساروا قدما في العمل على نشر الهلينية بما كان له عظيم الأثر. وكانت كل من مقدونية ومصر دولة متضامنة متجانسة ومن السهل نسبيا الدفاع عنها، بينما كانت الإمبراطورية الأسيوية يعوقها عدم الوحدة الداخلية والتماسك، كما كانت الحال عينها في فارس في زمن مضي، وقام الدليل على أن ملوكها كانوا غير أكفاء على أن يصاولوا في نفس الوقت منافسيهم في الغرب، وفي الشرق، البطالمة والمقدونيين من جانب، ومن الجانب الآخر الدولة الفارثية التي نهضت في القرن الثالث في ايران[1]. وسرعان ما استعادت

---

(1) كان الملوك الفارثيون أسرة سقوثية، واستقروا على الهضبة االايرانية.

البنجاب استقلالها[١]، وآلت الولايات إلى الشرق من دجلة، إلى الفارثيين، وفي بواكير القرن الثاني وجد خلفاء سلوكس أنفسهم محصورين في الأراضي التي تقع بين الفرات والمشرق وقد حبسوا بين فارثيا وروما. وبعد مائة سنة، توارى حكمهم حتى سوريا وواجهت جحافب الرومان الفارثيين على الفرات.

ومع هذا– ففي خلال هذه القرون القلائل حقق بيت سلوكس أمورا عظيمة للمدنة. وبتأسيس طائفة عظيمة من المدن في سوريا وبلاد بابل وفي آسيا الصغرى والأراضي الواقعة حول القزوين، فإنهم غرسوا الهلينية في الشق الأوسط ومهدوا ساحة اجتماع للفكر الإغريقي والشرقي[٢]. ولم يكن الدين من جانب واحد وحسب. وإذا كانت الثقافة الهلينية قد تأصلت في آسيا، فإن ديانات الشرق أيضا بدأت تسيطر على عالم البحر المتوسط. وكان الاندماج مشحونا بنتائج هامة. إنه كان في انطاكية الحاضرة السورية للسلوكيين أن تلاميذ الديانة التي قدمها الشرق إلى الغرب أطلق عليهم لأول مرة الاسم الإغريقي المسيحيون[٣].

٧– لقد ذكرنا آنفا أن قيام الدولة المقدونية كان معناه سقوط دولة– المدنية الهلينية، كوحدة سياسية مستقلة، وكان هذا الثمن الذي دفعته اليونان للفرصة التي تاحت لها في بسط الهلينية على الشرق. وكان هذا العمل الجليل ميسورا فقط لدولة عظيمة، وفي الأزمنة القديمة في طول مداها، كان معنى الدولة العظيمة، الحكم الاستبدادي، وسنرى كيف أن روما أيضا كفت عن أن تكون جمهورية عندما استحوذت على امبراطورية عالمية, أن الأساليب التي تستخدمها الأمم الحديثة للتوفيق بين ممتلكات فسيحة الأرجاء والاحتفاظ بالحرية السياسة وهي الطباعة والنقل

---

(١) يجب ألا يغيب عن البال أن مدنا اغريقية بمستعمرات اغريقية أقيمت في البنجاب وأن النفوذ الإغريقي في ذلك الجزء من الهند لم ينته باستعادة الاستقلال. لقد كتب أمير وطني إلى انطيوخس الأول يطلب منه أن يرسل سفسطائيا اغريقيا إلى البنجاب، وأجاب انطيوخس أن السفسطائيين لا يباعون (بيفان ١، ٢٩٧).

(٢) حلت سلوكيا على الدجلة محل بابل التي أصبحت منذ ذلك الحين مجرد مركز ديني. وظلت سلوكيا مدينة إغريقية في عهد الفارثيين (**Tac; Ann**: ٦، ٤٢) وقد نسب اسطرابون (١١، ٩، ٥) الذي عاش في عهج أغسطس عدم تقدم موارد هورقنيا **Hyrcania** وإقليم القزوين في زمنه إلى ما وقع من الإغريق لم يحكماها اطلاقا. لقد قامت الحكومة الإغريقية المقدونية في حماس بتنمية التقدم المادي والاقتصادي، الطرق والري والمصارف... الخ. وعن عالية، راجع بيفان ١، ٢٨١ وعلى وجه عام الفصول ١١ إلى ١٤ من كتابه.

(٣) الأعمال: ١١ و٢٦ بدأ مذهب مثرا في الذيوع في آسيا الغربية في عهد خلفاء الاسكندر، راجع السفر الثاني فصل ٩، ٨.

بالبخار وطرق المواصلة بالكهرباء، وفوق هذا كله الحكومة النيابية، لم تكن معروفة للأقدمين. ولكن توكيدنا ولو أنه صادق في معظمه، يجب أن يقبل بتحفظات معينة. ويرجع أحد الأسباب إلى أن المدنية الهلينية ماتت موتا عسيرا ولقد شاهدت الحقبة الإغريقية المقدونية مكافحات متكررة بين القوات التي تناصر النزعة الجمهورية وتلك التي تنزع إلى الحكم الاستبدادي، ولم يكن في قلة من الحالات أن الجمهوريات كانت قادرة على الاحتفاظ بكيانها. وكان الأمر كذلك فيما يوالي حدود امبراطورية الاسكندر في الغرب حيث ظلت جماعات مثل سيراكوز وطرنطم Tarentum ومسيليا Massilia مستقلة إلى أن أدمجت تحت حكم روما. وفي جهات أخرى نجد المدن الفردية تحتفظ أو تسترد استقلالها طبقا لظروف الزمان والمكان المتغيرة. وفي اليونان الأوروبية فازت أثينا واسبارطة وفاز التحالف الايطولي والتحالف الاخائي بحكم ذاتي لفترة عابرة، وشبيه هذا يصدق على بوزنطية، وهرقليا، على الأكسين وخيوس وبعض بلدان ايجة، ولقد استمتعت المدينة الجزرية، رودس "خاصة" بعهد باهر من الرخاء التجاري تحت حكومة جمهورية ألغت القرصنة وبسطت حمايتها على الولايات الأضعف دون فرض ضريبة وأنشأت مدونة قانون بحري، جليلة الشأن وقامت بالوصاية على الدين والثقافة جميعا وحافظت على ابتعادها عن المشاكل الدولية حتى منتصف القرن الثاني[1].

ومثل آخر: كانت فرغامس Pergamos التي ازدهرت كموطن للفن والثقافة تحت حكم ولاة منها، بيت أطلس Attalus وكانوا أمراء من التجار ذوي ثراء دافعوا عن ذمار الهلينية ببسالة ضد حملات المغول الهمج على آسيا.

ولكن غالبية المدن الهلينية كانت خاضعة سياسيا لإحدى الممالك المقدونية الثلاث ولقد سمح لهذه المدن، في معظم الحالات بالحرية التامة في الحكومة المحلية واعترف بكثير منها مثل أزمير أو المدن الهامة في كليكية وفينيقية ووادي الأورنط بأنها "مقدسة ومعصومة" تقوم خارج الإدارة العادي، وكان مركزها تحت الحكام المقدونيين. كما كان في عهد روما، مماثلا لمركز المدن الهانسية الحرة في زمن الإمبراطورية الرومانية المقدسة. وكان الحكام حريصين على مراعاة صور الاحترام الخليق بتقاليد دولة– المدينة الهلينية، العليا، وأن يتحدثوا ليس عن "رعية" ولكن عن "حلفاء" وعن "المساعدات الاختيارية"، بدلا عن "الجزية" وأن يقووا صالحهم المادي بمنح سخية وخاصة

([1]) أسست رودس عام ٤٠٨ وكانت تقوم بما يقوم به الوسيط، بين اسكندرية وسوريا والأكسين والموانئ الأوروبية.

لمعابد المدن وأن يحجبوا على وجه عام، تحت قناع من الحرية المعترف بها، حقيقة الخضوع القاسية. وكانت المدن في دورها على استعداد بأن تتزلف إلى الطغاة بأنواع التكريم الالهي، وهذا علامة على تدهور في مزاج دولة المدينة في القرن الخامس[1]. وفي جميع الأحوال، كان السلوكيون يحبون الهلينية حبا صادقا، وكانوا يعلمون تمام العلم أن بسط الصبغة الهلينية كان يمكن انجازه فقط عن طريق متعضي المدينة. ولكن عندما يضع المرء موضع الاعتبار الكلي استقلال المدن الفردي وتضاعف البلدان الجدد، في المملكة السلوكية وسياسة التاسمح التي جرى عليها حكامها للقديم منها والجديد على السواء فإن الحقيقة تظل قائمة بأن سيادة دولة– المدينة الإغريقية ومعها أصل نبع روح الحرية السياسية قد ذهبت عن الوجود. وعلى ذلك يمكننا أن نقدر المقاومة في حماس شديد التي قامت بها أثينا ضد فيليب بزعامة ديموثينس ورفض الولايات الإغريقية من أن تعميها روعة انتصارات الاسكندر التي تأخذ بالإبصار، عن التضحية الحقيقية التي كانت تترتب على تلك الانتصارات. ولقد شعروا– بالغريزة– أن ضربه قد وقعت على الجذور التي أفرخت منها الهلينية. وفي الواقع كان الأمر كذلك. وفي بطء ولكن في توكيد فقدت السلالة الإغريقية نشاطها القديم في غضون العصرين الإغريقي– المقدوني والإغريقي– الروماني.

وكان الإغريق "أشبه بمالك أسرة قديمة لا مكوس عليها إلا للملك، رهن وفقد ميراثه ولكن لا يزال يسمح له بأن يعيش في بيته القديم. ولقد ذهب عنهم سحر الملكية الجوهري، ومعه كل بهجة الحياة الاجتماعية وفيضها، ولو أن هذه الكارثة كانت لتعمل على توسيع أفقهم العقلي وتوجد لهم مصالح جددا وعملا آخر يضطلعون به– فإن ينبوع جهدهم العقلي ما كان ليجري مرة أخرى بمثل ذلك الصفاء والقوة كما في أيام الحرية الكاملة لدولة المدينة"[2] الفردية. ودون ريب، تفتحت في نفس الوقت امكانيات جدد أمام الهلينية وقد أتت مع تبدل الأحوال الاقتصادية، نتائج اجتماعية وسياسية بعيدة المدى، فإنه بوجود معظم التجارة الشرقية في يد اليونان، تقدمت مؤسسات الأعمال في قياس جديد على نطاق واسع. وحلت محل مناهج المصارف القديمة مناهج أخرى، واتسعت مسافة الخلف بين صاحب رأس المال والعامل الصناعي مع النتائج التي لا معدى عنها في أن أمان المدن التجارية الهامة أصبح يهدده الخوف من ثورة

---

(1) لقد منحت ديموقراطية مليطوس المعادة الرتب الإلهية على انطيوخس الثاني الفاسد (**Theos**). وعن تالية الأمراء، راجع مرى "خمس مراحل" الصفحات ١٣٣ وما بعدها.

(2) ورد فولز **Warde Fowler**– دولة المدينة الصفحات ٣٠١– ٢.

وارتفعت الأسعار في كل مكان بحيث خرجت عن كل تناسب مع زيادة الأجور وقد فقدت الدراخمة بين القرنين الرابع والثالث نصف قيمتها وكانت الجماهير في خطر دائم من حدوث مجاعة ولم يكن يوجد طبقة وسطى عظيمة لتكون جسرا للهوة التي كانت تفصل ذوي اليسار العظيم عن الفقراء فقرا مدقعا. ولهذا قامت الصيحات لمجموعة الأدوية التي تسقى جميع الأدواء الثورية كإلغاء الديون وتقسيم الأرض تقسيما متعادلا ومصادرة الملكية الشخصية وتحرير العبيد- تلك التي وجدت عضدا نظريا من أفكار الرواقيين التي كانت تنتشر الآن بين الطبقات المثقفة[1]. وعلاوة على هذا- فإن غزوات الاسكندر جلبت عالما أوسع إلى داخل مجال نظر الإنسان، أكثر مما كان يتوافق مع الاحتفاظ بوطنية تتصل بالمدينة وحسب. وقد مهد استبداد مقدونيا وروما وهو يحطم الحواجز التي كانت تفصل الإغريق عن الهمج والغربي عن الشرقي، الطريق للمثل الأعلى للمذهب الكوني الذي كانت تعبر عن فلسفة الرواقيين، وفي القضاء الروماني وأخيرا في الديانة المسيحية. لقد كان يوجد شيء فيما خلقته العبقرية الإغريقية وفي روحها يتعالى على قصور السلالة التي انتهجتها. كانت الهلينية نورا ليس فقط للهلينيين، ولكن للبشرية ورأت الساعة التي غابت فيها في سماء موطنها، فجر طلوعها بين الشعوب غير الهلينية.

٢- الثقافة الهلينستية

٨- كان البلي الذي أصاب الهلينية جد تدرجي لأن الثقافة الإغريقية احتفظت بنضارتها وتميزها خلال الفترة المستطيلة من التدهور، لقد غاضت الينابيع، لكن الجدول كان لا يزال يفيض ولو أن جرمه أصبح أقل وفي ركود أعظم. وكانت الأمواه، أمواه اليونان.

وغرضنا هنا أن نضع شكلا محملا لخصيصة تلك الثقافة العامة لما يطلق عليه العصر الهلينستي الذي يقع بين حكم الاسكندر وحكم روما (٣٣٠- ٣٠ ق.م)[2]. وفي فصل قادم، سنتحدث عن الهلينية في عهد الإمبراطورية الرومانية، ويجب أن نأتي على ذكر حقيقتين حاسمتين، في مستهل القول:

(١) راجع تارن Tarn، "العهد الهلينستي" الصفحات ١٠٨- ٤٠ عن "المسألة الاجتماعية" بتوضيح مفصل، من الحركات الثورية في اسبارطة في القرنين الرابع والثالث (Agis, Cleomenes and Nabis)

(٢) أن التعبير "هلينستي" Hellenistic غير واف ولكنه شائع الاستخدام. وأفضل منه التعبير الإغريقي المقدوني Graeeo- Macedonian أما "الاسكندري" الذي يستخدم كثيرا، فإنه مغرر جدا. ومغزي التعبير "Hellenistie" أضيق كثيرا من مغزى "Hellenism".

أولا: كان يعني فقدان استقلال المدينة (الاستقلال المدني) أن مهمة الحكم الخطيرة لم تعد بعج من شأن المواطن الفرد، ومنذ ذلك الحين، يسير الأدب والفكر في جو من المصالح الشخصية وجو الحياة الاجتماعية، وهي بمعزل عن الحياة العامة.

ثانيا: أن اليونان تعي وعياً يطرد ازديادا ماضيها الذي أنجز. وهي حتى ذلك الحين كانت خالقة الحاضر والمستقبل تصبح الآن تاريخية تنزع إلى التأمل. أنه عندما يسير الواعز للخلق إلى بلى ويبدأ النشاط في الوهن تتحول السلالة صوب جلائل أعمالها الماضية لتحلل وتسجل. إن بومة منروا **Mineva** لا نشرع في طيرانها إلى أن تبدأ ظلال المساء تخيم ([1]).

٩- أن الأدب الهليني والفن الهليني هما نتاج أحوال الحياة والفكر التي تغيرت. أن الأدب- بصفة عامة- يتميز بالثقة والعلم وبالنقد والتأمل بمحاكاة النماذج القديمة، وصب الخمر الجديدة في الفوارير العتيقة أو مرة أخرة، بالرغبة في تقديم التسلية الاجتماعية لجمهور مثقف وهو يعتمد اعتماداً وثيقاً على رعاية العظماء. وفي هذا المجال، كما في مجال العمل، كان العصر عصر رجال ماهرين من الدرجة الثانية، وكان رجل العلم النابه حقا، أرطوسثيتس **Eratosthenes** يلقب (ببيتا **Beta**) (أي من الدرجة الثانية). ولو أن هذا فيما يرجح، كان التعبير عن الغيرة التي كان يشعر بها اخصائيون نحو زميل له نظرة عقلية أكثر أتساعا من نظرتهم. وإنا إذا استثنينا رودس، وأثينا، فإن مراكز النشاط الأدبي والعلمي الهامة، كانت قصور الطغاة، وكان الشعر بالطبع، أكثر نضارة أينما كانت الحياة في أعظم حرية، كما في صقلية فيما يوالي مدى الأمبراطورية المقدونية أو في أثينا، موطن التقاليد العظيمة، حيث كان مظهر الاستقلال السياسي على الأقل، يحافظ عليه في حماس.

وكانت أناشيد الرعاة (**isylls**) لثيوكريتس **Theocritus** السيراكوزي (حوالي ٢٧٠) أخر الأعمال الجليلة التي قامت بها عبقرية الشعر الإغريقية الجديرة بالذكر، ولها مرتبة هومر وواضعي الفاجعة الأتيكية ([2]).

لقد خلق ثيوكريتس صورة جديدة من الأدب. وكان مصدر الالهام لشعر المراعي لجميع الأزمنة اللاحقة بما فيها قصيد المراعي، القصار **Eclogues** لفرجل ولوسيداس **Lycidas** لملتوق

([1]) هجل **Hegal**- مقدمة «فلسفة الحق **Philosophy of Right**».

([2]) ولو أن ثيوكريتس عاش في الإسكندرية في عهد بطليموس الثاني فإن روح شعره صقلية.

وأدونس **Adonis** لشلي. وقد ازدهرت في أثينا «المسلاة الجديدة» في الأخلاق (٣٣٠-٢٥٠) التي كانت تصور أنواع الخصائص والمواقف في الحياة الاجتماعية الإغريقية، بدلا من الشخوص الأحياء الذين كان أرسطوفانس، يهجوهم في تهكم، ولقد جلب ماناندر **Menander** وزملاؤه من واضعي الفاجعة، إلى المسرح، الوالد المشاغب والابن المسرف والطفيلي ومستودع الأسرار من الإناث، والمحظية والبخيل، والمغامر الثرثار، من أشباه الهوفجونيين **Harpagons** ([1]) والدجالد دلجتيين **Dugald Dalgettys** ([2]) في ذلك العصر، وفي المسلاة والأمثال والملحمة كان أمر الحب بين الرجل والمرأة، الذي كان يخلو منه بصفة ظاهرة، الشعر الإغريقي، الأسبق قد صار موضوعا سائدا ([3]). وعلى سبيل المثال كتب أفولونيس، الشاعر الرودسي، وهو يقلد صورة الملحمة، في عهد أسبق، في أبيات من ستة مقاطع قصة الأرغنوط **Argonauts** وحب ميديا ليسون **Jason** ولقد عبر عن روح الرومانسية (الأبداعية) أجمل تعبير في شعر المراثي الذي كان موطنه الإسكندرية.

وكانت المدنية نفسها، تحت رعاية البطالمة، مركز العلم الهليني وكانت تقوم مكتبتان، تضم أحدهما ٧٠٠.٠٠٠ مخطوط، وهما يدلان على الحماس الذي كان فيه يجمع الأمراء والعلماء، عيون مصنفات الماضي، وكانت مدارس من النقاد والشراح تكدح في مهام التحرير والتفسير. وإلى جانب العالم كان يوجد الطفيلي والمتفقة. وكان العصر يجمع بين الثقافة العامة وبحث المتخصص. وبفضل البردي أصبح يوجد جمهور مثقف يعكف على القراءة وقد ازدهر النقد اللغوي والنقد الجمالي في الإسكندرية، وسارت فروع العلم قدما إلى الأمام بمعاونة الرسائل والمعطيات الجدد. ومن بين العلماء الذين كان موطنهم المتحف كان رجل الهندسة أقليد **Euelid** وأرشميدس الذي كشف مبدأ الرافعة والجغرافي أرطوسثيينس **Eratosthenes** القورينوي أول من

([1]) شخصية في مسلاة موليير «البخيل **L'avare**» مأخوذة عن **Euelis** لفلاوطس **Plautus** كان يمتلك خيولا لا يطعمها جيداً وخدما لا يكسوهم، أما تجويعه الفيران فليس محققا. (المترجم).

([2]) دلجتيين... «كابتن دجالد **Capt. Dugald**» شخصية في رواية «سكوت» **Sir. W. Scoot**، " **Legend of Montrose**" كان طالب لاهوت وأصبح من الجنود المرتزقة وهو شجاع ويمكن وضع الثقة فيه إذا دفع له مرتب حسن. (المترجم)

([3]) كان يوريبيدس أول واضعي الفاجعة الإغريق، في اتخاذ حب الجنسين موضوعا أساسيا. ومع هذا، فإن الحب في معناه الحديث المثالي نادر في الأدب الإغريقي. (راجع انطماخس القلوفوني **Antimachus of Colophin** ومركز المرأة في الشعر الإغريقي تأليف (ي.ف. بنيكي **E. F. Benecke**

قاس درجة عرض على سطح الأرض والعالم الهومري أرسطرخس (**Aristarchus**) السمثراقيوي (**Samothrace**).

ولقد كان تقدير أرطوسثنيس لمحيط الأرض بمثابة بثمانية وعشرين ألفا من الأميال قريبا من الحقيقة قرابة تدعو إلى الدهش حقا، وكان أرطوسثينس أيضاً هو الذي أدمج في مصورته الجغرافية ثمرات الرحلة ذائعة الصيت التي قام بها فوثياس (**pytheas**) المرسيلي (أواخر القرن الرابع) في محاذاة ساحل أوربا الأطلانطي حتى بريطانيا وسواحل بحر الشمال إلى مصب الألب. وفي الواقع يمكن أن يعد إغريق القرنين الرابع والثالث خالقي علم الجغرافيا. وفي منتصف القرن الثالث وضع الرياضي والفلكي العظيم أرسطرخس الساموسي (حوالي ٣١٠- ٢٣٠) نظرية مركزية الشمس، وهو يقتفي آثار العلم الفيثاغوري والأفلاطوني ([1]). وفي الإسكندرية أيضاً أصبح علم التشريح لأول مرة أساس علم الطب (هاروفلس **Herophilus** حوالي ٣٠٠ ق. م). وفي المستعمر العبرية في الإسكندرية التي كانت تتمتع بميزات خاصة، أتى اتصال الثقافة الشرقية والثقافة الغربية بالثمار في أصدار الترجمة السبعينية **Septugint**، النسخة الإغريقية لأسفار العهد القديم ([2]).

أن هذه الحقبة تسترعى النظر أيضا بمصنفاتها التاريخية وأشهرها مؤلف بلوبيوس (القرن الثاني) وهو رجل سياسة جمهوري إغريقي حل كرهينة إلى رومافي زمن فتح مقدونيا واستمتع بصحبة الرهط الأسقيفيوني، ذائع الصيت.

ولقد سجل في لغته الأصلية توسع الدولة الرومانية وقد ألهم بذلك_ وهو اعتراف نادر من مؤلف إغريقي_ الأعتقاد في صلاحية السلالة الرومانية لحكم العالم. ومن الأمور ذات المغزى عن نجاح سياسة بسط الهلينية كان تاريخ مصر الذي وضعه الكاهن الوطني مانيثون وتاريخ بابل كذلك الذي وضعه الكاهن الوطني بروسس (**Berosus**) وكان عالما بابليا، يحمل الاسم الإغريقي سليوكس هو الذي ناصر النظرية الجديدة لمركزية الشمس في السموات، في القرن

([1]) راجع بورنت **E. GK. Ph** صفحة ٢٢٩ و **Heath**، أرسطرخس الساموسي **Aristarchus of Samos**. ويذكر «بورنت» أن كبرنيكس صرح في خطاب للبابا بول الثالث أن دراساته للعلم الفيثاغوري هي التي أوجدت لديه الدافع لإعادة الكشف عن نظرية مركزية الشمس. وقد عاش أقليد في عهد بطليموس الأول وينتمي أرشميدس وأرطوسثينس إلى القرن الثالث وأرسطرخس السمثراقيوي للنصف الأول من القرن الثاني.

([2]) أصدرت الترجمة السبعينية (**LXX**) وقد أطلقت عليها هذه التسمية لأنه كان يظن أن سبعين مترجما قانوا بوضعها، في القرنين الثالث والثاني. وقد عرفت الكنيسة المسيحية الباكرة «العهد القديم» عن طريق هذه النسخة على الأخص.

الثاني. ولقد أوجد الجو السياسي الذي كانت تتوفر فيه حرية أعظم في أثينا ورودس دافعا لقيام مدارس الفصاحة ذائعة الصيت. وسنتحدث في قسم قادم عن فلسفة العصر. وكان العهد أيضا عهد تنظيم المعرفة في المدارس والمكتبات. ولقد قامت مراكز للجامعات، على أنموذج أثينا، في العالم الهليني، كما في رودس، وفرغامس وطرسون في كيليكية وفي ختام تاريخها، فنيت الثقافة الإغريقية أعياء من فرط التعب في أكاديميات العلم، ولكن كان في أكاديميات العلم أنها نهضت مرة أخرى وسرت فيها الحياة، في إيطاليا في عصر النهضة. ومظهر آخر من مظاهر الأدب الهلينستي جدير بالملاحظة. لم يعد المؤلفون بعد يكتبون كما كان يكتب واضعوا الفاجعة الأثينيون، لأجل مواطنيهم ولكن وفقا للنظرة العالمية الجديدة لجمهور كان عالميا، وفي الوقت ذاته تدرب على ثقافة الماضي.

١٠ – وكان الفن في ذلك العهد كذلك، منذ بداية القرن الرابع فصاعدا يعبر عن النظرة إلى الحياة التي تبدلت، وإذا كان فن العمارة وفن النحت في عصر فيليب والأسكندر بعوزهما استقرار وعظمة الطراز السابق فإنه يوجد كسب يعوض عن الخسارة، في اتقان الصنعة اتقاناً متزايداً وتصوير العواطف الإنسانية في حرية أعظم وقدرة عجيبة على أبراز الخصائص الفردية.

وكلما تقدم الزمن أصبحت آيات التدهور ظاهرة للعيان غي حب للأناقة التي تفيض زخرفا، وما يبذل من جهد واع لمحاكاة المذاهب العتيقة.

ومن بين أروع آثار القرن الرابع التذكارية، يمكن دراسة عملين منحوتين، في المتحف البريطاني «الضريح **Mausolem**» وهو القبر الذي أقيم في هلقرناسس **Halicarnassus** لماوسلس **Mausolus** ملك كاريا **Caria** (حوالى ٣٥٠) وهو عمل، حمل سقوفس **Scopas** الفارسي عبء القيام بجزء منه و «محراب نريد **Nereid**» من اكسنثس في لوقيا، والاثنان يقومان شاهدين على ما ظفرت به الثقافة الإغريقية من طول باع بين السلالات غير الهلينية في آسيا الصغرى. وفي ألومبيا لا يزال يمكن رؤية هرمس لافراكسيطيلس **Praxiteles** وهو نحات من المدرسة الآثينية خلقت تماثيله للآلهة أفروديت طرازاً جدياً من الجمال النسوي في الفن. وربما كان أعظم تقدم فني اختص به ذلك الزمن قيام التصوير. ولقد جلس الإسكندر مراراً إلى النحات لوسبوس **Lysippus** وإلى المصور الإغريقي العظيم أفلس **Apelles** القلوفوني. ولا توجد صور بين أدينا ترجع إلى ذلك العصر ولكن قسمات زعماء الحكام محفوظة على عدد عظيم من

الجواهر والعملة. وفي فن العمارة، عاين القرن الرابع استخدام تاج العمدة الكورنثي ذي الزهور (على سبيل المثال أثر خرجي للوسقراطس **Lysicrates** في أثينا، حوالي **٣٥٥**) وفي اليونان الأصلية، حلول الطراز الذوري الصارم محل الطراز الأيوني الزاخر، وعندما نصل إلى القرن الثالث نجد أحسن فن كأحسن شعر، يزدهر حيث تكون الحياة على أعظم جانب من الحرية. وفي اسكندرية كان يوجد اليسير مما هو جدير بالتسجيل فيما عدا احياء مصطنع للفن ولما كان تخطيط المدن موضع اهتمام الإغريق منذ أن استخدم بركليس هبوداموس **Hippodamus** المليتوسي لرسم موقع ثوري **Thurii** في مربعات، ومنذ أن أعاد ديونوسيوس الأول وضع سراكوز، فقد ازدهر، بطبيعة الحال، في عهد حكام مقدونيا وأقيمت الإسكندرية وأنطاكية في تخطيط محكم يسير في مذهب منسق. وأعظم كل المدن جمالا، في الموقع والبناء، كانت فرغامس وهي من خلق أمراء بيت أطلس **Sttalus** وكان كل من فرغامس ورودس مركزا للفن الحي في القرنين الثالث والثاني. وقد نمت الأولى حول حصن ربوة إلى أن أصبحت حاضرة الأمراء المثقفين الذي على غرار أسرة مديشى (**Medici**) في عصر النهضة، كانوا يجمعون حولهم الفلاسفة والفنانين. ولقد كانت رسوم فرغامس المنحوتة التي تخلد ذكر انتصارات أطلس الأول (**٢٤١**– **١٩٧**) وأمنيس الثاني (**Eumenes II**) (**١٩٧**– **١٥٩**) على الغال أجمل ما وصل إليه ذلك العصر ([1]). وفي تاريخ معين سابق، توجت رودس مقاومة البطولة التي قابلت بها قوات الطغيان، بإقامة التمثال الهائل (**Colossus**) وهو تمثال لاله الشمس، يبلغ ارتفاعه **١٠٠** قدم ونيف ومن صنع أحد تلاميذ لوسبوس، ولقد شكلت مجموعة لاوقون **Leocoon** على نهج المدرسة الرودسية وكان فروطغنس (**Protogenes**) الرودسي أحد عظماء المصورين في زمنه. ويمثل ما جاء بعد ذلك من تطورات في فن النحت، أعمال معروفة جيداً مثل أبولو بلودير **Appollo Belvedere** وفينوس (أفروديت) ميلوس. وتصوير المناظر المألوفة أو الريفية، وصور مناظر داخل المنول، كأمثال صور عظام الفنانين العولنديين في القرن السابع عشر كان له ذيوع ويقدم تمثيلا لمشاهد الحياة الاجتماعية «في المسلاة الجديدة» وفي عهد السليوكيين ذاع الفن الإغريقي صوب الشرق، وفي القارة الآسيوية. ويؤكد لنا الباحثون المعاصرون أنه كان عن الإغريق الذين حكموا

([1]) مثل «رجل الغال في النزع» المحفوظ في متحف كابتلون **Capitoline** وكثيرا ما يطلق عليه خطأ (المجالد في النزع **Dying Gladiator**) لقد كان فن فرغامس يتميز بواقعيته الفاجعية وتفوق الصنعة وكانت تشيع فيه الحياة الحقة أكثر من أي فن آخر في ذلك العصر.

لمدة قصيرة في البنجاب أن الهنود تعلموا نحت الحجر وإقامة الأبنية به، ويجب أن نتذكر أيضاً أيضاً أن أدب وغن العصر الهلينستي وضعا طابعهما على أدب وفن روما وعلى هذا، فعن كريق روما، أثرا على المدنية الخالفة تأثيراً أكثر عمقا من تأثير الأعمال المثالية العظيمة في عصر بركليس.

٣- عصر ارستطاليس

عندما فقد العبريون استقلالهم القومي سعوا إلى اللياذ بالدين. ولقد ترك تدهور دولة– المدينة الهلينية الإغريق، دون ذلك المصدر لتعزية. ولقد رأينا أن معتقدات الإغريق الشعبية كفت عن أن تؤثر في أولئك الذين كانوا أعظم السلالة تفكرا وجدا وقد تحول هؤلاء_ وهم أرستقراطية الثقافة_ إلى الفلسفة لتهديهم السبيل وتقدم العون. أنها فلسفة هذا العصر هي التي أثرت أعمق تأثير في أجيال البشرية اللاحقة.

ولقد كان أعظم تلاميذ أفلاطون، أرستطاليس_ معلم الاسكندر خلال ثلاثة أعوام_ وربما كانت هذه أروع آصرة تقوم بين أشخاص في تاريخ البشرية. أن أرستطاليس، على غرار الأسكندر، يقف عند مفترق الطرق وتتأصل فلسفته في فلسفة أفلاطون ولا تكاد توجد فكرة من أمهات أفكاره لا توجد جرثومتها في الديالوجات الأفلاطونية ([1]). ولقد فاق أفلاطون الذي كان موقفه من حياة عصره موقف الاستنكار دون ترفق، في أنه يمثل الحياة الإغريقية كما كانت تشمل عليها دولة_ المدينة. ويبدو أن أرستطاليس لم يكن عليما بأن ناقوس نعى المدينة الحرة قد دق في خايرونيا، أن إدراكه القوي بالواقعي في الطبيعة والحياة الإنسانية واهتمامه بظواهر العالم الهليني الاجتماعية والطبيعية، هما اللذان جعلا من فلسفته شرحا موضحا للثقافة الإغريقية.

وكان لأفلاطون نظرة أكثر عمقا، في نوازع أعمال البشر، ولكن أرستطاليس كان أكثر قربا من الهليني الذي يمثل النوع.

وكان مثله االأعلى السياسي، دولة_ المدينة الهلينية التي جاء عليها الإصلاح لا الثورة ومثله الأعلى للفرد، حياة العقل التي تهيء الصورة كمبدأ للتناسب والقياس، لمجال واجب المواطن

([1]) كان أرستطاليس في الواقع أول أفلاطوني. وتفسير فلسفته على أنها التطور الأصلي لفلسفة أفلاطون أدق إلى حد بعيد من التنويه بالتناقض بينهما، كما جرت عليه الحال مرارا كثيرة في الأزمن اللاحقة. وبالطبع كان أرستطاليس تحدوه الرغبه في أن يوضح لجيله المواضع التي أنحرف فيها عن المذهب السائد. وكان هذا مدعاة لاساءة التفسير.

الزاخر المتنوع الذي تقدمه حياة الدولة الإغريقية.

أنه هذا الأحساس بقيمة الواقع الذي أدرك، ضرورة تحقيق الصورة المثالية بين مواد الأحوال الفعلية، هو الذي يميز أرستطاليس عن أفلاطون.

وعلى مثال أفلاطون كان يعتقد أن حياة التأمل هي أسمى حياة، وعلى مثال أفلاطون كان يعتقد أن أعظم ما يكون حقيقياً هو أعظم ما يكون قابلا للمعرفة، وقد التمس هذه الواقعية في الحقائق الأبدية التي تكون موضوعات الفكر، لا الحس. ولكن هذه الصور الأبدية لم تكن في اعتباره كائنات عالم ينأي عن عالم التجربة الفعلية، وإنما كانت المباديء التي تسيطر على العالم الذي كان يعيش فيه (1).

١٢- وبيان مجال وقيمة فلسفة أرستطاليس في نطاق موجز، هو مهمة غير عملية وخاصة لأنه لا يوجد توليف واحد يرجع إليه، يهيىء «كجمهورية» أفلاطون، أساسا شاملا للدراسة.

لقد كانت أعماله عجالات تخصص كان يحتفظ بها في الغالب، في صورة تذكرات محاضرة، هو أو تلاميذه. موجهة إلى عقول على المام بالموضوعات العديدة ويفترض فيها سلفا معرفة بأجزاء المذهب الأخرى والعلم كما لاحظنا، كان قد أخذ طريقه للتفرع إلى أقسام متنوعة. وتزخر كتابات أرستطاليس بالصيغ والتعابير الصنعية التي تفصلها هوة واسعة عن لغة التخاطب العادية. وليس الأمر في الواقع أن أرستطاليس يصعب فهمه أكثر من أفلاطون، أن أفلاطون يصعد بأجنحة قوية نحو الشمس. وقليل هم الذين يمكنهم أن يتتبعوه في طيرانه، «أن حاملي عصا باخوس **thyrsus** كثيرون، ولكن الملهمين قليل»(2). ومع هذا فإن عبقريته تجتذب دون مقاومة إلى طبقة الهواء العليا ولو أن البهاء غير المعتاد يبهره ويربكه. وليس لأرستطاليس مثل هذه الجاذبية السحرية. وفي دراسة فلسفته يتطلب الأمر في البداية، جهدا صابرا وكأمل قوة تلك «الرغبة في المعرفة» التي يقول لنا عنها أنها طبيعة في الإنسان (3). ولم يكن لمدى معرفته ما في ذلك العصر أو في أي عصر آخر. والعجالات الموجودة لدينا، تشمل مصنفات نفي المنطق

---

(1) في الرسم التمهيدي **Cartoon** لرفائيل عن «مدرسة أثينا»، صور أفلاطون وهو يشير إلى أعلى، إلى السماء، وأرستطاليس وهو يشير إلى أسفل، إلى الأرض. ويتضح من «أرستطاليس» لجيفر **Jaeger** تطور أفكاره بعيدا عن «العالم الأفضل» لأفلاطون، واتجاهها نحو تركز في العلم الإيجابي.

(2) **Phaed**، ٦٩.

(3) **Met** : ١، ١، الكلمات الافتتاحية.

والمنهج العلمي وفي الفلسفة الأولى أو الميتافزيقا (ما وراء الطبيعة) ([١]) وفي الطبيعة المادية وفي علم الأخلاق وفي علم النفس، وفي الفصاحة وفي الشعر، يضاف إليها عدد وافر من الكتابات جليلة الشأن في علم الحياة. ويمكن أن يعد أرسطاليس واضع علم الحيوان وتلميذه ثيوفراسطس واضع علم النبات. لقد كان هذان المعلمان هما اللذان كان يعنيهما شارلس دارون عندما كتب «لقد كان لنايوس **Linnaeus** وكوفيه **Cuvier** الهين لي ولو في طريقين جد مختلفين ولكنهما كانا مجرد صبي مدرسة بالنسبة إلى أرسطاليس العتيد» ([٢]). وفي مجال واحد فقط خبا ضوءه أمام غيره في عصره، في علم الرياضة حيث قام الدليل منذ زمن بعيد على أن نقائصه، نظرا لما كان له من سلطة على الأزمن التالية، كانت عقبة في سبيل تقدم تلك العلوم_ كالفلك_ التي تعتمد على أسس رياضية. وبالنظر إلى استحالة إحصاء هذه المجموعة العظيمة من البحوث النظرية فإننا سنختار مسألتين من شأنهما أن يوضحا المباديء الأصلية في فلسفة أرسطاليس وكذا اختلافها عن فلسفة أفلاطون، ونقدم القاريء إلى تصورات أثرت تأثيرا عميقا على مدرجة الفكر الهليني والفكر في العصور الوسطى، فيما جاء بعد ذلك من الزمان. وهذا هو مبدؤه عن الموجود ومثله الأعلى عن الخير الأعظم للإنسان ([٣]).

١٣– نظرية الموجود: كانت واقعة التغير الظاهرة على السواء في الحركة المادية وفي نمو المتعضيات الحية **Living organisms** وفي تقدم الإنسان العقلي والخلقي وهي التي أوجدت لأرسطاليس مسألة العلم التفكيري، الأساسية، أن التغير يتضمن ذاك الذي يتغير أي أن موضوعات التغير الدائمة_ الأشياء الجامدة والأشخاص_ التي تكون في آن حارة، وفي آن باردة وفي آن صالحة وفي آن طالحة وتتخذ صور الحرارة والبرد والفضيلة والرذيلة. أن البرد لا يصير حرا ولا تكون الفضيلة رذيلة_ أنها ليست الصورة التي تتغير ولكن الفرد الذي يستقبل الصور. وهذه الأفراد الجامدة، هذا الحجر أو هذه الشجرة أو سقراط مركبات من المادة (**hylé**) والصورة

([١]) أطلق تسمية «ميتافريقيا **Metaphysics**» (أي ما وراء الطبيعة) على هذه العجالة كتاب جاءوا بعد ذلك، في الأزمنة القديمة، لسبب عرضي محض وهو أنها جاءت تالية لفزيقيا **Physics** في ترتيب أعمال أرسطاليس التي نشرت. وعلى هذا استخدم التعبير متافزيقيا **Metaphysics** بصفة عامة يدل على علم الموجود، وهو مادة هذه العجالة. وقد أطلق أرسطاليس نفسه على هذا العلم «الفلسفة الأولى» أو علم اللاهوت.

([٢]) دارون، حياته ورسائله، **٣**، **٢٥٢**.

([٣]) عن الأقسام التالية، على القاريء أن يرجع إلى المصنفات التي وضعت عن أرسطاليس، التي جاء ذكرها في فهرست قائمة الكتب في المجلد الثاني.

(eidos) ولا يمكن أرجاعها إلى مجرد صورة لأنه كما قلنا، لا يمكن للصورة أن تتغير ولا يمكن أرجاعها إلى مادة، لأنه لا يوجد شيء إلا إذا كان ثمة شيء معين، وهب خصيصة أو صورة كحجر أو شجرة أو رجل. ومجرد مادة، غير محدد على الأطلاق وخالية من الصورة، ليست موجودة وجوداً فعليا ولكن تصور محدد، لازم لشرح الصيرورة والتغير. كيف يمكن في الحق لأي شيء، أن يعبر إلى وجود، من ذاك الذي لم يكن من قبل شيئا محددا؟ والصورة، مرة أخرى، لا وجود لها كما كان يظن أفلاطون، في سماء، تسمو على الحس بمعزل تام الانقطاع عن عالم تجاربنا الواقعي لأنه ماذا كان يمكن لمثل تلك الصور المنعزلة أن تضيف إلى وجود عالمنا عالم التغير، أو إلى معرفتنا به؟ وعلى هذا فقد كان أرستطاليس يذهب إلى أن الفرد الجماد وليس مجرد الفرد العام. هو الذي له وجود جوهري. وعندما سئل ما هو الجوهر (ousia)؟– أجاب: «هذا الجحر، هذه الشجرة، أنت وأنا»([1]). وجميع حالات الموجود الأخرى هي صفات وميول أو علاقات هذه الحالة الأساسية ويمكن أن توجد فقط وهي تعتمد على الموجود الجوهري. أن «أسود» أو «تعادل»، يمكن فقط أن يكون لهما وجود إذا كان يوجد شيء أسود أو شيئان متعادلان، وشأن الفلسفة التي تطرأ عليها، ويوضح أرستطاليس كيف يتطلب مثل هذا الشرح تعاون أربع صنوف من العلة، حتى يمكن لأي شيء أن يكون له وجود وافرض تمثالا، فيكون المطلوب:

(أ) المادة (hylé) التي ينشأ منها مثل كتلة الرخام.

(ب) مبدأ للحركة خارجي يستهل عملية التغير النسقية أي العقل واليد والمنحات.

(ج) الصورة (eidos) التي تحقق في العملية النسقية وعن طريقها مثل صورة زيوس لفيدياس أو صورة هرمس لأفراكسيطيلس.

(د) هدف وغاية العملية أي التمثال المنجز كهدف لعمل النحات.

وعلى هذا يجب أن نفترض علة مادية ولائمة وصورية ونهائية. ومن الواضح أن العلل الثلاث الأخيرة من شأنها أن تتآلف. أنها صورة (ج) التمثال التي هي غاية النحات و (د) فكرة هذه الغاية في عقله هي الدافع المحرك (ب) التي تكون بادئة وهادية نسق عمله. وتصور الصورة

([1]) في الواقع، أدلى أرستطاليس باجابات متعارضة عن هذا السؤال: ولكن النص يذكر الاتجاه الأساسي في حله للمسألة.

على أنها غاية أو غرض التقدم، بالمقابلة مع المادة غير المهيأة هو الفكرة الأساسية في كل فلسفة أرستطاليس. وكذلك في علم الأحياء وفي علم النفس وفي علم الأخلاق وفي نظرية الفن، فإن شرحه، كشرح أفلاطون، ينتمي إلى مبحث العلة الغائبة، وعملية الكون النسقية في جميع تفصيلاتها تفسر على أنها جعل القدرة على تقبل الصورة واقعية، في تدرج كل حالة تصل العملية النسقية إلى غايتها في تحقيق الصورة المناسبة وعلى ذلك فإن الشيء الذي لم تكتمل تتهيئته، يجب أن يفسر في ضوء الشيء المهيأ وليس العكس. أن الرجل يسبق الطفل وشجرة البلوط تسبق ثمرة البلوط_ والبدء من البداية هو ببساطة البدء من الطرف الخطأ ([1]). وبهذا يعبر أرستطاليس عن الفرق بين المادة والصورة بما فيه أعظم جدوى في حدود ديناميكية كحد القدرة (dynamis) والواقعية (energeia) فالطفل هو قدرة الرجل وثمرة البلوط هي قدرة شجرة البلوط وعندما تجعل صورتا الرجل وشجرة البلوط واقعتين في كلا الفردين على السواء، فإن العملية النسقية تكمل وتحقق الغاية. ولكن يجب أن يلاحظ، إذا كانت العملية النسقية لتبدأ أطلاقا، أن الصورة والواقعية سبق أفتراضهما ولو أن هذا في فرد آخر من النوع. ويمكن أن يصير الطفل إلى وجود، فقط عن طريق وساطة والد بشري موجود فعلا. وبهذا النهج في التفكير يصل أرستطاليس إلى وجود الله الأبدي كصورة خالصة. وبما أنه فقط في قوة واقعية (صورة) موجودة فعلا_ يمكن لقدرة الفرد أن تتحرك صوب الواقعية، بما أن الإنسان فقط يستطيع أن ينجب إنسانا، ويتطلب إنتاج التمثال وجود سابق للصورة في فكر النحات. فهكذا الحال أيضاً مع واقعة التغير الأولى، حركة الكون. وإذا كنا لنتخلص من الرجوع بالأسباب رجوعا لا نهاية له، فيجب أن يوجد محرك أول أبدي لإيجاد سبب حركة السموات الأولى، الأبدية، وبما أن السبب

([1]) هذا يبين كم كان تفسير أرستطاليس للطبيعة العضوية– على الرغم من إصراره على فكرة التقدم وعبقريته كعالم أحيائي– يختلف عن تفسير العلم الحديث الذي يقول بالتطور. ولم يطبق فكرة التقدم على الأنواع، التي كان يعتبرها منعزلة زثابتة. وقد أدى به مبحث العلة الغائبة إلى أن يرفض في احتقار الآراء عن عمالية نسقية تطورية بالانتخاب الطبيعي وبقاء الأصلاح التي أفضى بها أنبادقليس. «يمكنا أن نفرض أن جميع الأشياء حدثت عرضا كما كان ليحدث لو أنها أنتجت لثمة غاية» لقد بقيت أشياء معينة لأنها كانت في الوقت نفسه قد حصلت على تتكوين مناسب بينما تلك التي لم يتهيأ لها ذلك فنيت وأنها تسير إلى فناء كما يقول أنبادقليس عن الثيران التي لها رءوس بشرية». وهذا، في رأي أرستطاليس، من شأنه أن يفسر الطبيعة على أنها وليدة الصدفة بينما الطبيعة لا تعمل عبثاً وتحقق الهدف بطريقة عادية «في الكثير الغالب». راجع «الطبيعة» ٢: ٨ وبورنت **E. GK. Ph** صفحة ٢٤٣ (عن أنبادقليس) الذي أوردت هنا ترجمته للنص قابل كذلك (عن أنكسيمندر) **E. GR. Ph** صفحة ٧١.

هو دائما شيءآخر غير النتيجة والمحرك غير المحرك فإن المحرك الأول لا يمكن، كما كان يعتقد أفلاطون أن يكون متحركا بذاته، ولكن يجب أن يكون هو غير متحرك ([1]). والمحرك الأول الذي لا يتحرك هو صورة خالصة واقعي أبدا والهي. وفي مذهب الألوهية لأرسطاليس، لا يوجد مكان لخالق، لأنه ليس للكون بداية في الزمن وفعل الخلق يتضمن حركة وتغير وقدرة في الله، كذلك يرى أرسطاليس إلا مكان لعناية ربانية لأن الله يقع خارج الطبيعة ومنعزل عنها، وحياته ليست حياة نشاط عملي ولكنها حياة تأمل بسيط (**theoria**) وهو لا يعرف حتى الكون ولكنه إدراك له وعي ذاتي خالص وهو في نفس الوقت ذات، وموضوع فكره الذاتي البالغ شأو الكمال. وهو الأحد في هذا التعالي المطلق، يجتذب العالم نحوه كهدف رغبته «أن العلة النهائية تنتج حركة كما يفعل موضوع حب»، وعن طريق ذلك الذي يحركه (الطبقة الخارجية للنجوم الثوابت) تتحرك جميع الأشياء الأخرى، وعلى مثل هذا المبدأ، إذن تعتمد، السموات وعالم الطبيعة، وحياته تكون كأحسن ما نستمتع به، ونستمتع به أمدا قصيرا، لأنه أبدا في هذه الحالة (التي لا نستطيع أن نكونها) بما أن واقعها هو أيضاً متعة... فإذا كان الله على الدوام في تلك الحالة الخيرة، التي نكون فيها أحيانا_ فإن هذا يدعو جبرا إلى عجبنا وإذا كان في حالة أفضل_ فإن هذا يدعو جبرا إلى المزيد منه. والله بالتوكيد في حالة أفضل والحياة أيضاً ملك الله. لأن واقعية الفكر هي الحياة والله هو تلك الواقعية وواقعية الله الذاتية عي الحياة على أعظم خير، وأبدية. وعلى ذلك نقول أن الله موجود حي أبدي، وهو الخير في منتهاه، وأن الحياة والبقاء مستمرين وأبديين يملكهما الله. لأن هذا هو الله» ([2]).

١٤– الخير الأعظم للإنسان. ودليل أرسطاليس على وجود الله من واقعية الحركة، يهيء الأساس الفلسفي لعلم اللاهوت في القرون الوسطى. وكان له المكانة الرئيسية بين البراهين التي صاغها أكويناس **Aquinas** ويمكن تعرفه عن أنه المصدر الذي استمد منه جانتي تصوره للمحبة التي تحرك الشمس والنجوم الأخرى» ([3]). والعبارة المقتبسة آنفا من «الميتافزيقا» توحي بجواب

([1]) أن تأثير دليل أرسطاليس على أن الله عمل خالص وأنه المحرك غير المتحرك، للكون، على فلسفة المسيحية في القرون الوسطى، كان عميقا كما يعرف كل قاريء لدانتي.

([2]) «ميتافزيقا» ١٢، ٧ (ترجمة روس **Ross**).

([3]) أكويناس **Summa Thed**، ١، ٩، ٢– **Art** ٣ و **Summa contra Gentiles** ١ فصل ١٣– ودانتي «الفردوس» ٣٣، ١٤٥.

أرسطاليس عن المسألة الثانية من مسائلنا، وهي **summum Bonum** أو الخير الأعظم للإنسان. وبينما كان أفلاطون يلح دون هوادة على أن معرفة الخير المطلق كان أمرا جوهريا للفضيلة الحقة والنعيم وأن هدف طبيعة الإنسان كان يمكن فقط تحقيقه في حياة الأخلاص للفلسفة، فإن أرسطاليس يتحول عن البحث عن المطلق إلى البحث عن صورة خير الإنسان المعينة، وهي الغاية التي يمكن أن يصل إليها المواطن الخير في دولة– المدينة الهلينية في مدار حياته الأرضية، أنها توجد هنا أو توجد في أي مكان آخر، لأن الروح الفردية، كصورة للجسم العضوي، تعيش في اتحاد مع الجسد، مادتها، ولا يمكن أن يكون لها دعوى في الخلود. وتحديد صورة الحياة الخيرة التي فيها يكون النعيم الإنساني (**eudaimonia**) هو موضوع العلم السياسي الذي يهالج تقدم قدرات الإنسان الطبيعية نحو هذه الغاية ولقد تناوله أرسطاليس في عجالتين (**Nicomachean**)، علم الأخلاق والسياسة ([1]). وعند أفلاطون كان علم السياسة لا ينفصل عن الميتافزيقا، ومن الوجهة الأخرى يفرق أرسطاليس تفرقة قاطعة بين المعرفة والعمل وبين العلم النظري والعملي. ولقد عنى أرسطاليس بمسائل الأخلاق بروح تجريبية واستقرائية، وكان الغرض من العملين أن يكونا كتابين يدويين للشارع في مهمته العملية في تعليم المواطن استيعاب الصورة الكاملة للفضيلة الاجتماعية ([2]). وقد عرف النعيم (**eudaimonia**)، الخير الأعظم للإنسان بأنه «نشاط الروح المطابق للفضيلة (**areté**) والفضيلة بأنها «مزاج الإرادة المستقر وهو، في معدله، النسبي، يحدده المبدأ العقلي وكما يمكن أن يحدده إنسان ذو حكمة عملية»([3]). ويجب أن يفهم «المعجل النسبي» على أنه ليس مقياسا للشيء الوسط، أو التصالح مع الشر ولكن مراعاة التناسب العدل الذي يقابل الأفراط ونقصان الوجدان تكمن في نزعته إلى مبدأ عقلي (**logos**) ويعني به ليس الأفراط ونقصان الوجدان والفرض في كل من المواقف المتنوعة التي تستدعي العمل. وقوة التعريف تكمن في نزعته إلى مبدأ عقلي (**logos**) ويعني به ليس صبغة

([1]) ينصح إلى القاريء، إذا كان غير ملم لأعمال أرسطاليس، أن يبدأ درساتها مع «علم الأخلاق» وعن الترجمة الإنجليزية، يراجع فهرست قائمة الكتب في المجلد الثاني.

([2]) وهنا أهمية علم الأخلاق كمعبر عن المثل العليا الإغريقية الشائعة وأنواع السلوك. ويكتب أيكن **Eucken** «أن مذهب أرسطاليس متأصل تأصيلا كليا في العالم الكلاسيكي وتعمل آراؤه الأساسية وقيمتها، دون انقطاع، فيه. أن مذهب أرسطاليس يبرز جوهر العالم الإغريقي الكلاسيكي في تعبير علمي مكتمل رائع وعلى هذا يسلمه إلى البشرية القامة» (مسألة الحياة الإنسانية).

([3]) علم الأخلاق: ١، ٧، ٢، ٦.

معنوية للسلوك ولكن حكما صائبا في جميع الأمور يوجد في نفس المواطن التفوق السامي في الحكمة العملية **phronêsis**.

أن أرستطاليس يبحث طائفة من المسائل التي تنجم عن هذا التصور للخير الإنساني كوضع مبدأ خلقي بالتعود على السلوك القويم وطبيعة العمل الاختياري والمسئولية عما يرتكب من خطأ وصور الفضيلة المعينة وما يقابلها من رذائل ومقياس العدالة فيما يتعلق بتطبيق القانون لها، والعلاقة بين النعيم والمتعة والمثال الأعلى للصداقة الإنسانية ([1]). وهو يوجه التفاتا خاصا بالنظر إلى تعرف سقراط وأفلاطون هوية واحدة للفضيلة والمعرفة إلى المطالب العقلية للخير والحياة الخيرة. ولو أنه لا يشك في الحاجة إلى التفوق العقلي كأمر جوهري للعلاج الخلقي فإن واقعة الرجل ذي الأرادة الضعيفة الذي يعرف ما هو صواب، ومع هذا يفعل ما هو خطأ يبعد تعرفهم هذه الهوية الواحدة لهما. وعلاوة على هذا فإن الحكمة التي تكون مطلوبة، ليست حكمة (**Sophia**) الفيلسوف النظرية ولكن حكمة السياسي العملية ([2]) (**Phronêssis**). أنه من الصعب الغلو في بيان أثر بحث أرستطاليس لهذه المسائل على الفكر في الأزمنة اللاحقة. أن المباديء الأخلاقية عند الرواقيين وأصحاب مذهب الأفلاطونية الحديثة وحتى الأبيقوريين هي إلى حد عظيم تطورات لمباديء أرستطاليس وقد أثرت معالجته للمسئولية عن الجريمة على القضاء الروماني، والاقسام الخلقية في "**Summae**" لأكايناس وبنه وفحوى منظومة دانتي «الكوميديا الألهية» تبين أثر «علم الأخلاق» في كل حيدة ([3]). وإذا كان التفكير المسيحي في قصارى نعيم الإنسان يقتفي، بطبيعة الحال طريق «العالم الأفضل» لأفلاطون فقد استمد الكثير من تعليم أرستطاليس الخلقي في تطبيق ذلك المثل الأعلى على حياة الإنسان الأرض.

وأرستطاليس نفسه على الرغم من توكيده للمواضع التي اختلف فيها عن أستاذه يضرب، في ختام «علم الأخلاق»، على نغمة أفلاطونية قوية وبما أن النعيم يكون في ممارسة أعلى نشاط

([1]) التعود– «علم الأخلاق» ٢– المسئولية «علم الأخلاق» ٣و ١ صور الفضيلة والرذيلة، المعينة «علم الأخلاق» ٣و ٦ وما يليها و ٤ و«علم الأخلاق» ٥ المتعة– «علم الأخلاق» ٧، ٦ وما يليها، ١٠، ١– ٥ الصداقة «علم الأخلاق»: ٨ و٩.

([2]) عن ضعف الأرادة «علم الأخلاق»: ٧، ١– ٥. عن التفوق العقلي (وخاصة **Phronêsis, Sophia**)– «علم الأخلاق»: ٦.

([3]) أنظر المجلد الثاني فصل ١١$ ١٠ و١١و ١٤.

للروح وبما أنه في الروح الإنساني يكون للعقل بالطبيعة المكانة العليا وعلى ذلك يتحتم أن تصل صورة وغاية تطور الإنسان إلى أكمل تعبير لها في حياة التأمل الفلسفي وفي تلك اليحاة يمكنه أن يستمتع، ولو في فترات متقطعة، بنصيب من الرضى الذي يستمتع به الله، كعقل خالص بصفة أبدية. وعندما يتحدث أرستطاليس عن واجب الإنسان بأن يوجه حياته على هدى ذلك الذي فيه، الذي يغلب أن يكون شبيها بالله والنعيم العجيب الذي يجلبه مثل ذلك الأخلاص، من مجامع القلب، ويتعرف هوية هذه الخدمة الحرة في حياة الدراسة الفلسفية فإنه لن نفشل في أن نتعرف في لغته الانعكاس المباشر لتجربة شخصية «أن الإنسان يجب ألا يفكر، كما يظن أولئك الذين يقولون بذلك، الأفكار البشرية لأنه إنسان أو الأفكار الآدمية لأنه آدمي– ولكن بقدر ما يستقر فيه يجب أن يرتدي الخلود ويفعل كل شيء لكي يعيش وفقا لأسمى ما فيه لأنه وإن كان صغيرا في الجرم، فإنه يسمو على كل ما عداه في القوة والقيمة»([1]).

١٥– ولم يكن أرستطاليس مجرد تلميذ أفلاطون ولكنه رسول عهد جديد في تاريخ الفكر ولقد زيدت المواد الموجودة في متناول المعرفة زيادة تربو على القياس، عن طريق حملات الإسكندر وأصبح تحت تصرف أرستطاليس مجموعات هائلة جمعها العلماء الذين رافقوا تلك الحملات. ولقد كانت له الحرية في استخدامها لأبحاثه التي تتصل بعلم الحياة، وكذلك للمعاونة على إعادة بناء فلسفة يجب أن تربط مختلف العلوم في مذهب شامل. أن عملين جليلين يرجعان إليه هاصة، لقد حدد منهج البحث العلمي ووضع مصوره بأقاليم المعرفة الإنسانية. لقد كان أرستطاليس المؤسس الحقيقي للمنطق ليس في معنى القول المأثور ذائع الصيت الذي يرجع إلى جون لوك **John Locke** لم يكن الله مقترا إلى هذا الحد على الناس ليجعلهم مجرد حيوان ذي رجلين، فترك لأرستطاليس أن يجعلهم أولى عقل»([2]). ولكنه في ذلك وهو يقيم البناء دائما على أسس أفلاطون، نراه يحلل طرق التدليل العقلي النسيقة ويضوع المنهج الذي يمكن الوصول به إلى الحق المرشد، الذي يتميز عن الحق المرجح وحسب.

ولقد أثارت الصورية والاصطناع في المنطق الأرسطوي الكاذب لدى دجال المدارس المتأخرة رد فعل طبيعي بيين كبار رواد العلم في القرنين السادس عشر والسابع عشر، وهو لا

(١) «علم الأخلاق»: ١٠، ٧.

(٢) لوك «عجالة عن التفكير الإنساني»: ٤ و ١٧.

يزال يربك عقول الكثير الذين يجهلون تاريخ الفكر.

وفي الواقع كان أرستطاليس، الذي لم يكن قط عبدا للصيغ، ليتعرف في غاليلو وفي ديكارت التحقيق الصادق لمبادئه الخاصة في المنهج العلمي. ولقد كان يستهل كل عصر جديد في تقديم العلم التفكيري باصلاح في المنطق. وكانت الحال كذلك، ليس فقط فيما يتصل بالأرغانون Organon أو «أداة» أرستطاليس المنطقية، ولكن أيضاً مباحث المنهج " Discours de la Méthode" لديكارت والأداة الجديدة Novum Organum لبيكون والمنهج النقدي Critical Method لكانت والمنهج الجدلي Dialectic Method لهجل. أن الفلسفة والعلم يختلفان عن التفكير الشعبي ليس لأنهما يعنيان بمواضيع مختلفة، أكثر من أنهما يعالجان نفس المواضيع بطريقة مغايرة. أن النبات والحيوان وهما يكونان مادة الموضوع لعلم النبات وعلم الحيوان كانا قد وضعها في مجموعات وميزا وفهما فهما غامضا قبل قيام هذان العلمان. وكانت مهمة العلم تصحيح هذه التصنيفات الشعبية ووضع مذاهب لها، وأن تحدد في أحكام الخصائص الذاتية للأشياء وقوانين نموها. ولقد أدرك أرستطاليس في جيله، أن مسألة المنهج كان لها أهمية حاسمة ووطن نفسه على تحليل منطق العلم في بصر «منقطع النظير»، بطبيعة العملية النسقية للفكر البشري. وثانيا– لقد حدد مختلف أقسام العلوم كأجزاء في كل واحد. ولا يوجد فيلسوف وازن، بمثل هذه العدالة، التناسب بين الكل والجزء في المعرفة، أو استمسك بمثل هذه القبضة الثابتة على ما يوجد بين الأشياء من فروق مميزة حقيقية بينما أدركها جميعا في مذهب موحد.لقد كانت عبقريته في وضع مذاهب تتألف بالمدى الشامل لبحوثه، وتقديره لتنوع المباديء الأساسية في عالم تجاريبنا ونظره الذي لا يخطيء في تبين وجوه الاختلاف والقرابة في النوع في الكون بأجمعة ودقته المحكمة في صوغ المنهج الفلسفي، هي التي تجيء مصداقا لقول دانتي في نعت أرستطاليس بأنه «سيد من يعلمون»([1]). وهي تبين السبب في أن فلسفة العالم الغربي سارت مدى ألفي سنة في معظمها على الخطوط التي رسمها. وكانت الثقة التي وضعت فيه في جميع مسائل المعرفة الدنيوية لها أسمى مكانة في خلال العصور الوسطى المتأخرة ([2]). وحتى عندما أعلنت روح التعليم الجديد الغاء الثقة، بالبحث الحر

([1]) «الجحيمInferno»: ٤و ١٣١.

([2]) راجع موضوع الثقة في أرستطاليس دانتي "Convivio": ٤و ٦ ولم يكن هذا النفوذ دون عوائق أمام التقدم وخاصة في مجال علم الطبيعة فعلى سبيل المثال، كان تميز أرستطاليس بين السموات العليا والعالم الأرضي أشبه بحمل على علماء الفلك والطبيعة حتى القرنين السادس عشر والسابع عشر.

وأنكرت أرستطاليس المدارس فإنها اقتفت دون انتباه خطواته. وكمنظم عظيم للمعرفة فإن له في مسائل العقل مكانة تماثل الأمبراطورية الرومانية في مجال الحكومة والقانون.

٤- الرواقيون والأبيقوريون

١٦– كانت الفلسفة في اعتبار أفلاطون وأرستطاليس «موجة حياة» يستطيع الإنسان بها وحدها أن يصل إلى معرفة الخير الأعظم الذي يجد فيه الخلاص.

ولكن استهواءها كان لدى القلة الذين كانوا يشعرون بالدعوة إلى التأمل العقلي، وحتى لهؤلاء، كان من شأن الفلسفة أن تتدهور إلى عدم مبالاة ارتيابي أو إلى مذهب صوري، خواء. أن الرجل العادي المثقف كان يحتاج إلى شيء أقل عسرا، وأكثر أن يكون عمليا بطريقة مباشرة، مما كان يقدم إليه في الأكاديمية، وملعب الرياضة والدرس **Lyceum**. والمعلم القديم، دولة– المدينة، بعباداتها الدينية وفروضها الخلقية كان يتوارى سراعا عن النظر، ولما تقطعت الأسباب بينه وبين مرساه، فإنه التمس عقيدة تنقذ روحه من التحطم وتقوده إلى مرفأ يلجأ إليه من شرور الحياة ([1]).

ولإرضاء هذا المطلب، ظهر في الجيل الذي جاء بعد جيل أرستطاليس والأسكندر، مذهبا الرواقيين والأبيقوريين. وكانا كلاهما يسودهما النهج الخلقي، في الهدف والمبدأ ونظرية المعرفة (المنطق) ونظرية الطبيعة (الفيزيقيا **Physics**) كانا يقومان كصقالة وليس كقسم لا يتجزأ من بناثهما الفلسفي، بينما الميتافيزيقيا (ما وراء الطبيعة) النواة للتفكير الأفلاطوني والأرستطاليسي تراجعت بكيانها إلى خلفية الصورة، وفي مجال علم الأخلاق مرة أخرى، أقام كل منهما الدعوى لتقديم الهداية لروح الفرد ليبين له كيف يعيش بحكمة، ويصل إلى سكينة بمعزل عن العالم المضطرب في الخارج وبوعواطف العواطف في الداخل. وكلاهما صور خليقة الرجل الحكيم كأنموذج للمحاكاة، وكانا يعلمان كيف يمكن الوصول إلى هذا المثل الأعلى ولكن هنا ينقطع التشابه وعندما نسأل عن طبيعة الحياة الفلسفية، تقدم المدرستان أجوبة مختلفى أختلافا عظيما فيذهب الرواقي إلى أنها تكون بأتباع الفضيلة تلبية لقانون للطبيعة له السلطان أو العقل الحكيم، بأخضاع العواطف والانفصال عن عالم الظروف الذي لا يستقر على حال، فيقوم روحه لتصل إلى الأكتفاء الذاتي والاستقلال الداخلي، ويذهب الأبيقوري إلى أن الحياة الخيرة هي حياة

([1]) وبطبيعة الحال، ظلت التصورات الدينية التقليدية، والعبادة باقيتين بين الجماهير ولكن لم يعد بعد أن يكون لهما تأثير فعال لهداية أرواح الناس، كما كان توراة العبرانيين.

الاستمتاع في تعقل، بكل ما يقدمه العالم مما فيه الرضى، والحكيم يتحكم في الظروف باستخدامها كوسيلة لدعته– والخير هو المتعة أي لا يكون بأرضاء مطالب الحواس ارضاء عابرا. ولكنه ثمار «حب الذات الرصين». وفوق كل شيء مباهج الدراسة العقلية والتواصلل الاجتماعي. وفي أحسن حالتيهما، كانت الرواقية أكثر سموا أما الأبيقورية فكانت أكثر سماحة وروحا إنسانيا، من بين المثالين الأعليين. وكان الرواقي أرستقراطيا خليقا، فيه بعض النزوع إلى الزهو بقوة تجلد على الزهد واحتقار أخوانه الأكثر ضعفا، بينما كانت العقيدة الأبيقورية وخاصة في اعترافها بتساوي الجنسين واصرارها على متع الصداقة أقل من أن تكون قاصرة على طائفة بعينها، وأكثر ديموقراطية. وفي مستوى أوطى تدهورت الرواقية إلى رسميات ممحضين وتصالح افتاء مع العالم مما لم يكن يتوافق مع دعاواها الرفيعة، كما انحدرت الأبيقورية إلى رضوخ راض لسد رغبات الحياة الأكثر غلظة. ولكن كان كلاهما على السواء لا يبالي بنهج المجتمع والحكومة. لقد كان ذلك بين أيدي الطاغية وجيشه وموظفيه المدنيين. أنا شأن الفرد فكان له وجهة أخرى في تنظيم مدينة روحه الخاصة تنظيما صائبا.

١٧– وكان لكلا المدرستين تاريخ طويل امتد إلى شوط بعيد في العهد المسيحي وكان للمذهب الرواقي من بين المدرستين، التأثير الأبعد مدى في العهود القديمة، وفي العالم الحديث، على السواء. ولقد استهوت مبادؤه بطبيعة الحال رجال الأعمال وتبناها وأحيانا تمرس بها، الحكام، ورجال السياسة في العصر الإغريقي المقدوني. ولقد أصبح مألوفا، كما سنرى فيما بعد. لدى الأشراف الجمهوريين في روما. وكان يوجد شيء في مزاج الروماني العملي نحته المذاهب الفلسفية الأخرى، ولكن كان يتجاوب في يسر مع العقيدة الرواقية. ولقد ترك طابعه على القضاء الروماني وعلى الأفلاطونية الحديثة العلينية على السواء، حيث يمتزج التعليم الرواقي بالتعليم المتمد من أفلاطون وأرستطاليس. وقد اجتذب المفكرين المسيحيين بسموه الخلقي ومثاليته التي لا تقبل انتقاصا. وفي الأزمنة الحديثة أثار إعجاب فلاسفة مختلفين من أمثال ديكارت وبيشوب بتلر ومانويل كانت [1]*.

---

(١) عندما سألت الأميرة اليصابات، عام ١٦٤٥ ديكارت، الذي لم يضع أي تأليف في علم الأخلاق، عن آرائه في الموضوع، أجب موصيا بعجالة سنيكا، الرواقية الامتناع الممتع **devita beata** على أنها تفي بالغرض. راجع (أعمال **Oeuvres** لديكارت) طبعة آدم وثانري **Adam and Tannery** المجلد الرابع الصفحات ٢٥١ وما يليها و٢٦٣ وما يليها.

إذن، ما السر في السيطرة التي ظفر بها المذهب الرواقي وحافظ عليها هذا الأمد الطويل، على قلوب الناس؟ أن الجواب يكمن فيما كان له من وقع على قوة أرادة الإنسان وفي توكيده الوثيق للحرية البشرية وللعناية الالهية كليهما. لقد كان الرواقي يعلم أنه ولو أن الإنسان عديم الحول، كما يظهر في مواجهة الظروف المعادية، من رق وتعذيب ومرض وموت، فإنه في الواقع كان سيد ارادته المطلق وأنه في هذه السيادة على الأرادة وحدها كانت تتوقف كل قيمة الحياة وخيرها. «لا شيء خير دون تحديد غير الأرادة الخيرة» وهذا القول المأثور الذي نطق به بعد ذلك بعشرين قرنا ونيف فيلسوف كنجزبرج "**Königsberg**" كان يمكن أن يتعرفه الرواقي وكأنه قوله ([1]) لأنه في اعتبار الرواقي، كما في اعتبار كانت، تكون الأدارة الخيرة، خيرة دون تقيد بشرط, ولا توجد درجات من الخير، فإذا كنت على صواب فأنت على صوب بصفة مطلقة. وإذا كنت على خطأ فإنك مخطيء بصفة مطلقة. وسواء أكنت على صوب أم كنت على خطأ، فإن هذا يتوقف على الخصيصة الداخلية لارادتك دون سواها. وبالإضافة، فإن الأرادة خيرة عندما تريد الخير، والخير هو– ماهو كائن– ونظام الكون وصدق كل أحداثه والطبيعة (**Physis**) التي هي طاقته الخالقة هو كامل وهو قانون وعقل والله ([2]). وعلى هذا فإن الرجل الحكيم، القديس الرواقي، يتعرف عن طيب خاطر في أية منحة تصيبه، كائنة ما كانت، اتمام غرض العناية الآلهية ويوكد حريته غير المقيدة بشرط في مواجهتها، بأن يرضى أن تكون– ما هي كائنة– ويسير عقله قدما وهو جذلان ليقابل عقل العالم الذي تجمعه آصرة قرابة– وعلى هذا فإنه بقوة الحتمية ليقابل عقل العالم الذي تجمعه آصره قرابة– وعلى هذا فإنه بقوة الحتمية الذاتية الداخلية تكون له الغلبة على العاطفة ويظفر بسكينة الروح "**e la sua voluntate è nostra pace**" ([3]).

ولذا فإن النصائح الرواقية– «اتبع الطبيعة، اتبع العقل، اتبع الفضيلة» هي مجرد طرق متنوعة للتعبير عن الشيء بعينه.. وكان الرواقي يقول أيضاً «اتبع الله»: لأنه على الرغم من مادية نظرياته الطبيعية الغليظة إلى حد ما، كان يعتقد أن القانون الذي يتحكم في نهج الطبيعة لم يكن

([1]) كانت "**Grundlegung zur Metaphysik der Sitten**" القسم الأول (ترجمة أبوت **Abbott** صفحة ٩).

([2]) يوازن الأستاذ جلبرت مري، في محاضرته عن المذهب الرواقي **Physis** عند الرواقيين و **élan vital** عند برجسون **Bergson** ومن بين المذاهب الفلسفية الإغريقية كانت الرواقية فقط تقرب من مذهب وحدة الوجود **Pantheism** (أي من يرون الله والعالم واحدا– المترجم).

([3]) «وارادته سلامنا» دانتي، الفردوس. **Par**: ٣و ٨٥.

ميكانيكية عشواء، ولكنه انجاز غرض إلهي متواصل، ينتهج العقل، وهو خير في ذاته، وفي مبحثه القويم عن العلة الغائية، سار المذهب الرواقي في توافق مع تقاليد أفلاطون وأرستطاليس ([1])، وكون هذا المذهب مبتكر كعقيدة خلقية، يرجع بعضه إلى استهوائية للأرادة والبعض الآخر إلى استقلاله الكلي عن تقاليد دولة– المدينة التاريخية ورسالته من البداية إلى النهاية توجه إلى الفرد وهي تأمره أن يقف متحرراً عن جميع الروابط العرفية التي رسمها الإنسان، وجها لوجه، بما له من قوة، ضد جميع الرياح التي تهب. وفي وقعه الشخصي هذا، وكذلك أيضاً في العقيدة الحاسمة التي وجه فيها، نتعرف روح أول مؤسس للمدرسة. لقد كان زينون **Zeno** ساميا من كتيوم **Citium** في قبرص، استقر وهو لا يزال في صدر شبابه في أثينا (حوالي عام ٣٢٠) وكان يقوم بالتعليم هناك مدى نصف قرن ونيف في الرواق المدهون (**Stoa Poikilé**). وكان كثير من أبعد أتباعه شهرة من أهل الجزر وأراضي المشرق الساحلية. ويمكن تبين طابع العقل السامي على المذهب، أسفل الوضع الهليني ([2]).ولقد كان المذهب الرواقي في الحق، أول الثمار العقلية لسياسة الأسكندر في المزج. ولم يكن يوجد شيء ضئيل في زيتون يورد للذاكرة، النبي العبري، وعبارة هذا، «هكذا يقول يهوه» يظهر أن صداها يتردد في الصورة «هكذا قال العقل»([3]). وكان يجب أن يكون الصوت صوت العقل لأن زينون كان يبشر بانجيله للإغريق، شعب التاريخ الوحيد الذي كان من العبث توقع استماعه إلا إذا وجهت قولك إلى فطنته ولكن بمجرد أن يخطو هذه الخطوة، كان من شأن الوقع أن يضم أكثر من الحكم الخاص للمستمع الفرد، والعقل كما بين أفلاطون، هو مجال مشترك، والتعليم الذي يكون وفقا له، لا يمكن أن يكون الانجيلا لمجرد الخلاص الشخصي الخالص. ولهذا كان الرواقي، في نفس الوقت، يعلم مثلا أعلى، عالميا. والمدينة التي

([1]) كل شيء حتمي في المذهب الرواقي، ولكنه أصبح حتما نتيجة عمل متواصل لغرض ينتهج العقل. وقد هيأ مبدأ المطابقات في الطبيعة الذي كان يتلاءم مع هذا التصور، أساسا للتوافق بين الفلسفة الرواقية والاعتقاد بالرجم بالغيب ومظاهر أخرى في الدين الشعبي. ويوضح فلوطرخوس **Plufarch** (راجع السفر الثاني فصل ٩$ ٧) هذا الميل. وقد استخدم الرواقيون القصة الرمزية والأسطورة استخداما طليقا. وقد أخذت عنهم المسيحية منهجهم في التفسير بالقصة الرمزية، لقد كان الرواقيون في الواقع مهرة في إيجاد أسباب التلازم.

([2]) كان خروسبس **Chrysippus** مؤسس الرواقية الثاني (٢٠٦) من أهل صولي في كيليكية. وقد وضع لمباديء المدرسة، الصورة المنظمة التي ظلت قرونا. وقد جاء اقلينشعن (القرن الثالث) من أسوس **Assos** في طرواد **Troad** وكان فنيطيوس **panaettus** (بواكير القرن الأول) من سوريا، وكانت طوسوس، أهم مدينة في كيليكية وبها جامعة، مركزا مزدهرا للتعليم الرواقي.

([3]) راجع بيفان **Stoics and Sceptics**.

كانت تطالب بولاء الرجل العاقل، كانت مدينة الطبيعة، مدينة العقل، مدينة الله. وكان هذا التصور لمجتمع يشمل كل البشرية يتوافق مع نظرة العهد الأكثر استاعا وقيام دول العالم، واقعيا، أولا تحت الحكم المقدوني وبعد ذلك تحت حكم روما.

وقد ساعد على صوغ مبدأ قانون للطبيعة (Jus naturae) تقوم عليه التشريعات الإيجابية للجماعات المعينة، التي تمثلها شارعوا الرومان، وعن طريقهم كان لها تأثير بعيد المدى على الأخلاق والقضاء في العصور الوسطى والحديثة. وقد استخدم القديس بولس وهو من أهل طرسوس أحد مراكز الرواقية المختارة، لغة تلك المدرسة للتعبير عن المجتمع الروحي الذي ينتظم فيه كل المسيحيين أعضاء. وتتردد باستمرار في رسائله فكرة رعوية سماوية. وفي عظته في أثينا، اقتبس من أنشودة اقلينس**Cleanthes** الرواقي لزيوس وأعلن في ألفاظ تردد صدى العقائد الأساسية في المذهب الرواقي أن الله «لا يسكن هياكل مصنوعة بالأيدي»، وأنه «صنع من دم واحد جميع أمم الناس ليسكنوا كل وجه الأرض»([1]).

١٨– ولقد قيل أن المذهب الرواقي، انتهى بحماس خلقي وافلاس منطقي ([2])، ولقد كانت مباديء الأبيقوريين منذ البداية أقل أهمية من وجهة التفكير، وكان تأثيرهم على العالم أقل ذيوعا من تأثير الرواقيين، لقد كان أبيقور **Epicurus** هلينيا خالصا، وربما كان من أهل ساموس قدم إلى أثينا بعد زينون بزمن يسير وأسس هناك مجتمعا صغيرا من التلاميذ الشخصيين. ويتميز تاريخ أنصار المذهب في مداه بالسير في أخلاص، وفق ذكرى وتعليم مؤسسه ([3]). ولم تكن نظرية أبيقور عن الطبيعة مبتكرة ولذا كان له أنجيل خلقي يبشر به، فقد اتخذ كأساس تفكيري، فلسفة دموقريطس الذرية، أعظم مذهب مادي كامل ومنطقي في الوجود. وكان دموقريطس يعلم أن الكون وكل ما يوجد فيه، يمكن ارجاعه إلى حدود ذرات متجانسة في حركة دائمة، في الفضاء

([1]) الاقتباس من أقلينثس **Cleanthes** (الأعمال ١٧، ٢٨) هو «لأننا أيضا ذريته»، وازن مع الأفكار الرواقية فل: ٣، ٢٠ وأفر: ٢، ١٩ الخ. والتماثل بين الحكيم المسيحي والحكيم الرواقي كور. الأولى: ٤، ٨ وكور. الثانية: ٦، ١٠ وفل: ٤، ١٢، ١٣.

([2]) برت **Brett** تاريخ علم النفس.

([3]) راجع قصيدة لقراطيس **de rerum natura** السطور الافتتاحية من الكتب ٣و ٥و ٦ عن مديح أبيقور.

الفراغ ([1]). والضرورة الميكانيكية تحدد على السواء، نهج الطبيعة ونهج النشاط الإنساني، وينحي تنحية صارمة كل أثر للحرية والغاية. وقد أمكن تكييف مثل هذه المبادىء تكييفا يدعو إلى الإعجاب لتكون أساسا للرسالة الخلقية التي تكون دعوى أبيقور الصادق في الابتكار.

وكان هدفه الذي تابعه في حماس أخلاص عنيف، أن يحطم آخر حصن، كان لايزال الدين التقليدي يحتفظ به في العقل الشعبي، أن أنواع الرعب في حياة مستقبلة في أرض الأرواح المخيفة الأخروية حيث يوقع من يدعون آلهة ارادتهم غير الإنسانية، على أطياف لا حول لها، كانت في نظره مصدر كل قلق وألم يقعان على الناس في الحياة. «أنه هو الخوف الذي كان أول صانع للآلهة».

ومن الوجهة الأخرى، إذا كان حقا أن روح الإنسان هي مجرد تجمع للذرات وشيك الزوال، ينحل عند الموت ليكون جزءا من تجمعات جدد، مع انقطاع الحياة الشخصية والوعي انقطاعا كليا، فإن الخوف يبدد ويمكن للإنسان أن يستخوذ على روحه في سلام ([2]). والمتعة عند أبيقور يمكن تفسيرها حقا بأنها التحرر من العاطفة والقلق (ataraxis) وهذا الوضع السلبي للتعبير يجعل مثله الأعلى، على الرغم من مواضع اختلاف عديدة، يسير على نهج تعبير الرواقيين ([3]). وأنه لمن التضليل التام أن نعتبر القول «دعنا نأكل ونشرب، لأن غدا نموت»، لا يعدو أن يكون محاكاة ساخرة للمبدأ الأبيقوري. لقد كان أبيقور وتلاميذه يعيشون عيش بساطة رائعة يتميز بحب متبادل قوي، وقد احتذى أتباعهم في الأجيال اللاحقة، مثالهم وحاز مبدأهم وعاداتهم اطراء حارا من الكاتب التهكمي لوقيان **Lucian** في القرن الثاني بعد الميلاد. ولا يوجد مجال للسؤال بأن

([1]) راجع عالية فصل ٤$ ١٥. ولو أن المذهب الأبيقوري لم يكن له إلا القليل من التأثير على الأزمن اللاحقة إلا أنه يمكن ملاحظة أنه في القرن السابع عشر نشر الأب جسندي **Father Gassendi** وكان صديقا لديكارت مذهبا في الفلسفة يشتمل على نظرية ذرية طبيعية ومذهب لذة خلقي يماثل مبادىء أبيقور.

(مذهب اللذة **Hedonism**_ مذهب أخلاقي. ويقوم على أن اللذة الخير الأسمى – المترجم).

([2]) راجع لنص العظيم لقراطيس: ٣، ٨٣٠– النهاية. لقد كانت الفكرة الشائعة عن الله والخلود أمرا راعبا للأبيتورية ولكن الأبيقوريين لم يكونوا كفارا. لقد كانوا يعتقدون، لما قام من التجاريب النفسية خارقة العادة، بأن الآلهة كانوا يوجدون في منطقة من الكون– قاصية– لا يعيرون بني الإنسان التفاتا ويستمتعون بحياة مباركة واكتفاء ذاتي يصل إلى الكمال. راجع أيضا الأمثال التي ترجمت في «مذهب الأبيقورية» لولاس **Wallace**، صفحة ١١٠.

([3]) راجع لقراطيس: ٢، ٢٢ وما بعدها و٣، ٥٩ وما بعدها و٩٩٥ وما بعدها و٤، ١٠٣٧ وما بعدها و٤، ١١٥٢ وما يليها. وعن المثل الأعلى للرجل الحكيم: ٣، ٣٢٢ وما يليها.

المذهب الأبيقوري جلب السكينة في الكثير من النفوس المضطربة في الأوقات العاصفة التي جاءت عقب تقسيم امبراطورية الأسكندر. أن قدرته وكذلك قدرة المذهب الرواقي على بعث الإلهام والسمو تبينهما القصيدة الرائعة التي أدمج فيها الشريف الروماني لقراطيس (Lucretius)([١]) معتقدات المؤسس، الطبيعة وانجليه الديني.

الخاتمة

١٩- سنعود إلى الفلسفة الرواقية عندما يحين الوقت للتحدث عن الصراع بين الهلينية كما يعبر عنها تعليم المدارس وروح المسيحية الجديدة. وهنا يجمل بنا فقط أن نذكر بأن كلا المثلين الأعليين للحياة، الرواقية والمسيحية كان مولدهما في العالم الجديد الذي فتحه الإسكندر على مصراعيه، هو وخلفاؤه في ذاته يكفي لتكذيب الرأي القائل أن قوة الهلينية خبا أوارها بانهيار استقلال دولة- المدينة ولكن الحال كذلك في أن الهلينية كانت في ذلك الوقت قد قاربت على إنجاز عملها في التربة الهلينية البحتة وأنه كان يكيف طاقتها منذ ذلك الحين، الأمتزاج بمدنية البلدان الأخرى وقبيل ختام القرن الرابع، كان بني المدنية الهلينية عضويا وكاملا. ولقد حاولنا أن ننقل ثمة نكرة عن خصيصتها وتاريخها في هذا الفصل وفي الفصلين السابقين. أن أهميتها للتقدم الإنساني في جوهرها وفي نتائجها واضحة ولا يمكن تقديرها. والعصر الذي شاهد خلقها، من القرن الثامن إلى القرن الثالث قبل الميلاد يعد من أعظم العصور باقية الذكر في تاريخ البشر، إذ في غضونه يقع ليس فقط خلق الهلينية ولكن تحول دين العبريين البدائي إلى عقيدة لها قدرة عالمي. وكان أول الأنبياء العظام، عاموس وهوشع معاصرين لرواد الاستعمار الأغريقي، في البحر المتوسط- ويتفق السبى البابلي وكتابات اشعياء الثاني في الزمان مع ميلاد الفلسفة في أيونيا ونطور الدولة الأثينية في عهد صولون وبسسطراطس ([٢]). وكان واضعو المزامير يكتبون في أوشليم أثناء الحرب الفارسية وعصر بركليس. ولم يكن الأمر قاصرا على هلاس والعبرانيين في وضع أسس المدنية للزمن القادم على هذا النحو. ولقد تقدمنا بقصتنا أكثر من مرة في هذه الفصول إلى المرحلة التي جمعت فيها ثقافة البحر المتوسط في دولة وحدة تحت الحكم الروماني. ولم «نشيد روما في يوم واحد». وبعد أن نقدم الأسكندر ليغنم الشرق لليونان ويستهل السياسة

([١]) توفى لقرطيس عام ٥٥ ق.م.

([٢]) مري- «خمس مراحل» صفحة ٥٧- يوجد اقتباس عن بيفان بأنه حدث في اليونان وآسيا الدانية (أي فلسطين) والصين والهند في القرنين السادس والخامس، قيام عهد جديد.

التي كان من ثمارها الرواقية والمسيحية على السواء بزمن طويل كان رجال سياسة وجنود لم تصل إلينا أسماؤهم يصيغون أسلحة للحرب والحكومة ويبنيان المنظمات والقانون، مما عاون مدينة إيطالية صغيرة على الاستحواذ على السيادة في البحر المتوسط وتوطيد أساس أمبراطورية روما العالمية.

الفصل السابع

الجمهورية الرومانية

- أسس الدولة الرومانية:

على سلسلة من التلال التي تقوم على شاطيء نهر التيبر وعلى بعد أربعة عشر ميلا من مصبه، كانت تقوم في القرون الأولى من الألف سنة الأولى قبل الميلاد، مجموعات من الأكواخ الخشنة يحيط بها سياج حيث كان الرعاة يأوون بقطعانهم عندما كان يهبط عليهم الغزاة السابنيين Sabine من التلال السابينية. وبمضي الزمن اتحد عدد من هذه القرى الصغار داخل سور دائري واحد ونشأت مدينة ([1]). وكانت تحتل موقعا موفقا كسوق طبيعي لسهل لاتيم حيث كان النهر لا يزال صالحا للملاحة وبعيدا عن متناول القرصان الأترويين Etruscan الذين كانوا يغيرون على الساحل ([2]). وفي فجر تاريخها كانت هذه المستعمرات أحد أعضاء حلف أيدته مراسم دينية، عقدت رياسته لالبا وفيه اتحد سكان السهل، لتبادل التجارة والدفاع ضد قبائل المرتفعات وكان الحلف يدعي الحلف اللاتيني وكانت المدينة الواقعة على ضفاف التيبر، وروما.

ويمكننا أن نفتقي في خطوط عريضة بواكير نمو روما. وأول معلم واضح في قصها هو طرد الملوك وتأسيس جمهورية أرستقراطية في ختام القرن السادس (٥٠٩ قبل الميلاد) وكانت قد أرتقت قبل ذلك التاريخ إلى المكان الرئيسي في التحالف اللاتيني واستحوذت على شاطيء التبر

([1]) توجد آثار واضحة لامتزاج باكر بين مستعمرتين أحدهما للاتين على التل الفلاتيني palatinc والأخرى للسابنيين على القويرينال Quirinal ويظهر أن السابنيين دانت لهم السيادة وأنهم كانوا أجداد أسرات الأشراف. وكان يطلق على مواطني روما في العهد الملكي قويريطيين Quiirites وهو اسم ربما يرجع إلى أصل سابيني.

([2]) كان موقع روما ملائما للغاية. وفي عبارة لوى Livy كان الموقع «قد وصفت معالمه بصفة فريدة ليسمح بتوسع المدينة»

(ad incrementum urbis natum unice locum)

: ٥، ٥٤، ٤. كانت روما تحتل موقعا متوسطا في إيطاليا، شبه الجزيرة الوسطى في البحر المتوسط ويتعادل بعدها من قدس والأسكندرية، وتواجه أفريقيا وفي نفس الوقت ترتبط بأوربا الوسطى والغربية والجنوبية ومحمية عنها وكانت ميناء برنديزي تصل إيطاليا بالشرق.

حتى مينا أوسطنا (Ostia) عند مصبه وأقامت منظمات سياسة وجيشها وطنيا منظما. ويظهر أنه في زمن ما في القرن السادس غدت روما حاضر أمراء من أصل أجنبي دان لهم الحكم على أتروريا الجنوبية وكل سهم لاتيم ([1]). وكان معنى طرد الملوك الاطاحة بهذا الحكم الأجنبي. ومع هذا فإن الأحتلال الأتروري ؟؟ غير بصفة دائمة مركز روما فيما يتعلق بجيرانهم اللاتين. ولم تهبط قط إلى مكانتها الأولى كواحدة من المدن اللاتينية الكثيرة المتحالفة. ولكن احتفظت بسيادة فعالة ولولا السيطر الأترورية فكان دستورها قد اتخذ صورة مغايرة ولكان لاتيني، وأخذا من القناصل. وفي الواقع عوضا عن الخضوع لهذا المطلب من جانب اللاتين فقد تاح لروما أن تمحو الحلف في النهاية، وكان الأسياد الأتروريون قد وضعوا أسس مجد روما المستقبل. ولقد بقيت إلى اليوم قطع من فنهم المعماري، كالحائط الحجري الذي ينسب إلى سرويس طليوس **Servius Tullius** يقوم شاهدا على مهارتهم وفي عبارة مونتسكيو «كانوا قد بدأوا بناء المدينة الخالدة»([2]).

٢- أن الوسيلة التي نهضت بها روما من هذه المصادر الوضيعة خلال قرون من النمو، إلى سيادة عالم البحر المتوسط، هي إحدى القصص التي تبقى ذكراها إلى أبعد مدى في تاريخ الإنسان. ولم تكن أمبراطوريتها ؟؟؟ لامعا أنت به عبقرية فردية، ولكن الناج البطيء المتزن لنشاط تومي في شعب من أصل خليط، ولكن بتحد في الفرض. وكان لهذا السبب، أن ناح لها البقاء. أن أسسها كانت تتأصل في أحكام في خليقة الشعب الروماني ولقد كتب فرجل " **Tantae molis erat Romanam condere gentem**" أي «كان عملا ذا صعوبة بمكان تأسيس السلالة الرومانية» (فرجل أيناد ١، ٢٣). وكان يعلم جيدا أن «العمل العظيم لم يكن إخضاع الأمبراطورية الرومانية ولكن «بناء السلالة الرومانية»([3]). أن سجل تاريخهم الباكر أسطوري في معظمه لأن ما كان قد تدون من حوليات جافة، دمر عندما حرق ؟؟؟ المدينة عام ٣٩٠، ولكن الخليقة القومية تنعكس في جلاء في الأساطير التي حازت الإيمان بها.

لقد كانوا سلالة من المحاربين أصلاب القلوب، ولقد كان الشعب الروماني وليس رميولس

([1]) الطرقون **Tarquins** ، من المحتمل أنهم مستعمروا اتروربا الإغريق الذين غنموا ثراء وسلطانا في صناعة الفخار والتجارة. أنهم مماثلون للطغاة الهلينيين في نفس العصر. راجع «أصل الطغيان» لأستاذ ف. ن. يور، فصل ٨.

([2]) عظمة وتدهور الرومان:

"Grandeur et décadence des Romains"

الفصل الأول.

([3]) فرجل، انيد: ١و ٣٧ «أن تكوين الشعب الروماني كان عملا جبارا».

Romulus وريموس Remus الأسطوريين، رضيع الذئبة الخارج من فرع مارس.

وقد قصت الأساطير أيضا كيف أن الرومانيين الأوائل عاشوا عيش النهب والسلب وكيف أن الدولة والأسرة على السواء، كان أصلهما القوة ([1]) ولقد أوجد أول ملوكها اتحادهم السياسي وأسس الثاني، نوما Numa العبادات الدينية التي كانت خلال التاريخ الروماني تقوم كعوامل في السياسة العامة، ويمكن أن تقتبس أسطورة لها مغزى خاص وهي تسرد كيف أن ثلاثة. هوراطيين Horatii ناصروا روما في عراك مع ثلاثة قورياطيين Curiatii من ألبا Alba وقد ذبح أثنان من الأولين وصمد هراطيوس Horatius الذي لم يصب بجرح في الميدان ضد خصومه الثلاثة. وبادعاء الهرب، أودى بهم الواحد بعد الآخر إذ أن الجراح كانت قد أقعدتهم. وعندما رجع إلى روما يحمل الأسلاب انفجرت أخته، التي كانت مخطوبة إلى واحد من الغورياطيين الذبحاء في العويل، وذبحها أخوها في الحال. وأدين بجرم القتل ولكن برئت ساحته بصوت الشعب وذلك لأنه نفذ العدالة في واحدة ناحت على عدو روما.

وبهذا كما اعتقدت العصور اللاحقة، قام الحق الذي كرمه الزمن، في أن يستأنف المواطن الروماني الحكم بالإعدام للجمعية العمومية (Provocatio) لنتدبر مغزى القصة.

أن حظ الشعب الروماني كما لحظ مونتسكيو، طوال تاريخهم، الب أعداءهم عليهم واحدا بعد واحد ([2]). أن حروبهم تستهل على الدوام تقريبا، بالوبال ولكن تختم في جميع الأحوال بالنصر.

وفوق كل شيء، لم يشك الروماني قط في أن مطالب النفع الشخصي يجب أن تكون خاصعة لمطالب الولاء المدني. وكانت غريزة الخضوع وعادة احترام السلطة العامة تتأصلان تأصلا عميقا في طبيعته.

وكان فضيلة، وذيوع صيت، أن يفكر وأن يفعل كمواطن وكجندي روماني مثالي، «أن يفعل في روما كما تفعل روما»([3]). ولقد كان أعلى مطمح له، أن يعيش وأن يموت لأجل روما. أن روح

([1]) مثال ذلك، أسطورة اغتصاب النسوة السابينيات. راجع هجل «فلسفة التاريخ» الجزء ٣، قسم ١ فصل: ١ ويذكر بلوبيوس ١، ٣٧ كيف كان الرومان يستخدمون القوة في جميع مهامهم.

([2]) Gr. Et déc فصل ٤.

([3]) Virtus= بسالة، رجولة من Vir= رجل.

التضحية هذه في سبيلي نفع المصالح المشتركة هي التي تشيع النبل في التاريخ الجمهوري الروماني. وكان الفرد من أوساط الرومان يفهم معنى المسئولية العامة والواجب المدني. وفي زمان متأخر في قصتها، عندما كانت توشك على الذهاب بددا على أيدي الغزاة الهمج رأى أوغسطين Augustine فيها ما يبرز قيام أمبراطورية عالمية تخضع لروما.

وكان الأخلاص الروماني لدولة دنيوية مثلا لمواطني المدينة السماوية. وهويها من مكانها الرائع كان القصاص العدل، للرجوع غن فضيلتها القديمة.

ولقد ردد صدى مديح أوغسطين، دانتي بعد ذلم بتسعة قرون، وفي «الملكية» "de Monarchia" يقيم الدعوى بأن «الشعب الروماني هيأته الطبيعة للأمبراطورية» وذلك أنهم، باحتقارهم الجشع وتعشقهم السلام مع الحرية فإنهم تجاوزوا عن نفعهم الخاص لضمان الأمن العام للبشرية. ويشير إلى تضحية المواطن الروماني الفرد، الذي كان يحتمل «الكدح والغفر والنفي وموت القريب، وفقدان أعضاء الجسم واليحاة وهو يجهد في تنمية الصالح العام»([1]).

ورأى القديس والشاعر كلاهما الحقائق يضفي عليها المثل الأعلى من خلال ضباب الزمن الفاصل، ولم تنفذ بصيرتهما إلى ما يجاوز حدود تاريخ البحر المتوسط ولكن عندما تستبعد كل أنواع الحذف فإن حكمهما يستند إلى أساس من الحق. وكما كان يعلم فرجل، أن في حب أرض الآباء والتعطش إلى الشهرة الذي لا يجده قياس، يكمن سر سيادة روما بين الشعوب [2].

٣- أن مثل هذا الشعب كان مقدرا له أن يتفوق في مهام القانون والحكومة، وكان قد وضع في العهد الملكي أسس الدولة الرومانية وضعا محكما صادقا. وبفضل الروح المحافظ الفطري في خليقة الرومان فقد حافظت خلال جميع التطورات على المباديء التي ابتدعت في صمت في أومنة ما قبل التاريخ كعادات للسلالة، غير المكتوبة. ونفس الصور والمناهج للإجراءات التي كانت تنظم حياة المجتمع المدني في القرن السابع قبل الميلاد، ظلت باقية- ولو أن القضاء الإغريقي وعلم الأخلاق المسيحي عدلاها وجعلاها مطابقة للعقل_ في مجموعة القوانين المختارة التي صنفها بعد ذلك بألف ومأئتي عام جوستنيان. وبذلك أصبح في قدرتنا أن نعيد بناء، ليس

([1]) أوغسطين de Civitate Die الكتاب الخامس (راجع Figgis «المظاهر السياسية لمدينة الله» للقديس أوغسطين: صفحة ١١)، دانتي: de Mon: ٢و ٥.

([2]) "vincet amor patrioe laudumque immensa cupido"

أفعال الأفراد أو حوادث التاريخ السياسي المفصلة ولكن المظاهر العامة للمجتمع الروماني في عهد الملكية. وكانت الدولة الرومانية، الأسرة المكبرة، وكان الرومانيون يفهمون معنى وقدر الحياة المنزلية وعبروا عن ذلك في أدبهم وقد أوجدت عبادة آلهة الأسرة (لارس وبناتس) **Lares and Penates** مذهبا دينيا. وقد اقترح أفلاطون في جمهوريته إلغاء البيت الخاص، لهذا السبب ضمن غيره من الأسباب وهو أنه كان يجزيء إخلاص المواطنين للدولة ([١]). ولكن الأسرة الرومانية كانت في وقت واحد المرآة وميدان التدريب لنزعة حب الوطن المدنية وبنفس الكلمة (ورع) **Pietas**كانت تدل على الأخلاص الذي يرجع للضمير، الذي يكنه الأبن نحو أبيه والمواطن للحاكم والإنسان للآلهة. وشخصية الروماني المدنية كانت تتألف من ثلاثة عوامل جوهرية: الحرية وصفته كمواطن وعضوية أسرة. والطراز الروماني في الأسرة فريد في نوعه عندما يوازن ليس فقط بالأسرة الحديثة ولكن بالأسرة في المجتمعات الأخرى القديمة وفي توكيده البالغ أقصى حد، للسلطة الأبوية ([٢]). وكانت تتحقق أفكاره الأساسية عن الوحدة والقوة في شخص رئيسها بصفة قاصرة عليه وكان للأب (**pater familias**) طوال حياته السلطان المطلق (**Patria potestas**) على الزوجة والأبناء والبنات غير المتزوجات والوكلاء والعبيد شخوصهم وممتلكاتهم، وفي داخل الأسرة كان المالك الأوحد للمتاع والكاهن الأوحد والحارس لمقدسات **Sacra** الأسرة والقاضي الأوحد. وكان من حقه إعدام زوجته أو طفله. وفي يده فقط كانت تنشئة أو إهمال شأن نسله حديث المولد. وكانت أواصر الأسرة يعترف بها عن طريق فرع الذكور ولم يكن القانون يعتبر الأبن نسيبا لأقارب الأم وقرابته حتى لأمه كانت عن طريق الأب ([٣]).

([١]) الجمهورية، الكتاب الخامس.

([٢]) كان للرومان وعي تام بهذا. ونقرأ في وصايا جوستنيان: ١، ٩ «أن حق السلطة التي نتولاها على أطفالنا هو الميزة الخاصة للمواطنين الرومان».

([٣]) كانت سلطة الوالد بالطبع مقصورة على المواطنين. وكان الأبن عند موت أبيه، يصبح «والد الأسرة» حتى لو كان غير متزوج ويكتسب «سلطة الوالد» فقط عند الزواج. والزوجة إذا كان زواجها مطابقاً بدقة الصورة القانونية، تصبح في «يد» (**manus**) زوجها وتكون خاضعة لسلطته **potestas** في مرتبة الأبنة (**Loco filiae**). وكانت الأبنة تحت سلطة أبيها (أو إذا كان ميتا، فتحت سلطة قريب من الذكور) حتى تتزوج وعند ذاك تصبح في عداد أسرة زوجها. وخاصية ظاهرة في الأسرة الرومانية كانت حصر القريب المعترف به شرعا في **agnati** أي أولئك الذين كان يمكن أن ينضووا يحت سلطة سلف من ذالكور، واحد لو أنه بقي حيا. فعلى سبيل المثال، ابن «أ» كان **agnati** لأخ «أ» أو ابن أخ وليس لأب الأم أو أخيها. وقد اعترفت القوانين اللاحقة في ازدياد مطرد بقرابة **Cognati** أي قرابة الدم سواء أكانت عن طريق الذكور أم الإناث. وعن الموضوع بأجمعه، راجع مين ةشهست« القانون القديم» فصل٥. وأهم الذنوب

ولم يكن القانون الروماني يعترف بالأبوة عن طريق السفاح كشيء يفترق عن الأبوة الشرعية، والابن المتبني شرعيا كان يعدا ابنا تاما. والابن الذي ولد عن غير رابطة الزواج الشرعية ليس ابنا على الأطلاق. وعند موت أبي الأسرة يصبح الأبناء على التو، أرباب أسرات بينما تخضع الزوجة والبنات غير المتزوجات «لعدم ثبات مزاج المرأة» على حد قول جايوس **Giaus** لوصاية الأبناء. وعلى هذا فإن المرأة الرومانية، المواطنة الحرة بالمولد، كانت أما تحت سلطان أبيها **Potestas** أو (بعد الزواج) تحت سلطان زوجها، أو «في حالة الترمل» تحت وصاية قريب من الذكور. وفي عبارة مجموعة القوانين المختارة (**Digest**) «المرأة هي بداية ونهاية أسرتها» لأن القانون لم يكن يعترف بأمومتها، ولم يكن لديها أية سلطة على أبنائها ([1]). والزالد وحده، هو الذي كان يمثل الأسرة وكانت علاقته بالأفراد الآخرين من جانب واحد، فإن كل الحقوق كانت إلى جانبه، وكل الواجبات إلى جانبهم، وفي نظر القانون، كانت سلطة الوالد **Patria potestas** مطلقة في الأسرة كما كانت سلطة **imperium** الموظف في الدولة ([2]). ولكننا نسيء تصور نظام المجتمع الروماني كل الإساءة إذا توهمنا أن سيره كان يحدده فقط، أو حتى في معظمه اعتبارات الحق النظري ففي حالة الوالد، كما في حالة الموظف، كانت النظرية القانوية عند التمرس بها عمليا تأتي بالتعديل فيها، في كل مرحلة تقريبا عادات السلف. وأعظم ما كان يوجد من قيود على سلطة الوالدة، كان التقليد المعتاد أنه في حالا عمل تأديبي خطير داخل الأسرة، كان على الوالد أن يستدعى الأعضاء الذكور البالغين، للمشورة. وعندما كان يقع الاتهام على الزوجة كان يستدعي أيضاً ذوو قرباها من الذكور. وفي بواكير عصر الجمهورية نجد الرقيب يحط من مكانة شيخ (سيناتور) لأنه طلق زوجته دون أن يطلب نصيحة مجلس الأسرة ([3]). وكان مراس السلطة في التخلي عن طفل

من جانب الزوجة التي تستحق الاعدام كانت الزنى والسكر ونسمع عن ام رومانية نفذ فيها الإعدام لأنها سرقت مفتاح قبو الخمر.

([1]) المرجع إلى جايوس هو ١، ١٤٤ وإلى مجموعة القوانين المختارة **Digest** هو ١، ١٦، ١٩٥، ٥ **"mulier familiae suae et caput et finis est"** كانت أسرة المرأة تبدأ بها لأنه عند موت أبيها تصبح **Sui juris** «مستقلة بحقها» وكانت تنتهي بها لأنه بمجرد أن تحاول مواصلتها بالزواج، فإنها تتحول إلى «حق **jus**» زوجها وأسرته. وكانت تستطيع بالطبع أن تكون **sui juris** «مستقلة بحقها» ومع هذا تكون تحت الوصاية أي وصاية ابن أو أخ.

([2]) كان الأبن، ولو تحت سلطان أبيه، يستطيع القيام بصفة المواطن كما لو كان والد أسرة، أي كان يمكنه القيام بمهمة ويفة وفي تلك الصفة تكون له السلطة العامة على أبيه. أن سلطة الأب لم تمتد إلى **Jus publicum** السلطة العامة,

([3]) لم يكن يفرض على الأب شرعا بأن يتبع نصيحة مجلس الأسرة أكثر من أن يكون مفروضا على الموظف سرعا أتباع نصيحة مجلس الشيوخ. ولكن السلطة (**auctoritas**) في كلتا الحالتين، كان لها شأن عظيم.

محدودا في شدة صارمة. ومراس السلطة في بيع زوجة ممنوعا منعا باتا وفقا لما جرت عليه العادة الدينية. وكان يسمح للأبناء وحتى الرقيق وفقا للعادة بأن يكدسوا تحت اسم **peculium** ما أصبح بمرور الزمن، افتراضا، ولو لم يكن في نظر القانون، يعادل الملك الخاص. وكان الواقع فعلا أن يقوم الوالد في المعتاد على إدارة ثروة الأسرة بروح القيم، وليس بروح المالك الخاص. وكذلك– مرة أخرى– كانت الفروض الأدبية التي تقع على الوالد نحو زوجته وولده، معترفا بها اعترافا تاما من الوجهة العلمية. ولقد كان كاتو **Cato** الرقيب، وهو النصير الذي لا تلين قناته للتقاليد المحافظة، يشعر بأن الواجب عليه كل صباح أن يرى طفله وقد اغتسل على الوجه المناسب. وكانت الأم الرومانية تستمتع بمكانة تكريم، أنكرت على الأمهات في أثينا وفي معظم البلدان الأخرى، وكانت مكانة زادها ثباتا أنها كانت تستند إلى عادة، لا يمكن انتهاكها، وبمرور الزمن، تضافر تقدم الرأي العام، والتخلي تدرجا عن صور الزواج القديمة التي كانت تضع الزوجة تحت يد **Mamus** زوجها وادخال مناهج جديدة للتملص من قانون الوصاية– في ضما حرية واستقلال للمرأة الرومانية_ يكاد لا يوجد لهما مثيل في المجتمع القديم أو الحديث ([1]). ومن وجهة واحدة في الواقع، ظلت سلطة الوالد **Patria potestas** لا تتغير، وسواء أكانت دون قيد، كما كانت الحال من الوجهة النظرية، أو محدودة كما كان الأمر عمليا، فإنها كانت تظل باقية طوال حياة المالك لزمامها. ولكن حتى في الأزمنة الباكرة، ولو أنها كانت صارمة فقد كانت في النادر استبدادية. وكانت القسوة البالغة في الاستثناء وليست القاعدة. وعلاوة على هذا، فيجب ألا يغيب عن البال أن معايير الطهارة المنزلية، والأخلاص لواجبات الأسرة التي كانت تلقن بمثل هذه الشدة، ظلت المحافظة عليهما أمدا طويلا في البيت الروماني وقام الدليل على أنهما أديا خدمة لا تقدر للثبات الخلقي في الدولة الرومانية ([2]).

٤– ولقد كانت روما دولة_ مدينة، وكانت منظماتها الباكرة، الملك والمجلس الاستشاري

([1]) كان الاعتراف بصور الزواج التي فيها لا تصبح الزوجة، كما في الصور القديمة، في يد **mamus** زوجها، أول انهيار خطير لسلطة الوالد. ويرجع تاريخه إلى ما قبل القرن الثالث ق.م.

([2]) لقد عبر عن هذا في بيتي فرجل (**Aen**: ٩و ٤٤٨–٩).

Dum domus Aeneae Capitoli immobile saxum .
Accolet imperiumque pater Romanus habebit.

بينما يظل منزل انياس قائما إلى جوار صخرة الكابيتول التي لا تتزحزح، ويظل الأب الروماني يحمل سيادته.

(ترجمة مكيل **Mackail**)

ومجلس الشعب هي تلك المألوفة في غيره من فروع الأسرة الهندية– الأوروبية وقبيل فجر تاريخهم المدون، كان الرومان قد تدرجوا ببذور التنظيم الاجتماعي، هذه، إلى مجموعة من عناصر ومباديء حكومة مدنية، محددة تحديداً واضحا_ وكان الملك (rex) كموظف أعلى يملك كحق له، سلطة تنفيذية مطلقة imperium وعلى مدى التاريخ الروماني، تظل سلطة الموظف التنفيذي كمحور للتقدم الدستوري.

ولما كانت هذه السلطة قد منحت بتصويت رسمي في المجتمع على واحد من أعضائه عينه الملك في حضورهم (أو إذا لم يكن يوجد ملك، فنائب الملك المعين من قبل مجلس الشيوخ) وصدق عليها بموافقة الشيوخ فإن السلطة imperium كانت مطلقة شرعا في السلم، وفي الحرب جميعا وكانت المصدر الذي منه تستمد كل سلطة تنفيذية أخرى بطريق الندب ([1])، وكان الملك_ في نفس الوقت_ القائد في الحرب والقاضي الأعلى ورئيس دين الدولة. وكان القضاء الجنائي يتركز في يديه. والتشابه الوثيق مع مركز الوالد في الأسرة يتجلى واضحا في نظره، ولكن في الدولة، كما في الأسرة، كانت العادة تهييء حدا لمراس السلطة المطلقة ، ولقد كانت قاعدة أساسية عند الرومان أن القابض على زمام السلطة يجب أن يقوي نفسه بالتضحية. أن مجلس الشيوخ من رؤساء الأمر، وهو نظريا جماعة استشارية يعقدون اجتماعهم فقط بدعوة من الموظف ليبحثوا ما كان الموظف يريد أن يعرضه عليهم، أصبح عمليا، مجلسا ذا مهابة في الدولة. ويمكن تجاهل رأيه فقط بعمل من أعمال ثورة، افتراضا، وكانت توازي سلطة الملك

([1]) كانت السلطة (imperium)، في العهد الملكي، تمنح بالإجراء الآتي الذي يوضح توضيحا رائعا، النهج الرسمي للأجراء الدستوري الروماني. عند موت الملك (rex) كان مجلس الشيوخ (آباء العشائر الموكول اليهم مهمة فرائض المجتمع الدينية) يعين رافدا interrex وهذا في دوره يعين رافدا آخر لأن السلطة كان يمكن فقط نقلها إلى الملك الجديد، بتنصيب شخص كان قد تملكها (وأحيانا كان يعين رافد ثالث أو رابع لوضع قناع على انقطاع الاستمرار، بخرافة محسوسة). وكان آخر رافد في السلسلة ينتخب ملكا بالتشاور مع مجلس الشيوخ، وعندئذ يعلن الرافد اسم المرشح للملك للمجلس لقبوله وإذا قبل، كان مجلس الشيوخ يصدق على تعيينه بصفة نهائية. وعلى هذا كان التعيين الشخصي وتعاون مجلس الشيوخ والانتخاب الشعبي تتألف كلها في العملية النسقية. وكان هذا الإجراء عينه يتبع في عهد الجمهورية في حالة الموظفين المخولة لهم السلطة أي القنصلية والبريتورية فقط. (أ) لم تكن الحاجة إلى رافد موجودة في المعتاد، حيث أصبح يوجد موظفون لهم السلطة لتعيين المرشح الجديد. و(ب) بعد عام ٣٣٦، كان يجب الحصول على موافقة مجلس الشيوخ قبل الانتخاب الشهبي، وعلى هذا فقد أصبحت صورية خالصة، كالموافقة الملكية على مرسوم تشريعي في بريطانيا في الزمن الحاضر، وكانت الحال كأن الموافقة الملكية تصدر عن كل مشروع قانون يعرض على البرلمان قبل قبوله أو رفضه من المجلسين.

(imperium) سلطة مجلس الشيوخ الأدبية([1]) Auctoritas وأخيرا عندما كان يطرأ في حياة المجتمع حدث يستلزم خروجا على السوابق المقررة مثل إعلان الحرب وتبني أسرة جديدة آخر فرد من الذكور بقي على قيد الحياة من أسرة قديمة، أو انتخاب خليفة للعرض كان من الأمور الجبرية الحصول على موافقة الشعب ذي السيادة ([2]).

وكانوا يجتمعون لهذا الغرض في جماعات Curies للتصويت على ما كان يعرضه عليهم الموظف الذي يتولى الرياسة، دون تعديل أو مناقشة وعلى هذا كانت الحكومة الذاتية الاستثناء لا القاعدة، في روما الباكرة، وكانت العناصر الملكية والأرستقراطية في الدستور تربو إلى حد بعيد على العناصر الشعبية. ولكن على الرغم من كل الظواهر المتناقضة فإنه كان يوجد اعتقاد واحد يتأصل في تقاليد المجتمع الأصلية ولم تعد بتاتا عوادي النسيان عليها، بكيلتها أن لفيف المواطنين كان المصدر النهائي. الذي له السيادة، لكل سلطة قانونية.

١١- قيام الجمهورية

٥- رأت فاتحة القرن الخامس قبل الميلاد روما جمهورية وكان آخر الملوك الأتروريين Etruscan قد تجاوزوا الحدود التي رسمتها العادة لمراس السلطة Imperium وكان أن طردهم رعاياهم اللاتين (حوالي ٥٠٩ ق.م) ولم يترتب على هذه الثورة، إذا كنا لنطلق عليها هذه التسمية، أي تغيير في مبادىء الدستور الأساسية، ومنحت السلطة، التي كانت إلى الآن مخولة للملك وحده مدى الحياة، لموظفين أعليين متعادلين ينتخبهما سنويا الشعب بتصديق مجلس الشيوخ ([3]). وكان الحكم الثنائي من شأنه أن يضع حدا فعالا للسلطة، ذلك بأنه ولو أن كل قنصل كان يستحوذ عليها في كامل نطاقها، إلا أن هذه الواقعة بعينها كانت تعاون الواحد على نقض عمل الآخر، وفي روما كما يكون بين موظفين متعادلين، كانت الغلبة دائما للصوت

([1]) أن معنى auctoritas هو «النفوذ الأدبي» والكلمة الأنجليزية authority بمعنى السلطة التنفيذية كان يعبر عنها في اللاتينية بلفظ imperium أو potestas.

([2]) كان التبني أمرا شائع الحدوث في روما، لأن هم الروماني_ الأول_ مان أن يترك خلفا من الذكور، يعقبونه وعلى هذا يحتفظ بقيام أسرته، فإذا لم يكن له ابن من صلبه، فقد كان يستطيع أن يتبني ابنا، ليصبح من كافة الوجوه مساويا لذاك الذي ينجب عن طريق زواج شرعي. ولكن إذا كان الابن المتبني ابا لأسرة فإن انتقاله إلى أسرة أبيه الجيد، كان يترتب عليه انقطاع أسرة ومقدساتها Sacra وهو مسألة دينية جد خطيرة تتطلب تصديقا خاصا من المجتمع.

([3]) كان يطلق على الموظفين في الأصل لفظ "praetors" ثم بعد ذلك "consuls" وأصبحت البرتيورية وظيفة منفصلة.

السلبي. وزيادة على ذلك فإن من المحتمل أن القنصل لم يكن ليتغلب على إرادة مجلس الشيوخ الذي صدق على انتخابه. والذي كان مالخ أن يرجع إلى صفوفه عند انفضاء عام ولايته، لبقية حياته. وعلى هذا كانت فترة التحول إلى الجمهورية تعني أن حكومة روما آلت إلى أيدي حكومة قلة من أسر الإشراف. ولقد توارى لقب ملك، الممقوت ولو أنه نص على إعادة الحكم الملكي مؤقتا في وقت الأزمة، في شخص دكتاتور. وفي خلال القرنين التاليين (٥٠٩– ٢٨٧) كانت الجمهورية الصغيرة يتألب عليها الأعداء من الخارج وتمزقها المشاحنات السياسية. وكان من أهم هذه المشاحنات، ؟؟؟ الطويل بين المواطنين من الدهماء، للمساواة في الحقوق الاجتماعية والسياسية والدينية مع الأشراف، الذي انتهى قبيل نهاية القرن الرابع بانتصار الأولين على طول الخط. وقد يكون منشأ التمييز بين الطبقتين، على الراجح، الاختلافات السلالية كتلك التي كانت بين الأشراف النور منديين ؟؟؟ السكسون في التاريخ الأنجليزي ([1]). وكانت المعالم الباكرة في الصراع:

(أ) القانون الذي ينص على أنه ليس لأي موظف أن ينفذ حكما بالأعدام على أي مواطن دون التصديق عليه من المجلس. (ب) إقامة عشرة من الضباط (تربيونيين **Tribiunes**) الشعبيين، نتيجة لأضراب عام قام به لفيف الدهماء ضد الدولة (٤٩٤)، للحماية من الموظفين الأشراف وكذلك مجلس من العامة (ج) نشر الاثني عشر لوحا في منتصف القرن الخامس (٤٥٢– ٤٥٠) وهي أقدم مدونة للقانون المدني الروماني. ولقد كان لنظام التربيونية نتائج بعيدة الأثر على التاريخ الدستوري اللاحق ولم يكن التربيونيون موظفين ولكنهم كانوا ضباطا من العامة وكانت أشخاصهم معصومة (محظورة، محصنة دينيا) ولهم السلطة في إدخال النقض **Intercessio** على أي عمل من أعمال الظلم يرتكبه الموظفون داخل حدود المدينة ([2]). وبترادف الزمن، أتسع سلطانهم فأصبحوا أولا، القادة السياسيين الشعبيين، المعترف بهم وبعد ذلك السادة، افتراضا، لما لهم من حق نقض كل أداة الدولة. ولقد ترتب على توسيع نطاق الوظائف التدرجي،

([1]) لا يمكنا أن نناقش هنا المسألة المرتبكة عن أَصل هذا التمييز. لقد كان الأشراف والعامة كلاهما أعضاء لفيف المواطنين. ولكن لما كان الأولون السادة الأوحدين في الدين فإن الآخرين كانوا في واقع الأمر، يقصون عن الامتيازات التي تتصل بشعائر الدين مثل الزواج، في مركز متعادل وعضوية مجلس الشيوخ وولاية الوظائف التي كانت تلازمها السلطة **Imperium**.

([2]) لم يكن نقض التربيون أو حق الاستئناف إلى الشعب عن تهمة إعدام مجديا تجاه مراس السلطة **Imperium**. عسكريا. وعندما كان يعين دكتاتور، كانت كل القيود تتوارى وكان التعيين يعادل إعلام الأحكام العرفية.

بزيادة تعدد واجبات الأدرة وتعقدها، تقسيم جرت عليه العادة، لدوائر السلطة **Provicia** ونتيجة لهذا، مراجعة متبادلة يقوم بها الزملاء، الواحد للآخر. ولقد ازاح القانون القانولي **Canulesian** (٤٤٥) الفوارق الاجتماعية بين الطبقات بأن أباح شرعا، التزاوج بين العامة والخاصة.

ورأى القرن التالي (٣٦٧) خاتمة المناظرة الطويلة لتولي عليا الوظائف، بصدور القانون الذي ينص على أن يكون قنصل، منذ ذلك الحين، من العامة. وقد فتح الطريق للوظائف الأخرى في تتابع سريع، ووصل انتصار العامة إلى ذروته عندما استولوا على الجمعيات الدينية (٣٠٠) وفي عام ٣٣٦ تمكن دكتاتور من العامة من خفض رقابة مجلس الشيوخ على الانتخابات الشعبية حتى صارت من الرسميات الخاوية (قانون فبليليا**lex ublilia** وفعل دكتاتور آخر في عام ٢٨٧ (قانون هرطنسيا (**Lex Hortensia**) مثل هذا الصنيع فيما يتصل بالقوانين التي أصدرها المجلس الشعبي والتي أصبحت منذ ذلك الحين مفروضة (٢٣٦) **Ipso facto** على المجتمع كله ([١]) وبهذا جرد التمييز بين العامة والأشراف من أي مغزى عملي. وزيادة على ذلك، فقد كان يترتب على هذه الأصلاحات عينها، على ما كان يظهر جليا للعيان، أن الدولة الرومانية، مرت من صورة حكم القلة إلى صورة الحكم الديموقراطي. ولقد ثبت أن ما وقع كان بخلاف هذا، ويرجع ذلك إلى أسباب كان مصدرها يتأصل في الحياة الخارجية للمجتمع وسننظر فيها في قسم آت. ولكن الصراع السياسي الذي اجملناه آنفا كان أبعد من أن يكون الدافع الوحيد لهيجان داخلي في العصر الجمهوري الباكر. وأنا لنقرأ أيضاً عن المطلب الدائم من جانب فقراء العامة في أنصبة في أراضي الأعداء المغلوبين وفي الخلاص من ضغط الدين الماثل على الدوام. ولقد كان الروماني في الأزمنة الباكرة مواطنا وجنديا وزارعا في نفس الوقت، وكان مركزه الاجتماعي ومركزه السياسي، كلاهما يعتمدان على التزام تملك الأرض.

لقد كانت قوة الدولة العسكرية والسياسية تتأصل في التربة، ولموضوع الزراعة الأهمية الأولى

([١]) لقد أهملنا عن عمد التفاصيل عن مختلف المجالس في الدولة الرومانية، ويكفي القول أن أقدم مجلس "**Curies**" زالت أهميته بعد العهد الملكي، وأن مجلس "**Centuries**" (في الأصل مجلس عسكري كان فيه للطبقات أصحاب الأملاك النفوذ الراجح)، كان ينتخب القناصل والموظفين ذوي السلطة **Imperium**. بينما أصبح مجلس القبائل المنظم بطريقة ديموقراطية، في العصر الذي نتحدث عنه، أهم جماعة تشريعية.

خلال التاريخ الروماني كله. لقد كانت نزعة المواطنين الأكثر ثراء_ الأشراف والعامة على السواء_ التي تطرد ازديادا، للأستحواذ على مساحات عظيمة من الأراضي التي تم فتحها_ بما كان فيه الضرر على السياسة الحكيمة في تخصص مثل هذه الأرض، كممتلكات حرة للفقراء من الآهلين– هي التي أثارت الاضطرابات المتكررة التي قام بها العامة. ولم ينجم عن قانون لقينيو سكسطيان Lioinio- Sextian الصادر عام ٣٦٧ الذي حدد مساحة مساحة أمثال هذه الأراضي «المحتلة» لتكون ملكا لأسرة واحدة، أكثر من إيجاد خلاص جزئي مؤقت من مساويء سنجدها تتكرر في صورة حادة حدة بالغة، في مرحلة متأخرة من التاريخ الجمهوري. أما عن مسألى الدين، فقد كان القانون الروماني شديدا شدة راعبة، إذ كان يترتب عليه اسر شخص المدين في حجرات سجن الدائن، وهنا أيضاً أتى تشريع عام ٣٦٧ ببعض الأنصاف، فعلى مر الزمن تعدلت صرامة القانون ليفي بالحاجة إلى معاملة أكثر نزوعا للروح الإنساني، بينما جعل رخاء الدولة التجاري، المتزايد، المواطن أقل عرضة للأفلاس.

٦– ومن بين هذه الوسائل، تبرز وسيلة مفعمة بمغزى خاص للمدنية الرومانية. لقد كانت مدونة الأثنى عشر لوحا التي وضعتها لجنة العشرة موظفين، التشريعية decemvirs في عام ٤٥١و ٤٥٠، أول قانون مكتوب في روما، وبهذه الصفة كانت تعتبر خلال تاريخ الجمهورية والأمبراطورية الأساس للقانون المدني Jus civile أي القانون الذي ينظم علاقات المواطنين الرومان (Cives)([1]). عندما كان شيشيرون صبيا، كان صبية المدارس ما زالوا يتعلمون عن ظهر القلب جملها الإيقاعية بما يقرب كثيراً مما كان يجري عليه الصبية الأنجليز في تعلم «أصول الإيمان» ولو أنه بعد بعد ذلك بجيل، كانت قد بدأت تخلي المكان للصيغ البريتورية. ولا توجد ناحية استبانت فيها، في أعظم جلاء، قدرة الرومان الطبيعية على الحكم الصائب في المسائل العملية، أكثر من مجال القانون وهو أعظم ما قدموا من إضافة باقية على الزمن، لمدنية العالم.

---

(1) لما كان **Jus civile** هو القانون المحلي لدولة_ المدينة (**jus proprium civitatis, Gaius**)، فإنه لم يكن ينطبق على أحد سوى المواطنين. وكان يلازم صفة المواطن الكاملة، الحقوق العامة (**publica jura**) كالخدمة في الجيش، والتصويت في المجلس والأهلية للوظائف العامة وكذلك الحقوق الخاصة (**private jura**) كالتزواج والتجارة مع المواطنين الرومان. وفي عهد الجمهورية، أصبحت توجد درجات من صفة المواطن يترتب عليها بعض هذه الحقوق بمعزل عن البعض الآخر (راجع ما يلي $ ١٠ و١٧) ومرة أخرى، كانت الحقوق «اللاتينية» تعاون مالكها على المساهمة في القانون المدني. ويصدق هذا عندما منح حق كالتجارة مع المواطنين الرومان لأعضاء مجتمع آخر، بمعاهدة خاصة. وعن **Jus gentium** راجع $ ٢٠ فيما يلي.

وفي غيره من المناحي ([1])، كانت وظائفهم، تلك التي تكون للشرطي والوسيط،أن يحافظوا على النظام في منطقة البحر المتوسط وأن يسلموا ثقافة الشعوب الأخرى للزمن القادم. أن فسلفتهم كما كانت عليه حالها وشعرهم، ولو أنه كانت تشيع فيهما روح الأخلاق الرومانية والتاريخ القومي، كان الحافز والملهم لهما النماذج الهلينية ولكن قانونهم كان في معظمه من خلقهم الخاص. لقد أكمل اطار القانون الإغريقي بالصيغ البرتيورية، وقانون القضايا الروماني. وعلى ذلك، فمنذ عهد باكر وضعت أسس البناء الرائع الذي قام حجراً على حجر في استمرار لا انقطاع له خلال ألف سنة من الصنعة إلى أن استوفى كماله في مجموعة القوانين **Corpus juris** في عهد الأمبراطور جوستنيان في القرن السادس بعد الميلاد. لقد كان يوجد تطور زاخر لقانون العادة الأسبق الذي تكتل في صورة محددة في عهد الملوك. وكان الرومان يعتبرون العادة دائما مصدر القانون الموثوق به. وتمثل الألواح الأثنى عشر نفسها منتخبات من العادة المعترف بها وتجعل تركزها في المواضع التي كانت عرضة لاساءة استخدامها اجتماعيا أو كانت مثار جدل، ولو أن لوي **Livy** كان ما زال يمكنه اعتبار الألواح الأثني عشر الينبوع لكل قانون عام أو خاص، فإن القانون الروماني كقانوننا، لم يكن نتاج قوانين تشريع وضعية أكثر من أن يكون العادة التي يوضع لها سنن، فسرتها وصاغتها تقاليد ثابتة لطبقة علماء من محامين محترفين **Prudentia** وكذلك المراسيم البريتورية. ولو أن النفوذ الإغريقي موجود من البداية ولا يني يتزايد في غضون عهد الجمهورية، فإن المنهج القانوني **Prudentia** هو نتاج العبقرية الرومانية ([2]) الذي تتميز به. ففي كثير من التفصيلات، على سبيل المثال، كان يفضل قانون العادة عند العامة على نظيره عند الأشراف وكان الهدف علاج تنازع الطبقات في المجتمع المدني. وعلى هذا، كانت قوانين المدونة نفرض سلفا قانون دولة منظم على أن له وجودا. ولقد توارى منذ زمن طويل في روما الكثير من العادات البدائية المألوفة لدى القانون الباكر الهليني والألماني والسكندناوي، ويكاد لا يبقى أثر لانتقام الدم لو شراء الزوجة أو الصراع بين قضاء العشيرة وقضاء الدولة، وعلاوة على هذا فإن الرومان كانوا منذ زمن باكر قد وضعوا فاصلا بين **Fas** وهو القانون الديني الذي ينظم أواصر

([1]) تسجل التقاليد أن الأعضاء العشرة درسوا نماذج اغريقية. وقد يكون الأمر كذلك ولو أن أثره لا يتجلى في الألواح الأثنى عشر. وسنرى حالا كيف وضعت الهلينية طابعها على القضاء الروماني، فيما بعد.

([2]) راجع **De Zulucta** في «تراث روما» الصفحات ١٨٦ وما يليها وشيشرون **De Oratore**: ١و ٤٤و ١٩٧ الذي اقتبس فيه (صفحة ١٨٧).

الناس بالآلهة و Jus القانون الدنيوي للمجتمع الإنساني. ومع الصلة الوثيقة التي كانت تقوم بين اتحاد الأداة السياسية والأداة الدينية في المدينة، فإن الخروج على القانون الديني Fas كان يندر أن تعاقب عليه، السلطة الدنيوية. وفي أحكام متعادل فرقوا بين (١)القانون العام الذي يحدد دستور الدولة وتنظيم السلطة العامة، والقانون الخاص الذي يحدد العلاقات المتبادلة بين الأفراد من المواطنين، ونتيجة لهذا (٢) فإنه في الذنوب، فرقوا بين الأضرار التي تقع على الصاح العام بما فيها جريمة القتل حيث تكون الدعوى من مهام الموظف التنفيذي، والأضرار التي تقع على الأفراد العاديين حيث يتدخل القانون فقط بناء على شكوى الطرف المتظلم. ففي الحالة الأولى، لم تكن الدولة في حاجة إلى استخدام الإجراء القانوني، ولكن تنتصف في الحال عما وقع عليها من مظالم. فعلى سبيل المثال، كان يمكن لموظف المالية القسطور Questor أن يصادر السلع التي تكون من حق الحكومة، دون إذن قضائي، وعلى هذا فإن الاقتصاص العام، كان ينفذ من تلقاء نفسه، ولم يكن للفرد حقوق قبل المجتمع ولا يمكنه أقامة دعوى قانونية.

ويبين القانون الذي يتعلق بالذنوب الخاصة كما تفصح عنه الألواح الأثني عشر، التقدم التدرجي من:

(أ) عادة الانتقام الشخصي البدائية خلال مراحل (ب) التعويض الاختياري بالدفع النقدي، متوقفا على إرادة كلا الطرفين و(جـ) التعويض الجبري الذي يقرره القانون إلى (د) منع الانتصاف الشخصي على الإطلاق وإدماج جميع الأضرار الشخصية في درجة الأضرار العامة باعتراف قانون الدولة وفي الألواح الأثنى عشر، يجي القتل وحده تحت الباب الأخير.وفي غير هذا من المواضع يسمح بالانتصاف الشخصي حيث لا يوجد ما يمنعه صراحة ويسمح بالتعويض الاختياري عن السرقة الجسيمة والأضرار البالغة التي تقع على الشخص. أما عن الذنوب أما عن الذنوب الصغرى فإن الغرامة يحددها القانون، وبعض الجرائم مثل سوء معاملة الأبناء للآباء ونقل أحجار التخوم واتلاف الحنطة التي تستوي على سوقها. كان القانون الديني كفيلا بها، ولكن فيما عدا حالات خاصة قليلة، لم تكن توجد محاكم نظامية للقضاء الجنائي. وكان يجب أن يساق مرتكب الذنب شخصيا أمام الموظف الذي كان يحيل القضية إلى مواطن عادي،

القاضيJudex لوضع قرار عن نتيجة الواقعة ([1]). وهنا، مرة أخرى نجد مثلا للأحساس الروماني بالتفاريق البينة، فقد وكلوا حكم القانون للموظف بصفته القائم على المحافظة على قانون الدولة، وسماع الوقائع، للقاضي ([2]) Judex . وكان هذا الأجراء ينطق كذلك على القضايا المدنية، التي كان للأثني عشر لوحا الشأن الأول فيها.

وكان القانون المدني ينظم مجموعة العلاقات بأكملها بين المواطنين، الزواج والأسرة والوصاية وتحرير الابن أو العبد والتركة بوصية والملكية والعقود، في أوضاع ضيقة في الواقع ولكن في دقة وبعد عن الغموض، وهو ما كان خصيصة لروما من بين جميع المجتمعات الباكرة المعروفة للتاريخ. ولو أن كل ملكية كانت تعتبر أنها مستمدة عن طريق الانتقال المفهوم ضمنا، من المجتمع، وعلى ذلك يمكن أن يستحوذ عليها المواطنون فقط فإن الملك الخاص، كان منذ أمد طويل واقعة مقررة. وكان المواطن بمجرد أن يستوثق من حقه، يترك فيما يقرب أن يكون حرية كاملة للقيام عليه والتصرف فيه كيفما شاء.

وكان قانون الوراثة الروماني قد قطع شوطا بعيدا في التقدم على غيره من مدونات القوانين الهندية_ أوربية الباكرة في أن النص على عدم وجود وصية كان خاضعا للاعتراف بالميراث الذي ترك بوصية إذ كان للروماني الحرية في اختيار وريثه وتحديد ما يورثه وإقامة أوصياء على ابنائه الباقين على قيد الحياة([3]). وفي حدود مرسومة، في عناية، كانت حياة المواطن وملكه حماية

([1]) لم يكن حتى قيام دكتاتورية صولا (٨٠ ق.م) أن أنشئت محاكم جنائية دائمة (quaestiones perpetuae) بطريقة منتظمة. وفي حالة الجرائم العامة حيث تكون فيها عقوبة الأعدام أو غرامة تتجاوز مبلغا معينا، كان حق الاستئناف إلى الشعب (provocatio) مسموحا به. وكانت معظم الجرائم تعتبر مظالم خاصة ولا تتدخل الدولة إلا عند التماس الفرد الذي وقع عليه الجرم وتمثل في اجراءاتها مناهج الانتصاف الشخصي.

([2]) كان لا يستطيع الموظف النطق بحكم (sentential) في قضية متنازع فيها. كان يمكنه فقط أن يحيل القضية إلى قاض Judex وفي احالتها يقرر طبيعة الدعوى. وكان يترتب على هذا سماعها قانونا in jure ثم يلي هذا سماع الوقائع بالسير في القضية in judicio أمام القاضي judex الذي كان يصدر حكمه. وفقط عندما يعترف المدعي عليه أو يوافق على دعوى المدعي أن الأحالة إلى القاضي يستغنى عنها ويصدر الموظف قرارا في القضية على التو وتنتهي الإجراءات القضائية (in jure cession).

([3]) قبل عام ٤٥٠ كانت الوراثة دون وصية، القاعدة وكانت الوصية تتطلب موافقة الشعب بقانون خاص وكانت خاضعة لرقابة جمعية الكهنة (pontifices). وبعد عام ٤٥٠، أصبحت هذه الرقابة مجرد شكل صوري. ومرة، كانت الملكية الجماعية دون شك سائدة في روما، وكانت الملكية الخاصة قاصرة على رقعة صغيرة من الأرض يقوم عليها بيت المواطن، ولكن الملكية الجماعية توارث قبل وضع الألواح الأثنى عشر بزمن طويل. وكانت القيود الوحيدة على حرية

القانون الذي كان يعني باقامة معلم **tutor** للطفل وقيم **Curator** على المعتوه، كما كان لا يتسامح في تنفيذ دعوى الدائن الكاملة ضد شخص المدين المفلس ([1]). وكانت الألواح الأثنى عشر تنص على عقاب الربا وتحدد نسبة قانونية للربح، ثابتة. وقد أقروا أيضا وسائل الأجراءات القضائية في روح قويمة عملي صارم.

ولقد سار احترام الأوضاع القضائية جنبا إلى جنب مع التخلص من التأخير الذي لا تدعو الحاجة إليه والرسميات المربكة. وكان تعذيب المواطنين شرعا، غير معروف في ذلك الحين وفي خلال تاريخ القانون الروماني. وكانت تفصيلات الإجراءات، حتى ذلك الحين، في أيدي لجان الكهنة وكان الجمهور يستطيع قراءة مدونة القوانين ولكن كان يحال بينه وبين معركة تفسيرها.

ومن المعقول أن هذه المجموعة الأولى من القانون المنشور كانت تتسم بالتصلب والضيق اللذين يعبران عن تقاليد مجتمع صغير بسيط. ولقد رأت القرون التي تعاقبت تعديلها التدرجي وتوسعها حتى لم يحتفظ بند. قبيل ختام عصر الجمهورية بمغزاه الأصلي. ولكن الأثنى عشر لوحا لم تلغ قط.

وبينما استمسك الشعب الروماني بتقاليده كما يستمسك بصخرة، فإن ذكاءه العملي ابتكر وسائل عديدة للتوفيق بين القانون القديم والحاجات المتشعبة لمجتمع يتزايد بسرعة ولايجاد انسجام بين التغيرات الأساسية في التفصيل بنهج محافظ وثيق، فيما يتعلق بميراث الماضي القانوني([2]).

المواطن في استخدام ممتلكاته والتصرف فيها، ثمة ضمانات صغار لحفظ حقوق الجيران وصالح المجتمع. ويذكر جبون (فصل ٤٥) أنه عند الرومان «كان الحق المجحف لتأريث أول مولود، غير معروف».

([1]) كان يسمح للنساء باقتناء الأملاك بمقتضى الألواح الأثنى عشر. وكان قانون الدين صارما إلى أبعد حد. وكانت الصورة القانونية الوحدة للتعاقد في روما الباكرة هي **nexum** أو القرض (معناه الحرفي، الرباط القاسر). فإذا قصر المدين عن الدفع خلال ثلاثين يوما من الموعد المذكور في العقد، كان في مكنة الدائن استخدام القوة للحصول على مطلبه دون إجراءات قانونية اخرى بالقبض على المدين وسوقه إلى سجنه الخاص. وكانت الألواح الأثنى عشر تنص على وجوب حجزه هناك زمنا آخر يبلغ مداه ستين يوما، ثم إذا لم يتوصل إلى اتفاق كان يحضر أمام الموظف ثلاث مرات وكان يستطيع الدائن(إذا لم يتقدم طرف ثالث كنصير، تحت مسئوليته أن يقتله أو يبيعه كرقيق. وفي أية لحظة سابقة كان سداد الدين يعني أطلاق سراح المدين. وقد خففت صرامة هذا القانون في بواكير عهد الجمهورية.

([2]) كان استخدام الأساليب القانونية الصورية استخداما طليقا وصيلة شائعة للتوفيق في القانون الروماني والقانون الانجليزي، وكان التبني مثالا مبكرا وظاهرا، وكذلك كان القبول المضمر،الذي يلاحظ بعد ذلك، للتعديلات التي أدخلتها على القانون إجابات علماء القانون التي كان يدعي طوال الوقت أنها تفسيرات دقيقة ؟؟؟ القوانين التقليدية.

٧- أننا نعرف القليل أو لا نعرف شيئا عن الرجال الذين وضعوا أنظمة وقانون روما على هذا النمط. لقد صاغ العمل، ليس أفراد أولو عبقرية استثنائية ولكن الشعب. والأسماء التي تجيء في صفحات التاريخ الروماني الباكر هي أسماء رومانيين أوساط، أسماء جنود مواطنين لا تتميز حياة الواحد منهم عن حياة الآخر وتكون سلسلة رتيبة، فيما عدا حالة يظهر فيها ثم أبيوس قلوديس **Applus Claudius** أحد الموظفين العشرة **Decemvir** أو رقيب **Censor** على المسرح.

أن التاريخ الروماني الباكر هو سجل للقوانين والسياسة المدنية وأقامة المستعمرات وإنشاء الطرق العسكرية. ولا يعنينا قانليوس **Canuleius** أو لقينيوس**Licinius**، ولكن الخطط التي تحمل أسماءهم. وعلاوة على هذا فإن خصيصة هذه الوسائل، لم يحددها تفكير سابق مدبر يقدر ما كان يحددها الواقع الموجود. ولم يضع الرومان قط خطة لدستورهم الذي كان ينمو على شاكلة قانونهم كلما تطلبت الفرصة. ونتيجة لهذا، فإنه يعرض صورة ([1]) لا تسير على مذهب، فريدة في ذاتها. ويتضح عدم وجود خطة منطقية من الوضع الذي كان الحجر الأساسي في البناء إذ أننا نجد في صميم نواة الحكومة الجمهورية، السلطة **imperium** المطلقة التي لا تقبل قسمة في حيازة قنصلين، كموظفين تنفيذيين، أعليين متعادلين. ولصاحب النظريات السياسية، تكون مثل هذه الثنائية في السلطة العليا، نذيرا أكيدا بوقوع الخطب. ولكن هذه الوسيلة التي لا يمكن تصورها كما تظهر في أطواء الأوراق، سارت سيرا يدعو إلى الإعجاب في التمرس بها، لأنها كانت وليدة التجربة ومؤسسة على الصخرة التي يقوم عليها الواقع.

لقد تعاظم طغيان عبء سلطة الموظف في مجموعة المصالح الرومانية حتى أصبحت الحاجة لفرض الحدود على اساءة استخدامها، أكثر الحاحا من وضع شروط لاستخدامها دون قيد. وكانت الرقابة الثنائية اللياذ الذي يمكن اللجوء إليه لتحاشي الحكم الاستبدادي، وقد كانت نشأتها في عهد الجمهورية وظلت قائمة طوال خمسة قرون، وعندما قام الدليل في النهاية على أن

راجع مين «القانون القديم فصل ٢». أن الأسلوب القانوني الصوري، هو ابتكار ؟؟؟ المجمع بين النهج المحافظ وتواصل التطور القانوني وبين التطييف الذي تتطلبه التجار؟؟؟؟.

([1]) يذكر بلوبيوس (٦، ١١) كيف صاغ الرومان دستورهم. ليس وفقا لنظرية، ولكن عن طريق الكثير من المشاحنات والأزمات العلمية، وكانوا يختارون أقوم سبيل في كل موقف فور حدوثه. وفي (٦، ٤٣) يقابل عظمة روما بعظمة أثينا في أن الأولى كانت ترجع أصلا إلى طراز دستورها أما الأخرى فالي عبقرية الأفراد.

لا حول لها في مواجهة الحكام الاستبداديين العسكريين، أعيدت في صورة معدلة كنظرية للأمبراطورية الباكرة ([1]) وفي هذا، وفي كثير غيره في خصيصة الدولة الرومانية ترد إلى ذاكرتنا مزاج ومراس شعبنا نحن. أن تاريخ روما الدستوري وتاريخ انجلترة الدستوري يعرضان نفس المظاهر العريضة للتقدم التدرجي على أساس التقاليد السلالية، والاحترام الذي لا حد له للشكل والسابقة، ومرونة التطبيق العملي وتقييد العرف والعادة للسلطة النظرية. وظل كلاهما قائما مدى قرون في استمرار لا انقطاع فيه، بفضل قدرتهما على التكيف وفق الظروف المتغيرة. وكلاهما يكون مجموعة من ابتكارات غير منطقية. وخرافات غريبة وبقايا متهالكة، وهي الثمن السهل الذي يكون غرما عن نظم ليست من عمل شارع فرد ولكن التعبير الرضي للتجارب القومية. وينسحب التشبيه كذلك على مسلكهما في الحرب، كانت الحرب في الغالب تجد الرومانيين غير متاهبين وهو آية أكيدة على أن سياستهم لم تكن تنزع للحرب بل للسلم. وكانوا في جميع الحالات تقريبا، يلاقون صدمات جساما في مراحل القتال الأولى ولكن يخرجون دائما مظفرين في الختام. وكانوا يتلقنون درسهم خلال الصراع وما كانوا قط ليرضخوا للهزيمة وسنأتي فيما بعد على ذكر التشابه بين المناهج التي كانت روما وبريطانيا يكيفان بها مبادئهما في الحكومة حتى محقق المطالب المتغيرة لامبراطورية فسيحة. وكانت مهمة كل منهما حراسة العالم داخل نطاق نفوذها وكان الهاي لها في منح الحقوق وفي المحافظة على السلام على السواء، دوافع المنفعة وليس الخيال. لكن بالرغم من أوجه التشابه هذه، الظاهرة، فإنه يوجد اختلاف واحد عظيم في حياة الشعبين، الدستورية. فبينما في انجلترا ينحصر مركز الثقل السياسي في البرلمان فإن مثيله في روما كان يوجد، ليس في التشريع. ولكن في السلطة التنفيذية. ولقد قال ادموند بيرك **Edmund Burke** أن المباريات العظيمة لأجل الحرية في هذا البلد، كانت منذ أقدم العهود، على الأخص عن مسألة فرض الضرائب وأغلب المباريات في مجموعة مصالح الأمم القديمة كانت تدور_ أصلا_ على حق انتخاب الحكام أو عن توازن طبقات الدولة، العديدة. ولم يكن موضوع المال لديهم يمثل هذا الالحاح([2]).

([1]) راجع المجلد الأول فصل ٨ $ ٧ في الرقابة الثنائية للزعماء **Princips** ومجلس الشيوخ في مشروع أوغسطس لإعادة التنظيم.

([2]) خطاب عن الصلح مع أمريكا. في روما، لم تكن توجد ضريبة مباشرة وكانت توجد ضريبة غير مباشرة، يسيرة... وبعد ذلك كانت الأقاليم تدفع جزية ثابتة (**Stipendium**) للخزينة الرومانية. وكانت الأنصبة تدفع إلى موظفي المالية

والتاريخ الانجليزي السياسي يزخر بموضوعات مثل حق التاج في فرض ضريبة على المراكب وحق البرلمان في فرض ضريبة على أمريكا أو حق مجلس اللوردات في رفض الميزانية. وفي روما الباكرة لم يكن لموضوع فرض الضرائب وجود. وهناك كان الصراع كله من أجل الحرية يهدف إلى تحديد سلطة **imperium** الموظف الأول.

٣- توسع روما

٨- أن العملية النسقية في توسع روما تقع في ثلاثة عصور (أ) فتح شبه الجزيرة الإيطالية (ب) الصراع مع قرطاجنة للسيادة على البحر المتوسط الغربي و(ج) الاستحواذ على سيادة مماثلة على الشرق الهليني.

ا- توسع روما في إيطاليا: (١)

أن الفترة (٤٥٠- ٢٧٠) التي طالعت نهوض روما لتكون سيدة إيطاليا كانت تتفق في الزمن مع المشاحنات السياسية التي انتهت بصدور القانون الهرتنسوي **Hortensia** (٢٨٧) ولمدة قرن ونصف قرن بعد أبعاد الملوك، شنت روما حروبا لا تنقطع على جيرانها الأقربين. وفي الخمسين سنة الأولى من الصراع، كان وجودها ذاته كدولة مدنية مستقلة، مهددا بالزوال كل سنة، على التقريب وبدأت روما بعد عام ٤٥٠ نسير قدما إلى الأمام وقبيل عام ٣٥٠ دانت لها السيادة على اتروريا الجنوبية وسهل لاثيوم وحتى هجوم الغاليين المظفر وتدميرهم المدينة عام (٣٩٠) أوقف فقط، لعدد قليل من السنين سير تقدمها المنتظم. وعندما استقر أمرها في لاثيوم زال الحلف اللاتيني القديم عن الوجود إلا في الرسميات المدنية فقد عاون روما في هاتيك الأيام الباكرة عدم وجود أي شعور قوي بالوحدة بين أعدائها الإيطاليين. وأنا نجد أثرا يسيرا لوعي إيطالي مشترك يمكن مقابلته بذلك الذي نجم عنه في الإغريق الباكرة أحلاف مدن والألعاب الألومبية. لقد قام دون ريب في تاريخ لاحق ولكنه فقط بعد أن أدمجت إيطاليا سياسيا في الدولة الرومانية، وقد ترتب على غزو لاثيوم أن أصبح لروما أواصر مباشرة بالمدن الإغريقية على

---

quaestors جباة الضرائب في الأقاليم أو (كما في صقلية والشرق) تجبي بنظام يجلب الكسب الوفير للرأسماليين الرومان.

(١) كانت أيطاليا، عند رومان الجمهورية، تحد شمالا ليس بجبال الألب ولكن بالأبنين وكان يطلق على المنطقة الواقعة بين الأبنين والألب **Cisalpine Gual** أي الغال على هذا الجانب من الألب. وكان يسكنها كلتيون ينتمون بالقرابة إلى القبائل التي كانت تستوطن **Transalpine Gaul** أي الغال على الجانب الأبعد من الألب فرنسا وبلجيكا الحاليتين.

الساحل القمبانيوي وبذلك دخلت في صراع مع القبائل الجبلية القوية في إيطاليا الوسطى. وبرزت روما كنصير للنظام والتجارة والثقافة الهلينية ضد عصابات السلب والنهب التي وجدت ميدان صيد هانئان بين الأغريق أولى الثراء الذين لا ينزعون إلى الحرب، وأعقب ذلك الكفاح الطويل الشاق مع السامنيين (٣٤٣- ٢٩٠) الذي ترك روما الجولة الوحدة التي تمتد صوب الشمال حتى سفح البنين وصوب الشرق حتى شواطيء الأدرياتيك وأخيرا في بواكير القرن الثالث أحضر فورهس **Pyrrhus** ملك أبيروس **Epirus** أول قائد في عصره، محاربيه من سكان الهضاب وفيلته عبر البحر بحجة حماية أغريق طرنطم **Tarentum** من تقدم روما صوب الجنوب. ولما مان جنديا بالمهنة من مدرسة الاسكندر فقد كانت تراوده أحلام جامحة في أن يحقق في الغرب انتصارات شبيهة بانتصارات الاسكندر في الشرق، ولكن كان ينقصه أرب الاسكندر السياسي، وبرهنت روما وهي دولة حرة موحدة على أنها خصم من نوع يختلف اختلافا بعيدا عن فارس.

وعندما فشل فورهس، وقع أغريق الجنوب فريسة سهلة للكتائب الرومانية وأصبحت روما روما تحكم دون منازع من سهل لومبارديا إلى مضايق مسينا.

٩- والقول أن «روما لم تبن في يوم»، يصدق ليس فقط على خصيصة وأنظمة المدينة ذات السيادة ولكن على أمبراطوريتها العالمية أيضاً واستغرقت هذه الجهود الأولى للسيادة في أيطاليا مدة تبلغ في مداها ضعف المدة التي تمكنت فيها من الاستيلاء على منطقة البحر المتوسط بأجمعها. ويمكن أن تقتفي فيها المناهج التي تمكنت بها بعد ذلك من السيطرة على العالم وحكمه. أنا نلحظ أولا، كفاءة تنظيمها العسكري. ولقد أبدى أحد الكتاب اللاتين الرأي بأن الكتائب كانت الهاما من اله ([1]). وكانت تجمع بين ثقل صفوف المشاة المتراصة المتقاربة **phalanx** المقدونية والتفوق في الحركة كما قام عليه الدليل في الحرب ضد فورهس. وفي التسليح ومناهج القتال كان الرومان أبدا على استعداد لأن يتعلموا من أعدائهم وكانت الهزيمة إشارة بالقيام بالأصلاح الذي كان يعاونهم على الخروج من الحرب وقد عقد لهم لواء النصر. وعلى هذا فقد استعاروا الرمح الثقيل من السامنيين كما تعلموا بعد ذلك تشييد السفن الحربية العظيمة من

([1]) وأغيطيس **Vegetius**، كما اقتبس عنه منتسكيو فصل ٢. وفي واقع الامر، شكلت ولكن بتحسينات، طبقا لتنظيم الأغريق العسكري. وعن تنظيم الكتيبة وتفوقها على المشاة المتراصة ثقيلة التسلح، **phalanx** راجع بلوبيوس: ١٨، ١١- ١٥

القرطاجنيين وفي نهاية الحرب الفونية الثانية، أوقعوا الهزيمة بهنيبال بالخيالة التي كانت الأداة التي استخدمها في انتصاراته الأولى. وعلى غرار الانجليز فإنهم كانوا يقومون بحروبهم وقد أخذ منهم التخبط "**Muddled through**" وهي عبارة عامية تشير إلى انتصار المثابرة السلالية والقدرة على استخدام الهزيمة كوسيلة إلى النصر وكان أيضاً يحدوهم التواضع فيما يتصل بسبب انتصاراتهم وكانوا ينسبونها إلى «حظ الشعب الروماني». وما له أعظم وقع في النفس هو الوثوق من الذات الذي لا يعتريه وهن. لم تعقد روما قط صلحا بينما كان يوجد على التربة الرومانية فرد من الأعداء. أنها غلطة عظيمة أن نظن بأن الرومان كانوا شعبا يجنح إلى العدوان، يحدوهم الميل إلى إخضاع إيطاليا أولا ثم بعد ذلك العالم. أن أعظم من هذا صدقا القول أن حروبهم جاءتهم بما لا معدى عنه في ترتيب الأمور. وفي كل مرحلة في تاريخهم كانوا يواجهون بالاحتمالين، السير إلى الأمام أو النكوص إلى الخلف. ولم تنكص روما إلى الخلف بتاتا ولما كان يتألب عليها جيران يسودهم الشغب فقد أوقعتها مهمة حراسة تخومها، في حرب دائمة وكان معنى الحرب على مدى الزمن، توسيع الأمبراطورية وكانت مجبرة على التدخل لكي تهدىء النيران وكان يترتب على التدخل الاحتلال في النهاية.

وكانت توجد فلسفة كلبية في سياسة روما وكان الهادي لسياستها دائما مبدأ المصلحة الذاتية ولكنها لم تتعطش قط إلى الفتح، وقصة أمبراطوريتها هي أن تجد هوية المصلحة الذاتية في دعوى القانون والنظام والمدنية.

١٠- ويوضح تاريخ توسع روما في إيطاليا بطريقة أكثر استدعاء للنظر عبقريتها في الأدارة المتأصلة، وفي كل مرحلة كانت تلاحم فتوحاتها بمتاريس من حديد من الطرق العسكرية والمستعمرات. والقول «أن كل الطرق تؤدي إلى روما» صدق، ليس فقط في مجال استعارة الطرق العامة للمدنية ولكن حرفيا بالنسبة لطرق المرور العظيمة التي كانت تشع من روما أولا عبر لاتيوم واترووريا الجنوبية ثم في أيطاليا وأخيراً في أقطار منطقة البحر المتوسط ([1]). ولم تكن

([1]) كانت أقدم هذه الطرق في إيطاليا، طريق أبيا **Via Appia** وقد بدأها أبيوس **Appius Claudius** الرقيب، عام ٣١٢. وكانت تسير عبر لاتيوم في خط مستقيم إلى الساحل. ثم أكملت بعد ذلك مجتازة سمينوم **Samnium** بجوار بنيونطم **Beneventum** إلى ونوسيا **Venusia** (في أفوليا **Apuha**) وبرنديزيم **Brundisium** (نديزي الحالية). وكانت طريق لاطينا **Via Latina** تسير أبعد إلى المداخل، من روما إلى قفوا **Capua** وطريق أفلامنيا **Via Flaminia** صوب الشمال عبر الألنين إلى أريمنيم **Ariminum** (رميني) على الأدرياتيك ومدن عام ١٨٧ إلى أفلاقنطيا **placentia**

المستعمرة الرومانية على غرار المستعمرة الإغريقية دولة– مدينة مستقلة ولكن مستعمرة عسكرية للجنود الزراع في وسط أعداء مغلوبين. وطالما ظلت هذه المستعمرات باقية على أخلاصها فقد تحتمل أن تقع الهزيمة بالكتائب الرومانية في الميدان ولكن الدولة الرومانية تظل ثابتة الدعائم. وفي معاملتها للمهزومين كان المبدأ الروماني فرق واحكم (**divide et impera**). ولم يكن يتسامح في قيام أية رابطة من التكاتف– في الأزمن الأولى حتى في حقوق التجارة والتزاوج_ بين المجتمعات الخاضعة. وقد حلت الاتحادات القديمة في كل مكان. ولقد حافظت روما على هذا المبدأ الأصلي دون أن تشوبه شائبة، خلال تاريخها. ونفس التوجس من الجمعيات الخاضعة الذي أدى بها إلى الغاء الحلف اللاتيني، كان في عهد الأمبراطورية الدافع لها على إلعاء فرقة مطافيء محلية في تقومدية **Nicomedia** ([1]). وعلى اضطهادها الكنيسة المسيحية كطائفة غير مصرح لها ومن الجهة الأخرة. كانت كل المجتمعات الإيطالية على السواء تربطها مع روما أواصر تختلف قوتها. ومنذ ذلك الحين كانت أيطاليا تكون دولة واحدة تحت السيادة الرومانية. وكان الحرب والسلام والعلاقات الخارجية والعملة من شأن المدينة الحاكمة، القاصر عليها. أما ما خلا ذلك فكانت توجد تفرقة بين الأراضي التي تديرها روما مباشرة وتلك التي يستوطنها «أصدقاؤها وحلفاؤها الأيطاليون» على شبه تلك الموجودة في الهند اليوم بين الولايات الوطنية والأقاليم التي يحكمها الموظفون المدنيون البريطانون، وكانت تشمل الأولى ثلث إيطاليا تقريبا، بما فيها روما والمستعمرات التي تضم المواطنين الرومان ذوي الحقوق الكاملة وبلدانا أخرى لها حقوق المواطنين الكاملة أو الجزئية (**Municipia**) وهذه المستعمرات والبلدان **municipia** كانت تستمتع بقسط وافر من الحكم الذاتي ولو أن روما احتفظت بحق التدخل وكان يرسل الرؤساء **perfects** سنويا من العاصمة للقيام على القضاء.

ومن بين «الحلفاء» الإيطاليين من الجهة الأخرى. كانت تحتل المستعمرات «اللاتينية» مكانة ممتازة ولها كامل الحقوق في التجارة والتزاوج مع المواطنين الرومان. وحتى منتصف القرن الثالث،

(فياقنزا) على البحر باسم طريق أميليا **Via Aemilia**. وفي القرن الثاني أنشئت طريق دمطيا **Domtia** بمحاذاة خليج ليون **Golfe du Lion** لربط روما بأسبانيا وطريق أغناطيا **Via Egnatia** عبر شبه جزيرة البلقان من دوراخيوم **Dyrrachium** (دورازو) إلى تسالونيقا **Thessalonica** (سالونيكا) والسبنطس.

([1]) راجع خطابات بلني إلى الأمبراطور طريان (بواكير القرن الثاني الميلادي) الكتاب ١٠ الرسالتين ٣٣ و٣٤ (فرقة الحرائق) و ٦٩و ٩٧ (المسيحيين)

احتفظ سكان المستعمرات بحص استعادة صفة المواطنين الرومان في حالة عودتهم إلى العاصمة ولكن جمهرة «الخلفاء» كان يحدد مركزهم معاهدة خاصة ففي حالة المدن الهلينية كانت الشروط على وجه عام سمحة، بينما هوت المجتمعات الأخرى في المناطق الأقل تمدينا، إلى عبودية مفترضة وكان الكل عرضة للخدمة مع الجيش الروماني في الميدان ([1]). ولا يمكن أن يقول مثال أوضح بيانا عن مرونة المذهب الأداري الروماني وقدرته على التكيف مع الأحوال المحلية المتغيرة من الصورة التي يستعرضها حكمهم في إيطاليا في الفترة التي تقع بين الغزو الغالي (٣٩٠) ونشوب أول حرب فونية (٢٦٤).

ب- الحروب مع قرطاجنة:

١١- تدور القصة كيف أن فورهس هتف عند تركه المدن الإغريقية في إيطاليا الجنوبية إلى مصيرها «يا له من ميدان قتال ذاك الذي نخلفه للرومان والقرطاجنيين». ولعدة قرون كان الإغريق الصقليون كافحون ضد قرطاجنة من أجل جزيرتهم والآن أصبح لا يفصل صقلية عن روما سوى المضايق الضيقة. وكانت سيادة القرطاجنيين في البحار الغربية حتى ذلك الحين، لا يوجد من يتحداها ولو أن روما كانت قد بدأت في حراسة ساحل إيطاليا بأسطولها ومنذ القرن السادس كانت تمارس التجارة مع صقلية وسردينيا وقرطاجنة وأصبح لها المام تام بالعادات الهلينية والفينيقية. وكان الصراع بين الدولتين الغربيتين العظيمتين، أعظم صراع مروع في التاريخ القديم وقد بدأ في عام ٢٦٤ واستمر، مع انقطاع عشرين عاما لكي يتمكن المحاربون من استرداد قوتهم (٢٤١- ٢١٩)، حتى الانتصار النهائي الذي حازه اسقفيون على هنيبال في زاما، عام ٢٠٢. ويقع خارج مجالنا الاستطالة في الحديث عن تاريخه. وقد اكسبت الحرب الفونية (الفنيقية) الأولى (٢٦٤- ٢٤١) روما أول أقاليمها، صقلية وسردينيا وقرسيقا والسيطرة البحرية على البحر المتوسط الغربي. وفي الفترة التالية، أخضعت الغالبيين بين الأبنين الشمالية والألب. واختتمت الحرب الثانية (٢١٩- ٢٠١)، التي جعلها غزو هنيبال العظيم لإيطاليا باقية الذكر على الدوام،

([1]) أن التقسيم إلى مواطنين (صفة تامة وصفة جزئية) وحلفاء يرجع تاريخه إلى القرن الرابع. وصفة المواطن الجزئية كان معناها استحواذه على الحقوق الخاصة دون العامة. وكانت الحقوق الخاصة المنوه عنها، حقوق التجارة والتزاوج أما العامة فكانت حق التصويت والأهلية للوظائف. وقد منحت الحقوق اللاتينية إلى المجتمعات خارج لاتيوم في إيطاليا (وبعد ذلك) في الأقاليم وكان للحلفاء حكم ذاتي فيما يتصل بالحكومة المحلية وكانوا خارج دائرة التشريع الروماني والحكومة التنفيذية.

بفتح أسبانيا والنزول بقرطاجنة إلى منزلة ولاية متقطعة. ولم يحدث في تاريخها الطويل أن تجلت للعيان البطولة في حب الوطن التي نهض بها الروعان أكثر مما كان في الساعات الحوالك، عندما كانت شراذم الكتائب المحطمة تلم شعثها في استبسال حول المغير. وعندما اقترب القنصل وارو Varro من المدينة بعد نكبة كاناي Cannae (٢٠١٦) المروعة– فإن أعضاء مجلس الشيوخ– أعداءه السياسيين تقدموا لمقابلته حاملين له الشكر لأنه لم ييأس من الجمهورية. وبعد ذلك بأعوام قليلة عندما اقترب هنيبال من أبواب روما، بيعت الأرض التي كان معسكره مقاما عليها في المدينة بثمنها الكامل في السوق، في زمن السلم. والمغوى الأدبي لنتيجة هذا الصراع التاريخي واضح كالشمس في رائعة النهار. أن حكومة قلة تجارية–كالبندقية في زمن متأخر، تتملكها الغيرة من عظماء مواطنيها وتعتمد على الجنود المرتزقة– لا يمكن أن تتغلب بالسلاح على جمهورية حرة[1]. ولم تكن عبقرية أعظم القادة العسكريين مجدية في تفويض بنيان المستعمرات الرومانية المتين. ولما تقررت النتيجة تصيدت روما عدوها وأردته موارد الهلاك في قسوة لا رحمة فيها فانتزعت أولا المنفى[2] ثم قتل هنيباك، الفرد الوحيد الذي عن لها اطلاقا، أن ترهب جانبه، وأخيرًا عندما نهضت قرطاجنة بعد نصف قرن من حشرجة موتها، في جهد بالغ لاستعادة حريتها فإنها بعد مقاومة باسلة، سويت بالأرض (١٤٧).

(جـ) فتح الشرق

١٢– خرجت روما من هذا الصراع الهائل وهي سيدة الغرب، دون منازع. ومنذ ذلك الحين كان المشكل الذي واجهها في هذه الناحية مشكل التوطيد والحكم. وسنعود في الفصل التالي إلى الوسيلة التي أنجزت بها رسالتها كعامل في بسط المدنية على اسبانيا وأفريقيا والغال الجنوبية، ولكن قبل أن تضع يدها على هذه المهمة الجديدة، وجدت نفسها وقد اشتبك قهرا بسياسة الشرق الهليني. ولم يكن مزاج الخطيئة hubris هو الذي دعاها إلى التدخل، ولكن منطق الوقائع الصارم. ولم تكن، وقد أنهكتها حروب هنيبال وأصبحت تنوء تحت عبء الأقاليم الغربية، في حالة تسمح لها بالشروع في مغامرات جدد، لم يكن بالمستطاع التنبؤ بنتائجها. وكانت

(١) يقر فلوبيس (٦، ٥٢) أن تفوق الرومانيين العسكري على القرطاجنيين كان تفوق الجنود– المواطنين الذين تحفزهم الروح الوطنية على المرتزقة وهو يذكر أيضًا (٣، ١١٨) أن الرومان أنقذتهم بعد كاناي "خصيصة تنظيم السياسي التي تتميز عن غيرها وتفوقهم في تدبير الرأي" وينسب توسع إمبراطوريتهم السريع إلى نفس السببين.

(٢) بلوبيوس– راجع صفحة ٢٧٤ تذكرة (١)– المترجم

المطامع العسكرية التي تحدو ملوك مقدونيا وأسيا، الإغريق تجبرها على العمل. والدولة التي لها السلطان في إيطاليا ما كانت بمسنطيعة في ذلك الحين، أكثر من استطاعتها الآن، أن تعاين سير الحوادث في شبه جزيرة البلقان دون مبالاة، وكدولة تجارية عظيمة، كان على روما أن تحافظ على السلام في البحار المحيطة، ولقد حاربت جنود مقدونيون في جانب هنيبال، وكان أنطيوخس الثالث (العظيم) من أسرة سليوكس يهدد استقلاله حلفاء روما، أثينا وردوس وفرغامس، وكانت النتيجة سريعة ومجتاحة. ولقد سحقت مقدونيا في عام ١٩٧ وأنطيوخس في آسيا، عام ١٩٠. أما أمبراطورية سليوكس، وقد قطعت روما أوصالها في الغرب، ودولة بارثيا الناهضة في الشرق، فقد هوت بعد معركة مغنسيا (١٩٢) لتكون ولاية سوريا الصغيرة التابعة. وعلى ذلك، ففي عشية أو ضحاها أصبحت قيادة أقاليم البحر المتوسط الشرقية في قبضة روما. ولقد أبدى مونتسكيو ملاحظة مفادها أنه بعد سقوط القرطاجنيين، حاربت روما حروبًا صغيرة فقط، وكسبت انتصارات عظيمة، بينما قبل ذلك، كسبت انتصارات صغيرة وحاربت حروبًا عظيمة[١]، وإننا نلحظ في قصة توسعها الشرقي، الرائعة، ثلاث حقائق بارزة أولاً تظهر روما في كل مرحلة كنصير للنظام والشرطي الوحيد العامل في خضم العالم الهليني المضطرب اضطرابًا مؤلمًا. وعلى ذلك فقد تحالفت باستمرار مع الدول التجارية المسالمة مثل مصر وردوس وفرغامس. ثانيًا كان يلهم سياستها حماس صادق للهلينية، وسنتحدث فيما بعد عن تأثير الثقافة الإغريقية التي تنزع إلى التغلغل، في هذا العصر في حياة ومزاج القادة من المواطنين الرومانيين ولقد تجلى مثلهم الأعلى في المشهد الفاجعي الذي أعقب الانتصار على مقدونيا عندما أعلن فلامنيوس Flaminius على الإغريق المجتمعين عند برزخ كورنث أنهم منذ ذلك الحين أحرار، وربما كان ليتنبأ مقدمًا نصير للهلينية أقل تحمسًا بالنتيجة. لقد التهب سعير الفوضى، في شبه الجزيرة كلها طوال نصف قرن إلى أن اضطراب روما إلى ضمها. وثالثًا يظهر في أعظم جلاء أعراض الحكومة الرومانية عن توسيع حدود إمبراطوريتها خلال هذا العصر. أن سياستهم في مقدونيا تقدم المثال

---

(١) Gr.et dec. فصل ٥: لقد أثرت السرعة التي استحوذت بها روما على سيادة العالم تأثيرًا عميقًا في معاصريها. ومنهم، مثلاً، المؤرخ الإغريقي فلوبيس الذي كان الهدف من مؤلفه هو أن يوضح "بأية خطوات وبأي دستور انضوى العالم بأجمعه تحت حكم روما الوحد في غضون ثلاث وخمسين سنة" (١،١)– أي بين نشوب الحرب الفونية الثانية (٢١٩) وتقسيم مقدنيا (١٩٧)، وهو يذكر أيضًا (١و٣) كيف أنه في نصف القرن ذاك، تقابلت تيارات الحوادث في الشرق والغرب، المنعزلة، لتكون مجرى وحدا في الإمبراطورية الرومانية وأصبح لتاريخ منطقة البحر المتوسط، لأول مرة، وحدة عضوية.

لذلك. لقد أيدوا بعد انتصارهم الأول (١٩٧) الملك المهزوم كأمير غير مستقل تحت السيادة الرومانية. وعندما أثار خلفه بعد ذلك بعشرين سنة حربًا ثانية خلع وقسمت أملاكه بين أربع سلطات محلية. وفقط– عندما فشلت هذه التجربة– جعل القطر إقليما رومانيا (١٤٦). وفي آسيا، لم تأخذ روما شيئًا لنفسها، وقد وكلت الأقاليم التي انتزعت من أنطيوخس إلى أمراء وكلاء وإلى خلفائهم الهلينيين. ويمكنا أن نوازن الأساليب المشابهة التي تذرعت بها الحكومة البريطانية في تأجيل ضم البنجاب من وقت إلى آخر.

١٣– ولو كانت غايتنا وضع تاريخ لروما لكان من اللازم أن نتتبع مرحلة بعد مرحلة حوادث هذه المناوشات بالتفصيل وأن نتبين في كل مرحلة متعاقبة، تأثيرها المستمر على تكوين حكومتها الداخلية. فعلى سبيل المثال، كان ضغط الحرب على أبوابها هو الذي أتى بالنفع على العامة الذين كانوا السلسلة الفقارية للجيش في كفاحهم مع الأرستقراطية الأشراف، وكذلك كان لادماج الشعوب الإيطالية وشعوب البحر المتوسط داخل دائرة السيادة الرومانية كما سنرى فيما بعد، نتائج بعيدة الشأو على مذهبها الإداري والقانوني. ولكن اهتمامنا الحالي بقصة تكوين الإمبراطورية الرومانية لا ينصب على العملية النسقية أكثر مما ينصب على النتائج[١].

وهذه يمكن تلخيصها في عبارة: قبيل منتصف القرن الثاني، توطد حكم روما في أعم خصائصه الجوهرية، على عالم البحر المتوسط، وفي الغرب كانت تحكم حكمًا مباشرًا أقاليم صقيلة وسردينيا وكورسيكا والغال جنوب الألب واسبانيا الدانية والقاصية وأفريقيا. وفي عام ١٢١ أدمجت الأراضي الساحلية الواقعة بين الألب والبرانيس في إقليم الغال النربونزية، الذي عرفت باسم "بورفانس" في زمن لاحق. وفي الشرق كان يوجد فقط إقليمان: مقدونيا مع أخايا "اليونان"، وآسيا– أي المنطقة الغربية من آسيا الصغرى– التي أرثها للدولة الرومانية عام ١٣٣ آخر أمير إغريقي لفرغامس. وإلى ما يوالي حدود هذه الأقاليم، كانت توجد سلسلة من الدويلات مثل نومديا **Numidia** في أفريقيا ومصر وسوريا (بقية المملكة السلوقية) وولايات صغري عديدة تحكمها داخليًا حكوماتها الخاصة ولكن تسيطر عليها روما في جميع ما يتصل بعلاقاتها الخارجية. وكانت إقامة هذه الولايات العملية، تحت السيادة الرومانية مظهرًا أصليًا

---

(١) ليست شخصية اسقفيون أفريقانس أو أعماله الباهرة هي التي يعتد بها في التاريخ، ولكن النفع الذي حققته روما من فتحه اسبانيا. لقد أطاح هنيبال بفلامنيوس وكتائبه بالقرب من بحيرة اطراسمين، ولكن اسم ضحيته لا يزال باقيا كمنشئ للطريق العام الذي عبرت به الجيوش الرومانية الأبنين إلى وادي البو وسفوح الألب.

للسياسة الرومانية في عهد الجمهورية المتأخرة والإمبراطورية الباكرة. وكانت تقوم كولايات حاجزة بين روما ودول من أمثال بارثيا، ووفرت أثقال الاحتلال العسكري والحكومة ونمت انتشار المدنية خارج تخوم الأقاليم. وطالع القرن التالي تهذيب المذهب الإمبراطوري بتكوين أقاليم جديدة وولايات تابعة وإصلاح الإدارة الداخلية وإقرار التخوم الدائمة للامبراطورية. وفي الزمن الذي وصلنا إليه، كانت وظيفة روما في تاريخ العالم قد تحددت معالمها. وكانت تلك الوظيفة مزدوجة وفقًا لاختلاف الأحوال التي تواجهها في الغرب والشرق. ففي الغرب، كانت رسالتها أن توطد دعائم القانون والمدنية بين الشعوب الهمجية والشبيهة بالهمجية. أما في الشرق، من الجهة الأخرى.

فقد وجدت مدنية قائمة تتفوق إلى شوط بعيد على مدنيتها، وهناك كانت مهمتها ليس الخلق وإنما المحافظة، أن تنقذ من الفوضى والدمار بنيان الثقافة الهلينية وأن تسير في النهوض بعمل الاسكندر وخلفائه ببث تلك الثقافة في شعوب الشرق الأوسط والأدنى.

روما في القرن الثاني

١- روما والهلينية:

٤ ١- أن قدرة روما على النهوض إلى قمة مسئوليتها كانت تعتمد أصلا على خليقة لفيف مواطنيها. وقد تألف فيض الثروة بذيوع الثقافة الهلينية خلال حقبة الحروب العظيمة لإيجاد ثورة عميقة في حياة المجتمع الروماني الخلقية والاقتصادية. وإلى زمن الحروب الفونية، كانت روما فقيرة نسبيًا، وكان يسود المواطنين مقدار من المساواة الحقيقة. والآن، وجدت نفسها على حين غرة تقريبًا ومركزًا لتجارة البحر المتوسط وأسواق الشرق والغرب تحت أقدام تجارها ومموليها.

وكانت النتيجة جلية في قيام طبقة من الأثرياء الذين جعل لهم ثراءهم نفوذا في روما وفي الأقاليم، وفي ازدياد الترف بين أرستقراطية مجلس الشيوخ، ذلك الترف الذي حاول عبثا الموظفون المحافظون من أمثال كاتو cato الرقيب، أن يضعوا حدا له، وفي عادة المضاربات المالية، وفي ظهور ضياع الأرض العظيمة وتدهور الزراع من صغار الملاك واستيراد العمال العبيد على نطاق واسع من الشرق، ولم يمكن للزراعة في إيطاليا أن تنافس الحنطة المستوردة من بلدان ما وراء البحار. وكانت النتائج السياسية والنتائج الخلقية متعادلتين في خطورتهما، وفي الأزمنة الأولى من التوسع في البحر المتوسط أثار الإداريون والتجار الرومانيون الدهش، بسبب بساطتهم وحياة

الأمانة الصارمة، في عالم تعود على الفساد الفوني (الفنيقي) والهليني. ولكن في النصف الأول من القرن الثاني كان يمكن لكاتو أن يجأر بالشكوى من أن ذاك الذي يسرق من مواطن حر يقضى أيامه مكبلا بالقيود. ولكن من يسرق من المجتمع يقضيها وهو يرفل في الذهب والأرجوان[1]. وقد خضعت مدونة قوانين الأخلاق القديمة بسرعة إلى الأحوال التي تغيرت وفشا الخمول والعجز بين الطبقة الحاكمة، بينما كان الأشراف يعيشون في أبهة على أسلاب المقاطعات واستخدام جباة الضرائب من الزراع والمتعهدون ثراءهم في إنشاء قوة جديدة منافسة في السياسة، وتدهورت الجماهير التي ألمت بها الفاقة والتي اكتظت بها الحاضرة، إلى طبقة عمال من الكسالى والمؤثرين للمتعة.

وكانت تحمل هذه التغيرات في الحياة الاجتماعية والأخلاق التي نجمت عن نهوض روما السريع إلى دولة ذات سيادة، نتائج تنذر بالشر، ليس فقط على سياستها الإمبراطورية، ولكن على الاستقرار الداخلي للدولة. وكان أكثر نفاذا وله أثر بعيد المدى، نتائج تمثيلها الهلينية.

١٥-لقد كان في قمبانيا **Campania** في القرن الرابع أن روما اتصلت لأول مرة اتصالا دائمًا بالمدنية الإغريقية وما وقع من أنها استهلت تاريخها كدولة- مدينة بأنظمة شبيهة بأنظمة دول- المدينة في اليونان، كان حلقة اتصال سرعان ما تبينها الرومان والإغريق على السواء. وعندما ظهر الرومان في عام ٢٢٩ للمرة الأولى على شواطئ الأدرياتيك الشرقية، سمح لهم في الحال بالعضوية في الألعاب الهلينية ولم ينظر لهم الإغريق قط على أنهم "همج". وردا على هذا فإن الحكومة الرومانية والأفراد من الرومانيين، مصل فلامنيوس **Flaminius** اتخذا في شغف وجهة موالية للهلينية في السياسة الخارجية. وقد شوهدت ثمار هذه القرابة، الأكثر توثقا، في غضون القرن الثالث في الوازع الذي أثارته اليونان في الأدب اللاتيني. لقد كان شعر روما الوطني والترانيم والقصيد الغنائي والملهاة ولا يوجد أساس سليم لما ذهب إليه ماكولي **Macaulay** من

([1]) راجع ممسن الكتاب ٣، فصل ٢. تزعم كاتو (قنصل ١٩٥ ورقيب ١٨٤)، وهو من قدامي الجنود في الحرب الهنيبالية، واداري قدير لاسبانيا، المعارضة المحافظة المتأثيرات الجدد. ويعقد فلوبيس (٦، ٥٦) وكان بالذات وطنيًا إغريقيا، موازنة بين أمانة الموظف الروماني في النصف الأول من القرن الثاني وبين فساد الإغريقي: "أن أولئك الذين في أيديهم تصريف الأموال العامة من الهلينيين، حتى لو كان المبلغ مجرد "وزنة" يستخدمون عشرة محاسبين وعشرة أختام وضعف هذا العدد من الشهود، ومع هذا لا يمكنهم أن يكونوا أمناء على ما عهد إليهم. بينما بين الرومان، يراعي الرجال الذين يتداولون مبالغ جسيمة كالموظفين والسفراء التزاماتهم، بضمان قسم بسيط".

أن المشاحنات السياسية البواكر ألهمت بأدب بزخر بالقصيد الغنائي.

لقد كانت بدايات الشعر الروماني في الترجمات ومحاكاة عيون المؤلفات الإغريقية ؟؟ صيغ أوزان شعرية ترجع إلى أصل إغريقي وخاصة الملحمة ذات الست مقاطع(١)، ولكن يكون من الخطأ الظن بأن الشعراء الرومان، في أتباع النماذج الإغريقية، كانوا محاكين لأساتذتهم محاكاة عبيد فلقد نفثوا في أعمالهم، روح روما. ولقد عبر انيوس **Ennius** الذي كان معاصرا للحرب الفونية الثانية، واتخذ ذلك الصراع التاريخي موضوعا للمحمته، عن صفات الجد ونشاط الرجولة والكبرياء القيصري والذكاء السياسي مما كانت تتميز به الخليقة الرومانية. ويصدق هذا القول على مسلاة الأخلاق اللاتينية في القرن الثاني. وقد أمكن تكييف النماذج الإغريقية للتعبير عن مصالح روما وحياتها الاجتماعية.

وكان هناك أسلوب خاص من الشعر يعتبر خصيصة ملازمة للأدب الروماني وهو "التهكم" أو الخليط "**satura**" وكان أول واضع له لو كليوس **Luculius** في منتصف القرن الثاني، وكان يصور في أبيات من ستة مقاطع، مشاهد من الحياة الاجتماعية يتناثر فيها النقد الأدبي والسياسي والسيرة التي يضعها الإنسان عن نفسه والمغامرة الشخصية وتواصل الأصدقاء. وقد أظهر الكتاب الرومان اشراقا خاصًا وروعة في هذا اللون من الشعر وفي عبارة ناقد حديث. لم يكن هوريس **Horace** وحده أو كل أصحاب الشعر التهكمي بعده ينتمون إلى مدرسة لوكليوس، ولكن مونتاني **Montaigne** وببس **pepys** أيضًا(٢). وكان مولد أدب النثر اللاتيني في هذه الحقبة ذاتها. أن مصالح الرومان العملية هدتهم منذ زمن مبكر إلى أن يشقوا الطريق في ميداني الخطابة القانونية والتاريخ. وهنا أيضًا نشعر بإحساسهم، الحاضر أبدًا، بمنظمة روما وعبقريتها في القانون والنظام ومصيرها الإمبراطوري، ولكن لا تزال توجد خصيصة أخرى تميز الأدب اللاتيني عن أدب الإغريق. أن أعاظم الشعراء الرومان يستبين منهم فهم صادق للطبيعة حب لها. لقد وضع الإغريق عن الطبيعة شعرًا لا يعتريه فناء، ولكن مع كل أحاسيسهم بجمالها وجلالها، ظلمت بالنسبة لهم قوة غريبة عنهم، قادرة في الواقع على إثارة إعجابهم ولكنها شئ لم يكونوا في الواقع

---

(١) كان أقدم شعر روماني في وزن يطلق عليه **Saturnian** يمثله البيت الإنجليزي الآتي:

"The Queen was in her parlour eating bread and honey."

(٢) مكيل-"الأدب التلاتيني"- يشتمل **satura**،كما يدل عليه النص، أكثر مما يشتمل عليه التعبير الإنجليزي "**satura**" ونذكر كونتليان (**Inst, orat** ١٠ فصل ١ & ٩٣) أنه روماني خالص **satura quidern toto nostre est**

قط يرتاحون إليه كل الارتياح. أن الطبيعة عند اليوناني كانت دائمًا شيئًا خارجًا عن ذاته، شيئًا يجب أن يعرف عنه أو يقهر، وليس شيئًا يحب[١].

وكان الشعراء الرومان يحبون الطبيعة كأن لها قرابة بهم وكان اليوناني يعيش في المدينة ولأجلها، وإذا عن له السفر إلى الخارج، كان الدافع أن يرى مدائن الناس، وكانت ضياعه مصدر إيراد وليس موضع اعتكاف مختار. كان الروماني يهرب من المدينة جذلان، للريف. وكان أول من يقدر بيتا ريفيًا ويخلق مأوي لوقت الفراغ بين الجبال أو بجوار البحر، وعلى هذا فإن كاتولوس **Catullus** غادر روما إلى منفاه على بحيرة جاردا، وهوريس إلى مزرعة السابنية، وفرجيل **virgil** إلى خليج نابلي. وكانت الحال كذلك مع رجل الأعمال والمحامي عندما كان كما جاء في تشبيه هوريس، ذائع الصيت، يطرح عنه حمل الأعمال العامة، ويأوي إلى حقول فينافرم **venafrum** أو طرنطم لاكديمونيا[٢]. وكان الرومان يحملون في مناجاتهم مع الطبيعة شيئًا من حرارة الود الذي كانت الرومان يحملون في مناجاتهم مع الطبيعة شيئًا من حرارة الود الذي كانت تتميز به أواصرهم الشخصية. وهذا من شأنه أن يجتذب قارئ أدبهم إلى العطف على حياة الشاعر اليومية. ولقد كانوا أول السلالات جميعًا[٣]، أحساسًا بالابتهاج بجمال الطبيعة ويعبرون عنه في أشعارهم، يقرب من احساس شوسر أو شكسبير.

١٦٤- وبانتشار الهلينية المعاصرة من الطرازين الهليني. والإسكندري أصبح المجتمع الروماني أكثر ترفا وأكثر تهذيبا، في وقت واحد.

وكانت الثقافة الإغريقية لا تعني، في الكثير الغالب، سوى قشرة رقيقة لا تكاد تحجب الخشونة الطبيعية والوحشية في الأخلاق الرومانية. ولم يحس نفوذها على الدهماء من الشعب إطلاقًا إلا أن يكون ذلك، في التأثير التدرجي على الدين الشعبي، في تعرف الشعراء هوية واحدة للآلهة الرومان، ولآلهة الإغريق، ولقد غدا الآلهة المعنويون في روما الباكرة، إلى حد ما، أولى طابع شخصي وذات محددة. ومن الوجهة الأخرى تعلم الرومانيون الأرستقراطيون، من الإغريق، أن

(١) ومع هذا يجب استثناء هزيود والقمايون

(٢) هوريس "القصيد الغنائي" ٣، ٥، و٢،لا ٥٥-٦.

(٣) لقد سبقهم قدماء المصريين في هذا المضمار فإن الشعر الغنائي المصري القديم يزخر بالإحساس بجمال الطبيعة والبهجة برؤية الأشجار والزهور والطيور.

يقدروا الأدب والفنون[1].

ولقد حملت إلى روما روائع. أمثلة النحت الإغريقي، لتزخرف بيوت قواد الجيش المظفرين. ويوجد قول لجورج مريدث مفاده أن الفكرة المعنوية الوحيدة التي يستطيع العقل العسكري أن يفقه لها معنى، هي فكرة الغنيمة، ودون ريب كان لتعطش الدهماء للسلب شأن كبير في نهب كنوز الهلينية[2]. هذا، ولكن بمجرد أن استعرضت أعمال الفن في روما، أتت على ذوق الجمهور بتأثير خفي. وأصبح الرومان يهتمون ليس بمجرد الاحتفاظ بآثار الماضي التذكارية، ولكن بتشجيع مثل هذه الابتكارات الجدد في الفن والأدب، كما كانت العبقرية اليونانية لا تزال قادرة على إنتاجها. والفن الخالق يشير إلى وجود جمهور. الآن صارت روما تهيئ الجمهور، ولم يصبح الرومان قط فنانين. والواقع أن رعايتهم قد أوقعت الضربة القاضية على الفن الإغريقي. والفلسفة الإغريقية بدأت أيضًا تتسرب إلى روما خلال القرن الثاني، ولو أن الرومان كان لهم القليل من القدرة على التفكير المجرد عن المنفعة وقاوموا التغلغل زمنا طويلا، وكانت مبادئ الرواقيين والأبيقوريين التي تتركز حول مشكلات الحياة العملية أول مبادئ تأصلت في المجتمع الروماني. ولقد عاونت على تعديل، وفي النهاية على تقويض القيم الرومانية العتيقة للتورع والفضيلة.

ولقد وجدت علامات الفكر الارتيابي في أشعار انيوس **Ennius** وكان الشيوخ من رجال

---

(1) كانت الجماعة الممتازة التي التفت حول اسقفيون اميليانوس (هازم قرطاجنة في الحرب الفونية الثالثة) تضم بخلاف أشراف الرومان مؤلف الفاجعة الهزلية طرنس وشاعر الهجاء والتهكم لوكليوس والسياسي الإغريقي المنفي بلوبيوس، وأعيد بلوبيوس (ولد عام ٢٠٦ وتوفي عام ١٢٤، على التقريب) إلى اليونان من المنفي عام ١٥٠ ورافق اسقفيون في حملاته في أفريقيا وغيرها من الأماكن وقام بوظيفة مبعوث رومًا في اليونان من عام ١٤٥. وكان تاريخه يضم ٤٠ كتابًا، الخمسة الأولى منها، فقط، هي الموجودة لدينا بأكملها. وقد بقيت من الأخرى مقتبسات، فيما دونه مؤلفون بيزنطيون. وهي تستغرق المدة التي تقع بين عامي ٢١٩و ١٤٥. ومصنف بلوبيوس يتميز بعدم التحيز في الحكم والصدق في سرد الوقائع التي يمكن تحققها. والمؤلف ولو أنه موال ولاء متصلا لليونان وطنه، فإن أحساسًا بقوة دولة روما التي لا غالب لها، ونبل وعظمة الخليقة والأنظمة الرومانية كان يلهمه باستمرار. أن الصدفة تتحكم إلى حد عظيم، في شئون البشر (١، ٤). ولكن لم يكن يوجد مصادفة في نظر بلوبيوس في استحواذ روما على إمبراطورية عالمية (١، ٦٣). والتأملات الفلسفية التي تنهال على القارئ وهي عسيرة الفهم، هي —على وجه عام– على شئ من الابتذال واللغو.

(2) ينعى بلوبيوس (٩و١٠) على الرومان ما درجوا عليه من سلب المدن المهزومة، خزائنها الفنية. ويقابل هذا بما كانوا عليه سابقًا من ضبط النفس وبساطة العيش.

السياسة في القرن الثاني مثل كاتو، يرتابون من النفوذ الإغريقي. وفي منتصف ذلك القرن وافق مجلس الشيوخ على مرسوم بأن يغادر المدينة جميع الفلاسفة. ولكن مقاومة الأفكار كانت غير عملية كمقاومة الثروة والترف، وفي ارواد ولكن في يقين، للخير أو للشر، فإن روح اليونان كما جاء في عبارة هوريسن: "أخذت أسيرا، قاهرها الجافي"[1].

(ب) الدولة الرومانية في القرن الثاني:

١٧– أن خلق إمبراطورية شئ، ولكن حكمها شئ آخر أكثر عسرا، والمشكل الذي واجه روما لم يكن مجرد مشكل إيجاد وسائل جدد لإدارة أقاليمها، ولكن أيضًا إعادة تنظيم حكومة الوطن المركزية. أن المناهج التي كانت تكفي لبلدة إيطالية كان ما لها أن تقيم الدليل على عدم كفايتها لحاضرة عالم البحر المتوسط، وكانت خصيصة الدولة الرومانية في عهد الحروب مع قرطاجنة قد أتى عليها تحول أصلي، ليس بخطة مدبرة ولكن تحت ضغط الوقائع. وقد تركزت السلطة، ليس كما كان يتوقع، طبقًا للقانون الهرتنسى الذي صدر عام ٢٨٧، في أيدي الديمقراطيين الوطنيين ولكن في أيدي عصبة من أسرات الأشراف، قائمة بذاتها وكان لسان حالها[2]. مجلس الشيوخ. ولما كان أعضاء مجلس الشيوخ يعينون من الموظفين السابقين، ويضمون جنودا مجربين ورجال سياسة، في وقت كان فيه القناصل والمواطنون يؤدون الخدمة في الميدان فإن مجلس الشيوخ كان الهيئة الدستورية الوحيدة التي لها الأهلية على إدارة شئون الدولة. وقد ترتب على زيادة عدد الموظفين التنفيذيين لتوسع المسئوليات العامة، حتى لم يكن يوجد أقل من عشرين من الموظفين كل سنة في يدهم السلطة على عقد مجلس الشعب وما وقع من أنه يوجد ثلاثة مجالس شعبية للتصديق على قرارات ملزمة، أن استدعت الحال بصفة ناجزة لرقابة تنظيمية يقوم بها مجلس دائم[3]. وزيادة على هذا ففي الأيام التي كانت فيها الأمة تكافح من أجل حياتها أقام

([1]) هوريس **Epp**: ٢و ١و ١٥٦.

([2]) يصف بلوبيوس الدستور الروماني في هذا العصر، وهو يكتب عنه، (٦، ١٠) بأنه خليط من الملكية (الموظفين ذوى السيادة **imperium**) والأرستقراطية (الأسرات التي تحتكر الوظائف) والديمقراطية (**comitia** أو المجلس الشعبي) راجع كذلك ممسن الكتاب الأول فصل ٢.

([3]) كان الموظفون الذين يملكون السلطة **imperium** في بداية القرن الثاني هم (١) القنصلان، (٢) الستة بريتورويون، منهم اثنان كانا يؤديان خدمة القضاء في روما وأربعة يحكمون الأقاليم، (٣) بروقناصل وبروبريتريون يطرد عددهم في الزيادة، أي قناصل وبريتوريو سابقون مدت سلطتهم لمهام عسكرية بعد انقضاء العام في القيام بوظائفهم. ومن الوجهة النظرية، لم تكن السلطة **imperirn** تعرف حدودا. ولكن عمليًا وضعت فواصل بين السلطة "العظمي"

مجلس الشيوخ الدليل على أنه جدير بحمل السلطة، وكان كما قال مبعوث فورهس لسيده "مجلس ملوك" وعلى هذا حدث أن سلطة **imperium** الموظفين وسيادة الشعب التشريعية انحنتا أمام سلطة مجلس الشيوخ الأدبية. وفي ختام القرن الثالث كان مجلس الشيوخ، بالإضافة إلى سلطته التاريخية في تقديم النصح إلى الموظفين يمتلك زمام رقابة تكاد تكون شاملة، على الشئون الخارجية والتنظيم الإقليمي والمالية والدين وجميع الأمور الحيوية في السياسة العامة، وبعد ذلك بزمن وجيز طالب بحقوق غريبة على التقاليد الدستورية وتنازعها معارضة الشعب، بوقف الموظفين عن القيام بوظائفهم منح القناصل سلطات دكتاتورية افتراضيا، بموجب المرسوم، "بأن الموظفين يجب أن يراعوا أن الدولة لا يقع عليها ضرر"[١]. وفي الواقع نجد في روما موقفًا يماثل ذاك الذي كان سائدًا في انجلترة في القرن الثامن عشر، عندما كانت أشكال الحكومة البرلمانية يدير دفتها، في عهد توسع تجاري وإمبراطوري، لفيف من بيوت حزب الأحرار، العظيمة. وفي روما أيضًا أصبح مجلس الشيوخ والوظائف العليا احتكارا للأسر الشريفة التي تقوم بأعباء الوظائف[٢]، وهذا الاحتكار المتزايد وهو يتألف بانتشار الثراء والرفاهية بين الأرستقراطية الحاكمة كانت نتيجته التي لا معدى عنها تفشى المرض المزمن في دولة– المدينة القدمية وهو التشنيع الحزبي، ومنذ عام ١٣٤ وما بعدها شب الصراع المدني بين مجلس الشيوخ والديمقراطية في عنف لم يعرف حتى ذلك الحين في التاريخ الروماني. وتأزم مماثل كان ينعكس في معاملات الحكومة الرومانية مع شعوب إيطاليا وقد أصبح الخط الفاصل بين المواطنين الرومان والآهلين غير المواطنين أشد تصلبا. لقد أنزلت تلك الجماعات الإيطالية التي كانت قد انضمت إلى هنيبال إلى حالة رق فعلية. وحتى المدن الموالية، أي تلك التي لها حقوق لاتينية وجدت أنها تركت وقد

والسلطة "الصغرى" للقناصل والبريتوريين على الولاء وبين مراسى السلطة في منطقة روما المدنية (**domi**) وفي المنطقة العسكرية (**militia**) وكانت سلطة الموظف السابق تنحصر في المجال الأخير. وباستثناء حالة الدكتاتور، الذي كانت سلطته **Bine fine** (دون حد) فإن السلطة كانت تنحصر في نطاق **provincial** معين (راجع تذكرة ٢ صفحة ٢٥٩) وعلى هذا أصبح للكلب الحارس مقودا.

(١) في القرن الأول قبل الميلاد، بدأت قرارات مجلس الشيوخ (**senates consulta**) تكتسب قوة قانونية عن طريق اغتصاب فرضي للسلطة، غريب على روح الدستور.

(٢) كانت لا توجد علاقة أطلاقًا بين هؤلاء الأشراف الجدد والتمييز القديم بين الخاصة والعامة، الذي لم يعد له مغزى عملي. وأصبحت المرتبة تقاس الآن بعدد الآباء السابقين الذين اضطلعوا بعليا الوظائف وأصبح أمرا عسيرًا، عسرًا يطرد ازديادا، دخول "رجل جديد" دائرة الأسرات الشريفة.

ناءت تحت أثقال بدلا عن امتيازات. وعندما نعتبر أن الإيطاليين كانوا ينتمون بقرابة الأصل للرومان، وأنه في النشاط والخليقة كانوا على الأقل يقفون معهم على قدم المساواة، وأنهم كانوا يجبرون على حمل وطأة الخدمة العسكرية في جهات من الإمبراطورية، نائية، يمكننا أن نقدر النتائج المدمرة التي كان ما لها أن تنجم عن هذه السياسة، قصيرة النظر، المستبدة. وفي الواقع كانت كل الدلائل التي تنبئ بعصر من الانقسام الداخلي موجودة في نطاق واسع في روما وإيطاليا قبل ختام القرن الثاني.

١٨- وطالعت نفس الحقبة قيام روما بوضع أساس مذهبها في الحكومة الإقليمية[١]. وكان تنظيم إقليم جديد يحدده قانون، يستند إلى تقرير من لجنة من مجلس الشيوخ، ينص على مبادئ الإدارة والمالية. وفيما يتعلق بفرض الضرائب فقد جرت العادة على الاحتفاظ –على قدر الإمكان– بالمذهب الموجود سابقًا[٢].

ولقد أدخل قانون روما فيما عدا المدن التي لها امتياز "المتحالفة" و"الحرة" التي كان لها الحق، إذا أرادت، في الاحتفاظ بقانونها الخاص، وكانت معفاة من تدخل الحاكم. وحتى فيما يتجاوز هذه الحدود، كان القانون والعادة المحليات يجدان تسامحًا بعيدًا. ومرة أخرى، كانت المستعمرات الرومانية والبلدان **Municipia** تكون مجتمعات تتمتع بالحكم الذاتي داخل الإقليم. وكانت المدن الهلينية وخاصة في صقليا والشرق تستمتع بقسط عظيم من الحكم الذاتي، وأدرك الرومان بنظرهم الثاقب في تكييف المناهج وفق المطالب المحلية، منذ البداية أن الإغريق المتمدينين كانوا في حاجة إلى معاملة جد مختلفة عن قبائل أفريقيا الهمجية أو اسبانيا، ومع هذا، فحتى في هذه الأقاليم الغربية أنشئت مجتمعات حضرية لها امتيازات كمراكز لنشر الثقافة الرومانية. وفي الأقاليم، كما في إيطاليا، حلت في كل مكان، الاتحادات المحلية القديمة، وفيما يوالى حدود المدن ذات الامتيازات، كانت سلطة الحاكم مطلقة إلا فيما يتصل بنصوص الدستور الأصلي فقط.

---

(١) كان معنى لفظ **provincial** في الأصل، مهمة الموظف الخاصة وعدما استولي عام ٢٤١ على أول أملاك خارج إيطاليا وهي صقلية فإنها وكلت إلى موظف، كنطاقه الخاص. وقد اتبعوا هذا النهج فيما جاء بعد ذلك من توسع إقليمي. وعلى هذا، أصبحت الكلمة تعني منطقة إقليمية تحت حكم موظف ذي سلطة **imperium**

(٢) وعلى هذا، استبقى نظام العشور القديم في صقلية وفي آسيا. ولقد أدى هذا إلى العادة غير الاقتصادية، الظالمة في وكول تحصيل العشور صنفا إلى محصلي ضرائب كانوا يبيعون المحصول ويدفعون مبلغًا ثابتًا للدولة محتفظين بأرباح الصفقات.

وكان كل إقليم يوكل أمره لبريتور praetor، وقد زيد عدد هؤلاء الموظفين إلى ستة بعد الحرب الفونية الثانية أو، بعد ذلك، إلى قنصل سابق أو بريتور سابق، تبقى له السلطة لهذا الغرض خلال سنة ثانية. وكان يعاونه موظف من وزارة المالية «قسطور» Quaestor كاداري مالي وإدارة من الموظفين العسكريين والمدنيين. ولما كان الحاكم يبقى في دست الوظيفة مدة سنة واحدة فقط، وكان يأتي بموظفية معه من روما، فإن صعوبة ضمان الاستمرار في الأقليمية كانت جد عظيمة. وكانت تواجه إلى حد بالدستور الدائم للأقليم، وإلى حد آخر إلى ما كان يقع من أن كل حاكم يؤول إليه الحكم كالبريتوريين في روما أن يذيع مرسوما بمجرد ولايته للوظيفة يشمل في العادة فحوى مراسيم سالفيه. وطالما كان في الوظيفة قاله كان القائد الأوحد للقوات والرئيس الأوحد للسلطة التنفيذية والقاضيي الأعلى. وفي الأقاليم التي فييها لم تكن تدعو إلى عمليات حربية، كانت الدوائر القضائية، أهم واجب لديه ([1]). ولما كان لا يمكن محاسبة أي موظف روماني في يده زمام السلطة، وهو في دست وظيفته بينما كانت التهم التي توجه بعد ذلك تسمع في روما وأمام محكمة متحيزة، فإن غويات الجشع كان لا يكن مقاومتها تقريبا. وفي الأزمنة الأولى كان الحكام يضعون أمانتهم موضع الأفتخار، ولكن كما يلاحظ ممسن Mommsen «لا يمكن من الوجهة العلمية، ولأي مدة من الزمان، أن يكون المرء في آن واحد جمهوريا وملكا»([2]). وقد كان من جراء انتشار الرفاهية بين الاستقراطية الرومانية أن تعاظمت مساويء الحكم المطلق الأقليمي، وحتى حاكم عدل كان يجد صعوبة تطرد ازديادا في التحكم في جيش من جباة ضرائب الزراع والوكلاء الماليين الذين كانت تغمر جموعهم الأقاليم الأكثر ثراء. وبمرور الزمن أصبح الحكام العدول قلة وتباعدت المسافة بيهم، وكان المذهب مقتضيا عليه بأوخم عاقبة، في النهاية، لعدم وجود رقابة فعالة على الحاكم الأقليمي المستبد. وكانت الحكومة المركزية على مسافة قاصية ولم يكن يوجد موظفون إداريون ذوي دربة لضمان رقابة دائمة في مقر أعمالهم. وكانت آيات

([1]) كان الحاكم يباشر القضايا في المعتاد، طبقا للقانون الأهلي الذي عنى الرومان بالتصديق عيله. وفي القضايا الجنائية كان مجلس Consilium من الرومان اختروا من بين سكان الأقليم ومن إدارة موظفي الحاكم، يستدعي للمشاورة. وكان الواجبان اللذان لا يمكن لأي حاكم أن يهملهما، الحرب والدورات القضائية. وفي غيرهما من المسائل، كان يمكن لقائم على الإدارة، متراخ أن يترك إقليما مسالما وشأنه ليحكم نفسه.و كثيرا ما كان هذا يأتي بأوخم العواقب. وعندما كان شيشرون نائب قنصل proconsul في كليكية، استعلم عن مناهج الموظفين المحليين ووجد أنهم كانوا ينهبون الخزيينة المحلية منذ أعوام.

([2]) ممسون، الكتاب الثالث فصل ٢.

الانفصام القادم اليت لاحظناها في روما وإيطاليا ظاهرة أيضاً وفي صورة معظمة في جميع أرجاء الأمبراطورية الأقليمية.

١٩- وقد ترتب على تحول مجتمع زراعي بسيط إلى مركز ثراء يعج بالسكان لتجارى عالمية وحكم عالمي، تغيرات مماثلة في سير القانون ونهجه. وكانت الفترة الواقعة بين وضع تشريع الألواح الأثنى عشر وختام القرن الثاني إنشائية عظيمة في تاريخ القانون، وفيها تحطمت صلابة مدونة القانون الباكرة وابتكرت وسائل جدد، وأوجدت مجموعة منسقة من الشرائع عن طريق التفسير والمراجعة والتوسع. والمصدران المعترف بهما (١) العادات التاريخية التي كانت على الدوام خالقة لقوانين جديدة (٢) القوانين الوضعية الإيجابية التي زخر بها هذا العصر، أضيف إليهما في القرن الرابع (٣) المرسوم البريتوري ([1]).

وكان كبار الموظفين على الدوام يملكون حق إصدار أوامر للجمهور (edicta) شفوية أو كتابية. وعندما نقلت في عام ٣٦٧ وظائف القناصل الفضائية إلى موظف خاص، وهو بريتور المدينة (Praetor Urbanus) فقد أصبح من المعتاد أن يضع في لامحكمة، ليحيط المتقاضين علما، ألواحا تشمل صيغ إجراءاته والقواعد التي يسير وفقها فيما ينتويه في تطبيق القانون. والمرسوم ويطلق عليه المرسوم الدائم (edictum perpetuum) لتمييزه عن الأوامر العرضية التي تتصل بمناسبات خاصة، كان من الوجهة النظرية صالحا فقط، في خلال السنة التي يكون فيها البريتور (Praetor) قائما بمهام الوظيفة ولكن جرت العادة بأن كل (بريتور) تال يدمج في مرسومه المواد الأساسية التي وضعها سلفه ومعها التعديلات والإضافات التي يرى لزومها. وعلى ذلك فإن طائفة من قوانين من صنع القاضي سرعان ما أصبح لها المرتبة الني كانت لقوانين روما الوضعية، وقوانين العادة.

ويلاحظ أن البريتور لم تكن له سلطة التشريع أو الحكم في قضية، وكان في استطاعته فقط

([1]) كان المرسوم البريتوري مصدر القانون الروماني اللاحق، في معظمه. وهو لا يمثل عمل المحامين المعترف بهم ولكن عمل أجيال من إداريين عمليين قاموا بتنسيق القانون المدني وفق مطالب إيطاليا والأقاليم. ويطلق عليه في «مجموعة القوانين المختارة» Diqest «صوت القانون المدني، الحي» وأساس تقدم العدالة البريتورية يرجع إلى ما جرت عليه عادة البيرتوريين في منح «صيغة» (أي مرسوم بتعيين قاض وارشاده عن مرجع القضية القانوني) كلما رأوا أن دعوى، حتى ولو يكن ينطبق عليها القانون المدني الضيق، كانت معقولة وعادلة وكان المرسوم يبين نوع القضايا التي كان البريتور على استعداد لأن يمنح «صيغة» فيها (أي السماح بالدعوى) وطبيعة الارشادات التي يصدرها للقاضي.

أن يمنح أو يرفض دعوى قانونية عن طريق «صيغة» مكتوبة موجهة للقاضي، المواطن العادي الذي عينه ليضع قرارا عن وقائع القضية، ولكن هذه المهمة المحددة اتسع اختصاصها بقانون أيبوتيا **Aebutea** حوالي ١٥٠، الذي خول البريتور عند انفاذ التعليمات إلى القاضي بأن يعدل أو يلغي افتراضا، المواد الحرفية في القانون المدني في ضوء العدالة والعقل([١]). ومثال واحد يوضح طبيعة هذا التطور بموجب نصوص القانون المشددة فإن تعهدا ارتبط به، بالصورة القانونية كان ملزما، حتى ولو أن أحد الطرفين وصل إليه بطريق الغش. والبريتور ولو أنه ملزم بالموافقة على السير في الدعوى، فإنه يعلن أنه في منحها سينهي إلى القاضي بأن يوقع العقاب على المدعي عليه فقط إذا وجد أن المدعي لم يرتكب أي غش. وهذا الإجراء كان يمكن التوسع فيه إلى حد لا نهاية له تقريبا، وكان يهيىء وسيلة فعالة لضمات انتصار روح القانون على حرفيته. وعلاازة على هذا، فإن نفس هذه الفترة طالعت مولد الفضاء العلمي. وحتى نهاية القرن الرابع، ظلت مباديء التفسير القانوني سرا مختوما في أيدي لجنة الكهنة. وفي عام ٣٠٤ نشر رجل أعنفه أبيوس فلوديس **Appius Claudius** الرقيب بعضا من القواعد الحبرية. وبعد نصف قرن استهل أول حبر أعظم **Pontifex maximus** شعبي مراس تقديم النصح القانوني للمواطنين علنا. ومنذ ذلك الحين كانت المعرفة بالقانون مباحة لكل روما.وكنتيجة طبيعية، ظهر إلى حيز الوجود أدب قانوني، وقد تبع الكتب القانونية العملية، شروح ذات منهج لمباديء القانون المدني.وفي القرن الأخير للجمهورية. وضعت الأسس لمذهب العلم القانوني الذي عنى عظام الشارعين في عصر الأمبراطورية الباكرة بصياغته ([٢]).

([١]) كان القانون الأبوطي **Aebutian** يضع «الصيغة» البريتورية في مستوى الدعاوي التي ترفع بمقتضى القانون المدني. ولما كانت الإجراءات بمقتضى «الصيغة» أبسط وأكثر مرونة فإن المناهج القديمة، ولو أنها لم تلغ قط، بطل السير عليها إلى حد كبير. وزيادة على هذا، فإن التعليمات المعينة، عن المواضع القانونية التي كانت تتضكنها الصيغ، جعلت القاضي الذي كانت القضية تعرض عليه أكثر اعتمادا عما جرت عليه الحال في السابق، على القرار البريتوري، ومنذ ذلك الحين تسيطر العدالة البريتورية على تاريخ القانون الروماني.

([٢]) إن الإجابات عن الأسئلة القانونية التي كان يضعها المشاهير من علماء القانون (**The response prudentium**)، كانت ترجع قوتها إلى شهرة الشخص الذي يضعها. ولما كان يعترف بها كشروح للألواح الاثني عشر، فإنها كانت تتضمن في الواقع تعديلات وتوسع وإعادة تكوين وقد أنشئت مباديء لم يكن يحلم بها قط أولئك الذين صاغوا مدونة القانون الباكرة. ويذكر مين **Maine** (القانون القديم فصل ٢) بأن هذا النوع من القانون لم يكن من عمل مجلس قضاة (لأنه لك يكن يوجد في روما شيء يماثل مجلس القضاة في انجلتره الحديثة) ولكن من عمل المحامين ووكلاء الدعاوي ولو لم يكن علماء القانون يترافعون في المحكمة. ولم يكن شيشرون عالم قانون **Prudens**. وعلى ذلك فإن

٢٠- وأعظم تطور قانوني في هذه الحقبة، إلى شأو بعيد، هو وضع قانون الأمم (**Jus gentium**) (١). لقد كان القانون المدني قاصرا على المواطنين الرومان_ أو على أعضاء مجتمع غير روماني، ضمنت لهم صفة قانونية بمعاهد خاصة. وهندما أصبحت روما دولة تجارية عظيمة فقد قامت حاجة واضحة لقانون يكون تطبيقه واجبا على الأجانب في معاملاتهم مع المواطنين، وأيضا في معاملاتهم فيما بينهم. ولقد كان لسد هذه الحاجة، أن عين بريتور ثان عام ٢٤٢ وله مهمة خاصة في ولاية القضاء في الدعاوي التي ينضوى فيها غير المواطنين. ومرسومه السنوي الذي كان يشتمل على التنسيقات اللازمة للقانون المدني ليطبق على الشعوب الأجنبية. كان أساس قانون الأمم (٢). ويمكن وصفه على أنه ذلك الجزء من القانون المدني **jus civile** الذي كان يتوافق مع القانون المحلي لدى الشعوب الأخرى. عدل بحيث يتناسب مع الأحوال المتغيرة ووسع بتمثيل عناصر هلينية وعناصر أجنبية غيرها، ليكون مجموعة من المباديء العادلة التي تصلح للتطبيق في جميع أرجاء العالم الروماني.

ولم يكن هذا خلق مفاجئا. لقد نما في تدرج بطيء على مر القرون وكان يمثل ما تراكم من تجارب تمرست بها سلالة، كان لها قدرة فريدة في نوعها على تكييف الوسائل القانونية لتتوافق مع غايات مجتمع سياسي. وقد كان له دوره رد فعل على القانون المدني_ وخاصة عن طريق قانون العدالة الأدبية (**jus homorarium**) لبريتور المدينة (٣). وفي النهاية، وبفضل ما كان يلازمه من موافقة للنهج العقلي_ فإنه حل محل مواد القانون المدني الضيقة ليكون قانونا للمواطنين الرومان.

الفرصة التي أتيحت بهذا للمحامي، للنظر في القضايا الفرضية وكذلك المسائل الواقعية كان من شأنها أن تسهل التعميم وصوغ المباديء المتسعة. ويجب ألا يغيب عن البال بأن كل روماني تقريباً كان يطمح في وظيفة عامة، في أزمن الجمهورية، كان يتلقن تعليما في القانون. ولقد كانت المهنة الواحدة الخطيرة بخلاف مهنة الجندية وكان معظم الطبقة الحاكمة يتمرسون بكليتها.

(١) عن قانون الأمم **Jus gentium** راجع زليونا في «تراث روما».

(٢) كان يطلق على البريتور الثامي بريتور الأجانب **Praetor peregrinus** لأنه كان يمارس القضاء بين غير المواطنين (**peregrini**). وترجع أصول قانون الأمم **Jus qentium** إلى زمن سابق لإنشاء هذه الوظيفة. ويجب أن يكون مفهوما بأن قانون الأمم لا يعني «القانون الدولي» ولكن القانون الذي يسري على أفراد ينتمون إلى شعوب غير رومانية. وكان في غالبيته يعني بالعقود وكان يقوم على العادات السائدة بين مجتمعات البحر المتوسط راجع مين (القانون القديم فصل٣).

(٣) لقد اتخذ قانون المراسيم البريتورية هذه التسمية لأنه صادر عن سلطة **imoerium** الموظف (**honos**= مهمة الموظف).

وعلى ذلك ما عتم أن اعتبر مدونة القانون العامة، يصلح للبشرية جمعاء ويقوم على إحساس بالعدالة طبعي في الإنسان كإنسان، ومن بلاط بريتور الأجانب **praetor peregrinus** ذاع في الأقاليم حيث أضيف على القانون المحلي السائد، قانون الأمم ومراسيم الحكام. وقد حمل الحكام معهم إلى روما ما خبروه من القانون الأجنبي وساعدوا في أن يقيموا على أسس واسعة بنيان القضاء الروماني. وعلى هذا، عند اكتمال الزمن، فإن القانون المحلي لدولة مدينة إيطالية وحده، وفد نما بإضافات من مصادر أجنبية وحورته عبقرية الشعب الروماني التي لها قدرة على التكليف، صيغ في مذهب قانوني يضم عالم البحر المتوسط بأجمعه ([1]).

٥- الخاتمة

٢١– قبل أن يتمكن العالم من جنى ثمار القضاء الروماني، قدر للجمهورية أن تعاني آلام الثورة وقد حدث في القرن الثاني أن أصبحت روما تقف وجها لوجه أمام المشكل. هل تستطيع دولة– مدينة لها أنظمة جمهورية أن تحكم أمبراطورية؟ هل كان من المحتمل تصديقه... أنه حيث فشلت أثينا في عصر بركليس يقدر لروما النجاح ولم تكن لها إلا تجارب ضئيلة في الحكومة الذاتية.

وعلى الرغم من قدرتها على الفتح والحراسة، فإنها لم تبرهن قط أنها كفء للقيام بمهمة خلق حياة عامة مشعبة الفروع. ولقد ظل تصورها للسلطة حتى النهاية، سطحيا وتأديبيا. لقد كانت دولة روما تقوم على القوة، والسلاح كما هو ديدنه، كان يرتد على من يستخدمه. وسيكون من الواضح أدراك العم الذي تأصل فيه المرض الذي كان يقوض الكيان الاجتماعي إذا استذكرنا العوارض التي لحظناها في الصفحات السابقة. لقد انتزع عصير الحياة من الأستقرار الاقتصادي بسبب الثراء الذي غمر العاصمة من جميع نواحي البحر المتوسط، ولقيام ارستقراطية المال والفقر المدقع في آن واحد، ولانحطاط الزراعة واستبدال زراع الأرض الأحرار بالعمال العبيد. وسياسيا كان من شأن السلطة أن تتركز في أيدي حكومة أقلية قصار النظر، لا تواتيهم سعة

([1]) يمكن دراسة تطور القانون الروماني في الفترة الواقعة بين الألواح الأثنى عشر وسقوط الجمهورية على خير وجه، مرتبطا بتاريخ العقود. راجع مين (القانون القديم فصل ٩). «أن الواجب الإيجابي الذي ينتج عن اعتماد رجل على كلمة رجل آخر، يعد من أبطأ غزوات المدنية التي تسير قدما». في المجتمعات الأولى، حيث لا يخلق الفرد عن طواعية الحقوق والواجبات ولكن تكون أما (أ) ملازمة للمواطن الذي يولد فيه وأما (ب) أوامر صادرة عن رئيس الأسرة أو القبيلة فإنه لا يوجد مجال للعقد. أن العالم المتدين يدين بالعقود والوصايا، كليهما، لعبقرية روما القديمة، القانونية.

خيال، ازدادوا غنى بنهب الأقاليم. كانوا يتاجرون بأعمال أجدادهم الجليلة ولم يكن لهم علم بواجبات عامة إلا ما يكون فيها بقاؤهم في الوظيفة. وكذلك كان يعني بالمصالح الذاتية مركزا المعارضة لمجلس الشيوخ، طبقة الفرسان (equites) التي تشمل ذوي الثراء من أصحاب المصارف والتجار، والخاملون من طبقة العمال في المدينة، الذين كانوا يحتشدون في المجلس ليساوموا في الحصول على تصويت للشعب ذى السيادة لهم مقابل انصبة من الحنطة أو بمبالغ تدفع نقدا.

وكانت الطبقة الوسطى الزراعية التي أنقذت روما من هنيبال أما توارت وأما تعيش على مسافة نائية عن العاصمة، ليكون لها دور فعال في الحياة العامة.

ولقد ازدادت هوة الانفصام بين الروماني والإيطالي اتساعا وأنكرت حرية التصويت. وعوامل «حلفاء» روما الذيين كان يقع عليهم عبء الخدمة العسكرية كمحكومين غرباء. ومن الوجهة الخلقية، أصاب البي المعايير القديمة للورع والفضيلة المدنية. أما الاستقامة وحافز الضمير اللذان كانا في وقت ما، المجد الذي يتميز به الروماني فقد أصبح الروماني صفر اليدين منهما.

كان الروماني قد تعلم كيف يحكم بتعلمه كيف يطيع، والآن، حتى في الكتائب أصبح عصان الجنود المواطنين أمرا يغلب وقوعه. وقد أثرت فيه روح اليونان، فإن عادة التكتل والولاء للجمهورية، غدت تخضع لمطالب المطمح الشخصي.

هل كان من المستطاع أن مجتمعا، يمزقه التشيع الداخلي، والذي كان قد أبعد ذوي قرباه الإيطاليين يظل محتفظا بالسيطرة على أمبراطورية أقليمية فسيحة؟.

لقد نكدست الجيوش على الحجود تحت امرة نواب قناصل وأقسمت الجيوش لهم وليس للجمهور يمين الولاء ([1]). هنا كان موضع الخطر أمام الزمن المقبل. إلى أي مدى كان يمكن لقائد مظفر، له سلطة غير محدودة على جنده وموارد أقليمية أن يقنع باظهار ضبط النفس والولاء

([1]) (ربما) كان **Sacramentum** أو بين الولاء العسكري في الأزمن القديمة، اليمين الذي يقسم به– ويترتب على الحنن فيه عقوبة توقعها الآلهة– طرفان في تعامل خاص وكل منهما يعلن وهو جاد أن توكيده لدعواه كان صادقا، راجع ممسن الكتاب الأول فصل ٢ ودائرة المعارف البريطانية في موضوع «القانون الروماني» (الطبعة الحادية عشرة) مجلد ٢٣ الصفحات ٥٤٨ وما بعدها. واستخدام هذا اللفظ للدلالة على الفرايض المقدسة، المسيحية و«الأسرار» الثرائية والإغريقية يوجد في طار طليان **Teriullian** راجع دائرة معارف هيستنجس في الدين والأخلاق، عن موضوع **sacraments** (المسيحية، الغربية).

المدني، اللذين كانا طبيعة ثانية في الروماني في الأزمن الأولى؟

لقد كان ترابط هذه الأحوال_ عدم قدرة المدينة الملازمة على حكم العالم، والتدهور الخلقي في مجلس الشيوخ والشعب الروماني، وسلطة الحاكم الأقليمي حديثة النشأة_ هو الذي أدى في خلال القرن التالي إلى سقوط الجمهورية وخلق الأمبراطورية الرومانية.

الفصل الثامن

الأمبراطورية الرومانية

١ - أنظمة الأمبراطورية

١ - سقوط الجمهورية

١ – أن لقصة سقوط الجمهورية أهمية خارقة العادة، من حيث الحوادث والأشخاص كليهما ولأن لدينا علمت وافيا بتلك الحقبة. وهي تستهل بتريبونية طبريوس جراكس Tibertius Gracchus عام ١٣٣، وتختتم بقيام أوغسطس عام ١٧ ق.م بتأسيس الأمبراطورية نهائيا.

ولقد رأينا في الفصل الأخير كيف أن بذور الثورة كانت تنبت في الدولة الرومانية منذ اللحظة التي اصبحت فيها سيدة عالم البحر المتوسط. والمشكل الذي كان يواجهها هو ذلك الذي كان يناويء المدنية القديمة خلال تاريخها وهو الجمع بين الحرية المدنية وتوسع الأمبراطورية. وكان يمكن للرومان بقدرتهم على تكييف مبادىء الحكومة طبقا لما يطرأ على المواقف من تغير، الكشف عن حل لو أنهم استطاعوا إدراك معنى الحكومة الذاتية داخل حدود مجتمعهم المدني الخاص. وكان سبب فشلهم يرجع إلى تدهور الحياة العامة. ولقد كانت الجمهورية الرومانية منقسمة على ذاتها وعلى ذلك، لم تستطع الصمود.

ومن بين فروع الدولة الثلاثة، الموظفون ومجلس الشيوخ والمجلس الشعبي، كان الأخيران قد أزهرا دلائل الذبول وظلت سلطة الموظف فقط تحتفظ بقوتها وعندما أزيحت جميع العوائق، وطدت نفسها في صورة جديدة وفي قوة طاغية. ولما رأى المظفرون من القواد أن الدولة أصبحت تحت رحمتهم استولوا على السيادة التي وضعت هكذا في قبضتهم.

وفي زحمة كل التغيرات وتصاريف مصيرها، ظلت الفكرة الأساسية في رابطة المصالح المشتركة الرومانية في استمرار لا ينقطع. وكان نداء روما انياس Aeneas والأمبراطورية التاريخية على السواء «السلاح والرجل».

وكانت السلطة **Imperium**، صخرة الأساس لحكم العالم حكما استبداديا ذلك الحكم الذي قام على انقاض الجمهورية. ولقد برزت عارية دون خجل كالمصدر الأول للسلطان والقانون. وفي ظل العرش، حيث كان يقوم مرة مجلس الشيوخ (السناتو) والمجلس، زهر طيف الجندي والموظف، القاتم المنذر بالشؤم.

٢- وسنأتي بموجز قصير عن مراحل الأزمة، المتعاقبة:

(١) بديء بالهجوم على الارستقراطية الحاكمة عام ١٣٣، عندما وضع طبريوس جراكس كزعيم للمعارضة الديمقراطية قانونا لتخصيص مزارع في إيطاليا لزراع أحرار على حساب الأغنياء من محتلي أراضي الجولة. وما له موضع الاعتبار، هو أنه أثار القوى الكامنة في التريبيونية كسلاح ضد الموظفين ومجلس الشيوخ معا وأنه وجد نفسه مجبرا على استخدام تلك القوى بطريقة غير دستورية.

وعندما حاول أن يحتفظ بالوظيفة عاما ثانيا، قتل في عصيان أوعز به أعداؤه السياسيون. وبعد ذلك بعشر سنوات (١٢٣– ١٢٢) نهض بالأمر أخوه كايوس **Cauis** بصفته موظفا أعلى (تريبون) أيضا، على مجال واسع وبعد أن استحوذ على معاونة طبقة موظفي المالية (**equites**) بمنحهم امتيازات كمحصلي ضرائب من الزراع وكقضاة في المحاكم ومعاونة جمهرة الشعب بانصبة من الحنطة والوعد بمستعمرات عبر البحار، فإنه ناهض رقابة مجلس الشيوخ على الإدارة الأقليمية والمالية. وكان رد مجلس الشيوخ القيام بأعمال عنف علنية وأوشك النزاع الحزبي أن يكون حربا أهلية.

(٢) وإلى الآن كان الصراع محصورا في الميدان السياسي، ولو ان أسلحة غير دستورية استخدمها كلا الطرفين المتنازعين. وقد تجلت التريبيونية فجأة على أعظم قوات الجولة منعة. ولقد نهض مجلس الشيوخ من الصراع ظافرا لكنه كان مزعزعا. ومنذ ذلك الحين كان المصلحون لا يفترون يتطلعون إلى العون العسكري. ولقد واتتهم الفرصة عندما حدث في سني القرن الثاني الختامية أن روما هبت من جراء تهديد من الخارج كان من شأنه أن يجلب التبور على وجودها ذاته. كانت قبائل جرمانية قد غزت الغال وسحقت الجيوش الرومانية في الأقليم الجنوبي واجتاحت أسبانيا وكانت على وشك التوغل في إيطاليا. ولقد نهض جندي قدير، كايرس ماريوس **Caius Marius** — وكان يدعي عاما بعد عام لتولي القنصلية تلبية لنداء الشعب_ بإعادة

تشكيل الجيش، وفي انتصارين فاصلين (١٠٢و ١٠١) أنقذ الدولة. وقد عملت اصلاحاته العسكرية بالغاء فروق الرتب والثراء في الجيش، وإحلال الخدمة الاختيارية محل تجنيد المواطنين بايجاد جيش محترف، على فصم الآصرة التي كانت تربط الجندي بالمجتمع المدني، ومنذ ذلك الحين غدا القائد الناجح، الحكم في السياسة الداخلية. وفي بكور القرن الأول واجهت الحكومة أزمة ثانية كانت أكثر حدة، إذ عندما عرض كايوس جراكس بروح الأب السياسي الصادق، أنصاف مظالم الإيطاليين بمنحهم حرية التصويت، هجرة ديموقراطيو المدينة ([١]). وفي عامي ٩٠ و٨٩ ظفر الإيطاليوم بقوة السلاح بحرية التصويت. وأخذ هذا الصراع سيره، دون توقف إلى حرب أهلية (٨٩ و٨٨) بين قائدين متنافسين هما ماريوس **Marius** نصير الحزب الشعبي، ولوكيس كورنليس سلا **Lucius Cornelius Sulla**، نصير مجلس الشيوخ. أن انتصار سلا جعله صيد الدولة، وكدكتاتور استخدام مضاء السيف لإعادة مجلس الشيوخ إلى سيادة لا يكاد يوجد لها ضابط (٨١). وكانت إعادة سلا في ذاتها، ثورة، في أنها تحققت بالسلاح. وبعد أن أفنى خصومه السياسيين دون رحمة، تولى الحكم كحاكم مطلق التصرف، ولو أنه كان يعمل لصالح النظام القديم وتخلى عن حكمه الاستبدادي عندما أنجز عمله، فقد كان مما لا معدى عنه، أن آخرون يترسمون خطاه حيث أراهم السبيل ويستخدمون القوة العسكرية لغايات قد لا تكون غير ذاتية بأجمعها ([٢]).

(٣) وقد كشفت السنوات العشرون التي جاءت بعد إعادة سلا عن عدم قدرة مجلس الشيوخ على الاحتفاظ بالمكانة التي ظفر بها له. ولقد جلبت الحرب الخارجية وكانت هذه المرة قد شنت في الشرق ضد مثرادطش **Mithradates** ملك بنطس في آسيا الصغرى (٨٨– ٦٤)

([١]) كان الإيطاليون يمثلون أحسن أرومة في الدولة الرومانية، ولما كان عليهم أن يضطلعوا بأثقل الأعباء العسكرية، دون مزايا مقابلة، فإن هذا أعظم الأدلة خطورة على عدم أهلية الحكومة لمعالجة مسائل الدولة. وقد بذلت محاولات عديدة من عام ١٢٥ وما بعده لأنصاف مظالمهم، ولكن جون جدوى.

([٢]) أن المجمل الباهر الذي وضعه ممسن عن عمل سلا وشخصيته (الكتاب ٤ فصل ١٠) يجب قراءته ولكن في حذر شديد. لقد أوتي سلا، دون نزاع، قدرة عظيمة كجندي ودبلوماسي وسياسي. وقد أظهر أيضا ذوقا أدبيا عظيما وقدم أعمال أرستطاليس في روما وكتب مذكراته الخاصة الخ، وكانت له موهبة في المجانة الساخرة. ولما كان ارستقراطيا عريقا، فإن ترفعه جعله لا يعتد بالنفوذ الشخصي. وكان لا يقيم وزنا للأخلاق على الأطلاق، وحقق القليل مما كان انشائيا. وأعظم عمل دائم قام به هو تنظيم القانون الجنائي, وأي شخص يريد أن يقيم الدليل على أن الضرورة السياسية هي مرشد عديم الجدوى، عندما تعزل عن الأغراض المثالية، سيجد في الانهيار السريع لإعادة سلا لمجلس الشيوخ تابيدا لدعواه، يسترعي البال.

إلى الجبهة قائدا جديدا في شخص بومباي pompey (قنايس بومبيس Comaeus Pomoeius) وفي عامي ٦٧ و ٦٦ وكلت إليه سلطات غير عادية، تنبيء مقدما، في وضوح، عن حكم الأباطرة الاستبدادي، الذي فجاء فيما بعد وبمقتضى القوانين الجابينية Gabinian والمنيلية Manilian وأصبحت له السلطة Imperium مع الأسبقية على جميع الحكام الأقليميين في الشرق لمدة ثلاث سنين، وإدارة من المبعوثين Legati يبلغ تعدادهم خمسة وعشرين، وموارد لا حصر لها من الرجال والسفن والنقود. وبعد أن قام بإعادة تنظيم الشرق، عاد إلى الحاضرة في سنة ٦١ وهو الشخصية التي لها الأمر في الدولة الرومانية ([1]).

(٤) ويتركز تاريخ الاثنى عشر عاما التالية (٦١– ٤٨) حول ثلاثة نفر كان من بينهم أثنان يدينان بمركزهما إلى معاونة الكتائب. فمن جهة أنساق بومباي، وكان متعطشا للسلطة ولكن أجبن من أن يقتنص الجائزة التي كانت في متناوله، ليقوم في النهاية بدور حامي الشيوخ والجمهورية. ومن الجهة الأخرى فإن الزعيم الديمقراطي جايوس يوليوس قيصر Caius Julius Caesar_ ابن عم ماريوس_ الذي في صباه نجا من الموت على يدى سلا بشق النفس_ استحوذ بتحالف مؤقف مع مومباي ورجل المال الغني كراسس Crassus على قيادة عسكرية في الغال مماثلة لتلك التي سبق منحها لبومباي في الشرق ([2]) وفي خلال السنوات التسع التي

([1]) كان مترادطس أعظم خصم عنيد، وقد أعقب موته بعد الهزيمة عام ٢٦٣، إعادت تشكيل بومباي لآسيا الغربية، الذي إشير إليه في النص. وقد استغرق هذا الشطر الأعظم من عامين وكان له أهمية دائمة. وأضيف إلى إقليمي آسيا وكليكية القديمين ثلاثة أقاليم جدد، بثونيا وسوريا وكريت. وفي فلسطين، وضع بومباي القيود على سلطة الكاهن الأعظم اليهودي. الزمنية، وأبعد عن اختصاصه القضائي المدن الهلينية التي ازداد عددها في عهد السلوكيين. ولقد أظهر بومباي حكمة عظيمة في الأعتراف بالأمراء المقطعين والمدن الحرة والأقسام القبلية كوسائل للحكومة، تحت سلطة روما. وقد ترك آسيا الغربية في مركز يشبه مركز الهند البريطانية في هذا العصر ولكن كان يقوم على إدارة بعضها إدارة مباشرة، موظفون رومانيون وكان البعض الآخر في صورة حكومات محمية. راجع دكورث Duckworth في «الأعمال» (المقدمة: مجلد ١، الصفحات ١٧٧ وما يليها) لجاكسون وليك، الذي يقابل ملك كبدوكية بنظام حيدر أباد ومملكة أرمينيا خارج النفوذ الروماني بمملكة أفغانستان. وكانت روما معنية أشد العناية بالتسامح في كل مختلف العقائد الدينية والعادات المحلية. وتززول الأمارات المقطعة داخل الأمبراطورية في القرن الأول الميلادي.

([2]) كان قيصر (الذي يرجح أن مولده كان عام ١٠٢) متأخراً في الصعود إلى الرتبة الأمامية في السياسة الرومانية. وإلى أن تولى القنصلية عام ٥٩، لم تكن قدراته معروفة ولو أنه كان قد أظهر استقلالا في معارضة سلا، في شبابه وقدرة ظاهرة كجندي وإداري عندما كان يقوم بوظيفة بريتور في أسبانيا عام ٦١. وعن الغال الرومانية، راجع ما يلي $ ٥١. ومن غير المستطاع الحكم إلى أي مدى، وضع قيصر خطة حكمه الاستبدادي في السنوات السابقة لعام ٤٩.

قام فيها بأعباء القيادة (٥٨– ٤٩) فإنه لم يصنع فقط السلاح الذي أوقع به الضربة القاضية على الجمهورية ولكن بفتحه الغال ومد الحدود الرومانية إلى الراين، صد لمدى قرون قوادم تيار الغزو الهمجي.

وفي هذه الحادثة، وفي حوادث كثيرة في حياته العملية، أظهر قيصر، لدرجة خارقة العادة، القدرة التي يتميز بها كثير من عظماء الناس في التاريخ بمزجه المطمح الشخصي بالمصالح القومية الحيوية. وبين هذين المتنافسين، الذي ينظر الواحد إلى الآخر في ريبة متبادلة، ويسنان سيفيهما للمعركة، كان يقف شخص الخطيب العظيم ماركس تليوص شيشيرون **Marcus Tullius Cicero** وهو محافظ حر مجاهد في شدة لينقذ الدستور الجمهوري من الوقوع فريسة للطغيان العسكري. وعلى غرار دمستينس في أثينا في القرن الرابع، قام بدور آخر نصير لدولة_ مدينة حرة. وكانت سياسته سياسة إصلاح مزدوج: أن يوحد مجلس الشيوخ والمرفق المالي (**equites**) لدعم القانون والنظام، ضد الفوضى، وتوسيع أساس الدولة باشراك الطبقات الوسطى في البلدان الإيطالية، مع حكومة الدولة الرومانية ([1]) ولكن التصلب الضيق في نبلاء مجلس الشيوخ الذين لما كانوا لم يتعلموا شيئاً ولم ينسوا شيئا في أثناء اضطراب دام خمسين عاما ونيف فقد ظلوا متمسكين في استيئاس لآخر بقية من احتكارهم للسلطة وكذلك المطمح الشخصي الذي كان يساور القائدين العسكريين العظيمين، جعلا كل جهود شيشرون ليؤلف بين الشيوخ والمرفق المالي، والرومان والإيطاليين، دفاعا عن مبادىء الدستور التاريخية، تذهب هباء. وحتى هو ولو أنه كان من الأحرار بمولده، فقد أجبر في النهاية على أن ينادي بإقامة «منظم لجمهورية» واحد، يمكنه_ وكان يرجو عبثا_ أن يحكم في تعاون ولاء مجلس الشيوخ بالقانون وليس بالسيغ. ولو كانت الجمهورية جديرة بالانقاذ لقام شيشرون بانقاذها ويصدق كذلك أنه لو أن شيشرون كان قادرا على انقاذها، لكان قد أدرك أن المهمة مستحيلة. وتفضيل شيشرون الموت في النهاية على أن ينكر المثل الأعلى الجمهوري، يفسر إلى حد بعيد ما استحوذ عليه من احتراك الأزمن اللاحقة. وأما ما خلا ذلك، فإن الغرور وعدم الشجاعة أعمياه عن حقائق الموقف الذي جهد

([1]) لخصت هذه السياسة المزدوجة في كلمتي التنبيه **Concordia ordinum** («تناسق المراتب») و **Consensus Italiae** («رأي إيطاليا المجمع»).

في التحكم فيه ([1]).

(٥) وبهذا نجيء إلى الفصل الأخير من الفاجعة، عندما عبر قيصر في ربيع عام ٤٩ على رأس جيشه «الروبيكون» **Rubicon**، الجدول الصغير الذي كان الحد الفاصل بين قيادته العسكرية وإيطاليا. ولقد دهش الجميع. الذين كانوا يتطلعون وفرائضهم ترتعد لما سيقع على يده من اقتصاص لمذبحة سلا للديمقراطيين حين رأوا تقدمه المظفر يتميز بالاعتدال والرحمة اللذين كسب بهما المؤازرة العامة في روما وإيطاليا، وطالعت السنة التالية (٤٨) بومباي وقد سحق في فارساليا **Pharsalia**. لقد كان فوز العبقرية على القدرة. ولقد صمد الجمهوريون في الغرب طوال أعوام ثلاثة ولكن في عام ٤٦، سقط كاتو رجل الحزب المثالي الذي لا يقبل مساومة في صلح، على سيفه أوطيقا في أفريقيا. وفي سنة ٤٥، تركت خاتمة الانتصارات في موندا **Munda** بأسبانيا قيصر سيدا للعالم الروماني دون منازع([2]).

(ب) يوليوس قيصر:

٤- لق عزز قيصر سيادته بمظهر له صفة قانونية وذلك أنه ركز في شخصه طائفة من الوظائف مثل القنصلية والتريبونية. ولقد تقررت نهائيا عام ٤٥ بمنحه الدكتاتورية مدى الحياة. أن أحياء وظيفة بطل العمل بها منذ زمن طويل، فيما عدا حالة سلا، وكذلك اتخاذه لقب أمبراطور **Imperator** بين مرة أخرى كيف كانت السلطة **Imperium** كما في أيام الملكية السالفة، المنبع

([1])خطابات شيشرون (مختارات ترجمها ترجمة رائعة جينس **Jeans**_ قوقام بنشرها ماكميلان) تقدم شرحا ذا قيمة عظيمة عن هذه الفترة. راجع أيضاً المقدمات التاريخية في طبعة تيرل **Tyrrell** لرسائل شيشرون. وعن شيشرون كرجل أدب راجع ما يلي$ ١٩.

([2]) كان كاتو محافظا صارما، صاغ سياسته وفقا لسياسة سالفة رقيب بواكير القرن الثاني. وقامت دعوته التي لا تقبل تصالحا، لتضييق سياسة مجلس الشيوخ تظاهرها أمانته الشخصية عقبة خطيرة أمام سياسة شيشرون المتحررة. وطبع كاتو الخلقي السامق، ومثاليته الجمهورية، كل ذلك وقع من أزهاق روحه بنفسه عندما تحقق أنه لا أمل في مزيد من الكفاح، في عهد الأمبراطورية الباكرة هذا البيت ذائع الصيت.

"Victrix Causa diis placuit, sed victa Catoni" (i, 185)

(أن الدعوة الظافرة كسبت رضى الآلهة

ولكن المهزومة كسبت رضى اتو)

واختيار دانتي كاتو، كأنموذج لفضيلة الوثنية العتيقة، ليكون حارس الشاطيء الذي يقع أسفل جبل المطهر **purg, canto i** كان مرجعه صورة فرجيل لكاتو وهو يقضي بالعدل للصالحين من الموتى.

(Aen., VIII, 670, "his dantem jura Catonem)

الأوحد للسلطان في الدولة. وكما أن الملكية تحولت إلى جمهورية بالتحديد الثنائي للأشتراك في الحكم (شريكان قنصليان بدلا من ملك واحد) وبتحديد الزمن (الانتخاب لمدة سنة) فقد نجم الآن عن الغاء هذه القيود التحول من جمهورية إلى ملكية، لقد تحققت ثورة، على الطراز الروماني الحق، دون إلغاء الأوضاع الدستورية الغاء تاما، وبفضل هذه السلطات وغيرها، عين قيصر موظفين وحكاما أقليميين ووضع عدد الوظائف التنفيذية وسيطر في تحكم شامل على مسائل الحرب والسلم والشئون الخارجية وإدارة الأمبراطورية حتى أصبح الانتخاب الشعبي مجرد صورة للتصديق على من يعينهم الدكتاتور. وقد زيد عدد أعضاء مجلس الشيوخ إلى ٩٠٠ وكان كثير منهم من الأقاليم لأن قيصر أشأ السياسة الأمبراطورية لرفع مستوى سكان الأقاليم ليكونوا متساويين مع الرومان. ولقد فتح مجال الوظائف العالمية في مجتمعات ما وراء البحار للمعتقين. وفي الواقع، أصبح مجلس الشيوخ أداة لتسجيل مراسيمه. وفي التشريع، وضع مجموعة هائلة من الخطط وكان لكثير منها مجال واسع المدى وتشمل اصطلاحات اقتصادية وزراعية وتنظيم دساتير البلدان تنظيما منسجما وتوسيع حق الانتخاب. وعلى سبيل المثال، كانت قادس في أسبانيا أول المدن الأقليمية التي نالت هذا الامتياز، وإعادة تنظيم النظام المالي ([١]).

ولقد وضعت خطط القيام بالأعمال العامة العظيمة ونفذت في إيطاليا والأقاليم وأسست المستعمرات عبر البحار مثل كورنت وموقع قرطاجنة، ولا يزال التقويم الذي أصلحه قيصر مقبولا، مع اليسير من التعديلات، لدى العالم المتمدين. وكانت السرعة والنشاط اللذان وضع فيهما تصميم إعادة بناء تاريخي، وتنفيذه يدعوان إلى الدهشة كما كانت تدعو إليه حركاته في الميدان. وقد كشف هجل **Hegel** بحق في قيصر «المثال لتكييف الوسائط بالغابات عند الرومان

([١]) لا يزال باقيا قسم عظيم من قانون يوليوس للبلدان **Lex Julia municipalis** الذي يتعلق بالبلدان الإيطالية وأجزاء من قانون ربريوس **Lex Rubria** الذي يتعلق بالتنظيم الحضري في الغال على الجانب الروماني من الألب **Cisalpine Gaul** وهذه القوانين تفرق بين ولاية قضاء البريتور الروماني وقضاء الموظفين المحليين وتنظم شكل حكومة البلدان، الذي يقوم به الموظفون ومجلس الشيوخ والمجالس، والذي نما في الأزمن السابقة. وقد منح قيصر الحقوق المدنية الكاملة للغال على الجانب الروماني من الألب وأدمجها في إيطاليا، أوغسطس (عندما كان اكتاويا) عام ٤٢ وقد ألغى قيصر نظام ضرائب العشور الرديء، في صقلية وآسيا وعالج بقدرة عظيمة الموقف الاقتصادي الذي نجم عن الحروب الأهلية. وفي روما وضع قيودا على أنصبة الحنطة والغى المنتديات الشعبية الفاسدة. وقد كان يعتزم وضع مدونة للقانون ولكن لم يواته التنفيذ.

([1]). وفي الأعوام الخمسة الأخيرة من حياته، لم ينفق لا ثمانية عشر شهرا في روما وتمثل جلائل أعماله مجلاد المراحل الأساسية، في مشروع شامل لحكومة أمبراطورية».

ومع هذا، فقد حددت الخطوط التي سارت عليها حكم العالم الروماني مدى قرون– الحكم الشخصي لملك، عن طريق أدارة من الموظفين المعينين شخصيا والسيطرة الفعالة على الكتائب والأدارة الأقليمية وتوسيع حقوق المواطن في أرجاء الأمبراطورية، والمحافظة على السلام الداخلي وتعادل القانون، وتحديد التخوم والدفاع عنها ضد المغيرين غير المتمدينين. وفي جميع هذه الوجوه، كان أوغسطس خليفته يقيم البناء على الأسس التي وضعها يوليوس قيصر في مثل تلك السرعة ولكن في بصيرة صادقة.

(٥) وآخر مسألة جاء ذكرها، مسألة حماية الحدود كانت قد أهملت اضطرارا في خلال حقبة الثورة الأهلية. ولقد تحدثنا عن الخطر الذي كان يهدد إيطاليا في خاتمة القرن الثاني عن طريق تحرك العصابات الهجمية صوب الغرب من مواطنهم في الشمال والشرق عبر الراين والدانوب وفي ذلك الحين أنفذ ماريوس روما بجيشه الذي أدخل عليه الأصلاح. وبعد ذلك بنصف قرن أمن فتح قيصر للغال تخمها الشمالي بصفة دائمة ([2]).

وفي أفريقيا أضيفت قورينا (٧٤) ونومديا (٤٦) إلى قائمة الأقاليم. ولقد أتى الخطر الداهم المباشر من الشرق. وكان بومباي (٦٧– ٦٢) قد أعاد وضع نظام آسيا الغربية السياسي عند ختام الحرب المترادطية ([3]). ولقد دانت الأسرة السلوكية وآلت ممتلكاتها الغربية إلى روما بينما سار اقليم سوريا الجديد مع الأمبراطورية البرنية في وادي الفرات. وفي عام ٥٤. شتت البرثيون شمل جيش روماني في «قرها» **Carrhae** ودعت دواعي الشرف والأمان على السواء، للقيام

([1]) فلسفة التاريخ الجزء الثالث، القسم الثاني.

([2]) كان قيصر فقط في الوقت المناسب. وفي أول حملة له في الغال (٥٨)، كان عليه أن يواجه غزوتين، غزوة هالوطي **Helvetii** بمحاذاة الرون، وغزوة الألمان بقيادة أريوسطس **Ariovistus** عبر خانق بورغاندي بين الفوج والجورا. وكان أريوسطس على وشك أقامة دولة تيتونية قوية في الغال. ولو أن النصر لم يحالف قيصر، لاجتاحت القبائل التيتونية الأمبراطورية ومعها بناء المدنية الإغريقية الرومانية بأجمعه، ولقد أرجأ فتح قيصر، الكارثة إلى أن تأصلت جذور المدنية ومعها العقيدة المسيحية بين الشعوب المغيرة. وقد الحقت المنطقة الجديدة أولا بأقليم الغال النربوني القديم وقد انشأ أوغسطس ثلاثة أقاليم غالية جددا.

([3]) راجع عالية $ ٣، علاوة على الأقاليم التي ذكرت، الحق أوغسطس كريت بأقليم أفريقيا، أما قبرص (وقد أدمجت عام ٥٨) فقد الحقت بكليكية ولكن أوغسطس جعلها اقليما منفصلا.

بالعمل العسكري الذي كان قد أخر أمدا استطال أكثر مما يجب. وهنا كما في الغال، كانت المسألة حقيقية وتتطلب السرعة. أن قيصر يصطنع الحروب، للحروب في ذاتها، ففي الشرق، كما في الغرب، كان وجود الدولة الرومانية محفوفا بالخطر. ولم يضع قيصر وقتا في مجابهة الأمر. وفي ربيع عام ٤٤ كانت القوات العسكرية الشرقية تنتظر قائدها، ولكن في ١٥ مارث (Ides مارث)، عشية رحيله من روما هاجمه متآمرون في مقر مجلس الشيوخ وهلك عند أسفل تمثال بومباي.

٦– لقد وصف مفتل قيصر بحق على أنه أعظم علطة في التاريخ لأنه لم يأت بشيء سوى ازاحة أعظم روماني عن المسرح، وبعد ثلاثة عشر عاما من الحرب الأهلية– حشرجة موت الجمهورية– أعاد وريثه الذي تبناه تكوين الأمبراطورية. ولم تكن ظروف المسألة تسمح بإجراء مغاير. وفي نظر العصور اللاحقة التي تغذت على تقاليد الأمبرطورية الرومانية والتي كانت تعتبر تلك الأمبراطورية مقدسة– ليس نقط كمنبع القانون والمدنية_ ولكن كأداة دبرتها العناية الإلهية لنشر العقيدة المسيحية، كان يظهر قتل قيصر كأخلك جريمة. وفي أعمق قرار في جحيم دانتي، وضع أكبر مذنبي التاريخ الثلاثة، يهوذا الأسخريوطي الخائن لمؤسس الكنيسة العامة وبروطوس وكاسيوس، خائنا الأمبراطورية العامة. ولم يكن جريمة ولكن كان خطأ شنيعا، لأنه– كمقاومة دمسثينس العنيفة لفيليب المقدوني– كان نتاج مثالية فطنة. ولقد لاحظنا مرارا وتكرارا في هذه الصفحات كم كان بعيد الغور نفع دولة– المدينة للمدنية الإغريقية والرومانية بما كان يسودها من جو المناقشة الحرة والعدالة المدنية. وليس من العجب أن كان خلف الرجال لبذين صاغوا، تحت حمى دولة– المدينة، الأمبراطورية الرومانية ببناها الرائع من القانون والحكومة، يغارون على الأنظمة التي بعثت العظمة في روما والرومان.

أن روابط العرفان بالجميل الشخصي أو ما عجم من ترفق قيصر أو إعجاب بعبقريته، ما كان ذلك كله بقادر على حطم ذلك الاخلاص الشديد للجمهورية التي أوقع عليها الضربة القاضية ([1]). ولا يمكننا أن نتوقع أن آخرجمهوريين في روما قد أدركوا ما عجز شيشرون عن

([1])لقد كان تسامح قيصر نحو مواطنيه مشهورا. لقد امتنع عن ممارسة عقوبة النبذ من المجتمع والمصادرة وفي توزيع أراض على قدامى جنوده، احترام في عناية، حقوق المالكين الموجودين. أن اجابته على ما أفصح به شيشرون من عرفان بالجميل لتسامحه نحو خصومه السياسيين الذين وقعوا تحت رحمته عند استسلام قرفنيم **Corfininium** أثرت في ماكولي تأثيرا عميقا حتى نعتها بأنها «ألطف جملة كتبت على الأطلاق» وهي كما يأتي «أحس بالظفر والبهجة بأن ما قمت به

أدراكه بأن مصير دولة– المدينة أصبح قضاء مقضيا. ولقد انتقموا من الضربة بوسائل كانت مدونة القانون الخلقي عند اليونان وروما، على السواء، تبررها على أنها شريفة عندما تستخدم ضد طاغية وذبحوا قيصر ليس لدوافع انتقام شخصي أو مطمح ولكن من أجل الحرية المدنية وباسم روما.

جـ- أوغسطس

٧– في عام ٣١، أصبح الساب أوكتاويان **Octavian** حفيد أخت قيصر ووريثه بالتبني، بانتصاره في أقطيوم على أنطوني، «سيد العالم الأوحد»[١] كما جاء في عبارة شكسبير. لقد كان أوكتايان الذي يعرفه التاريخ جيدا بلقب أوغسطس هو الذي وصل بالنظام الأمبرطوري بتفصيلاته، إلى درجة الكمال، ذلك النظام الذي حكم بموجبه العالم قرابة ثلاثمائة عام. والمرسوم الذي أعلن دافع وخصيصة هذا العمل الجليل، لا يزال موجودا وهو منفوش على حجر[٢] وهو يستهل بجملة تقع في آذاننا وقعا غريبا عندما نمعن التفكير في طبيعة عمله الحقيقية: «لقد نقلت الجمهورية من سلطتي الشخصية إلى رقابة مجلسي الشيوخ والشعب الروماني».

ماذا كان مرمى هذه الكلمات؟ كان معناها إذا كان معنها إذا كنا لنقتبس من كاتب محدث أن أوغسطس قد تعلم درسه عند قاعدة تمثال بومباي. وما كانت روح يوليوس المتعالية– ويمكننا أن نستذكر الصورة التي وضعها دانتي له بين عظماء العصور القديمة «قيصر بعيني نسر»– ليراودها التفكير في التصالح مع النزعة الجمهورية باتخاذ مظهر المساواة بين المواطنين. وأوغسطس وهو أستاذ صنعة السياسة الذي لا سبيل للعاطفة اليه، حجب حكما استبداديا مطلقا بقناع من

نال استحسانكم وأني لا أنزعج عندما يطرق سمعي القول أن أولئك الذين صرفتهم أحياء وأحرارا سيعودون إلى حمل السلاح ضدي، لأنه لا يوجد شيء أصبو إليه أكثر من أكون لنفسي وهم كأنفسهم» (راجع ترفليان «حياة وخطابات مأكولي» فصل ١٦) ولكن قيصر لم يكن شخصية محبوبة، وعلى ما وصل إليه علمنا، لم يكن له أصدقاء حقيقيون. ويشهد شيشرون الذي كان يكرهه ولا يثق به على قوة شخصيته. وفي هاتين الناحيتين يرد إلى ذاكرتنا مارلبوره ونابليون لا الاسكندر.

(١) «أنطوني وكليوباترة» فصل ٥ منظر ٢ كان أبو أكتاويان، جايوس أكتاريان أيطاليا من الطبقة الوسطى وأصبح حاكم مقدونيا وتزوج من ابنه أخت قيصر. وولد ابنه عام ٦٣ وهو العام الذي تولى فيه شيشرون القنصلية فكان عمره تسعة عشر عاما في الوقت الذي قتل فيه قيصر وواحدا وثلاثين عاما عندما انتصر في موقعة أكتيوم.

(٢) أثر أنقرة التذكاري من أنقرة في آسيا الصغرى. وقد أقيمت نسخ منه في مراكز مختلفة في العالم الروماني. ولقد حدد أوغسطس مكانته كرئيس للدولة عام ٢٧ ومرة أخرى عام ٢٣. وقد عولج في هذا القسم مجموعتا الخطط معا.

المنهج الدستوري. ولما كان وليد روما القويم في احترامه للصور السطحية والسوابق المقررة، فقد عقد النية على الاحتفاظ بوجود أنظمة الماضي العزيزة عليهم. ولقد لقب يوليوس بدكتاتور وهو تعبير كان يسيء إلى الشعور الجمهوري لتداعي معناه بمعنى القيادة العسكرية وبأمبراطور وهو اللقب الذي كان يحيى به الجنود قائدهم المظفر، ويرضي أوغسطس بأن يكون مجرد زعيم princeps أي الرجل الأول بين زملائه الشيوخ ([1]). وفي مسلكه نحو أشراف الرومان أسياد العالم الذين لا يملكون من الأمر شيئا، كان قيامه بوره رائعا. لقد كانت حياته بسيطة وصارمة، مجردة من أي أثر لآداب السلوك ورسميات البلاط. وقد راعى أن سلطاته تمنح على الطريقة الجمهورية القديمة بتصويت مجلس الشيوخ (السناتو) أو المجلس الشعبي. وقد كان مرجع حكمه الاستبدادي إلى أنه جمع في شخصيه الوظيفتين الجمهوريتين: التريبيونية وهي أعلاهما رتبة وكانت أساس سلطانه في روما. والسلطة Imperium القنصلية مع تقدمه على جميع حامليها وهو ما ضمن له السيطرة على الجيش والاقاليم. وكانت هاتان السلطتان، على التحقيق، هما اللتان جلب التوسع فيهما انحلال الجمهورية في العصر السابق. ومنذ ذلك الحين كان الجيش يقسم يمين الولاء للزعيم Princeps وحده وكحبر أعظم، كان سيدة أداة دين الدولة الذي كان لا يزال عاملا هاما في القانون والسياسة. وكانت هذه الروح المحافظة عينها، تلك التي كان يظهرها أوغسطس لتحديد مركزه الشخصي، حلبة للعيان في إعادته أوضاع نظام الحكومة. وكانت طبقة عمال المدينة، في الواقع، قد جردت عن سلطاتها التشريعية وتدهورت مجالس الشعب سراعا إلى مهزلة ([2]). ومن الجهة الأخرى، كان يعامل مجلس الشيوخ بمراعاة مدروسة. وقد كان المجلس يمنح السلطة Imperium الحاكم الذي يكون قد ظفر بالتصويت من بين قائمة أسماء المرشحين للوظيفى ويوافق على المراسيم التي كانت لها قوة القانون. وكان للزعماء princeps ومجلس الشيوخ مرتبة متعادلة كتريبيونيين أعليين. وكان كل منهما يشرف على خزينة منفصلة. وكانت حكومة الأمبراطورية مجزأة بين السلطتين. ولكن مما كان له مغزى أن الأقاليم وكلت إلى مجلس الشيوخ، كانت الأقسام المسالمة التي تقع في الداخل. أما تلك التي تقع على الحدود حيث كانت تتركز الكتائب. فكان الأمبراطور يحتفظ بها بين يديه. وكانت مصر، على الأخص، بالنسبة إلى أهميتها من حيث الخطط العسكرية وكونها مخزن الغلال الرئيسي لروما، يتولى إدارتها عن طريق

([1]) حتى زمن ديوقلطيان يكون لقب زعيم Princeps خاصا بالأمبراطور والزعامة Principate بالأمبراطورية.

([2]) يوجد مثالان مدونان، فقفط، للتشريع الشعبي بعد طبريوس.

عن طريق رئيس **Perfect** له رتبة الفرسان **equeatrian** وأقل مركزا من حكام أقاليم الأمبراطورية العادية. وكان يطلق على هؤلاء لقب **Legates** أو معاونين عسكريين، بينما احتفظ حكام مجلس الشيوخ باللقب الجمهوري بروقنصل (نائب قنصل) **proconuls**([1]).

ومن الواضح أن هذا الظل من الرقابة المزدوجة. كان تجربة مصطنعة دبر أمرها لأرضاء الأرستقراطية الرومانية القديمة. وبصفة موقوتة، أدت الغرض منها، ولكن في عهد خليفة أوغسطس أظهر خنوع مجلس الشيوخ أنه على الرغم من الشكول السطحية، كانت السلطة الحقيقية تنحصر في الأمبراطور، وتنحصر فيه وحده([2]).

٨–كان هذا مبدئيا، العهد الذي وطد عائمه أوغسطس في روما. وإذا أفسحنا مجال النظر نجد ثلاثة مظاهر للعمل الذي اضطلع به في خلال حكمه الطويل (٣١ ق.م– ١٤ ب.م)، جديرة بملاحظة خاصة. أولا فيما يختص بادارة إيطاليا والأقاليم، جهد أوغسطس في حماسة لتحقيق الأمل الذي كان يصبو إليه شيشرون، على غير طائل، لأدماج الإيطاليين ليكونوا جميعا على قدم المساواة في تكوين الدولة الرومانية. ولقد شجعوا على أن يعتبروا ماضي روما العظيم ماضيهم وأن ينضووا في كبرياء من حب الوطن. في مهمة إعادة بناء الأمبراطورية. ومن بين أهل الحضر وأهل ريف إيطاليا، لم يجد أوغسطس فقط الدم الجديد الذي يجب أن يعيد نشاط الخدمة العامة، ولكن وجد رجالا أوتوا عبقرية أدبية أمثال فرجل وهوريس ولوي وأوفيد، الذين أمكنهم أن يشيدوا بمجد روما وقيصر في آثار تذكارية خالدة، شعرا ونثرا. وقد نمى أوغسطس تقدم البلدان والزراعة والأعمال العامة في أرجاء شبه الجزيرة. واتخذت الخطوات الأولى في عملية حطم الحواجز التي كانت تفصل روما عن أيطاليا وإيطاليا عن الأقاليم. وقد وضع أحصاء شامل أمبراطوري «احصاء الأراضي وقيمتها وأصحابها **Domesday Inquest** عن كل الجمهورية،

([1]) كان المعاونون العسكريون يتولون الوظيفة مدة ثلاثة أعوام وغالبا ما تكون أطول من ذلك. أما نواب القناصل الذين ام تكن اهم قيلادة عسكرية، فلسنة واحدة. وعلازة على هذا، كان الأمبراطور يؤثر تعيين نواب القناصل عن طريق رقابته على الانتخابات القنصلية ودخول مجلس الشيوخ.

([2]) لقد رأى أوغسطس هذا في جلاء كما يتضح من آخر أقواله المدونة:«ماذا تظنون في المسلاة يا أصدقائي؟ هل أديت دوري فيها خير تأدية؟». وفي خلال حكم دام أربعين عاما ونيف، لم ينفذ صبره الذي لا نهاية له وتحفظه العميق وبصره النافذ بالرجال والأمور. وكانت كل أفعاله نتاج تفكير سابق، واع. وتتداول القصة بأنه لم يتناقش قط في شئون الدولة، حتى مع الأمبراطور لويا **Livia**، دون أن يضع تذكرات، مقدما، حقا قد يكون أوغسطس أعظم سياسي في التاريخ.

وكانت تعتمد السجلات التي اختزنت في محفوظات البلدة كأساس نظام عادل للضرائب». «وفي تلك الأيام صدر أمر من أوغسطس قيصر بأن يكتتب كل المسكونة»([1]). وكانت الأقاليم، لأول مرة، تدار شئونها كمصالح في دولة واحدة. وقد وضعت الرقابة على سلطة الحكام ووضع حد لظلم أهل الأقاليم بسحب الأمتياز الخطير في طلب امدادات كلما شاءت الإرادة وبتعيين إداري مالي مستقل مسئول شخصيا أمام الزعيم **Princeps** وبايجاد أداة فعالة لتقديم الالتماس والاستئناف لروما. ولو أن عبء الضريبة كان قد خفف فإن الدخل ازداد. وقد ألغيت قيود التجارة داخل الأمبراطورية في كل مكان ووسعت الحكومة المحلية وأعيد تنظيمها على أساس منتظم وأنشئت المجالس الأقليمية وخولت سلطات واسعة. وعندما قام شعب أفسوس بهياج بمناسبة زيارة القديس بولس، أمرهم كاتم سر المدينة بأن يتذكروا أنه كان يوجد «حكام لآسيا» **Asiarches**. أي مستشارون أقليميون لآسيا يمكنهم أن يتقدموا إليهم بشكاياتهم ([2]). وإذا كان أوغسطوس أقل سماحا من يوليوس في منح صفة المواطن، فقد كانت الرغبة في بعث حب الوطن المدني في روما وإيطاليا هي التي جعلته ضنينا بتوسيع حرية التصويت لتشمل سكان الأقاليم ([3]). وزيادة على هذا فقد وضع أسس الخدمة المدنية الأمبراطورية الدائمة فكان الموظفون يعينون في مبدأ الأمر من طبقة الفرسان (**equites**)، ومن الإيطاليين، وبعد ذلك في درجة تضطرد ازديادا من صفوف الرجال المحررين (العبيد المعتقين). وقد تحولت إدارة الأمبراطورية على التدرج من أيدي الأرستقراطية الرومانية، لا إلى أيدي الإيطاليين وحسب، ولكن إلى سكان الأقاليم من ذوي الذكاء والمعرفة وخاصة الرجال الذين يرجعون إلى أصل إغريقي أو أغريقي شرقي. وعلى هذا كان المجال مفتوحا لحياة عملية مزدهرة بالآمال، أمام الجميع وضمن خلق بيروقراطية ماهرة الاستمرار لحكومة أقليمية. ثانيا، جهد أوغسطس بالقدرة الشخصية والتشريع العام في أن يضع حدا لفيض الانحلال في الجين والأخلاق عند الرومان. ولقد شجع الشعراء على مناصرة القيم القديمة، في

([1]) لوقا ٢، ١ (النسخة المعدلة) كان يوليوس قد وضع الخطوط للتعداد والأحصاء الأقليمي. واستغرق انجاز المهمة كلها خمسين عاما ولخصت نتائجها في «احصائية الأمبراطورية» وهي سجل يبين موارد الدولة وميزانيتها وورثة أوغسطس لطبريوس (راجع طاقيطس **An., I, II**) ولئد واصل أباطرة القرن الثاني وديوقلطيان العمل تباعا ليطابق آخر تاريخ.

([2]) الأعمال ١٩: ١٨.

([3]) في عام ٧٠ ق.م كان عدد المواطنين الرومان ٤٥٠.٠٠٠ وفي عام ٢٨ ق.م (أول تعداد لأوغسطس) بلغ ٤.٠٠٠.٠٠٠ وفي عام ١٣م. (التعداد الثاني) وصل إلى ٥.٠٠٠.٠٠٠.

البساطة الصارمة وعلى الإشادة بأولئك الكرام الذين كان ورعهم وفضيلتهم المدنية، مجد الجمهورية الباكرة. ولقد أقيمت المعابد وأعيدت الفرائض التاريخية. وكانت توقع العقوبات الشديدة عند الذنوب الخلقية ووضعت القوانين التي تقاوم العزوبة. وذهبت جهود الأمبراطور عبثا لأن الأخلاق لا يمكن إصلاحها بقانون وأبعد تدهور الطبقات الأكثر ثراء وذيوع الهلينية، العودة إلى القيم البسيطة التي سادت في عصر ولي ([1]). والاستثناء الوحيد في موجة الفشل الذي منيت به هذه السياسة، كان عبادة الأمبراطور نفسه. ولم تساور أوغسطس أية خدعة في هذه المسألة. بينما كان يصرح بتأدية أنواع التكريم الألهي ليوليوس، فقد منع عبادته الخاصة، في إيطاليا ولكنها ذاعت كأنها النيران الجامحة، في الأقاليم وتطورت قبل مضي زمن طويل حتى غدت الدين الرسمي للدولة العالمية. ولم يكن يوجد شيء في مراسه ينجم عنه انتهاك للشعور الروماني لأن الجين في روما كان على الدوام في معظمه، سياسيا وكان يمكن أن يوضع رجل السياسة في قائمة القديسين دون إخلال عنيف بالاحترام الذاتي. أما فيما يتعلق بامبراطور على قيد الحياة، فإن العبادة كانت توجه إلى الهه الحارس، **Genius**. والقيام بالعبادة بعد الموت، لم يكن غير التعبير الطبيعي عن عرفان بالجميل، ورع. وكانت المجالس الأقليمية التي أشير إليها آنفا ترتبط ارتباطا وثيقا بهذه الخدمة الدينية «للألة الحارس لروما وأوغسطيس»، وهي التي أصبحت في خلال القرن الأول الميلادي، الرمز الخارجي لوحدة الأمبراطورية السياسية ([2]). وأخيرا أتم أوغسطس العمل الذي استهله يوليوس بتحديد تخوم الأمبراطورية. ولقد كانت الطبيعة هي التي أقامتها ففي الشرق، الفرات وفي الغرب، الأطلنطي وفي الجنوب، صحارى أفريقيا وبلاد العرب وفي السشمال، الراين والدانوب من القناة إلى البحر الأسود. ولقد تألفت الحرب بالسياسة للمحافظة على سوريا من الفارثيين وعادت البنود التي فقدت في قرها **Carrhae** إلى روما ظافرة. وكان أعظم تهديد يرابط على الحدود الشمالية، وهنا كانت القبائل التيوتينية تترامى أفواجها دون انقطاع على المواقع المحصنة حديثا على الدانوب والراين. وفي حملة بعد حمله جهد

([1]) عن تشريع أوغسطس الاجتماعي والديني راجع بلهم **Pelham** «مقالات في التاريخ الروماني **Essays in Roman History**_ سياسة أوغسطس الداخلية».

([2]) لم يكن يترتب على عبادة الأمبراطور أية عقيدة لاهوتية. ولقد تقبل فرجل وهوريس **Horace** في يسر تأليه يوليوس. ولم يخامر الأباطرة أنفسهم تصورات كاذبة. وعندما كان واسفاسيان **Vespasian** ينازع الموت سأله أصدقاؤه عن حاله فأجاب «أخشى أن أتحول إلى اله»

(Vae, puto deus fio)

قواد أوغسطس في كبح الألمان الذين كانوا يسكنون بين الراين والألب. ولقد جعلت هزيمة وارس Varus– في سنة ٩ م. الأمبراطور يعقد النية بصفة نهائية على الأقلاع عن سياسة التقدم، وتكدست على محاذاة الحدود الطبيعية اللكتائب، ثمانية على الراين وثمانية على الدانوب وثمانية في سوريا، بينما كان يقوم الأسطول الروماني بالحراسة على مياة البحر المتوسط ([1]) وبهذا حفظ السلام الروماني Pax Roman ولقد ظل مقيما طوال أربعة قرون يقطعه فقط، بين حين وآخر، ما كان يحدث عند موت أمبراطور، من سير قواد جيوش الحدود صوب روما وتقاتلهم من أجل العرش الأمبراطوري.

٢- الأمبراطورية في القرون الثلاثة الأوائل([2])

كان العالم الروماني يحكم طبقا لمباديء أوغسطس إلى أن اعتلى العرش ديوقلطيان عام ٢٨٤ ولأول مرة وللمرة الفريدة في التاريخ، اندمج النوع الأنسناني المتمدين في دولة واحدة وكانت دولة استبدادية عسكرية.

وليس من شأننا أن نتقصى أثر تواري الأقنعة على التدرج، تلك الأقنعة التي كان مؤسسها يخفي بها حقيقة حكمه الاستبدادي الثابتة وكيف أن المجلس الشعبي ثم الموظفين المدنيين وأخيرا مجلس الشيوخ بطل عملهم أو حيث قدر لهم بقاء، احتفظوا بقيمة محلية شرفية وحسب ([3]). فعلى سبيل المثال، كانت الدولة لا تزال تعرف رسميا «بالجمهورية» حتى خاتمة القرن الثالث. ولقد سبق أن تحدثنا عن أساس سلطة الأمبراطور وكان أهم عامل مزعج في النظام، مسألة ولاية العرش. وما كان يجري عليه الأمراء فعلا، هو أن الأمير الذي يتولة الحكم، كان في الكثير الغالب يعين ابنا أو قريبا من الذكور خلفا له بأن يعمل على منحه السلطة Imperium وولاية «التربيونية» والعرف الروماني في التبني كان يعمل به في كثير من الأحيان وخاصة في القرن الثاني، ولم تكن هذه الاحتياطات مجدية في منع ما كان يحدث بين حين وآخر، من مشاحنات كما وقع عند موت نيرون عام ٦٦ وكما حدث مرارا عديدة في القرن الثالث عندما كان يطالب قائد واتاه النجاح، يظاهره أحد جيوش الحدود أو حرس «التربيونية»، بالعرش الخاوي. أن الأمبراطورية،

([1]) هذا يمثل التوزيع في عهد طبريوس. وبلغ مجموع القوة زهاء ٣٢٠.٠٠٠ يضم خمسا وعشرين كتيبة.

([2]) من هذا الموضع فصاعدا، تشير جميع التواريخ إلى العهد الميلادي إلا حيث يذكر خلاف ذلك.

([3]) بقى مجلس الشيوخ مدة أطول وله كيان ذو أثر فعال. ومن سلطاته، ظلت سلطة ولاية القضاء الاستئنافي، حتى القرن الثالث.

كالملكية القديمة ، لم تكن وراثية ولكن انتخابية. والنظرية القائلة أن أي مواطن روماني كان أهلا للولاية، ظلت قائمة طوال تاريخها. وهذا يفسر السبب، كما سيتضح في فصل قادم، في أنه عند إعادتها في الغرب في القرن التاسع، كان يمكن أن يعتبر أحد زعماء الفرنجة، الخليفة الشرعي لأوغسطس. ولسنا في حاجة إلى إطالة الحديث في سير أفراد الأباطرة، مع كل ما فيها من تشويق شخصي([1]). وعند الكثير من القراء، تعد قصة الأمبراطورية، قصة حكامها بينما النظام الذي كانوا يسيطرون عليه والذي يؤثر في مصير الملايين يظل غير معروف فرضا ([2]). وحتى في حالة أولئك الأمراء الذين تظهر قدرتهم في أعظم جلاء، تعني السجلات الأدبية في معظمها بالسخف من تفصيلات أقاويل البلاط. أننا فقط بجمع القصة التي تسردها النقوش المتناثرة في أرجاء الأقاليم، نعرف كيف نسير غور النظام الأمبراطوري في نسبه الحقة، وعند ذلك يتجلى لنا أن شطحات كاليجولا أو نيرون الجامحة، التي تتراءس بمثل هذا العظم في صحات طاقيطس وسوطنيس Suetonius، كان من شأنها فقط أن تثير هياجا عابرا في الحاضرة. وكانت الآلة الهائلة تؤدي دوراتها المعينة، دون أن تلقي بالا إلى نزعات صاحبها، وعندما عرض القديس بولس أمره على المحكمة الأمبراطورية فإنه كان يتوقع من قيصر، وليس من نيرون، العدالة وقد لقيها فعلا. ويمكن، من الجهة الأخرى، أن يظهر الذي يستطيع حاكم قدير ذو همة أن يحققه في ميادين الدفاع العسكري والإدارة الداخلية والقانون، من مثال وحد.

١٠- لو أن الحكم الفردي الاستبدادي يستحق المديح أطلاقا، فإن الأمبراطور هدريان

([1]) يمكننا أن نميز مجموعات الأباطرة الآتية في تسلسل تأريخي:

(أ) أباطرة الفرع اليولي- القلودي: أوغسطس (حتى عام ١٤)، طبريوس (حتى ٣٧)، كاليجولا Caligula (حتى ٤١)، قلوديس (حتى ٥٤)، نيرون (حتى ٦٨).

(ب) أباطرة الفرع الأفلاوي Flavian: واسفاسيان Vespasian (حتى ٧٩)، طيطس (حتى ٨١)، دمطيان (حتى ٩٦).

(ج) أباطرة بالتبني: ناروا Navra (حتى ٩٨)، طريان (حتى ١١٧)، هدريان (حتى ١٣٨)، أنطونيس فايوسس (حتى ١٦١)، مارقس أورليوس (حتى ١٨٠).

(د) أباطرة الثكنات (الذين عين أسماءهم الجيش): من ١٩٢ إلى ٢٨٤.وكان أقدر هؤلاء سفطميوس ساورس Septimius Severus (١٩٣- ٢١١)، أورليان (٢٧٠- ٢٧٥).

([2]) الآنستان ماريا وجوليا برترام Misses Maria and Julia Bertram في رواية جين أوستن «منزه منسفيلد Mansfield Park» (فصل ٢) ولهما من العمر ١٣ و١٢ عاما على الولاء كما يمكنهما أن يتلوا «في الترتيب الزمني... مع تواريخ اعتلائهم العرش... الأباطرة الرومان نزولا حتى ساورس».

(١١٧– ١٣٨) يمكنه أن يقيم دعواه في أن يعد حاكما استبداديا ارستله السماء. ولما كان قد ولد في روما عام ٧٦– وأبوه، من أهل أسبانيا ولكن ينحدر من سلالة إيطالية، وكان ابن عم طريان **Trajan** فقد تدرب في زمن باكر على الوظيفة. وفي سن الخامسة عشرة كان يخدم في الجيش، وفي السابعة عشر مان يقوم بوظيفة قاض في القضايا الخاصة. ولقد تولى، على التعاقب، في بريطانيا ومويسيا **Moesia** وعلى الراين وسار في ركاب قريبه العظيم خلال حملاته المظفرة في داقيا وفي الشرق. وعلى هذا فإنه عند موت طريان وارتقائه العرش في سن الحادية والأربعين، كانت قدراته الطبيعية في أصالة الحكم والخيال وتحمسه للعمل الذي لا يعتريه كلال، قد أنضجتها التجربة الواسعة في السلم وفي الحرب جميعا. لقد كان هدريان سياسياً أكثر من أن يكون جنديا واعتاد أن يزهو بأنه كسب بعد السيامية أكثر مما كسب بعدة السلاح. وفي حكمه الذي دام أحدى وعشرين سنة وضع طابعه، أصلا وتفصيلا، على تكوين الإدارة الرومانية والقانون، بأجمعه ولقد نظم مجلس الدولة الأمبراطوري ووظائف كتمة السر الأمبراطورية ونظام مواصلات البريد ([1]) الأمبراطوري. وقامت الأعمال العامة والأنظمة الخيرية إلى حيز الوجود بابتكاره. ولقد شجعت الزراعة ورصدت الإعانات للجامعات ومنحتصفة المواطن والحقوق اللاتينية في سخاء وقد كتب واضع سيرته «لقد كانت لديه معرفة شاملة شمولا تاما بالمسائل المالية العامة كأي رب بيت يحسن القيام على شئونه الخاصة ولم يوجد أمر تفصيلي تجاوزت دقته حدا لا يسترعة انتباهه، وقد كشف لوح في جنوبي البرتغال يظهر فيه وهو ينظم حياة قرية تعدين عاكفا على ارساء قواعد لصانع الأحذية المحلي والحلاق ووضع الخطة لتنظيف الغلايات في الحمام العام، كل شهر، ومعافاة (وياله من نص رحيم!» أساتذة المدارس من دفع الضرائب ([2]). وكانت جهود الأمبراطور أكثر ظهورا وأثبت على الزمن في مجالي القانون والحكومة الإقليمية. ولقد استهل عصر القضاء الروماني، الاتباعي ويرجع إلى واعز شخصي صادر عنه، ما جرت عليه الحال من أصدار فتاوي أمبراطورية ترتبط بها المحاكم ووضع المرسوم الدائم([3]) والاعتراف بأن يكون لآراء عظام الشارعين قوة القانون. ولقد أصبح الأمبراطور الآن القاضي الأعلى لكل

([1]) كان معدل السفر في خدمة البريد خمسة أميال في الساعة. وكانت رحلة يوم عادية تبلغ من ثلاثين إلى خمسين ميلا ولكن كان يمكن قطع مائة، إذا استدعت الحال.

([2]) راجع هـ. س. جونس **H. S. Jones** في «تراث روما» **The Legacy of Rome**

([3]) عن المرسوم الدائم، راجع ما يلي $ ١٧.

دعاوي الاستئناف الجنائية. وقد خفف من قسوة سلطة الوالد ومنح النساء حق وضع الوصايا وألغى الضحايا البشرية وفرض قيودا شديدة على تعذيب العبيد. وكان الشعور الإنساني أهم ظاهرة في خليقة هدريان وأفعاله ([1]). وكان أحد الرموز المحببة على نقوده، منظر امرأة تبكي، يرفقها الأمبراطور عن الأرض. ولقد أنفق أكثر من نصف عمره في تجولات سريعة خلال الأقاليم. ولقد قيل أنه قطع ٢٠.٠٠٠ ميل سيرا على القدم وهو يرتدي عدته العسكرية الكاملة ([2]) وفي المدة التي تقع بين عامي ١٢١– ١٢٦، زار كل صقع في الأمبراطورية من أسبانيا إلى سوريا ومن بريطانيا إلى أفريقيا وهو يأتي بالإصلاح على الأدارة العسكرية ويحصن الحدود ويزور الجنود امرضى في المستشفى، ويعيش وهو في المعكسر على ما يقدم لرجال الكتائب من غذاء، ويقوم بالتفتيش على الصناعات. وفوق هذا كله ينهض بانشاء الأعمال العامة ويعيد بناء المدائن. وبعد أقل من سنة في روما، قام برحلة ثانية وأمضى ست سنوات (١٢٨– ١٣٤) في الشرق الذي كان مزاج عقله يستجيب لدعوته القاسرة بطريقة فريدة. وكا يجعل هدريان مشوقا إلى حد عظيم، هو حبه للأستطلا ع الذي لا تشفى له غلة والحماسة العقلية التي كانت تلقي بريقا من الإبداعية (الرومانسية) على نهوضه، الذي لا يكل، بواجبه الرسمي. «قلق في كل أمر، طوال حياته وهو حكم واضع سيرته أسفرطيانس **Spartianus**. ولقد كان الشغف بمشاهدة المناظر متأصلا فيه. وقد صعد جبل قاسيس **Casius** ليرى مطلع الشمس وأطنا لمشاهدة غروبها، وأعاد دفن عظام أياكس **Ajax** في طروادة وزار حظائر الخزافين في بريطانيا وقبر بومباي في مصر، وقبر أفيمننداس **Epaminondas** في منطنيا وتلقن أسرار اليوسس **Eleusis** وحفر اسمه على تمثال ممنون. وفي أثينا حيث أعاد أقامة الأبنية على نطاق مسرف، تولى الرياسة كأحد الموظفين التسعة في عيد ديونوسيوس العظيم زقد كان محبا للهلينية من صميم القلب ولقب وهو صبي بغرايقولس **Graeculus** (الإغريق الصغير)، ووجه عنايته إلى مصاحبة رجال الأدب. وكان يزهو كثيرا بمعرفته بالموسيقى وفنون النحت وفي جهوده الخاصة في

([1]) لقد رفض التصديق على تهم الخيانة العظمى (**Majestas**) أو قبول تأريث إلا من أصحابه الشخصيين، ومن أولئك فقط إذا ماتوا بغير خلف. وبهذا أزال اثنتين من أشنع المساويء العرضية في الأمبراطورية.

([2]) كان هدريان صيادا عظيما كما كان مشاء عظيما، وكان له قدرة خارقة العادة على تحمل المشاق البدنية ويعيش في المعتاد عيشا بسيطا وكان شديد الشكيمة في المحافظة على النظام.

النثر والشعر ([1]). وكان ذوقه كذوق أتباع هلاس في تدهوره، بعيدا عن أن يكون نقيا. لقد كان يتعشق ما كان غريبا، بالغ الأسراف ويفضل انطيماخس على هومر وانيوس على فرجل. وكأن يضع تصميم المعابد وواحد منها، أقيم تكريما لفينوس وروما، كان على موقع الجلجثه Golgotha_ الذي فيه، كما ذكر النقاد الهازلون لم تكن الآلهات يستطعن الوقوف منتصبات. وقد وضع المقرب إليه، أنطينوس Antinous، وهو إغريقي آسيوي، الطراز لمثالي عصره لجمال الذكور الإباحي. وكان القرن الثاني عهد انتعاشات دينية، وكلما أمعنت العبادة في أن تكون غريبة وأجنبية، كان استغواؤها للعالم الروماني أقوى. وكان هدريان يملف أيضاً بالرجوع إلى الأحلام واستيجاء مهبط الوحي ويضع الخطة لحياته كل سنة على التعاقب، واله أنطنيوس وسمي نجما باسمه تكريما له، بعد موته. ولو أن القصص المدونة في التلمود عن أحاديثه مع شراح الشريعة العبرية، خرافية، فإنها تدل على التأثير الذي تركه في العقل العبري. ولقد دفعت محاولته إلغاء فريضة الختان وإقامة مستعمرة إغريقية رومانية (Aelia Capitalina) على موقع المدينة المقدسة المهدم، اليهود إلى القيام بآخر ثورة لهم وأشدها رعبا (١٣٤– ٦). ولقد أظهر الأمبراطور للمسيحيين تسامحا يتسم بالاحتقار. وفي هذا كله كان طراز ثقافة القرن الثاني من حيث شيوعها وقدمها، ومغالاتها في التأنق وانحلالها. ويمتب رينان «كان الشرق على الأخص يجتذبه، ولقد كان يشاهد فيه المداجاة والتهريج، وكان يتسلى بهما». ولكن هدريان لم يكن مجرد غاو للفن الجميل، فقد ظل في قلبه ابنا لروما الوثنية. ويقول اسفرطياس «لقد كان يعني أشد العناية بمراعاة العبادات الرومانية ويحقر عبادات البلدان الأخرى». ولم تكن لديه أوهام ولم تعق نزواته أطلاقا سير حكمه المتزن وفي شخصه، كان الموظف المني المثالي يرتدي الأرجوان الأمبراطوري ولتوضيح هذا بأمثلة حديثة، كان هدريان أكثر قرابة بلورد ملنر Milner أو سر روبرت مورانت Sir Robert Morant منه إلى أوسكار وايلد Oscar Wilde. والشهرة، كما جاءنا النبأ، كان يسعى إليها في حماسة ولكن بمسالك أخرى والألمانية ([2]) والمدائن التي ابتناها والقوانين التي وضعها، هي التي جعلت منه واحدا من صفوة عظام الأداريين الذين ظهروا في الوجود. وآخر عماله المدونة وهو طريح الفراش، ينازع الموت في روما، تعبر عن شخصية متعددة النواحي: تهكماته من أطباء

([1]) لقد كان على وفاق مع العبد الروائر أفقطيطس Epictetus والمؤرخ الإغريقي فاورينوس Favoirinus، من أهل مرسليا.

([2]) عن الطرق العسكرية، راجع ما يلي $ ١٣، تذكرة ٢.

البلاط «أن أطباء أكثر مما يجب هم الموت لأمير»، والسطور التي وجهها لروحه الراحلة التي تعكس باللاتينية صورة الجمال الذي يستأني في آخر عهد للهلينية ([1]). وكا كان يشغلهعن كل شيء آخر وهو تعيين خلف ذي جدارة، في شخص أنطونينس فايوس **Antoninus Pius** يؤول إليه العرش الأمبراطوري.

١١– وإذا تحولنا من الأمبراطور إلى الأمبراطورية، نجد أن حكومة العالم في القرن الثاني تقع في أيدي بيروقراطية عظيمة. وكان رؤسء المصالح في روما في الأَل، أعضاء في حاشية الأمبراطور وكانوا لا يزالون يعتبرون معاونين شخصيين يشبهون في ذلك كاتمي السر ومديري الضياع لدى شريف من الأفراد. وكان أهم هؤلاء الأربعة مراقبين **Procurators** وهم مراقب المالية والمتشار القضائي ومستلم الشكاوي وكاتم السر الأمبراطوري ([2]). وطبقا للمبدأ التاريخي بأنه يجب على الموظف بأن يشد أزره بالنصيحة، فإن الأعمال الهامة كانت في المعتاد تناقش في مجلس الدولة الأمبراطوري. وكانت إدارة روما وإيطاليا موكلة إلى أربعة رؤوساء، رئيس المدينة ورئيس الحرس (البريتوري) ورئيس تموين الحنطة ورئيس الحراسة وكانوا كلهم ينهضون أيضاً بأعباء وظائف قضائية عالية ([3]). وفي المحاكم الأمبراطورية التي أمحت بالتدرج محاكم الشيوخ،كان استئناف الدعاوي يعرض من جميع أنحاء العالم الروماني. أما محاكم الأقاليم التي ازدادت في القرن الثاني حتى اربي

([1]) **Animula, vagula, blandula,**

Hospes comesque corporis,
Quae nune abibis in loca?
Pallidula, rigida, nudula,
Ne cut soles dabis iocos.

وقد ترجمها «إلى الإنجليزية» مارقيس س. دمسديل **Marcus S Dimsale** (الأدب اللاتيني صفحة ٥٢٦).

«يا روحي الغامضة، حسنة الست والخلق

ضيفة هذا الجسد وصديقته

اذكري، إلى أين المسير الآن؟

وأنت شاحبة، ومتصلبة وعارية.

وأيتها الروح الصغيرة.

كل دعاباتك قد أتت إلى نهاية».

([2]) كان يطلق عليهم على الولاء

A rationibus, a cognitionibus, a libellis ab epistulis.

ومن عهد هدريان فصاعدا، لم يعد يشغل هذه الوظائف معتقون ولمن كواطنون من مرتبة الفرسان.

([3]) كان يطلق عليهم على الولاء **urbi, praetorio, annonae, regilum** وكان الرئيس البريتوري يرأس، من عهد هدريان، مجلس الدولة ومحكمة الجنايات العليا.

عددها على الثلاثين، فقد كانت محاكم الأمبراطورية ضعف محاكم الشيوخ ([1]). وكانت الرقابة الحازمة الفعالة تقوم بها الحكومة المركزية. وكان حكام الأقاليم ينتخبون لأمانتهم وقدراتهم وتدفع لهم الدولة مرتباتهم ويعاونهم موظفون ماليون مستقلون وإدارة دائمة من موظفين إداريين متمرنين(٢). وفي عهد الأباطرة الافلاويين flavian والأباطرة الأنطونيين كان أفراد من طبقة الفرسان يحلون في اطراد يأخذ في التزايد، محل المتعقين، في الخدمة الإمبراطورية. ولم يعد الرومان الأحرار بعد غير راضين عن شغل مناصب في "حاشية قيصر". وكان يمكن الحصول على عدالة وفيرة، في المحاكم الإمبراطورية في كل أنحاء الإمبراطورية. وكانت الضرائب، على فداحتها. تجبي على أساس عادل منتظم تهيئة سجلات التعداد التي كانت تعدل في أوقات منتظمة لتطابق آخر تاريخ. وكان أهم مصدر للدخل المباشر ضريبة الأرض تضاف إليها ضريبة عينية للقيام بتكاليف الجيش في أقاليم معينة، وضريبة دخل على مهن وحرف خاصة وضريبة ميراث تبلغ خمسة في المائة كانت تجبي من الطبقات الأكثر ثراء وإيراد أملاك الدولة والمناجم وأراضي الإمبراطور الخاصة (patrimonium caesaris). أما الضرائب غير المباشرة فكان أهمها رسوم الجمارك التي

([1]) عن مادة هذا القسم، راجع و.ت. أرنولد W. T. Arnold «الإدارة الإقليمية الرومانية»، وخاصة الفصول ٤و ٦و ٧ وقد أدرجت قائمة بالأقاليم ومعها تذكرات شارحة في الملحق ١. وها هي ذي القائمة في عهد أوغسطس:

صقلية (لمجلس الشيوخ)، سردينيا وقورسيقا والغال (٤: إقلين لمجلس الشيوخ)، أسبانيا (٣: أقليم لمجلس الشيوخ)، أفريقيا (أقليم لمجلس الشيوخ)، قورينا وكريت (لمجلس الشيوخ)، سوريا وغلاطية وبثونيا (لمجلس الشيوخ)، وبنطس (لمجلس الشيوخ)، وآسيا (لمجلس الشيوخ)، مقدونيا (لمجلس الشيوخ)، وأخائيا (لمجلس الشيوخ)، ومويسيا ونوريقم ورائطيا واللوريقم ومراكز الألب. وكانت مصر يديرها على قواعد خاصة رئيس من مرتبة الفرسان.

وقد أضيفت الأقاليم الآتية بعد موت أغسطس، ألمانيا (٢، في عام ١٧ م). ومورطانيا (٢) وبريطانيا وطراقيا (هذان بين ٤٠ و٤٦)، بلاد العرب وداقيا وأرمينيا وما بين النهرين وأشور (هذه بين ١٠٥و ١٤١ في عهد طريان).

ومن وقت إلى آخر كانت الأقاليم يعاد توزيعها بين الأمبراطور ومجلس الشيوخ. وتتوارى الأقاليم التابعة لمجلس الشيوخ في ختام القرن الثاني. وعلاوة على هذ، كانت بعض المناطق يقوم بالإدارة عليها مراقبون Procurators تحت أشراف حاكم أقليمي مجاور. عندما تقدمت عملية بسط النفوذ الروماني، فقد جعلت هذه المناطق في الغالب أقاليم. وكانت اليهودية تحت حكم مراقب يشرف عليه المعاون العسكري (Legate) الأمبراطوري لسوريا (راجع لوقا ٢: ١). وعندما كان وطيليوس Vitellius، الذي أصبح أمبراطورا فيما بعد Legate لسوريا فإنه تمكن من خلع المراقب بنطيس بلاطس.

([2]) يحوى الكتاب العاشر من خطابات بلني الأصغر (ترجم في المجلد الثاني من طبعة لويب Loeb) الرسائل التي كان يتداولها بلني والإمبراطور طريان أثناء قيام الأول بحكم بثونيا عام ١١١ وقد جعل طريان بثونيا إقليما إمبراطورياً. وتقدم هذه الرسائل إيضاحاً رائعًا لما كانت عليه الإدارة الإقليمية في عهد الإمبراطورية الباكر.

كانت تختلف باختلاف الأقاليم. وسنرى في فصل قادم كيف أن ثقل الضريبة ازداد خلال القرن الثالث حتى كاد لا يحتمل مما أتي بنتائج وخيمة على رخاء الإمبراطورية الاقتصادي. ولكن قبل ذلك التاريخ، أظهرت الحكومة كرما منقطع النظير في استخدام الدخل فكانت الإعانات تمنح في يسر في. حالات الوباء والمجاعة وغيرهما من الكوارث غير العادية وألغيت القيود على التجارة في كل مكان. وقد نهض بالأعمال العامة مثل المرافئ والطرق والجسور والري واسترداد الأراضي البور في جميع أرجاء الإمبراطورية بنشاط. ومما يسترعي النظر بصفة خاصة، السياسة التي أنشأها تاروا Nerva وتوسع فيها خلفاؤه في القرن الثاني، في إقامة منظمات في إيطالي وغيرها لإعانة الأرامل واليتامى ورصد منح للعلماء وشئون التعليم الأخرى ومصارف للأراضي لتشجيع الزراعة وكانت تخصص أرباحها للقيام بأود الأطفال الفقراء وتعليمهم.

١٢– وكانت المدينة كما كان العهد بها سابقًا، أهم أداة للمدنية استخدمتها الحكومة الإمبراطورية للمحافظة على الثقافة الهلينية في الشرق وغرس الثقافة الرومانية في الشمال والغرب(١). وفي عهد الإمبراطورية الباكرة، كانت بلاد الإقليم تشمل (١) المدن المتحالفة والحرة التي تدين باستقلالها في حالة، لمعاهدة رسمية وفي غيرها لمنحة من روما (٢) المستعمرات الرومانية والبلدان Municipia التي كانت تختلف في المكانة الموقرة أكثر من اختلافها في الامتيازات و (٣) كتلة البلاد التي لا تستمتع بامتيازات وتدفع الضريبة، تلك التي حافظت على منظماتها المحلية القديمة تحت رقابة الحاكم الإقليمي. وهذه، تحولت غالبيتها على مر الزمان إلى بلدان Municipia بمنحها الحقوق المدنية أو الحقوق اللاتينية. ومن القرن الثالث، قل عدد المتحالفة والمدن الحرة ووضعت قيود على امتيازاتها. ولقد أورد بلني pliny قائمة بمائة وخمس وسبعين مدينة في إقليم بيطيقا Baeica الأسباني عند ختام القرن الأول: يوجد ثلاث مدن متحالفة وست مدن حرة وتسع مستعمرات وثماني بلدان Municipea وتسع وعشرون مدينة لها حقوق لاتينية ومائة وعشرون مدينة تدفع الضريبة. وكانت حكومة البلدة في كل مكان على التقريب، أرستقراطية وقد نظمت طبقًا لشكل روما التاريخي. وكان يقوم بالرقابة على المستعمرات والبلدان

---

(١) في مبدأ الأمر، كانت السياسة الرومانية هي استخدام الأداة الموجودة حتى أقصى مدى ممكن، فعلى سبيل المثال، اعترفوا برؤساء القبائل ومجالسها كوسائل للحكومة المحلية. وعندما ظهر عدم كفاية هذا النظام، فإنهم أقاموا مجتمعات المدن، يعيش أفرادها من إيطاليا، ويحلون بين السكان الوطنين، وحيث وجدوا مدنا قائمة، كما كانت الحال في الشرق، فإنهم استخدموها.

Municipea موظفون ينتخبهم كل عام المجلس الشعبي من مواطنين ذوى أهلية عالية، بما لديهم من أملاك ومجلس شيوخ يتكون معظمه من موظفين، وموظفين سابقين. وعلى مر الزمن أصبح يوجد ميل ملحوظ في اتجاه التدخل من قبل الموظفين الإمبراطوريين. وقد بطل الانتخاب الشعبي وغدا من العسير بدرجة تطرد ازديادا حث المرشحين على مواجهة التكاليف الباهظة التي تلازم القيام بوظيفة البلدية. وقد شاهدت بواكير قرون بعد الميلاد قيام عدد جم من المدن بقي الكثير منها امدا طويلاً بعد سقوط الإمبراطورية ولا تزال تزدهر حتى زمننا الحاضر. وقد هيأت مواقع كتائب الحدود، العسكرية نواة البلدان الجدد ويمكننا أن نتبع الحصن في نموه إلى قرية والقرية إلى بلدة. ويحتفظ اسم ليون Leon في اسبانيا واسم قايرليون caerleon على اليوسك Usk في بريطانيا بسجل مثل هذا الأصل (Legionis كتائب و castra Legionis, معسكر الكتائب). وكانت كل بلدة تقوم على إدارة مساحة عظيمة من الريف المجاور ويحدث أحيانًا أن مدينة عظيمة تقوم بالسيطرة على عدد من البلاد التابعة لها، وبذلك تنهض حكومة مقدسة (hierarchy) لبلدة. وهكذا كانت حال الغال في عهد أوغسطس إذ كانت لغدونم Lugdunum (Lyon– ليون) المركز الإداري لأربعة وستين مجتمعا، لكل منها بلدته الرئيسية (وكانت أميان Amiens ونانت Nantes اثنتين من هذه البلدان) بينما كان لمارسليا ونيم Nimes السيطرة على البلدان الأخرى القريبة منهما.وكانت البلدان الإقليمية أيضًا تنتخب مندوبيها لحضور المجالس الإقليمية التي كانت اجتماعاتها، وهي ترتبط بعبادة الإمبراطور، تقوم بدور هام في الإدارة المحلية وتقدم أقرب مثال في الأزمنة القديمة لنظام الحكومة النيابية.

١٣– وكانت أعظم مسئولية ملحة، خلال القرون الثلاثة الأولى، المحافظة على الحدود. أن نصيحة أوغسطس بالبقاء داخل الحدود التي وضعها، راعاها بأمانة خلفاؤه. وأهم استثناءات كانت ضم بريطانيا في عهد قلوديس Claudius (٤١–٥٤) وداقيا Dacia (= هنغاريا قبل ١٩١٤– ٨) وأرمنيا وأقاليم الدجلة والفرات في عهد طريان (٩٨–١١٧). وكانت حملات طريان المظفرة في الشرق قمة السياسة النشيطة التي جرى عليها أباطرة القرن الأول. ولم تعد فارثيا بعد منيعة، وظل تخم الفرات لا يسوده اضطراب حتى قيام المملكة الفارسية في منتصف القرن الثالث.وفي الشمال والغرب، من الجهة الأخرى، طغى موج هجرة الهمج طغيانا يطرد ازديادا. أما القبائل التيوتنية –وقد كانت مصدر تهديد لإيطاليا منذ زمن ماريوس Marius– التي صدها قيصر للوراء عن الغال، وثبطت جهد أوغسطس في بسط السيادة الرومانية حتى الألب،

فإنها كانت في ذلك الحين تحارب دون انقطاع ضد الحاجز الحصين بمحاذاة الراين والدانوب. (١). وكان قد عمل على تقوية الخط، بسياج إقامة هدريان فيما يلى كبلنز إلى ما يقرب من رجنبرج على الدانوب ويحصر الغابة السوداء داخل الإمبراطورية(٢). وقد صمد زهاء قرنين ولكن القتال كان لا ينقطع على امتداد الحدود بأكمله، وسرعان ما كان يلاقي أي تهاون في قبضة روما الجزاء الوفاق. وقد أثارت الانقسامات داخل الإمبراطورية وتجاوز القبائل في تجوالها دائرتها، الأزمات التي تقع بين حين وآخر في شدة منقطعة النظير وتعقبها فترات من الهدوء النسبي. ولهذا فإنه بعد الحروب المروعة التي شنها مارقس اوروليوس ضد المرقماني **Marcornanni** والقواضي **Quadi** على الدانوب الأعلى، ساد الهدوء طوال جيلين، إلى أن تحول مركز العاصفة إلى مجرى النهر الأدنى حيث كان يهدد غوط من الأكسين، أقاليم البلقان في منتصف القرن الثالث (٢٥٠–٧٠) وقد أمنحت الهزيمة التي أوقعها قلوديس بهم خط الدانوب مائة سنة أخرى. وفي نفس الزمن الذي نشبت فيه الحرب الغوطية، حطم الأليماني والفرنجة (حوالي ٢٥٨) (٣). حاجز الراين، ويعد جهاد استيئاس استمر في حظوظ متباينة، من حكم غلينوس **Gallienus** حتي حكم ديوقلطيان، أعيد السلام مرة أخرى في الشمال الغربي. وفي خلال هذه المناوشات، أصبحت العادة لتي استهلها قيصر في منح الأراضي للمستمرين التيتون داخل الإمبراطورية جزاءا من سياسة الحكومة العامة. ولقد قدم الذين كانوا أعداء في جيل، مجندين لكتائب دفاع الجيل التالي. وكانت الجيوش الرومانية تجند لمدة خدمة طويلة وكلها تقريبًا من سكان الأقاليم. وقد يعسكر جنود من فاغين **commagene** بآسيا الصغرى، في ألمانيا أو بريطاني ويستقرون عند رفتهم، بمنحة وقطعة من الأرض، في الأقطار التي كانوا يخدمون فيها،

([١])كان موطن التيوتون الأصلى في أراضي غربي البلطيق أي جنوب السويد وجتلند وبومرانيا. ومن هناك، بين عامي ٦٠٠ و ٢٠٠ ق.م، ساروا صوب الغرب والجنوب الغربي طاردين القبائل الكلتية من الأراضي الواقعة شرق الراين وفي نفس الوقت، تشبعوا بالكثير من الثقافة الكلتيه المتفوقة التي كانوا على اتصال بها. وفي القرن الثاني قبل الميلاد، عبر التيوتون الراين لأول مرة وغزوا الغال.

([٢]) داخل السياج من القضبان، كانت تسير الطرق العسكرية، وفي تاريخ لاحق استبدل السياج جزئيًا بحائط من الحجر. وقد أقيمت حصون على مسافات تتراوح بين ميلين ونصف ميل، وتسعة أميال بمحاذاة الطرق العسكرية. وقد امتد هذا الحاجز الحصين بضع مئات من الأميال.

([٣])كان الأليماني، كما يدل اسمهم (=كل الناس) تحالفا من قبائل كما كان الفرنجة (= رجال أحرار). واسم الأولين لا يزال باقيا في اللفظ الفرنسي **Allemgne** واسم الآخرين في **france** (وكذلك **Franconia** و-**franche-comite** و **Frankfurt**) وكان الأليماني على اتصال بروما بين ٢١٣ والفرنجة من ٢٥٣.

وكانت بلدان شهيرة مثل كولوني (colonia Agrippinensis) وكلشستر Colchester (camulodunum) تدين بنشأتها إلى مستعمرات الجنود القدامى الذين انقضت مدة خدمتهم، هذه. وما كانت الصبغة العالمية للجيش إلا أحد مظاهر الصبغة العالمية للنظام الإمبراطوري. وكان الموظفون المدنيون أيضًا يؤخذون من سكان الأقاليم. ولقد أصبحت الخطوط الفاصلة، القديمة، بين الروماني والإيطالي وبين الإيطالي والإقليمي لا وجود لها. وعندما منح الإمبراطور قرقلا في عام ٢١٢ بموجب دستور انطونينا constifutio Antonina صفة المواطن الروماني لكل مواطن حر المولد في الإمبراطورية. فربما كان الواعز المباشر لديه أن يزيد الدخل، ولكن الإجزاء كان الاتمام المنطقي لسياسة القرنين السابقين(١). وبفضل الحكومة الإمبراطورية الأبوية، تأصلت الأفكار والأنظمة التي تمثلها روما في التاريخ، تأصلا ثابت الدعائم في جميع أرجاء عالم البحر المتوسط.

١٤- ويتجلى مغزى هذه الحقيقة وما كان لها من نتائج في المستقبل، إذا أوضحنا الوسيلة التي نهضت بها روما بمهمتها في الحكم في أقاليم أوروبا الغربية- اسبانيا والغال وبريطانيا (١) كانت اسبانيا أحد الأقاليم الرومانية الباكرة. وقد فتحها ونظمها في القرن الثالث ق.م. القرطاجني العظيم "هملقار بارقا"Hamilcar Barca ثم ألت في ختام الحرب الفونية الثانية إلى روما. وكانت السيطرة على قبائل الداخل مهمة طويلة شاقة أنهكت إلى أقصى حد همم الحكام الرومان المتعاقبين ومن بينهم كان كاتو الرقيب وطبريوس سمبرنيوس جراكس Tiberius Sempronius Gracchus والد المصلح الزراعي، بارزين لقدرتهما.

وكانت الأحوال الطبيعية تعاون حرب العصابات التي كان فيها الأسبان على الدوام متفوقين واستمرت متاعب الحرب والتنظيم دون انقطاع خلال القرن الثاني. وقد نهض كاتو بالمناجم التي كان الفينيقيون يستخدمونها قبل ذلك بقرون كثيرة وغرس الكرم والزيتون. وبين عامي ٨٠ و ٧٢ ق.م. عكف الزعيم الديمقراطي سرطريس Sertorius- وقد وجد في اسبانيا ملجأ من انقلاب سلا- على تدريب القبائل الوطنية على فنون الحرب والسلم، وأسس الكليات العسكرية لتعليم شباب نبلائهم. وقد شجع يوليوس وأوغسطس سياسة صبغهم بالصبغة

---

(١) كان الدافع المباشر لمرسوم قرقلا هو توسيع مدى تطبيق ضريبة الخمسة في المائة على مواريث المواطنين. وقد قصر منح صفة المواطن على الآهلين الأحرار الموجودين فعلا في الإمبراطورية، عام ٢١٢ أما المعتقون والأشخاص الذين لهم حقوق لاتينية وأولئك الذين استقروا على أراض داخل الإمبراطورية وحازوا مكانتهم في تاريخ لاحق فإنهم لم يصبحوا بذلك ipso facto، مواطنين. وقد مد يوسطنيان صفة المواطن لتشمل هؤلاء.

الرومانية بحماسة ونالت خمسون مدينة أسبانية صفة المواطن الكاملة. وكانت قادس وطراقو (Tarraco) مركزين للتجارة والحكومة، على الولاء، ولا تزال سرغسا Saragossa وأسطرغا Astorga تحتفظان باسم أوغسطس. (١). وقد مد الطريق العسكري والتجاري العظيم، الذي كان يسير من إيطاليا حول خليج ليونس Lions إلى الإقاليم التي تقع فيما يوالي البرانيس، بمحاذاة ساحل اسبانيا الشرقي ومنه اخترقت الداخل حتى الوادي الكبير وميناء قادس. وما حان الزمن الذي مات فيه أوغسطس حتى كانت اللغة والملابس والعادات الرومانية قد عمت شطرا عظيما من شبه الجزيرة. وقد قسمت اسبانيا إلى ثلاثة أقاليم، ومن الثلاث كتائب التي وضعها أوغسطس هناك، كان يمكن سحب اثنتين قبل ختام القرن الأول. وقد سار نشر السلم ونشر الصبغة الرومانية جنبا إلى جنب. وكان كاتم سر يوليوس قيصر وأمين مكتبة أوغسطس مواطنين اسبانيين. وقد قدمت اسبانيا إلى الأدب الروماني، ويرجع ذلك إلى القرن الأول، عالم الأخلاق سنقا Seneca والشاعر الجمهوري لو كان Lucan وعالم الجغرافيا مالا Mela والكاتب الزراعي قلوملا columella وأحسن واضع للأراجين ومأثور القول، في روما، مرطيال Martial وأعظم ناقدي الأدب فيها كونتليان(٢). Quintilian. وفي بواكير القرن التالي قدمت إلى روما واحدا من أنبل اباطرتها هو تراجان وفي النهاية عندما انهالت غزوات الهمج على الغرب، وجدوا اسبانيا قد اصطبغت تمامًا بالصبغة الرومانية، حتى أن استمرار ثقافتها لم يكن يهدده خطر جدى. وكانت العقيدة المسيحية متأصلة كل التأصل في قطر ربما يرجح أنه كان مشهدا لجهود القديس بولس الأخيرة، الرسالية. ومنذ ذلك الحين، قامت بدور هام في حياة الكنيسة الغربية. ولقد مثلت سبع وثلاثون كنيسة منفصلة في مجمع الويرا Elvira في القرن الثالث. وكان هسيوس Hosius أسقف قرطبة cordova المستشار الذي انتخبه قسطنطين في مجمع نقيا Nicaea. وكان القوط الغربيون، على خلاف الوندل، قد تقبلوا بالترحاب الثقافة الرومانية قبل أن يبسطوا سلطانهم في اسبانيا. وكان أزيدور Isidore السفيلي، واحدا من العلماء القلائل في أيام التدهور في القرن السابع وهو الذي استطاع أن يحول شذرات من العلم القديم والأساطير القانونية إلى مفكرى

---

(١) في عام ١٨٦١، كشفت أجزاء من قوانين ملقا (ملغا) واسلبنسا وفي عام ١٨٧٠ أجزاء من قوانى أسيونا، تلقى ضوءا عظيمًا على حكومة البلدان في اسبانيا في عهد الإمبراطورية الباكر.

(٢) عن سنقا وكونتليان راجع ما يلي & ٢١ و ٢٢، لقد قيل كتوضيح لعمل روما في بسط المدنية أن جنودا وموظفين من الرومان كانوا يعلمون الأجانب، مثل سنقا وكونتليان أن يكتبوا اللاتينية الصحيحة.

العصر الوسيط الباكر. وحتى غزو المشارقة الذي حدث في القرن الثامن لم يجد في محو كل آثار الماضي وقد حفظ الزعماء القوط ضوء التقاليد الرومانية والمسيحية لا تخفت خفقاته في حصونهم الجبلية. ويمكن تقصى أثر مجرى النفوذ الروماني دون انقطاع من أيام اسقفيون حتى قيام مملكتي البرتغال واسبانيا الحديثتين(١).

١٥- (٢) "كل الغال تنقسم إلى ثلاثة أقسام" هذه، كما يعلم كل تلميذ مدرسة، هي الكلمات التي يفتتح بها قيصر "تذكراته". وقد أعاد أوغسطس، في تقسيم القطر إلى أقاليم، تنظيم المناطق الثلاث فأصبحت بلجيكا (شمال شرق)، لقد نينسس **Lugdunensis** (شمال غرب ووسط) وأكوطانيا **Acquitania** (غرب وجنوب غرب) وهي أسماء لا تزال باقية في "بلجيكا" و "ليون" و "أكوطين". وفي الجنوب بمحاذاة ساحل البحر المتوسط، كان يوجد إقليم الغال النربوني **Narbonese Gaul** الذي كان يخترقه الطريق العظيم من روما إلى اسبانيا، وكان مركزه في ازمن الجمهورية مستعمرة ماسليا (مارسليا) الإغريقية، القديمة وهي مدنية متحالفة مع روما، وتحكم بدستور حكومة أقلية أثارت إعجاب شيشرون وبعد سقوطها أمام جيش قيصر في الحرب الأهلية(٢). انتزعتها منشئات أكثر حداثة مثل فورم (منتدى والأصل سوق) يولى **forum Julii** (فريس **frejus**، محطة الأسطول كطولون في ايامنا) وأرليط **Arelate** (أرلس **Arles**)، عند مصب الرون، الميناء العظيم للتجارة الداخلية. وقد صبغ هذا الإقليم الجنوبي. "البروفانس **provence**" كما تعرفه الأزمنة التي جاءت بعد ذلك، بالصبغة الرومانية بطبيعة الحال، قبل أقاليم الداخل حديثة العهد بالفتح، بأمد طويل، وظل الاختلاف قائمً في زمن متأخر، في مجال اللغة يمثله الفارق بين لغة أك **Langue d' Oc** ولغة أوى **Langue d'Oil** في بقية فرنسا. ولقد نظمت أقاليم أوغسطس الثلاثة الجدد إلى أقسام فرعية **cantons**، قبلية يحكمها موظفون كلتيون، لديهم جنود غير نظاميين (مليشيا). وكانت لقدونم **Lugdunum** (ليون) المركز الرئيسي للحكومة والتجارة. وهي مستعمرة أسست عام ٤٣ واستوطنها مواطنون رومانيون عند الموقع الذي يتشعب فيه الطريق الصاعد في وادي الرون، إلى فروع تؤدي إلى مختلف المعسكرات على التخم الألماني. وهناك كان يعقد مجلس الأقاليم الغالية الذي كان يتعاون

---

(١) في أفريقيا محا المشارقة كل آثار النفوذ الروماني. وكان أمراء المشارقة في قرطبة، من الجهة الأخرى، حكامًا متنورين حافظوا على الكثير من مخلفات الماضي.

(٢) دانتي "المطهر: ١٨، ١٠٢" – "لإخضاع الردا **Ilerda**، طعن قيصر مارسليا ثم أسرع إلى اسبانيا".

مع الحكومة الرومانية في الضرائب وفي جمع شمل القبائل الكلتية حول عبادة روما وأوغسطس(١).

وقد تقدمت الحياة الحضرية في الأقسام **cantcns** بسرعة. ومن بين المدن الأولى التي أصبح لها شأن كانت ريمس وترير **Trier** في إقليم بلجيكا وصرت الأخيرة منها عاصمة الغال والغرب في مستهل القرن الثالث. وقد كان شرق الغال أسرع اصطباغا بالصبغة الرومانية من الغرب. وكلما نهضت جماعات حضرية، كانت الحقوق الرومانية تنسحب عليها، وقد سمح قيصر للغاليين بدخول مجلس الشيوخ ووصلت إلينا خطبة قلوديس التي منح فيها حق تقلد الوظائف للغاليين الذين منحوا الحقوق السياسية(٢).

ولقد كتب قيصر عن هذا الشعب "كل مجتمع ينقسم إلى حزبين" وقد استخدمت السلطات الرومانية هذه الانقسامات، أتم استخدام، لتوثيق حكمهم ضد الثورة. وقد ألغى الدين الدرويدي **Druidic** بقانون. ولم يقاوم طويلاً وكان قد أوشط على التوارى عندما انتشرت المسيحية في الأقاليم الشمالية. وكان القطر غنيا بالموارد المادية. ولقد كتب يوسيفوس "في الغل يوجد موطن موارد الثروة وتغمر الأرض بفيضها" وكانت الزراعة أساس رخائه بينما في الشمال الشرقي، هيأت تربية الأغنام قيام صناعة المنسوجات مما جلب، في زمن مبكر لمدينتي اراس وطورناى شيئًا من شهرتهما في العصور الوسطى والحديثة. وكان الكلتيون رجال صيد عظام وقدموا فرقا كبيرة من المحاربين لحيالة جيوش روما. وكان لهم ميل نادر للتعلم وكانت أوطن **Autun** (أغسطو دونم **Augustodunum**) وبردو (بردغالا **Burdigala**) مقرى جامعات ومدارس شهيرة، وقد عادت البديهة الحاضرة ومواهب الكلام لدي الكلتيين، عليهم بصيت بعيد في الخطابة والتعليم يرجع مبكرا، إلى القرن الأول(٣).

وقد قامت فنون النحت وخاصة ما كان يعالج مناظر من الحياة اليومية، تلك التي كانت تنبئ مقدمًا بالنقوش البارزة التي تزخرف الكاتدرائيات الغوطية في فرنسا في العصور الوسطى،

---

(١) لم يكن كل سكان الغال من الكلتيين، ولكن كانوا يضمون قبائل برية وجرمانية، وقد أنزلت الحكومة الرومانية الجرمانيين المهزومين في أرض غالية.

(٢) يلخص طاقيطس (في الحوليات: ١١، الفصول ٢٣-٢٥ الخطبة. وفي زمن مبكر في القرن السادس عشر، وجدت أقسام منها في ليون. راجع أرنولد الصفحات ١٤٥ وما بعدها، عن التفاصيل.

(٣) كانت مدرسة أطون لتعليم شباب نبلاء الغال موجودة في عهد طبريوس وسابقة له.

حول ترير. وفي القرن الرابع، كان أوسنيوس **Ausonius** البردوي، أحد عظام الشعراء اللاتين المتأخرين المبدعين، يتغنى بالقصيد ذي المقاطع الستة، بمحاسن مناظر موزل الرائعة. ولقد قدمت كنائس الغال، منذ القرن الثاني وما بعده الكثير من قادة العالم المسيحي الغربي. وكان الأساقفة من بريطانيا، يرحلون إلى أرلس لحضور مجالسها. وقصارى القول، أنه قبيل الوقت الذي انهال فيه القوط الغربيون والبرغنديون والفرنجة على سهول ووديان أنهار الغال. كانت الغال قد تهيأت لمهمة بسط الرومانية والمسيحية على غزاتها وفي زمن لاحق، في القرن التاسع، كانت مدارسها الموطن المختار لعلم العصور الوسطى(١).

١٦- (٣) وكانت بريطانيا تقع في أرباض العالم الروماني، القاصية وكان احتلالها في عهد قلوديس هو الاستثناء الوحيد الدائم للمبدأ القائل أن الإمبراطورية يجب ألا تمتد فيما يلي الحدود التي أقرها أوغسطس. وكانت تحكم كجزء من الإمبراطورية قرابة أربعمائة عام. ولقد اتخذت ثلاث كتائب (أكثر من ١٥,٠٠٠ جندي) جندت غالبيتهم من الوطنيين الذين اصطبغوا بالرومانية، مراكزها باستمرار في الجزيرة. وكان نفوذ المدنية الرومانية ينحصر، فيما عدا فترة وجيزة، في المناطق التي تقع في الجنوب من السور الذي أقامه ساورس من ولسند، إلى الشرق من نيوكاسل، حتى كرسلى ولا يزال جزء كبير منه باقيا(٢). وقد ظلت كرنول وحدها، داخل هذه المنطقة، لم تمسسها روما على الإطلاق. وفي الشمال كانت توجد مستعمرات عسكرية فسيحة، تكدست على الأخص في محاذاة السور وفي مدينة يورك. ولكن في الجنوب وخاصة في جلوستر وشرقي سومرست وهمبشر وبورثميتنشر كان يوجد. كما يدل الكثير من بقايا المنازل الرومانية المنعزلة. عدد وفير من السكان المدنيين المصطبغين بالرومانية وهناك على الأخص وضعت روما طابعها على السكان الكلتيين وكما جرت عليه الحال في جميع أصقاع الإمبراطورية، كان حكم

(١) يجب ألا يغيب عن البال أنه بين الأقاليم الغالية والحدود، كان يمتد إقليمان (الأعلى والأسفل) يتكونان من شريط ضيق من الأرض تحرسه حاميات عسكرية أمامية ومعسكرات كتائب الراين العظيمة. كانت ألمانيا العليا أعرض الأقليمين إذ كانت تشمل رقعة عظيمة من الأرض البور المتنازع عليها بما فيها الغابة السوداء. وقد عزلها واسفاسيان وجعلها موطن **Coloni caesaria**، وهم زراع مرتبطون بالأرض. ولقد امتدت الثقافة الرومانية هنا، بين القبائل الجرمانية إلى حد أبعد مما كانت عليه الحال في ألمانيا السفلي فوق كبلنز.

(٢) كان هدريان قد أنشأ طريقًا (**limes**) في محاذاة هذا الخط. وقد أقيم في مكان أبعد إلى الشمال، حفرة وجسر من التراب وطريق، من خليج فورث إلى خليج كلايد. ونهض بذلك انطونيس فايوس وأتمه ساورس في ختام القرن الثاني.

روما يعني قيام مستعمرات وطرق عسكرية. ولقد كانت لولسستر ولنكولن ويورك وجلوستر مستعمرات رومانية وكانت فرو ليم (سانت البانس) تستمتع بالتكريم باعتبارها بلدة Munlcipium. وكانت يورك مشهد نتويج الإمبراطور قسطنطين ومنوى الإمبراطور ساورس. ومن الطرق العظيمة كان شارع واطلنج يتجه إلى الشمال الغربي، من لندن إلى روكستر ويسير شارع ارمين من كولشستر بجوار هنتنجدون ولنكلن إلى يورك وكان الطريق من لندن بجوار استينس، يتفرع عند سلشستر إلى شعاب تتجه صوب سوثمبتن وسالسبورى والجنوب الغربي. وجلوستر. وكان طريق فوس يسير بانحراف من لنكولن بجوار ليستر إلى كيرنستروباث. وفد اخليت أرض الغابات للزراعة وكانت بريطانيا تمد كتائب الراين بالحنطة. وكان البناءون البريطانيون معروفين في أوربا الغربية. وكانت المنسوجات البريطانية تصدر للخارج. وكان محار كنت يزداد الطلب عليه في روما على الدوام خيرًا، ففي الأدوات التي يعم استخدامها كالأوعية، أفسدت طرز الزخرفة التي اتخذت طابعا ثابتا، حرية التخطيط القومية الكلتية. وذاعت اللغة الرومانية أولا بين أشراف الكلتيين ثم بين المجموع الأكبر من السكان الوطنيين في الجنوب والشرق. وكان القانون الروماني ومناهج الحكومة عوامل للمدنية قوية المفعول. ويقص فلوطرخوس حديثه مع معلم إغريقي عائد من بريطانيا إلى وطنه على شواطئ المشرق. وبتوسع المسيحية دخلت بريطانيا نطاق الكنيسة. ولقد كشف عن أسس كنيسة مسيحية في سلشتر وامتدت العقيدة الجديدة إلى ويلز وفيما يلي تخوم الإمبراطورية إلى ايرلنده. وفي بداية القرن الخامس أدى الضغط على تخم الإمبراطورية القارى، إلى تخلى الحكومة الإمبراطورية عن بريطانيا(١). وعند انهيار الحكم الروماني استعاد العنصر الكلتي في الإقليم مكانته. وتتمثل في شخص أرثر وهو زعيم كلتي كان يحمل اسما رومانيا وشطره تاريخي والشطر الآخر أسطوري، مقاومة الكلتيين للسكسون، وباحتلال السكسون، زال معظم آثار نفوذ روم. ولم يكن القانون الأنجلوسكسوني يدين بشئ من محتوياته لقانون روما. ولقد تراجعت المسيحية أمام الوثنية إلا في إيرلنده والحصون التي لم تغلب، في ويلز. وأتى الغزاة على المدن الرومانية بالتخريب. أن ما تبقى من آثار الحياة الإقليمية القديمة في بريطانيا السكسونية، كان كلتنا ولم يكن على الأخص

---

(١) عندما التمس البريطانيون الحماية من الإمبراطور أنوريوس Honorius، فإنه أمر مدنهم أن تحمى نفسها على أحسن ما يستطيعون.

رومانيا(١). وفي لندن وهي أعظم المدن الرومانية، لا يوجد شارع واحد باق إلى الآن يمكن أن يبرهن على أنه يسير في خط روماني(٢). ويمكن في الواقع أن يقتص أثر بقية من السكان الكلتيين تحت حكم أسياد سكسون في كنت ووسكس وقد حفظت المساحات التي أخليت من الغابات لزراعة الحنطة. والطرق العظام سجل سياسة روما. ومن بين متنوع الأشكال الزاخرة التي تظهر على أقدم عملة انجليزية. يمكن الرجوع بالكثير منها إلى أصول رومانية. ولا تزال أكثر من ثلاثين مدينة وقرية تحمل أسماء مشتقة من تلك التي كانت متداولة خلال الاحتلال الروماني(٣).– سواء أكانت كلتية أم لاتينية– ولكن فيما عدا هذه الاستثناءات القليلة، لم تترك روما أية علامة باقية على الزمن، في تاريخ حياة بريطانيا(٤).

٣- القانون والأدب

١٧– كانت الفترة التي تقع بيم أوغسطس وديوقلطيان العصر الذهبي للقضاء الروماني الذي نما ووصل إلى الكمال على أيدي نابهي الشراع الذين كانوا يعملون كأعوان للزعامة الملكيية. ولقد فصل القانون المدني القديم عن الزيادات الرسمية والبقايا المتهالكة. وعلى سبيل المثال، فقدت سلطة الوالد **Patria porestas** الكثير من صلابتها التقليدية. ولقد مهد توسيع قرقلا لصفة المواطن الرومي حتى تنسحب على كل سكان الأقاليم الأحرار، الطريق لأدماج قانون الأمم (**jus gentium**) في قانون روما المدني **jus civile** . وأهم مظاهر التاريخ القانوني في القرون الثلاثة التي نستعرضها، كانت:

١– تكملة القانون البريتوري بالمرسوم الدائم.

---

(١) في كل أنحاء انجلترة، تسلم الغزاة السكسون أسماء الأنهار التي كانت كلتية في آخر أمرها، دون تغيير.

(٢) مثال ذلك، تقع أسس الأبنية الرومانية وهي تتقاطع مع خط تشيبسايد **cheapside**. وتسير كثير من الطرق الرومانية على مسافة قصيرة من المدينة مثل شارع: **clapham High street** (شارع استين) **Mile End Road** (طريق لندن– كلشستر) و **Kingsland Road** (شارع ارمين **Ermine Street**) وشارع اكسفورد **oxford street** (الطريق إلى سلشستر وتفرع شارع واتلنج ضوب الشمال عند (**Marblc Arch**)

(٣) مثال ذلك، (**Letocetum**) **Manchester Lichfield** (ربما **Mammium**) و(**Rutupiaec Repata** (**caestir**) **Richborough** و (**Venla**) **Winchester** وقرية **Mancetter** في **Warwickshire**

(٤) عن بريطانيا الرومانية– راجع طاقيطس "حياة أغريقولا" زوج أمه الذي كان القائد في انجلترة في عهد طيطس ودمطيان" وفي هذا القسم كنت مدينا بصفة خاصة إلى معاونة زميلي السابق الأستاذ **F.N.Stemton** ف.ن. استنتون (المؤلف).

٢- نهوض التشريع الأمبراطوري.

٣- إنشاء قضاء علمي.

(١) بلغ النشاط البريتوري في مجال وضع القوانين ذراه في آخر قرن للجمهورية. وقد جرت العادة في عهد الأباطرة الأوائل بأن يتخذ الموظفون البريتوريون مرسوم سالفيهم دون تعديل إلا في النادر. وقد اعترف هدريان بهذه العادة عندما وكل إلى محام جليل وهو سالويس يوليانس **Salvius Julianus** مهمة مراجعة مراسيم بريتوري الأجانب والمدن وأصدار النتيجة التي وضعت في مدونة قانون، كمرسوم دائم **edictum perpetuum** ملزم. ومنذ ذلك الحين، لم يكن في الاستطاعة، إدخال إضافات أو تعديلات. وقد أجرى أيضاً ما يماثل هذا على مراسيم الموظفين في الأقاليم. وهكذا أكمل مرسوم يوليانس، على هذا النحو واختتم مجموعة القوانين البريتورية. وبهذا كان العلامة على توطيد السيادة الأمبراطورية على سلطة الموظفين الجمهوريين نهائيا، في مجال القانون.

(٢) وكانت سلطة التشريع في عهد الجمهورية هي مجلس (**Comitia**) الشعب الروماني. وكان أوغسطس لا يزال يعرض المشاريع الهامة التي تتصل بالاصلاحات الخلقية وعتق العبيد ومركز المعتقين والإجراءات القضائية، على المجلس للتصديق عليها رسميا ولكن منذ حكم طبريوس فصاعدا، تحولت مهامه التشريعية إلى مجلس الشيوخ وكان من بين أعضاء هذا اللفيف كثير من نابهي المحامين وأدت مراسيمه **Senatus Consulta** دورا عظيما في تقدم القانون في القرنين الأولين. وبينما كان الأباطرة يقومون برقابة لا تني تتزايد، على مداولات مجلس الشيوخ، فإنهم كانوا يترددون حتى ذلك الحين في وضع تشريع بموجب سلطتهم الخالصة. ولكن قبل القرن الثالث، كان قد أصبح «للدساتير» الأمبراطورية قوة القانون. وبعد ذلك التاريخ غدت الأداة الوحدة للتشريع. وكانت تشمل: (أ) المراسيم أو الأوامر العامة التي تفسر القانون والتي كان الأمبراطور بما له من سلطة **Imperium** يعلنها على لافتات كما كان يفعل البريتوريون فيما مضى من الزمان. (ب) الفتاوي أو الأحكام المكتوبة عن الالتماسات التي يوجهها إليه الأفراد العاديون والموظفون (جـ) المراسيم أو القواعد التي توضع عن الاستئنافات و (د) الوصايات أي

التعليمات التي تكون لها في الغالب صفة أدارية والتي ترسل إلى حكام الأقاليم ([1]). ويجب أن نوجز شرح أداة سير القانون الجنائي الذي كان قد نظم لأول مرة، تنظيما فعالا، في آخر عصر الجمهورية عندما وسع سلا نظام المحاكم الدائمة (**quaestiones perpetuae**) التي يرأستها رؤساء بريتوريون وتضم قضاة من طبقة الفرسان **equestrian** ويتوارى هؤلاء في ختام القرن الثاني. وكذلك ولاية مجلس الشيوخ للقضاء الجنائي التي منحها أوغسطس لهذه الجماعة. وهنا، مرة أخرى، كان الأمبراطور وهو يعمل عن طريق مندوبيه وخاصة الرؤساء البريتوريين، يجمع كل شلطة قضائية. وعلى هذا ففي الدعاوي المدنية والجنائية، أصبحت منصته القضائية، المحكمة العليا للاستئناف، للعالم الروماني.

(٣) لقد صيغ القانون الروماني، ليس على مذهب سبق تصوره ولكن عن طريق الاستقراء على أساس التجربة العملية وكان يشتمل على مجموعة عظيمة من الأحكام والقواعد المرعية التي ترجع إلى العادات القديمة أو توضع لسد مطالب خاصة. وكانت مبادؤه تجيء ضمنا في تكوينه، أكثر من أن تكون مصاغة في وضوح. وكان أول شارع حاول استخلاص هذه المباديء وتنظيم هذه المجموعة العظيمة من القوانين الخاصة وفقا لطبيعة محتوياتها هو كينتس مكيوس سكاولا **Quintus Mucius Scaevola** الأصغر الذي كان حبسرت أعظم **Pontifex Maximus** حوالي ١٠٠ ق.م. ويمكن أن يقيم سكاولا دعواه بحق، في اعتباره مؤسس القضاء الروماني. ومنذ عهده فصاعدا تقدمت دراسة القانون دراسة علمية، تقدما سريعا. وقد أصدر أوغسطس اعترافا رسميا بعمل الشارعين بأن قرر أن يكون لطائفة منهم. ينتخبون لتفوقهم، حق الأدلاء بأراء بكون لها سلطة أمبراطورية (**jus respondendi ex auctoritate principis**). وكانت إجاباتهم المكتوبة عن مسائل القانون التي تعرض عليهم والتي تسلم للمحكمة مختومة، يلتزم بها منذ ذلك الحين، الموظفون والمواطنون العاديون، الذين غالبا ما يكونون غير متفقهين في القانون، وكانوا يؤدون وائف القضاة **Judices** ومن عهد أغسطس فصاعدا، كان لمدارس القضاء التي نظمت

([1]) من الوجهة النظرية، كانت المراسيم تفقد صحتها عند موت الزعماء **princeps** ولو أن خلفاءهم كانوا، في الكثير الغالب يجددونها. وكانت الفتاوي، تعليمات ملزمة للقاضي في المادة الخاصة بالقضية المتنازع عليها بينما كانت المراسيم، قواعد لها أهمية عامة والوصايا، عندما كانت تعني بنقاط قانونية، كان لها قوة الفتاوي وفي حالات كثيرة، كانت تعالج مواد سياسية مؤقتة. وفي معنى أدق، لم تكن تعد «دساتير».

في جمعيات متحدة، تأثير على تقدم القضاء. يطرد ازديادا ([1]). وهي لم تصغ القانون في مذهب وحسب، ولكن خمرته بآراء نظرية من طراز لم يخطر على بال في أزمن الجمهورية. وقد تجلت بواكير ثمار هذه الجهود للعيان في مرسوم يوليانوس سالف الذكر وفي المجالات المنظمة التي كان يضعها المحامون في عصر هدريان والأنطونيين، من أمثال كالسس celses) وكيكليوس Caecilius وأفريقانس Afrecanus وجايوس Gaius. وقد تبع هؤلاء بين عامي ١٧٠ و ٢٣٠ كينتش كروديس سكاولا وتلميذه بابنيان papinian، أعظم الشارعين الرومان. وكان كلاهما من سلالة هلينية. وكان من خصائص هذا العصر ذي النهج العالمي أن عقل اليونان وضع طابعه على القانون الروماني. وفي عهد ساروس الكسندر (٢٢٢– ٣٥) كان يعيش أولبيان Ulpian وبول Pual وقدم أولهما ويرجع أصله إلى صور، المواد لنصف مجموعة قوانين جوستنيان المختارة ([2]) Justinian's Digest وكان خاتمة الشارعين العظام في منتصف القرن الثالث تلميذ أولبيان Ulpian، الأغريقي هرنيوس مدسطينوس Helennius Modestinus ولم يمض كبير زمن بعد ذلك، حتى حلت الفتاوي الأمبراطورية محل استفتاءات علماء القانون response prudentium وفي التفسير كما في التشريع، يظل الأمبراطور معين القانون الأوحد.

١٨– ولقد بعث أساتذة القضاء العظام أولئك روحا جديدة في قانون روما ويتجلى نشاطهم العقلي فيما بذل من جهد لتقصي النية التي ترجع إليها المعاملات بين المتعاملين وصياغتها في مبدأ منظم لجميع الحالات التي يمكن تصور قيامها. فعلى سبيل المثال، في معالجتهم لقانون الالتزامات فإنهم قلبوا كثيرا وجوه الرأي في العقود التي يجب أن نقدر فيها النية غير المفضوح عنها bona fides. ويقول أحد الثقاة المحدثين «أن قانون الالتزامات، وهو دون سواه، يتكون منه، في أصدق وأدق معنى، القسم الذي لا يغني، من القانون الروماني. وهو لا يمكن الغاؤه. أن نية الشاري والمؤجر الخ هي بعينها في جميع العصور وهي هذه النية التي جلاها القانون الروماني... أنه هذا التمييز العجيب، هذا البصر الصافي في التوفيق بين المباديء المتعارضة، تهديه

([1]) في القرن الأول وبواكير القرن الثاني، كانت توجد مدرستان عظيمتان في روما أسسهما، على الولاء، لابن Laben وأطيوس كابتو Atteius Capito، من رجال التشريع في عهد أوغسطس. وكان يطلق عليهما أسمى أتباع المؤسسين، المدرسة البروكيولية Proculian والمدرسة السابنية Sabinian راجع سوهم Sohm «أنظمة القانون الروماني» $ ١٥.

([2]) كان سكاولا Scaevola عضوا في مجلس دولة مارقس أورليس. وكان بابنيان papinian الرئيس البريتوري في عهد عهد ساورس، زميله القديم في التلمذة، وقتل بأمر قرقلا (٢١٢). واولى ألبيان Ulpian وبول Pual الرياسة البريتورية في عهد ساروس ألكسندر وكان أمبراطورا من السلالة الهلينية.

قدرة لا يعتريها فتورا أبدا، على تبين العناصر المشتركة وهذه الموهبة الفريدة في وضع تعبير ظاهري عن قانون ملازم لحالات معينة وهو القانون الذي إذا وجد، فإنه يأتي بالقاعدة التي تنسحب_ مع تغيرات عملية كثيرة بطبيعة الحال_ على جميع الحالات الأخرى من هذا النوع، هي المظاهر التي تدين لها كتابات الشارعين الرومان بروعتها التي لا تضارع، والعمل الذي حققوه بقوته التي لا تفنى([1])». وفي نفس الوقت، كان هؤلاء المفكرون يبعثون في القضاء الروماني بأفكار مستمدة من الفلسفة الإغريقية، تلك التي قدر لها، في هذا الوسط الجديد، أن تؤثر على فكر العهود اللاحقة، الخلقي والتشريعي. وأعظم مثال يسترعي النظر هو تصور قانون الطبيعة (**Jus natural or naturae**). ويرجع مصدره إلى الرواقية، المذهب الهليني الوحيد الذي آثار استجابة واسعة النطاق من العقل الروماني العملي والذي كان لا يزال في القرن الثاني مدرسة الإغريق الفلسفية التي لها المنزلة الأولى. وكان البيان المسئول أصلا عن أدماج هذا التصور، في تكوين القضاء الروماني. وكان يشمل القواعد العامة للأخلاق، التي تفيض من طبيعة الإنسان ككائن عاقل، بغض النظر عن السلالة أو الزمن كتلك التي تأمر بالاعتراف بآصرة القرابة واحترام التعهدات والتقسيم العدل للكسب أو الخسارة واستعلاء النية على الألفاظ التي عبرت عنها تعبيرا غير مكتمل. وعلى هذا، فإن الرقيق له بموجب قانون الطبيعة، حقوق ينكرها عليه القانون المدني وقانون الأمم **jus gentium** وسنرجع إلى هذا التصور لقانون الطبيعة **jus naturae** في فصل قادم ([2]). لقد كان له تاريخ طويل لايغيب عن الأذهان وقدم مبدأ سيطر

([1]) سوهم $ ١٥ الصفحتان ٧٣– ٧٤.

([2]) راجع فصل ١١$ ١٥ وما يليه. كان من العسير تحديد الخط الفاصل بين قانون الطبيعة (**jus naturae**) وقانون الأمم (**jus gentium**) قد حل البيان المسألة بتعريف أولهما بأنه القانون الذي تشترك فيه جميع الكائنات الحية وثانيهما بأنه ذاك الذي يشترك فيه كل البشر. ولم يأخذ أحد من شارعي ذلك العصر بهذا الرأي، ولو أنه يظهر في مجموعة جوستنيان المختارة **Digest** وفي كتابات القرون الوسطى. وجايوس، وهو روماني خالص ويسبق عهده عظام الشارعين الإغريق والإغريق الشرقيين، هو دون سواه الذي يتعرف هوية واحدة لقانون الطبيعة وقانون الأمم وقد عرف الأخير بأنه «القانون الذي يخصه العقل الطبيعي بجميع البشر» وقد احتذى جوستنيان مثاله في هذا. وتبين حالة الرقيق التي أشير إليها في النص جه الاختلاف. أن الحرب والرق كليهما يناقضان قانون الطبيعة الذي بمقتضاه يولد جميع الناس أحرارا، وهما والعقود يصدرام عن قانون الأمم. قابل «أنظمة» **Iib.i** و **Iit,** ٣و ٢.

Servitus autem est constitutio juris gentium, qua quis domino alino contra naturam subiicitur.

على الفكر الخلقي والسياسي في أوربا الغربية خلال ألف وخمسمائة عام ونيف.

ب- الأدب

١٩- أن أدب الحقبى يرتبط ارتباطا وثيقا بالحياة العامة دائمة التغير في الدولة الرومانية.

(أ) أنجب آخر جيل في الجمهورية شاعرين عظيمين. لقرطيس الذي عبر في شعر من ستة مقاطع عن مبادىء أبيقور الفلسفية، وكاتولوس الذي تضارع قصائده الغنائية قصائد برنز Burns أو هين Heine بينما يذكرنا في مداه وشخصيته ببيرون ([1]). وبين كتاب النثر، يبرز اسمان بروزا ظاهرا. لقد كانت عبقرية قيصر في الأدب تلي فقط عبقريته في الحرب والسياسة. وكانت خطبه ورسائله ذائعة الصيت، كنماذج عليا للأسلوب.

وكتابه عن الحرب الغالية لا يباري كسرد تاريخي عظيم، كما يبعث اخفاء المؤلف لشخصه، تأثرا فريدا بعمله العظيم الرائه ([2]). ولكن أصدق ممثل للعصر كان شيشرون الخطيب والسياسي والجمهوري، الذي مانت كتاباته النثرية- خطبه ورسائله وعحالاته عن الخطابة والفلسفة_ يعترف بها كنماذج للغة اللاتينية بالغة أعلى ذروة في زمنه وفي كل زمن لاحق. واللاتيني الاتباعي (الكلاسيكي) هو اللاتيني كما كان يكتبه شيشرون. ولقد استخدمه شيشرون ليحوي صنفين عظيمين من الآراء- عظمة روما والمثل الأعلى للثقافة الإنسانية. أما عن الأول فيمكننا أن نقتبس ألفاظ نيومن: «لقد أدرك شيشرون في جلاء مكانة عضو الشيوخ والسياسي الروماني»و «منزلة الفخار التي كانت لروما في كل السماحة والعظمة اللتين اتسمت بهما، ولقد استوعب ما كان يعجب به وصار من خصاله. وكما أن مغامرات اسقفيون أو بومباي هي التعبير عن هذه العظمة في الأفعال، كذلك كانت لغة شيشرون في التعبير عنها بالألفاظ. وكما أن أفعال الحاكم

«أن الرق هو من وضع قانون الأمم، وبمقتضاه يصبح الرجل خاضعا لسيد غريب بما يناقض الطبيعة». وكان **jus gentium** يتضمن **jisinter gentes** وهو أقرب ما وصلت إليه الأزمن القديمة للقانون الدولي راجع دائرة المعارف البريطانية المجلد ١١ في موضوع القانون الروماني، الصفحتين ٥٦١ و٥٦٢.

([1]) عن «أبيقورية لقرطيس» راجع عاليه فصل ٦$ ١٨ . لم ينل إلا اليسير من التقدير في الأزمن القديمة، إلا من فرجل الذي يكشف فكره وشعره على السواء، عن نفوذه. ويضعه كونتليان في مصف شاعر من الطبقة الثالثة في عهد أوغسطس وينحيه على أنه أنيق في مجاله ولكنه عسير الفهم (**Inst, Orat** ١٠ فصل ١$ ٨٧) ولقد ترك للقرن التاسع عشر تعرف عبقريته الشعرية.

([2]) في تقدير كونتلينا، أنه لو أن قيصر تاح له وقت فراغ، لتعادلت خطابته مع خطابة شيشرون. وقد كانت تتميز بالقوة وتوخي القصد والحماسة، الصفات التي كانت تتجلى في أدارته رحى الحرب **Inst, Orat** ١٠، ١ ١١٤).

أو الجندي الروماني تمثل لنا، بطريقة خاصة بها، العظمة التي اختص بها سادة العالم فهكذا توردها خطب أو عجالات خطيبها مكتمل الثقافة إلى خيالنا بما لا يمكن لكتابة أخرى أن تفعل».

وما كان لوي أو طاقيطس أو طرنس أو سنقا أو بلني أو كونتليان بالمتحدث عن المدينة الخالدة، الكفيل بذلك. أنهم يكتبون اللاتينية أما شيشرون فيكتب الرومانية ([1]). وقد كانت الخطابة منذ البداية الفن الذي يمارسه الرومان وله عندهم أعظم احترام. ومنذ زمن شيشرون فصاعدا أصبح الموضوع الرئيسي في الأدب وفي التعليم. وكانت قيمة الشعر والتاريخ، والفسلفة وحتى العلم انحصر في أنها عوامل للفصاحة. وكان مطمح الشاب القدير في إيطاليا والأقاليم أن يكون خطيبا. وكانت جميع دراساتهم في المدرسة وفي الجامعة تنظم كترويض لبلوغ هذه الغاية. واستمر تأثير شيشرون، وهو يعمل عملا مباشرا، على هذا النحو في جيله والأجيال المتعاقبة، دون انقطاع خلال القرون الوسطى حتى الأزمنة الحديثة. وبينما قدر لشيشرون الجمهوري أن يلهم الثورة الفرنسية، فإن شيشرون، الباحث في طبيعة الإنسان أثر تاثيرا عميقا في ثقافة عصر النهضة. وقد ينعدم في عادة كتاباته الفلسفية الابتكار وقوة التفكير، ولكن شهرة شيشرون كأعظم رجالات الأدب الذين عاشوا أبدا ترجع اكثر ما ترجع إلى مأنه وحد في شخصه الرجل المفكر ورجل الأعمال وفوق كل شيء إلى أنه استوعب وعبر عن الروح الحضرية والمعرفة بالطبيعة الإنسانية وهو ما يتميز بهما عصر المدنية الإغريقية الرومانية.

وبفضل المحافظة على رسائله، فإن لدينا معرفة به أفضل من معرفتنا بأية شخصية تاريخية أخرى في الزمن القديم.

٢٠- (٢) وكما أن الحرب مع قرطاجنة هيأت موضوعاالأنيوس وهيأ غزو الغال موضوعا لقيصر- فهكذا كان لم شمل العالم المتمدين في عهد أوغسطس، معين الالهام الأساسي لكتاب عهد أوغسطس. ولما كان قد ربا ازدهار هذا العهد في كل مجال تقريبا في الشعر والنثر على السواء، فقد كان كما يدل اسمه، عصرا للرعاية الأدبية المباشرة من جانب الإمبراطور ووزراء دولته، وأنا لا نزال نتحدث في شيء من السطحية عن عهود كأمثال عهدي لويس الرابع عشر

([1]) «فكرة جامعة» (محاضرة في الأدب) الصفحتان ٢٨١ و٢٨٢. أن معنى العبارة الأخيرة، بطبيعة الحال، ليس أن أسلوب شيشرون كان أسلوب الروماني النموذجي ولكنه يعبر تعبيرا بالغا عن فخر وجلالة الدزلة الأمبراطورية. وقد اتهمه بعض المعاصرين بأنه «متبجح وآسيوي ومتغال بغير حق» (خطابة شيشرون، طبعة ساندر Sandys، المقدمة صفحة ٦٠).

أو آن **Anne** بأنها عهود "أوغسطية" في الأدب الفرنسي والانجليزي. وكان حدب أوغسطس حرا وسخيا وعمل دون ريب كحافز لرجال الأدب للإشادة بالإمبراطورية وحاكمها. ولكن أهم مصدر للإلهام كانت الإمبراطورية نفسها– العصر الذهبي للقانون والسلام– الذي كان يظهر بأنه يضم البشرية المتمدينة كلها، وأنه وضع حدا، إلى الآبد لفوضى واضطراب الحروب الأهلية. وقد صنف لوى، وقد تملكه احساس بهذا العمل الجليل، تاريخ روما من بداياته الأسطورية إلى قمة البنيان الذي وصل إليه أوغسطس، وحتى هوريس الذي كان جمهوريا فيما سبق، تحول عن مباهج مزرعته السابنية الوادعة ليمجد عمل الإمبراطور وواجب حب الوطن في طائفة نبيلة من القصيد الغنائي[١]. ولكن القصيدة التي تظل إلى الأبد التعبير الرائع عن بهاء وعظمة روما هي الانياد لفرجل. ولقد ألهم بكل سطر تقريبا احساس بالمصير الالهي للمدينة الإمبراطورية التي غدت في ذلك الوقت سيدة العالم **nunc maxima rerum**. لقد رسم القدر أن يساق انياس **Aeneas** ليضرب في الآفاق برا وبحرا بعد سقوط طروادة إلى أن أوجدت له عناية السماء مستقرا على التربة اللاتينية كجد لمؤسسي روما[٢] وكان التقى– الولاء البنوى للالهة– هو الدافع لكل أعماله، لهجرانة ديدو **Dido**، مؤسسة قرطاجنة، عدوة روما التاريخية ولرحلته في العالم السفلى حيث شاهد أشكال عظماء الرومان الذين سيتمخض عنهم المستقبل ولتحالفه مع أمير لاتيني وتأسيسه مدينة لاتينية[٣]. ومن البداية إلى النهاية يداخلنا الوعي بغرض الشاعر وهو أن يخبر عن مبلغ الجهد الذي بذل لوضع أساس سلالة روما[٤].

---

(١) توجد القصائد الغنائية المشار إليها في الكتاب الثالث **Odes** ١– ٦ و **Odes** (١)، ١٢، ٢١، ٣٥، ٣٧ و(٣)، ١٤ و(٤)، ٢، ٤– ٥، ١٤، ١٥ و **Carmen Secularc** تعالج نفس الموضوع. وينصح إلى القارئ الذي لا يلم بالآداب القديمة (الكلاسيكية) ألا يحمل نفسه مشقة قراءة لوى حتى ولو كان مترجما وهو كمؤرخ، أقل مرتبة من الإغريق ومن قيصر وطاقيطس بين الرومان.

(٢) انياد: ١، ٣٢ (**acti fatis**)– قابل ١، ٢٠٨– ١٠.

(٣) انياد: ١٢، ٨٣٨–٩. كانت كبرياء الرومان تتميز تقواهم (انياد: ٦، ٧٨١، ٨٢٣). ولقد أدرك فرجل أن المزاج الروماني كان مسالما وليس محاربا (انياج: ١، ٢٨٦ **Romanos verum dominos gentemque togatam** "أن الرومان، أسياد العالم، السلالة التي ترتدي ثوب السلام").

(٤) اياد: ١، ٣٧– قابل ١، ١– ٣٠٠ و٦، ٧٦٩– إلى النهاية و٧، ١– ٢٨٥ و٨، ٦٠٨– إلى النهاية و١٢، ٧٩١– ٨٤٢ وهي نصوص تتضمن فكرة روما الامبراطورية. وقد دفع فرجل إلى كتابة مؤلفه الأسبق **Georgics**– "أعمال الزراعة"– أصلا، حبة لحياة الريف، ولكن أيضا رغبة أوغسطس الصريحة في اجتذاب الارستقراطية الرومانية للعناية بالزراعة.

٢١- أن أدب ما بعد العصر الأوغسطي يختلف جدا في نغمته. لم يكن إلا لحظة أن أمكن لنبع الخيال الخالق أن يجد الرضى في واقعة قيام الإمبراطورية وما كان باستطاعته أن يعقد اتفاقا دائما مع ما كان في نهاية الأمر حكما استبداديا عسكريا. وأنا نرى آيات التغيير بادية في أوفيد آخر شاعر في العهد الأوغسطي. ولما كان أوفيد رجل متعة لا يأبه لشيء ولا يقيم وزنا لمسئولية والحب للمجتمع وعالم العاصمة البهيج. فإنه كان يملك مهارة عجيبة في القريض والصنعة الشعرية ومما له دلالة أعظم، في وضع القصص الإبداعي (الرومانتيكي). ولم يكن أوفيد شاعرا من الطراز الأعلى ولكن واحدا من أحسن شعراء الطبقة الثانية في الأدب[1]، وهو جدير بتنويه خاص في هذا المقام لأن أحسن عمل له، "التحول" "**Metamorphoses**" حيث تنعكس شخوص الأساطير الإغريقية من خلال جو ابداعي غريب، كان له تأثير عميق على العصور الوسطى وعلى عصر النهضة كليهما، وكان دانتي يستمد منه معرفته بالأسطورة الإغريقية. وكان المرجع الكلاسيكي المحبوب لمونتيني **Montaigne** عالم الآدات القديمة. وأوسع من ذلك في مداه هو جين العصور اللاحقة لسنقا القرطبي وزير نيرون، الأول وضحيته، والرجل الذي يجئ في مقدمة أدباء زمنه.

ولقد وضع صنفا مصنفات هائلة وفي أسلوب زاهي الألوان ومؤلفة في الطبيعة، ولو أنه يخلو من قيمة علمية فإنه قوبل على أنه من الأسانيد، في العصور الوسطى، ومآسيه وهي تزخر بالثرثرة المضنية كان يضعها بن جنسون **Ben Jonson** في مصاف مآسي كتاب الفاجعة الأتيكية[2].

أما المجالات الأخلاقية، من الناحية الأخرى، فإنها في الأسلوب والمادة على السواء أكثر استحقاقا، لما كان لها من صيت عظيم في الزمن السابق. ولقد عالجت عقائد المذهب الرواقي في صورة أنيقة وجذابة وكانت تتميز بالإخلاص في العقيد. وبالبصيرة النافذة في طبيعة البشر، وبإدراك صاف للمبادئ الفلسفية. وكانت في نظر علماء الدراسات القديمة في القرن السادس

---

(١) لقد كان "شاعرا تعشق الشعر عشقا جارفا"، إذا كنا لنقتبس تقدير الأستاذ جلبرت مرى أوفيد في "مقالات وخطابات".

(٢) مكيل: "الأدب اللاتيني" في السطور التي كتبها بن جونسون على أول طبعة من الحجم الكبير لشكسبير، نقرأ: ولو أنك حصلت على القليل من اللاتيني، والأقل من الإغريقي ولهذا فإني لا أبحث، لتكريمك عن أسماء ولكن استدعي اسخولس الراعد ويوريبيدس وسنفوكلس إلينا وباكوفيوس **Pacuvius** وأتيوس، وذاك القرطبي، الموتى، إلى الحياة مرة أخرى ليسمعوا حذاءك الثقيل يخطو ويهز مسرحا.

عشر وحتى لديكارت في القرن السابع عشر. تعتبر القول الفصل في موضوع الخلاق، أن هذا واحدا فقط من أمثلة كثيرة للقيمة التي لا تناسب فيها تلك التي كانت تضفي في القرون الوسطى وفي عصر النهضة على كتاب ما بعد العصر الأوغسطي الذين نقلوا تراث الزمن القديم الاتباعي النبيل. وفي الواقع، لم يكن صنفا بالسياسي العظيم أو المفكر العظيم، وكانت أهميته كرجل يقوم بالوساطة في الثقافة تربو على مزاياه الحقيقية(١). وفي عطفة على ضعف الإنسان وترحه، فإنه كان يضرب على نغمة غريبة على تقاليد الرواقية الصادقة، وكان يعلن مقدما عن المشروعات الخيرة التي نهض بها أباطرة القرن الثاني. وكان وجود هذه الروح الجديدة في كتابات سنقا، هو الذي سبب قيام الأسطورة المسيحية عن صداقته الشخصية للقديس بولس. كذلك لا ينبغي أن نتجاهل الدور الذي قام به في العملية النسقية التي تغير بها صوغ اللاتيني الاتباعي إلى ذلك الذي كان في القرون الوسطى(٢). واعتبار آخر مماثل يرتبط باثنين أخرين من معاصريه وكلاهما لاقى المصير الذي لاقاه على يدي نيزون هما لو كان **Lucan** ابن عم سنقا الذي تغني بالحروب الأهلية بشعر الملحمة وبعواطف جمهورية، ونترونيوس أربتر الذي وصلتنا قصته وهي تصف مغامرات معتق إغريقي في ايطاليا، وهي لا تعطينا صورة رائعة للأخلاق الاجتماعية فحسب، بل

---

(١) إن كونتليان الذي كان يقدر مزاياه بينما يشعر بالأسى لتأثيرات أخطائه الضارة على الذوق المعاصر، يختتم نقده بهذه العبارة: "لقد حقق الهدف الذي نصبه أمامه ومع هذا فإن طبعه كان يهيئه لغراض اسمى" (**Inst. Orat**: ١٠، ١، ١٣١).

(٢) في روايات سنقا الفاجعية تصلب وزهو ولكن لسنقا اهمية حقيقة في "ديالوجاته ورسائله" لأنها تعرض اللاتينية في مرحلة تكون فيها قد اكتسبت مرونة اللغات الحديثة التي انحدرت من اللاتينية الدراجة (الرومانسية). ويستبين منه حرية مستحدثة في استخدام المصادر والصفات كأسماء وفي التوسع في استخدام حروف الجر التي يمكن أن تحمل في دقة، معناها في الفرنسية. وكان مجددا في اختراع الألفاظ أو على أية حال في تقديم الكثير منها في الكتابة المحترمة. وعلى سبيل المثال تلك الأصول اللاتينية للألفاظ

"Inspector", "favourable", "vulnerable", "temporary"

ومن العسير تقدير إلى أي مدي كان حديث الأشخاص العاديين أو المثقفين يختلف عن أسلوب اللاتينية الذي فرضه على العالم تفوق شيشرون، ولكن من الجلى أن سنقا أدخل الكثير من الألفاظ النافعة التي كانت حتى ذلك الحين تعتبر عامية، في النثر الجيد. أن الكسب الذي جلاه في مرونة اللغة ملحوظ. ولو أنه يغلو في الرغبة في تحديد النقاط، فإنه يكتب في أحسن ما يستطيع في حرية ونهج طبيعي، كما في العصر الحديث تماما. وكما في العصر الحديث أيضا تمكنه من وضع الجمل القصار وفضحه ضعفاته الصغيرة الخاصة به ومظهره الواثق بأن القارئ يعني بالصغائر التي تتصل به. ويرجع أهمال كتاباته إلى القرن التاسع عشر وهو ليس حقيقا به. لقد تعلم مونتاني أستاذ المقالة الحديثة الكثير منه (عن هذه التذكرة، أقر بأني مدين لعطف السيد فرنون رندال **Mr. Vernon Rendall**)

أن الشذرات الفريدة الباقية منها تعد النموذج الوحيد للكلام الشعبي في عهد الإمبراطور الباكرة[1].

٢٢- وتعرف الفترة الواقعة بين واسفاسيان وهدريان بالعصر الفضي في الأدب اللاتيني. ومن بين طائفة من الكتاب، يبرز ثلاثة، لما كان لهم من نفوذا على الأزمن اللاحقة وهم استاتيوس **Statius** وكونتليان اللذان عاشا في عهد دميطان، وطاقيطس الذي عاش في عهد ناروا وطريان. أن استاتيوس يلم به جميع قارئي ملحمة دانتي الكوميديا اللاهية **Divina Commedia** على أنه الشاعر الذي صحبت روحه الحجاج في المطهر وبعد رحيل فرجل، صعد مع دانتي وبيترس **Beatrice** إلى الفردوس ويرجع بعض ظفره بهذا التكريم إلى صفته كشاعر ملحمة، اقتفى ولو من مسافة بعيدة خطى فرجل. ولكن يرجع معظمه للأسطورة الغربية التي سجلت تحوله للدين المسيحي. وكانت لكتابات كونتليان قيمة ذاتية عظيمة وأتت بتأثير أوسع نطاقا. وكان على مثال سنقا، أسباني المولد، وقام في روما بمهنة التعليم والمحاماة. وكان يسهم إلى أتم حد في التحمس الروماني للخطابة ونشر في عام ٩٣ أهم أعماله "شغف الخطابة" **Institutio Oratoria**. وكان لإعادة الكشف عنه في القرن السادس عشر ما ميز عصرا في تاريخ أحياء الآداب القديمة وفي الاثني عشر كتابا التي كان يضمها مع كثير من المواد الأخرى التي تتصل بدراسة الفصاحة. أدمجت مراجعة لكل نطاق الأدب الإغريقي والأدب اللاتيني لا يضارعها شيء في العصور القديمة في سعة النظر والحكم التقديري، ومبحثان عن تعليم صغار الأطفال وأولئك الذين بلغوا سن النضوج. وكان هذان الأخيران هما اللذان أثارا بصفة خاصة، عقول علمكاء القرن السادس عشر الذين وجهوا تفكيرا جديا لمشاريع الإصلاح التعليمي. ولقد حملت العجالات عن التعليم في جميع الأزمنة، في معظمها، طابع الوسط من الجودة، ولكت عجالة كونتليان هي استثناء مكرم. وفي أسلوب يتسم بالوقار والصقل ويتجرد من الحشو والادعاء على السواء وضع خطة

---

(١) لقد نشأت الرواية لتبقى. ويرجع أصلها إلى الإغريق في العهد الهليني ولكن كتابة "التهكم" **Satura** الرومانية أضافت عنصرا جديدا. وفي منتصف القرن الثاني كان أفولايس **Apulelus** أهم كاتب روايات نثرية، لاتيني وأشهر أعماله قصة **Cupid** و**Psyche** في الكتب ٤- ٦ من **Metamorphoses** (أو الحمار الذهبي). وقد قام ولتر باتر **Walter Pater** بترجمة القصة في "ماريوس الأبيقوري" وفي ترجمة لويب **Loeb** لافولايس وفي طبعه أندور لنج **Andrew Long** لنسخة أدلنجتون **Adlingion** وروبرت جريفس **Robert Graves** في **Penguin Classics**. راجع مكيل "الأدب اللاتيني".

مجملة للتعليم الذي يناسب رجل الإمبراطورية الروماني في مبادئ تصلح لكل عصر(1). وزيادة على هذا فإن كونتليان وهو يحتذي بدقة مثال شيشرون، حدد، للخير أو للضر، تصور الفصاحة الذي ظهر بمثل هذا الكبر، في التعليم الروماني المتأخر وتعليم القرون الوسطي. والاسم الثالث الذي يستدعي التنويه، ليس على الأكثر لعظمته التي لا يرقى إليها تساؤل، ككاتب ولكن لما كان له من تأثير على حكم الخلف، هو اسم طاقيطس، وفي الجو المنسجم الوادع الذي ساد حكم طربان "وهو زمن تاح للناس فيه أن يفكروا فيما يشاءون وينطقون بما يفكرون"، كان يتطلع إلى الوراء إلى تلك الأيام التي كانت ترتعد فيها فرائص المجتمع تحت وقع شكوك طبريوس المشئومة، ونزعات ميرون الجامحة. وعندما عملت جيوش المطالبين بالعرش المتنازعة تخريبا في العالم الروماني عند موت نيرون، وفي "الحوليات" و "التواريخ" وسم حكام القرن الأول سمة لا تمحي من تحكمه ومقته. وطاقيطس، إذا لم يكن أعظم المؤرخين الرومان فإنه كان أعظم كاتب روماني للتاريخ

---

(1) لقد ترجم بتلر **Butler** كونتليان في سلسلة لويب **Loeb**. يوجد عرض الأدب الكلاسيكي (الاتباعي) في الكتاب العاشر فصل ١ ومعالجة موضوع التعليم في الكتابين ١ و١٢. كان كونتليان يذهب إلى أن مساوئ العصر الخلقية ترجع إلى التنشئة الناقصة ومن بين أشياء كثيرة، كان يلح في إظهار قيمة الأدب في التعليم وضرورة دراسة أحسن المؤلفين، في سن الشباب وفيما يسببه حشو الذاكرة من ضرر وكذلك الكتب المدرسية التي ينخفض مستواها وعن الحاجة إلى أفضل المدرسين، للبادئين وأضرار العقوبة البدنية وقيمة الحركات الإيقاعية الجيدة والتمارين الرياضية. وعن التعليم في عهد الإمبراطورية الباكر راجع هاتش **Hatch** "محاضرات هبرت **Hibbert Lectures**" (١٨٨٨). وعن تأثير الآراء والعادات الإغريقية على الكنيسة المسيحية، محاضرة: ٢. ولقد كانت توجد مدارس ثانوية في البلدان وجامعات في أهم المدائن في جميع أرجاء العالم الروماني. وكانت تدفع إلى الأساتذة رواتب عالية من المنح التي تصرفها الدولة وبالإعفاء من أثقال البلدان وهي ميزة كان نفعها يطرد ازديادا. وكان لدي معلمي الجامعات اجازات ويختارهم: أما الإمبراطور (وزان أستاذ رجيوس **Regius** عندنا) وأما المجالس المحلية وأما لجان خاصة، من الناخبين. وكان المعلمون والطلاب يرتدون ملابس الأكاديمية. ويرجع تاريخ لفظي "**Professor**" و"**faculty**" إلى هذا العصر. وفي الواقع يكون المذهب الروماني مرحلة في تطور "الجامعة: وهي فترة انتقال تقع بين الأكاديمية الأفلاطونية وما أعقبها من أكاديميات إغريقية، من جهة، وجامعات العصور الوسطى والحديثة من الجهة الأخرى. وكانت فروع التعليم الأساسية في عهد الإمبراطورية (أ) النحو أي دراسة أساليب الحديث والأدب النيق. (ب) الفصاحة أي دراسة وممارسة التعبير الأدبي والجدل ويشمل الإنشاء المبتكرة وكذلك المنطق. وهو ما كان يصل بهم إلى (ج) الفلسفة. ويقص ديو خروسسطوم **Dio Chrysostum** كيف وجد في مستعمرة إغريقية شمال الأكسين أن كل واحد من السكان على التقريب كان يعرف الالياذة عن ظهر القلب. ولقد أصبحت عادة القاء المحاضرات العامة ذات شأن عظيم أضافت (كما فعلت رعاية الدولة) إلى تدهور الحياة العقلية بإيجاد تعطش في المحاضرين إلى العرض الشعبي وحب استطلاع سطحي في المستمعين. ووجود رغبة صادقة في المعرفة، أيضا، توضحه قصة أونفيس **Eunapius** عن طالبين في كلية، لم يكن لهما إلا رداء واحد فكان على أحدهما أن يلازم فراشه، بينما كان الثاني يختلف إلى المحاضرات.

وبقوة أسلوبه، واتقانه للنوادر والأراجيز وضروب الايعاز واللمز ودهائه في تحليل الدوافع فإنه وضع لمدى خمسة عشر قرنا قرار العالم المتمدين على الإمبراطورية الباكرة. أنه أحد انتصارات البحث التاريخي الحديث، إنه قلب ذلك الحكم أو على الأقل عدله تعديلا عميقا. ولم يعد بعد طاقيطس أو تهكم وسخرية معاصره يونال **Juvenal** كافيين لهداية تقديرنا لروما الإمبراطورية. ولكن ما وجهاه من تهمة مروعة عن انحطاط الحياة والأخلاق الرومانية واحساسهما بالاصطدام بالواقع المرير يبرزان على نقيض فاجعي، مع الآمال التي حيا بها فرجل، قبل ذلك يقرن مؤسس الإمبراطورية، كرسول عصر ذهبي.

٢٣– وبين طاقيطس وأوغسطين لا توجد شخصية من الطراز الأول في الأدب اللاتيني. ولقد وصلت إلينا مجموعة عظيمة من الكتابات من القرون الثلاثة التي تقع بينهما معظمها من وضع مؤلفين مسيحيين، وتتباين في أغراضها ويمكن للعالم اللغة، على سبيل المثال، أن يتقصى التغير المنوه عنه آنفا، من اللاتيني الاتباعي (الكلاسيكي) إلى لاتيني القرون الوسطى. والقصيدة الجميلة **Pervigilium Veneris** في استخدامها الموشحة والمرجع (المصراع) تعلن مقدما عن شعر البروفانس في بواكير العصور الوسطى[١]. وفي بداية القرن الخامس، وضع جيروم **Jerome** في غرفة سجنه في فلسطين الترجمة اللاتينية للكتاب المقدم (**Vulgate**) التي كان لها تأثير على مستقبل اللغة يبلغ في عمقه تقريبا، ما كان لترجمة لوثر من أثر على اللغة الألمانية أو الترجمة المعتمدة في ١٦١١، على اللغة الإنجليزية، وكان أوغسطين معاصر جيروم في الغرب، آخر مؤلف لاتيني ذي عبقرية أصيلة. ولما كان يقف على الخط الفاصل بين العصور القديمة والعصور الوسطى فإنه يمثل امتزاج الثقافة اليونانية الرومانية التي أصبحت الآن في حشرجة الانحلال وروح المسيحية المظفر. أما عن عمله كمفكر وعالم لاهوت ونفوذه الذي لا يمكن حصره، كثقة، في العالم المسيحي الغربي، فإننا سنتحدث في فصل قادم. وننوه هنا فقط باحترامه لروما والقانون الروماني وبالحماس الذي استوعب فيه فكر وأدب الماضي. ولو أنه قرأ حكم السماء في تدمير الأرق **Alaric** لروما، فقد برر دعوى الإمبراطورية الحقة في حكم العالم على أنها الجائزة الجديرة بها فضيلة روما. ولقد استمدت أدلة الكتاب الثاني لدانتي **de Monarchia** من كتاب أوغسطين، "مدينة الله" (**Civitas**).

---

(١) راجع مكيل ص ٢٤٣– ٦. واضع القصيدة غير معروف وتاريخها غير محقق ولو أنها دون نزاع تنتمي إلى هذه الفترة المتوسطة.

وقد بقيت رابطة الأدب اللاتيني الوثيقة، بحياة الدولة الأمبراطورية محفوظة في هذه المقالة الأخيرة العظيمة لروما القديمة. وعند بويثيس وزير ثيودرق ملك القوط الغربيين، في القرن السادس، وهو كاتب جدير بالتنويه لتأثيره على علم القرون الوسطى أكثر من وجود ابتكار عقلي لديه، وصل الأدب اللاتيني إلى ختامه ([1]).

٢٤- وفي الوقت نفسه، في الأقاليم الشرقية احتفظت اللغة والأدب الإغريقيين على ما لهما من مركز. وقد خلق ذيوع الهلينية في الغرب للمؤلفات الإغريقية جمهورا أعظم انتشارا وكان كل روماني مثقف في استطاعته أن يقرأها في مظانها الأصلية.

وقد وضع مؤلفون اغريق كتبا لا عد لها في التاريخ والسير والعلوم الطبيعية والرياضية والنقد الأدبي والفلسفة في القرن الذي يقع قبل وبعد ميلاد المسيح. ويرجع تاريخ مصنف جالن Galen في الطب وهو فاتحة عصر، إلى النصف الأخير من القرن الثاني. وسنعالج في الفصل التالي نهج الفكر الفلسفي وقيام على اللاهوت المسيحي. ويجب هنا ذكر اسم فلوطرخوس من خايرونيا الذي أحيا كمواطن وككاتب، شيئاً من أفضل روح سادت أزمنة اليونان العظام. وقد كتب كثيرا وعن موضوعات عديدة من بينها علم الأخلاق والدين ([2]). ولكن يرجع صيته لدى الخلف على الأخص إلى سيره التي لا تضارع لمشاهير إغريق ورومان الماضي، ولم يكن فلوطرخوس مؤرخا عظيما، ويرجع بعض السبب في متابته إلى النهوض بالمعرفة والبعض الآخر لتحمس عارم للخليقة النبيلة والعمل النبيل. وربما كان تأثير «سيره» على الأدب والتاريخ، أوسع نطاقا من تأثير أي مصنف وحد آخر من العصور القديمة الأتباعية. ولقد هيأت لشكسبير مادة فاجعاته وقطعت شوطا بعيدا في بعث المثالية الجمهورية في زعماء الثورة الفرنسية، وهي لا تزال تكون أفضل تمهيد للصغار_ والكبار، للتاريخ الإغريقي والروماني، ولجميع عشاق الشخصيات التاريخية، تقدم بهجة قوية اليوم، كما كانت تفعل منذ ألف وثمانمائة عام خلت.

([1]) عن أوغسطين، راجع ما يلي فصل ٩ و٢٢ وعن بويثيس فصل ١٠ و٨ وفصل ١١ و٨.

([2]) عن فلسفة الدين عند فلوطرخوس، راجع ما يلي فصل ٩ و٧ و ١٠ وفصل ١١و ٨.

٢٥– كن التغيير من جمهورية إلى أمبراطورية أحد عوارض التغير الأكثر تدرجا وأبعد غورا، الذي كان يطرأ على فكرة وحياة العالم الإغريقي الروماني لقد نهضت المدنية الهلينية وازدهرت وهي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بدولة_ المدينة وسبب إلغاؤها بحكم استبدادي عالمي، ثورة في نظر الناس العقلية والروحية.

ومنذ ذلك الحين فصلت المثل العليا للحياة، عن النشاط السياسي والتمس الناس العزاء والعون، أما في التفكير الفلسفي وأما في دين خارق الطبيعة. ولقد رأينا عندما كنا نتحدث عن العالم الهليني في عهد خلفاء الإسكندر كيف أن المدرستين الفلسفتين اللتين كانا لكليهما السيادة، الرواقية والأبيقورية ادعتا أنهما تسدان هذا المطلب لروح الفد، بمنعزل عن حياة الدولة العامة. وفي الدين، برهنت جهود أوغسطس المحافظة، لإعادة العبادات القومية العتيقة على عدم جدواها. ولم تستطع التغلب على المعتقدات الغربية الجدد التي ذاعت في هذا العصر من العالم الشرقي إلى روما. لقد وجدت ديانات أزيس وكوبيلا **Cybele** ومثرا **Mithra** أتباعا كثيرين، في المدينة الأمبراطورية وفي أرجاء الأقاليم، بين أولئك الذين لم تكن لديهم قدرة أو ميل لمتابعة مسالك الميتافيزيقيا (ما وراء الطبيعة) الصارمة. تلك المسالك التي لم تتيسر إلا للحيك وللقوى وهم قلة. وقد تحول آخرون، وهم في حاجة مماثلة للرضى الروحي صوب جهات أخرى وعلى الأخص صوب الشرق. وكان الشرق بدوره يتحول صوبهم؟ وسنتحدث في الفصل التالي عن طبيعة ونتائج هذا الاتصال، وقد دل كحافز خالق وكمثير لرد الفعل، على السواء. على أنه أعظم أزمة في تاريخ البشر، أهمية.

٢٦– وجنبا إلى جنب مع هذا المطلب للرضى الروحي من جانب الفرد، نلحظ وعيا يطر ازديادا بشعور إنساني عام ينتظم البشر. ولقد رأينا الإفصاح عنه، في تصور الشارعين لقانون الطبيعة وفي إنعكاس العالمية الرواقية داخل مجال القانون، وفي أساليب حب البشرية العام التي استتنها عناية الأباطرة العظام الأبوية في القرن الثاني: طريان وهدريبان والأثنان الأنطونيان، وأكثر من هذا روعة هو وجود هذا الإحساس بأخوة عامة في قصيدة الملحمة التي وضعها فرجل. لقد تحدثنا عن الأنيد كأنبل أثر تذكاري يبقى على الزمن لعظمة الأمبراطورية الرومانية وهذه هي

الفكرة التي عبر عنها تنيسون في أبياته عن فرجل:

والآن لم تعد ساحتك بعد تعج بالأصوات

وهوت كل قبة أرجوانية لقيصر

ولو أن محيطك يتلاطم بنغم

إيقاعي أبدا لروما الأمبراطورية.

ولقد عبر شعراء لاتينيون آخرون، ولو في شعر أقل روعة، عن إحساسهم بعظمة روما الأمبراطورية. ولكن توجد خصيصة أخرى في شعر فرجل ليس لها نظير في الأدب السابق. أنه يتطلع إلى الحياة في سعة من العطف وأحساس مرهف عام عميق، وهذا ما يناقض مناقضة عجيبة الكبرياء العقلية والثقافة الشاملة اللتين كان يتميز بهما أدب وفلسفة سابقيه. أن فرجل في تعميم شعوره هو رسول جديد في تاريخ البشر الروحي. وقد كانت الأجيال اللاحقة التي نشأت على العقيدة المسيحية تبرزه من بين كتاب ما قبل المسيحية، على أنه روح بالطبيعة مسيحية **anima naturaliter Christiana** أي دون عون من وحي. ودون شك، كانت أرجوزة الرعاة الرابعة الشهيرة، التي تنبأ فيها الشاعر بعودة العصر الذهبي بلغة توحي بطريقة تلفت **Eclogue** النظر، بنبؤات أشياء عن مسيا، الواعز بهذا التبجيل نحو فرجل، لروح القرون الوسطى الباكرة غير الناقدة [1] ودون شك كذلك كان الشاعر الأمبراطوري يسهم في أعينهم، في القداسة الخاصة التي كانت ترتبط بأنظمة الأمبراطورية الرومانية. ولكن الشعور كان ينبغ من شيء أعمق من هذه الدوافع الأكثر وعيا. أن فرجل وحده من بين شعراء ما قبل المسيحية كانت تؤثر فيه «موسيقى الإنسانية، الحزينة الساكنة»، في سعة من الرفق الإنساني تعلن مقدما عن رسالة المسيحية الديمقراطية. وفي الكتاب السادس من الأنيد يطالع أبو روما في العالم السلفي، الموتى يحتشدون على الشطوط بالقرب من «برك ققوطس **Cocytus** العميقة وغدير استوجيا **Stygia**». و «هنا أكتظ الجميع وامدفعوا منهمرين إلى الشاطيء أمهات ورجال وأبطال جسورون، موتى انقطعت أسبابهم بالحياة وغلمان وبنات لم يتروجن وأطفال وضعوا وهم صغار على النعش أمام أعين والديهم، جموع حفل كأوراق تهوى متساقطة في الغابات في أول بواكير

(1) راجع ما سبق صفحة ٦٦ تذكرة ١. كان الكتاب السادس من الأنيد **Aeneid** السبب في أن يعتبر فرجل أيضاً ثقة فيما يتعلق بعالم ما وراء الطبيعة.

صقيع الخريف أو الطيور تهبط أسرابها صوب الأرض من الخليج العميق عندما يقتلعهم قر السنة من فوق البحار، ويسوقهم إلى أراض تغمرها الضحوة. ولقد وقفوا يتوسلون ليتاح لهم أول عبور، وبسطوا أيديا منفعلة إلى الشاطيء الآخر»([1]). ويمكننا أن نقتفي رغبة فرجل في الحياة فيما يلي القبر، وهي أكثر دنوا من روح الرجاء المسيحي عن أي قول نطق به الفلاسفة الإغريق. أنه لم يكن مجرد اخلاص جمالي لشاعر نحو شاعر، أو مجرد صدر تقليد شعبي ذلك الذي حدا بدانتي لأن يلتمس هداية فرجل عبر الجحيم والمطهر، إلى عتبة الفردوس المسيحي.

٢٧- والعصور الوسطى وهي قوية في نزعة الاعتقاد بالحق الموحي به. جسرت على أن تفسير تاريخ الأمبراطورية الرومانية في ضوء الخطة الألهية حكم ينتظم العالم. ولقد راوا في عمل يوليوس وأوغسطس كما في قصة الشعب العبري المختار **praeparatio cvangelice**.

ومن الجهة الأخرى فإن المؤرخين النحدثين قدر رضوا بقصر بحثهم وحكمهم على نتائجها الفعلية على سعادة البشرية ومدنينها. وإذا ما سألنا بهذه الروح ماذا كان يعني توطيد المذهب الأمبراطوري للعالم الروماني، فيجب ألا يكون اعتمادنا فيما نصل إليه من نتائج على المؤلفات التاريخية الأدبية التي تعبر عن عداوة أصحاب المثل العليا الجمهورية، الطبيعية اكثر من اعتمادنا على الأدلة عن نتائج النظام على الملايين الصامتة الذين كان صالحهم الشأن الأول لدى الحكومة الأمبراطورية. أنه في تنظيم الضرائب تنظيما عادلا، وفي تطبيق القانون دون محاباة، وفي تأسيس المدن والأعمال العامة، وفي نهوض التجارة دون عائق، وفي توسيع حقوق المواطنين والحكومة الذاتية المحلية مما أفسح المجال، لأول مرة لآمال عراض في الرقي لجميع الأحرار، وفوق كل شيء في الدفاع الفعال عن الحدود والأحتفاظ بسلام عالمي، أن طبيعة المذهب الأمبراطوري الحقة تتكشف. أن المؤرخين العظيمين اللذين «عنيا بشرح روما للعالم الحديث» يظهران اتفاقا في حكمهما، يسترعى البال. وقد لخص جبون وهو يكتب في النصف الأخير من القرن الثامن عشر نظرته الشاملة على دولة العالم الروماني في القرن الثاني بعد الميلاد في هذه الألفاظ التي يلم بها الناس تمام الإلمام. «لو أن امراء طلب إليه أن يحدد حقبة في تاريخ العالم، كان الجنس البشري في خلالها في أعظم حالة من السعادة والرخاء فإنه دون تردد كان ليذكر تلك التي وقعت بين موت

([1]) **Aen**: ٦، ٣٠٥- ١٤ (ترجمة مكيل).

دميطيان إلى اعتلاء كومودس Commodus ([1]) العرش. وكان يحكم رقعة الأمبراطورية الرومانية الفسيحة سلطة مطلقة تسير على هدى الفضيلة والحكمة. وكانت تكبح جماح الجيوش يد رفيقة قوية لأربعة أباطرة متعاقبين، استرعت خصالهم وسلطتهم احتراما يجيء عفوا. وقد حافظ على شكول الإدارة المدنية محافظة دقيقة، ناروا وطريان وهدربان والأنطونيون الذين كانوا يبتهجون بمرأى صورة الحرية ويسرون بأن يعتبروا أنفسهم خدام القوانين المسئولين»([2]).

وقد صنف مؤلف جبون أصلا من سجلات أدبية. ومنذ أن وضع مصنفه، كشف تقدم البحث التاريخي عن مقدار عظيم متباين من الكتابات ([3]) المعاصرة. وبعد قرن من نشر «التدهور والسقوط Decline and Fall جمع ثيودور ممسن Theodor Mommsen احصاءا شاملا لهذه المواد الجدد في كتابه عن الأقاليم الرومانية في عهد الأمبراطورية. وحكمه، ولو أنه أكثر حذرا في تعبيره، يحمل نفس المعنى الذي انطوى عليه حكم جبون».

«وحتى الآن، توجد أقاليم متنوعة في الشرق، كما في الغرب، تبلغ الحقبة الأمبراطورية بالنسبة لها الذروة في الحكم الصالح، وهو متواضع في ذاته، ولكن مع هذا لم يتح الوصول إليه من قبل أو من بعد. ولو أن ملاكا من لدن الرب، كان ليقيم الميزان عما إذا كانت الممتلكات التي كان يحكمها ساورس أنطونينس Sevcrus Antoninus كانت تحكم في ذكاء أعظم وإنسانية أعظم في ذلك الوقت، أو في زمننا الحاضر وعما إذا كانت المدنية والرخاء القومي على وجه عام قد تقدما منذ ذلك الحين أو تأخرا، فإنه من المشطوك فيه جدا أن يجيء القرار في صالح الحاضر»([4]).

إلى أي مدى يصدق هذا الحكم؟ يجب أن تواجه المسألة إذا كنا لنقيس قدر عمل روما في التاريخ أو القوات الجدد التي اقتحمت سيادتها وأستولت على ميراثها. ويجب ألا ندع بصرنا يعمه عظم قوتها واستطالة زمنها، أو ننسى أن حكم التاريخ يصدر دائما على نوع العمل الجليل أكثر مما يكون على كمه، وإنا إذا وجهنا عقولنا إلى هذا، فإنه يشق علينا أن نقبل أقوال جبون وممسن دون تحفظ. أن حكمهما صادق، إذا كنا نعني بالسعادة الراحة المادية وإذا اعتبرنا الصالح

([1]) ٩٦– ١٨٠ ميلادية.

([2]) «التدهور والسقوط» فصل ٣.

([3]) وقد استخدم جبون أيضاً السجلات التي جمعتها «أكاديمية النقوش الفرنسية Académie des Inscriptions»

([4]) أقاليم الأمبراطوريية الرومانية– تمهيد.

الاقتصادي وإقامة النظام الاجتماعي معاييرنا للمدنية. أنه من السهل أن نفهم كيف أنه بعد قرون من الصراع العام والألم الخاص، كان مجيء سلام عالمي تحت حمى القياصرة يظهر لشعراء روما في عهد أوغسطس كأنه فجر عصر ذهبي ([1]). أن الدولة الرومانية أدركت المثل الأعلى لحكومة أبوية في درجة لا يقدم التاريخ مثيلا لها إلا حكم بريطانيا الهند ومصر ([2]) حتى الأزمن الحديثة. وإذا كانت الحكومة الأبوية هي منتهى ما تصل إليه المدنية، فإن سقوط تلك الأمبراطورية في القرون التي تعاقبت كان أكثر الحادثات مجلبة للحزن في حوليات البشر. لقد كان الشعراء يحلمون بأن روما ستبقى أبد الدهر وهي حقيقة التدهور والسقوط القاسية، لم تجد نفعاً في تبديد الخدعة. ومع هذا ففي ساعة قيامها كان يوجد داخل الأمبراطورية ذلك الذي كان ينبيء بانحلالها. ما كان يمكن لحكومة استبدادية بيروقراطية، مع كل ما فيها من أمانة واستنارة أن تثير استجابة حية من الشعوب المحكومة التي كانت تحصد منافعها. أن روح الإنسان تصبو ليس إلى الراحة ولكن إلى الحرية وليس للاستقرار الاقتصادي أو الإدارة العادلة ولكن إلى الحق في أن تجد السبيل إلى خلاصها ملاقية في ذلك ما لا نهاية له من نصب ورزاي. ورغبتها في كل العصور ليس في السعادة ولكن في الحياة. وفي تكوين الحكومة الرومانية الهائل، كان الناس يدركون فقط الحمل الساحق وانتظروا في جمود أخرس، ساعة انقاذهم، لقد كانوا دمي في يد القدر المتعالي الذي لا يتسامح، الذي كان يجثم على حظوظ العالم ([3]). وكانت روما عاجزة مع كل ما لها من جلال قوة، على أن تعيد الانتعاش للشعوب التي دانت لحكمها. لم تقدم لهم أية «دعوة»، في استطاعتها أن تحرك قلوب الناس للقيام بجهد من جانبهم، فيه أمل صالح لتحقيق مظفر كالذي تقدمه المسيحية(أو الشيوعية) إلى العالم الحديث ([4]). ان ينابيع الحياة كانت في مكان آخر، في جحافل التيوتون الجامحة التي كانت الآن تعمل في الحدود ضربا وفي العقيدة الجديدة التي كان مولدها في عهد أوغسطس بين شعب محتقر من الشرق وقدر لها قبل مضي كبير زمن أن تهز بنيان المدنية الإغريقية من أساسها هزا.

([1]) مثل Aen: ١، ٢٩٥ و٦، ٧٩١– ٢.

([2]) هذا رأي المؤلف نورده وإن كنا كمصريين لا نقره فيما ذهب إليه من مثالية حكم الإنجليز لبلادنا (المترجم).

([3]) وازن قول نابوليون «أن السياسة هي القدر». عن استحالة عاطفة ولاء فعالة، نحو الأمبراطورية راجع ريفس: «أوربا العصور الوسطى» الصفحتين ١٩ و٢٠.

([4])راجع بيفان في «العصر الهليني» (الصفحات ٩٨ وما يليها)، عن عدوم وجود «دعاوي» في عصره وكيف أن المسيحية قدمت «دعوة».

المعرفة حق لكل مواطن وليس للمعرفة سقف ولا حدود ولا موعد تبدأ عنده أو تنتهي إليه.. هكذا تواصل مكتبة الأسرة عامها السادس وتستمر في تقديم أزهار المعرفة للجميع. للطفل للشاب– للأسرة كلها. تجربة مصرية خالصة يعم فيضها ويشع نورها عبر الدنيا ويشهد لها العالم بالخصوصية ومازال الحلم يخطو ويكبر ويتعاظم ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة لكل أسرة.. وأني لأرى ثمار هذه التجربة يانعة مزدهرة تشهد بأن مصر كانت وما زالت وستظل وطن الفكر المتحرر والفن المبدع والحضارة المتجددة.

الفهرس